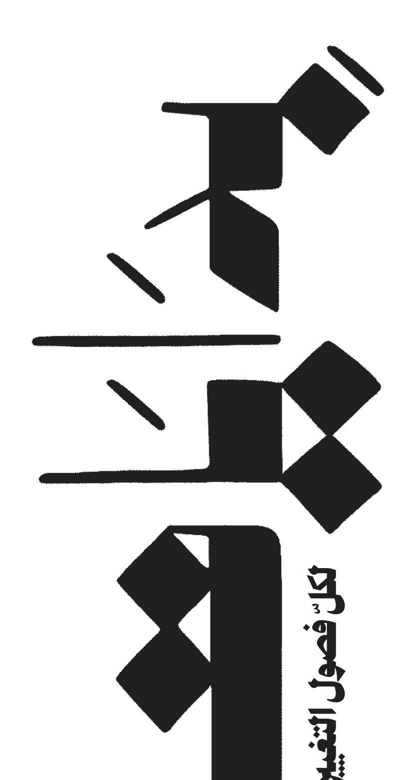
بدايات

فصلية ثقافية فكرية
العدد ٣٦ ◆ ٢٠٢٢

تختم سنتها العاشرة



بدايات
فصلية ثقافية فكرية
فلسطين
الآن الآن ... وغداً
الثورات في المرحلة الانتقالية
الثورات شبابها
عبد الرحمن منيف
وشبح متعب الهذال
ادوارد سعيد
هذا المجهول
مصر
الثورة
لا عسكر
ولا اخوان
سايكس بيكو
على شريعتي
دييغو ريفيرا
إسلاميون خارج السرب
باسم الدين سرقونا!
الحراك المدني في العراق ولبنان
اليمن
في عين
العاصفة
جون برجر
العمارة والرواية
حوارية بيروت



فصلية ثقافية فكرية

العدد ٣٦ • ٢٠٢٢

بدايات

رئيس التحرير: فواز طرابلسي
تحرير وترويج: زينب سرور
إشراف فني: جنى طرابلسي
إدارة فنية: خاجاگ أبيليان
تصميم وإخراج: فيليبا دحروج
أبحاث الصور والرسوم: آلاء منصور
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: حسّان الزين

تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد ٥٧٤٨/١٣
شوران، بيروت — لبنان
التوزيع: الأوائل لتوزيع الصحف والمجلات، بيروت، لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

صدر هذا العدد من «بدايات» بالشراكة مع مؤسسة روزا لوكسمبرغ، مكتب بيروت.

Sponsored by the Rosa Luxemburg Stiftung with funds of the Federal Ministry for Economic Cooperation and Development of the Federal Republic of Germany.

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
BEIRUT OFFICE
مؤسسة روزا لوكسمبورغ مكتب بيروت



المحتويات

العدد ٣٦ ◆ ٢٠٢٢













كي لا ننسى بيروت ١٩٨٢












«بدايات» تختتم عيدها العاشر وتعلّق الصدور مؤقتًا

فواز طرابلسي

بهذا العدد تختتم مجلة «بدايات» عامها العاشر.

مطلع الانتفاضات العربية، التقى أربعة رفاق من مناضلي اليسار في لبنان - زهير رحّال وغسان عيسى والراحل سليمان تقي الدين وكاتب هذه السطور. واتفقوا على إطلاق فصلية فكرية- ثقافية تشكل منبرًا للإنتاج والتفاعل على طريق إعادة تأسيس وتوحيد اليسار اللبناني بما يرقى إلى مستوى التحديات التي فرضها انهيار الكتلة السوفياتية ودخول المنطقة العربية عصر العولمة النيوليبرالية وخروج لبنان من الحرب الأهلية. وقد رأوا في الانتفاضات العربية فرصة لا تعوّض أمام اليسار لكي يبلور رؤاه ويعيد تأسيس قواه ويجدّد صلته بقواعده الاجتماعية.

انطلقت المغامرة بصدور العدد الأول في أيار/ مايو ٢٠١٢ تحت شعار «بدايات لكل فصول التغيير». عهد المؤسسون رئاسةَ تحرير المجلة إلى كاتب هذه السطور.

كنا مقتنعين بأنه لا يزال يوجد مكان لمجلة فصلية ورقية تطمح إلى الانتشار العربي وتعيد الاعتبار للمجهود الفكري والثقافي غير المحكوم بالزائل والمتسرّع، يحدوها القلق والجهد لإنتاج المعارف، كما أعلنّا في تقديم العدد الأول. وقد التقطنا ما نبّهت إليه الانتفاضات الشعبية من تلازم بين الاقتصاديات النيوليبرالية والأنظمة الاستبدادية العربية فعُنينا بإفساح المجال واسعًا لدراسة وقع النيوليبرالية وثقافة الاستهلاك على المجتمع والدولة والسياسة والثقافة في لبنان والعالم العربي. وفي الآن ذاته، أولينا أهمية خاصة للتعرّف إلى تجارب ونضالات شعوب «الجنوب الكوني» وحركاتها الاجتماعية والنقابية والسياسية في هذا العصر الجديد.

تعددت أقسام المجلة وتنوعت من القسم النظري إلى المتابعة الحدثية. وقد أولينا عناية خاصة لمهمّتين صحافيّتين: تعريب الأعمال الجادة والنقدية من الإنتاج المعرفي عن المنطقة العربية الصادرة عبر العالم؛ وتنمية ثقافة العين والذائقة البصرية، في سعي إلى أن تكون المجلة أيضًا مختبرًا للابتكار الفني والتشكيلي.

*****

أفردت «بدايات» أكثر من عشرة أعداد للانتفاضات العربية في موجتها الأولى (٢٠١١-) والثانية (٢٠١٩-). وقد تعددت المساهمات والمقاربات وتنوعت من حيث التوثيق والتحليل والشهادة والتعبير الفني والغرافيكي والأدبي. لكنها ظلّت دائمة السعي إلى إثارة النقاش والتقييم واستخلاص الدروس. نشرنا أكثر من عدد خاص وملف عن مقاومة الشعب الفلسطيني والنزاع العربي الإسرائيلي. وفي قسم الذاكرة، أفردنا أعدادًا خاصةً لاتفاقية «سايكس - بيكو» ١٩١٦، ومئوية تأسيس لبنان ١٩٢٠ ومئوية الثورة الروسية ١٩١٧، وغيرها. وفي الفكر والنظرية نشرنا ملفات لأعمال كارل ماركس وروزا لوكسمبورغ ولنتاج المفكرين الإسلاميين علي شريعتي ومحمود طالقاني ومحمود محمد طه، وخصصنا ثلاثة أعداد لنشر أبحاث ودراسات وتحليلات مستفيضة عن النيوليبرالية ومجتمع الاستهلاك في لبنان والمنطقة.

إلى هذا، عُنينا بافتتاح وتغذية أقسام ليست مألوفة في الصحافة الثقافية: «الحق في المدينة» للعمارة وتوابعها، و«ثقافة الناس للناس» للثقافة الشعبية، و«نهوند» للموسيقى العربية. في قسم «نون والقلم» نشرنا ملفات عن عبد الرحمن منيف وإدوارد سعيد وجون برجر، وكانت أعمال إتيل عدنان حاضرة في معظم الأعداد. وفي قسم «يا عين» خصصنا ملفات ودراسات لكل من دييغو ريفيرا وأمين الباشا اللبناني.

ولعلّ المجالات التي لم نفها حقها أو كان التقصير فيها واضحًا هي الدراسات الشبابية والنسوية والمواد

الصحافية المشغولة وخصوصًا المقابلات والندوات. وهذا على سبيل الاختصار.

لم تخلُ مسيرة المجلة من العقبات والعوائق. فهي لا تزال ممنوعة في العربية السعودية ودول الخليج وسورية. توقّف توزيعها في اليمن بسبب الحرب. وبعد أكثر من سنة من طبعها وتوزيعها في مصر، بما هي كتاب غير دوري يصدر عن «دار المرايا»، منعتها السلطات بصفتها «مطبوعة أجنبية»! ومؤخرًا، طلب الموزّع في تونس وقف إرسال المجلة لأسباب لم يفصح عنها. بالرغم من ذلك، لا تزال المجلة توزّع تجاريًّا في لبنان والعراق والأردن وبواسطة «مؤسسة محمد بن سعيد آية إدير» اليسارية الثقافية في المغرب، ولها حضور منتظم في عدد من المكتبات في لبنان وألمانيا وبلجيكا وفي جميع معارض الكتب العربية في أجنحة «دار المتوسط» و«دار رياض الريّس» و«دار صنوبر بيروت». وغنيّ عن القول إن عائدات المبيع والاشتراك على امتداد تلك السنين بقيت أشبه بعائدات رمزية قياسًا إلى المصاريف.

موّلنا السنوات الأولى بواسطة البقية الباقية من ميزانية نادي «اللقاء» الذي كان يترأسه الرفيق غسان عيسى ومن تبرّعات عدد من الأصدقاء، لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة، رعوا المجلة ودعموها منذ البداية وبقدر من الانتظام ولم يشاؤوا ذكر أسمائهم. تلقينا أول مساعدة مالية بقيمة ٢٥ ألف دولار من «المبادرة العربية للإصلاح»؛ ثم أمّنت مؤسسة «هنريش بول» صدور بضعة أعداد؛ واستقر التمويل وانتظم من خلال شراكة «بدايات» مع «مؤسسة روزا لوكسمبورغ» خلال السنوات الأربع الأخيرة.

للجميع جزيل الشكر على الدعم وعلى علاقات ميسّرة احترمت استقلال المجلة وحرية خطها وقراراتها.

وقفنا خلال العام المنصرم أمام تجربة الصدور والمستقبل. ولم يقتصر الأمر على ختام السنة العاشرة فقد قررت «مؤسسة روزا لوكسمبورغ» خفض مساعدتها المالية من ١٢٠ ألفًا إلى ٧٠ ألف يورو سنويًّا، من ضمن خفضٍ طاول كامل موازنتها. هكذا اضطررنا إلى الاقتصار على الصدور ثلاث مرات بدل الأربع لهذا العام وخفض علاوات العاملين جميعًا بنسبة أربعين في المئة وتقليص موازنتَي الطباعة والترجمة. فبات بديهيًّا أنّ مثل ذلك المورد المحدود لن يسمح بالاستمرار ونحن لم نوفَّق بعد بمصدر دعم إضافي.

إلى هذا نضيف اعتبارات جديدة تتعلق باستئناف الصدور عندما يكون ممكنًا. فقد شهدت السنوات الأخيرة تطورًا في سمعة المجلة والإقبال عليها، ما يعني أنّ أيّ بحث في الصدور من جديد يستوجب ميزانية من نوع جديد تضمن تعزيز فريق المجلة من حيث العنصر البشري ورفع ميزانية النشر والترجمة. والأهم اتخاذ قرار بالتعويض عن أتعاب الكتّاب. ثم إنّ تلبية الطلب المتزايد على المجلة يتطلّب دخول الأسواق عن طريق شركات التوزيع ومضاعفة الكمية المطبوعة والتحسّب لأسعار شحن وبريد شاهقة بسبب ارتفاع الأسعار العام في لبنان.

بناءً على كل هذا، اتخذنا القرار المؤلم بتعليق صدور المجلة خلال العام المقبل والبحث عن مصادر تمويل لسد متطلبات النقلة الضرورية المذكورة أعلاه. ونحن هنا أمام خيارات ثلاثة: تطوير إنتاج المجلة الورقية؛ البحث في الانتقال إلى الصحافية الرقمية؛ وفي حال عدم التوفّق في الحالتين، اختتام عقد من هذه المغامرة، غير آسفين إلا على عدم التمكن من متابعتها.

*****

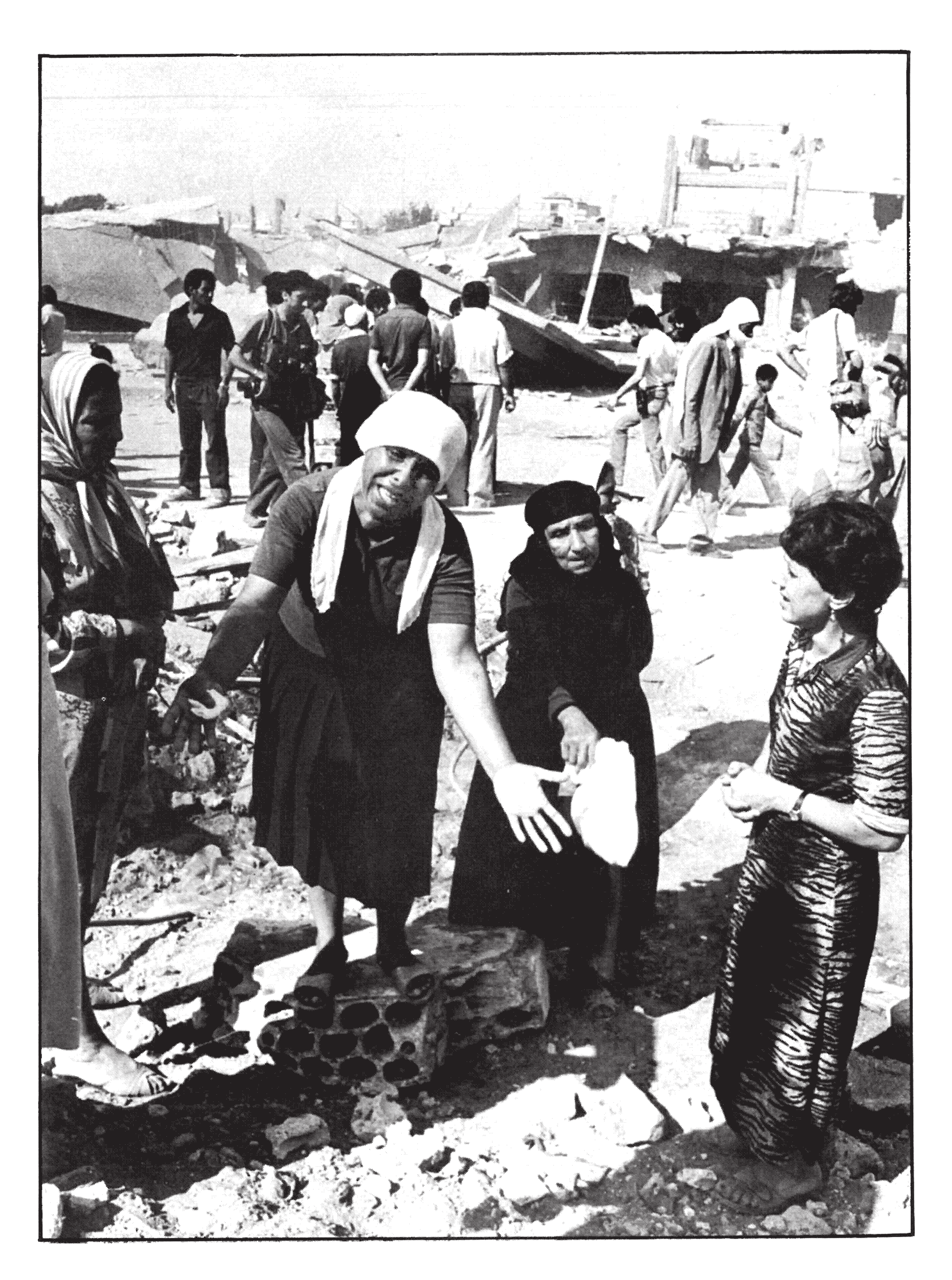
حظيت «بدايات» منذ البداية بفريق تحرير متعاون ومتضامن جمع الموهبة إلى الاحتراف وضمّ الزميلات والزملاء جنى طرابلسي وخاجاك آبليان وفيليبا دحروج وآلاء منصور للإدارة الفنية والإخراج، وزينب سرور للتحرير، وأيمن سنّو للتدقيق اللغوي، ونوال عبود طرابلسي للإدارة وعدنان نجّار للمالية وعماد زكي للتوزيع، ومنصور عزيز للموقع الالكتروني. إلى جانب هذا الفريق، نشطت «أسرة تحرير الظل» التي ضمّت ميسون سكّرية وسينثيا كريشاتي ورشا السلطي وأكرم الريّس في مجال طرح الأفكار واقتراح المواضيع ودعوة الكتّاب والمساهمة المباشرة في التخطيط والكتابة. لهنّ وله المحبة والامتنان العميق.

شكر خاص للصديق حسّان الزين الذي يتحمل مسؤولية المدير المسؤول تجاه الدولة. ولفتة إلى ديما شريف وجمانة فرحات اللّتين رافقتانا في سكرتاريا التحرير خلال سنوات.

ولم يكن لهذه المجلة أن تستمر من دون عشرات الكاتبات والكتّاب الذين غذّوها بنتاجهم التطوعي، علمًا أنّ كثرتهم تعتمد على الكتابة لتحصيل المعيشة. لهم الشكر من القلب باسمي واسم فريق التحرير.

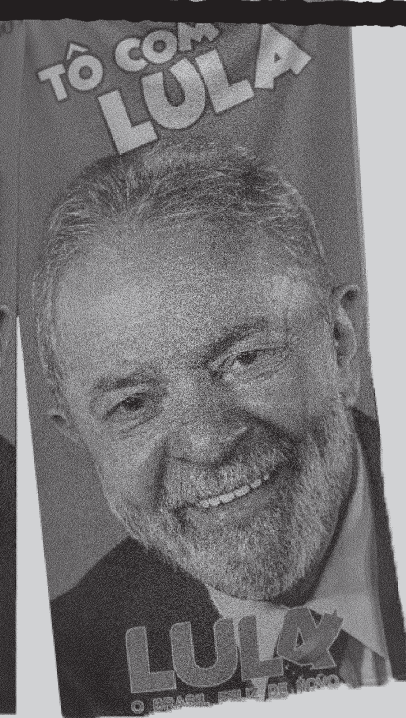
وأودّ أن أشكر أيضًا أعضاء «مجلس التحرير الاستشاري» لدعمهم المعنوي وأقدّم لهم الاعتذار لعدم تمكننا من تنظيم التواصل معهم بسبب نقص الإمكانات والوقت.

لقد عاشت «بدايات» طوال تلك السنوات على عوامل عديدة لا تكتسب معنًى لها لولا الأمل. فعلى أمل أن نجد ما يكفي من الأمل الكافي لتحقيق النقلة الصحافية الجديدة. وإلا فعلى أمل أن نلتقي في مواسم تغيير جديدة.




من باب أولى


PT
CALMA, PESSOAL
BOLSONARO
LULA
1
15


Tô COM LULA
LULA
O BRASIL FELIZ DE NOVO



لُولا، رجل لكل الفصول

بول الأشقر

صحافي، لبنان

الموجة اليسارية الأولى التي بدأت بانتخاب هوغو تشافيز عام ١٩٩٩ والتي اجتاحت تقريبًا كافة دول أميركا الجنوبية (باستثناء كولومبيا والبيرو) كردّ على نتائج السياسات النيوليبرالية، أخذت معنى تأسيسيًّا لتؤكد أن الحديقة الخلفية للولايات المتحدة لم تعد كذلك. ربما بعكسها، تأخذ الموجة اليسارية الثانية (هذه المرة مع كولومبيا والبيرو ولكن من دون الإكوادور وباراغواي وأوروغواي)، التي نعيش أحداثها منذ سنوات، طابعًا يقرّبها من ظاهرة طبيعية في الديموقراطيات الراسخة ويجعلها تنتمي أكثر إلى عملية تداول السلطة. غير أن انتخاب لويس إيناسيو دا سيلفا، المعروف بـ«لولا» في الانتخابات الرئاسية التي جرت في أكتوبر/تشرين الأول الماضي هو أكثر من تداول طبيعي للسلطة لأنه يمثل إنقاذًا للديموقراطية وعودةً للبرازيل إلى ساحة العلاقات الدولية.

انتظر العالم نتائج انتخابات البرازيل بقلق وبشعور فطري بأن شيئًا أساسيًّا يجري هناك، أبعد من السياسة أو من فوز تيار تؤيّده أو لا، بل بوعي أنّ ما هو على المحكّ، هو بمعنًى ما، انتماؤنا إلى الحضارة أو عودتنا إلى الهمجية أو، أقلّه، التقهقر إلى لعبة سياسية متفلّتة من أي قانون ومنطق. تنفّس العالم الصعداء - كما حصل بعد فشل دونالد ترامب في تجديد ولايته قبل سنتين - عندما استقرت النتيجة على فوز لولا، ولو بفارق ضيّق، على حساب خصمه جايير بولسونارو. بعد الانتكاسة في السويد وإيطاليا، أثبتت البرازيل أن من الممكن وقف صعود اليمين المتطرف، ولو بصعوبة. لهذا البحث في «بدايات» عن الانتخابات البرازيلية جزءان: يرسم الجزء الأول «صورة شخصية» لظاهرة لولا، أهم سياسي في البرازيل بدون منازع منذ عودة الديموقراطية في أواسط الثمانينيات وانتهاء الحكم العسكري، وربما الأهم في كل تاريخها. أما الجزء الثاني فيتناول تحليلًا لنتائج الانتخابات ويتوقّف عند ما تمثله ظاهرتا الـ«لوليّة» والـ«بولسوناريّة» في أكبر ديموقراطية بأميركا الجنوبية.

١- سيرة رجل قارَع القدر

الطفل وماسح الأحذية

ولد لويس إيناسيو دا سيلفا عام ١٩٤٥ في بيت من الطين من غرفتين، من دون ماء وكهرباء وحمّام، في الأرياف الفقيرة والجافة لولاية برنامبوكو، شمال شرق البرازيل حيث المجاعة واقع عادي في حياة الأطفال. وهو السابع بين ثمانية أولاد (توفّي أربعة آخرون) لوالدَين أمّيّين يعملان في الأرض. قبل شهرين من ولادته، غادر والده أريستيدس ضيعته باتجاه مرفأ سانتوس في ولاية سان باولو على بعد أكثر من ٢٥٠٠ كلم، وهربت معه سرًّا ابنة عمّ زوجته التي كانت تعيش معهم وكانت حبلى منه والتي ستنجب له عشرة أولاد إضافيين. الرجل قوي القامة، وفي سانتوس عمل حمّالًا في المرفأ حيث كان ينقل أكياس القهوة من على البواخر.

من وقت إلى آخر، كان أريستيدس يرسل بعض النقود إلى عائلته الأولى التي زارها عام ١٩٥٠، مغتنمًا الفرصة ليعرّفهم إلى أولاده الثلاثة الجدد من امرأته الثانية وليتعرّف إلى ابنه لولا. قبل أن يغادر، حبّل أم لولا، المعروفة بدونّا ليندو، وهي أصرّت عليه أن يأخذ معه إلى سانتوس ابنهما البكر جايمي، وهكذا صار. نهاية عام ١٩٥٢، تلقّت دونا ليندو رسالة من زوجها يأمرها فيها بأن تبيع كل ما تمتلكه وأن تلتحق به مع الأولاد في سانتوس. للحقيقة، لم يكن هذا طلب الأب، الذي لم يكن يتقن القراءة والكتابة، بل كانت حيلة من ابنها جايمي الذي يدوّن رسائل الأب، وقد أراد ان تلتحق به أمه مع أشقائه وشقيقاته ليخفّفوا قليلًا من صعوبة الحياة مع الوالد الذي كان يعنّفه باستمرار. وهكذا انتقلت دونّا ليندو مع أولادها السبعة في سفر دام خمسة عشر يومًا في عربة مسيّجة بالقضبان تصلح لنقل الطيور والمواشي (اسمها «قفص الببغاء») ويلجأ إليها مهاجرو الأرياف بحثًا عن حياة أفضل في جنوب البرازيل. عند

وصول العائلة إلى سانتوس، اكتشفت أن الأب لم يكن مرحّبًا بهم. وبعد السكن فترة وجيزة في بيت واحد، انتقل أفراد الأسرة إلى كوخ قريب حيث كان أبوهم يمرّ عليهم يوميًا. لم يكن يتعاطى الوالد بحنان مع أولاده بل كان يعنّفهم بسبب أو بدونه، ولا يريدهم أن يتعلموا بل أن يعملوا. في المقابل، أصرّت دونا ليندو على أن يتعلم أولادها فك الأحرف. وهكذا، دخل لولا المدرسة الابتدائية في سانتوس، الأمر الذي لم يمنعه من أن يجمع قشور الفاكهة في الشارع وأن يمسح أحذية المارّة وهو بعد في الثامنة من العمر، أو أن يصطاد بلح البحر والسلاطعين ليبيعها عندما يذهب مع شقيقه الأكبر إلى النهر كي يملأ جرّات المياه وينقلها إلى البيت.

المخرطجي والنقابي

بعد أول مرةٍ رفع الوالد يده عليها، عام ١٩٥٥، قررت دونا ليندو الانتقال إلى حي فقير في ضاحية سان باولو، ولم يعد لولا يرى والده إلا في مناسبات نادرة. كان في سن الثانية عشرة عندما عمل في مصبغة ثم في مكتب ثم توظّف في معمل صغيرٍ للمعادن. في سن السادسة عشرة، سنحت له فرصة أن يتعلّم مهنة «المخرطجي» في مركز للتعليم المهني حيث كان يقسّم الوقت بين العمل صباحًا والدرس بعد الظهر. وبعد سنتين ونصف السنة على هذا النمط، حصل على شهادة «مخرطجي». يقول لولا عن الشهادة «هي أفضل شيء حصل في حياتي، فبسببها صرت أول ابن لأمي لديه مهنة ويربح أكثر من الحد الأدنى للأجور ولديه بيت وسيارة وجهاز تلفزة وبرّاد». ثم انتقل إلى معمل أكبر عندما لم يحصل على زيادة في الراتب. وهناك فقَد خنصر يده اليسرى في آلة خراطة، وأُجبر على بتره. عمل في هذا المعمل خلال عامَي ١٩٦٤ و١٩٦٥ قبل أن يُطرد لأنه لم يذهب مرةً واحدةً إلى العمل يوم سبت، وبقي حوالي عام ونصف العام عاطلًا من العمل قبل أن يجد وظيفة في أحد أكبر معامل المعادن في مدينة سان برناردو التي ستتحول إلى مقرّ إقامته الدائم في ضواحي سان باولو.

هنا تلقّى لولا أجرًا أعلى بكثير ممّا كان يتلقاه من قبل. وبقي مرتبطًا بهذا المعمل حتى عام ١٩٨٠. عام ١٩٦٤، عندما دشّن العسكرُ البرازيليون حقبةَ الانقلابات، لم يكن لولا مسيّسًا بعد ولم يفهم ما الذي حدث ولم يعترض عليه. عام ١٩٦٨ انتسب إلى النقابة مراعاةً لشقيقه فري شيكو، أي القسّ شيكو، وهو عضو في الحزب الشيوعي أجبر لولا على الترشح على لائحة نقابية فحلّ في المرتبة الـ١٩ من أصل ٢٥. تسلّم مسؤولية الملفات القانونية وبرع بقدرته على التفاوض والتوفيق بين مصالح مختلفة. عام ١٩٧١، انتُخب أمينًا عامًّا للنقابة التي فرّغته، وتوقف عن العمل بعد هذا التاريخ. حاول الشيوعيون إدخاله إلى الحزب لكنه لم يرغب في ذلك، ما أثار اهتمام حاكم سان باولو والنظام العسكري اللذين كانا يبحثان عن قيادات نقابية ذات مصداقية لمنافسة الشيوعيين.

تزوج لولا للمرة الثانية عام ١٩٧٤، ثم انتخب رئيسًا للنقابة عامَي ١٩٧٥ و١٩٧٨ من دون معارضة، وبدأ ينظّم مع رفاقه حملات مطلبية لزيادة الأجور تحولت إلى إضرابات كبيرة توقف فيها عن العمل ٢٣٥ ألف عامل عام ١٩٧٨ وأكثر من ٦٠٠ معمل عام ١٩٧٩. وفي أول أيار/مايو التالي، نجح في جمع حوالي مئة ألف من المضربين مع عِيلهم في ملعب لكرة القدم، وتوّجت التحركات بزيادات في الأجور أكبر مما كان متوقعًا، فَرَاج صيته في كل البلد وخارجها حيث قورن بليش فالبسا البولوني. وهنا تدخلت السلطة القضائية وحلّت النقابة واعتقلته خلال ٣١ يومًا – توفّيت والدته خلالها – ثم حكمته بالسجن لثلاث سنوات قبل أن يستأنف محاموه الحكم وتتم تبرئته.

الحزبي واليساري

حلّ الانقلاب العسكري الأحزاب السياسية، وبعد فترة، أعادت الديكتاتورية البرازيلية – التي كانت أذكى بكثير وأرحم إلى حدّ ما من شقيقتَيها الأرجنتينية والتشيلية – الحياةَ السياسية بتنظيمها بين حزبين، حزب الموالاة وحزب المعارضة. ومع الوقت، أخذ يقوى عود الحزب المعارض وينظّف صفوفه من العناصر التي زرعتها الديكتاتورية داخله. وعام ١٩٧٩ عندما صارت المعارضة تهدد بالفوز في الانتخابات، عاد النظام وسمح بتشكيل الأحزاب لتفتيت صفوف المعارضة. في هذا الإطار، تم تأسيس «حزب الشغيلة» في سان باولو عام ١٩٨٠، وهو عبارة عن ائتلاف تيارات غير متجانسة من مناضلين ضد النظام العسكري، تميزت بينهم تيارات مسيحية قريبة من «لاهوت التحرير»، ومجموعات تروتسكية صغيرة، ومثقفون وفنانون، وكوادر عمالية تجمّعت في نقابات مستقلة عن النقابات الحكومية، بالإضافة إلى النقابات التي يسيطر عليها الحزب الشيوعي. ومنذ ولادته، تبنّى «حزب الشغيلة» توليفة فكرية اعتمدت الاشتراكية والديموقراطية، بعيداً عن النموذجين السائدين في اليسار، السوفييتي (الحزب الشيوعي البرازيلي) والصيني (الحزب الشيوعي في البرازيل) وانتُخب لولا أول رئيس للحزب الناشئ. منذ تأسيسه، عرف «حزب الشغيلة» عشرة رؤساء مع أن لولا كان دائمًا أهم قياداته التاريخية من دون منازع.

عام ١٩٨٥، نجح «حزب الشغيلة» في الفوز بفورتاليزا، عاصمة ولاية السيارا Ceara الشمالية الشرقية، وكانت



مرشحته أول امرأة تصل إلى سدّة بلدية عاصمة الولاية. لم تكن التجربة موفّقة، لكنها كانت باكورة انتصارات متتالية في كافة ولايات البرازيل من شمالها إلى جنوبها، نجح الحزب خلالها في إيصال نواب وشيوخ لمناصب حكام ولايات وعُمد بلديات. وبدأت مسيرة بناء حزب سياسي يساري في بلد هو أقرب لقارّة، ودخل الحزب تدريجيًا في كافة ولايات البرازيل وكل العواصم فحكم أكثريتها وخسر بعضها، وأعطى للولا وجوهًا متكاملةً لم تتوافر عند سياسي آخر تحكمه الخصوصيات المناطقية. في أول انتخابات تأسيسية بعد انتهاء الديكتاتورية العسكرية عام ١٩٨٦، نجح «حزب الشغيلة» في إيصال ١٦ نائبًا إلى المجلس التأسيسي ومنهم لولا، الحائز على أعلى نسبة اقتراع. ومنذ عام ٢٠٠٢ صارت كتلة «حزب الشغيلة» (الـ«بي تي» PT كما يسمّى في البرازيل) البرلمانية دائمًا الأولى أو الثانية في مجلس النواب. يضم «حزب الشغيلة» أكثر من مليون ونصف مليون عضو، ويُعتبر من أكبر الأحزاب اليسارية في العالم (كان أول مضيف في مدينة بورتو أليغري Porto Alegre الجنوبية للمنتدى الاجتماعي العالمي) والذي من دونه لما كان لولا ما كان عليه ولا وصل إلى ما وصل إليه.

يضم «حزب الشغيلة» أكثر من مليون ونصف مليون عضو، ويُعتبر من أكبر الأحزاب اليسارية في العالم

المرشح والرئيس

تحدّى الطفل الجائع والمخرطجي النقابي كلّ عوائق القدَر ليعرف كيف يطرق باب نادي الرؤساء في البرازيل المحصور بالنخب المالية، وخصوصًا ليدخله مرةً أولى ثم ثانية، وها هو قد دخله في الثالثة. احتل لولا الرئاسة لأول مرة عام ٢٠٠٢ وكان مختلفًا تمامًا عن لولا الذي كاد أن يحتلّها عام ١٩٨٩ (٤٧٪ من الأصوات) لو لم تتكتل ضده كل قوى المال والإعلام. وقتها، تخطى قائد اليسار التقليدي ليونيل بريزولا الذي حاول في الستينيات أن يقاوم الانقلاب العسكري وترسخ نهائيًا كأول اليساريين. عامي ١٩٩٤ و١٩٩٨، ومع أنه حلّ ثانيًا أيضًا لم تكن لدى لولا فرصة حقيقية عندما واجه صديقه أستاذ علم الاجتماع فرناندو هنريكي كاردوزو، وزير المالية عند إقرار الخطة ريال (بلانو ريال) التي نجحت في القضاء على التضخم اليومي الذي كان يدمّر حياة المحرومين، فسمحت بتحقيق شيء من الاستقرار في الاقتصاد المتخبط. عام ١٩٩٤، حصل لولا على ٢٧٪ من الأصوات ونجح كاردوزو من الدورة الأولى، وشُرِّع في عهده التجديد لمرة واحدة. وعام ١٩٩٨ حصل لولا على ٣٢٪ من الأصوات لكن فاز كاردوزو من الدورة الأولى أيضًا. بعد المحاولات الثلاث، اعتبر لولا أنه يكفي، وأن الوقت قد حان لكي يتحمل غيره هذه المسؤولية. إلا أن تدنّي شعبية كاردوزو وضغط رفاقه المتزايد عليه تجاوزا تحفّظاته فترشّح عام ٢٠٠٢ تحت شعار «لولا السلام والمحبة» في محاولة لكسب أكثرية أصوات البرازيليين. كانت المرة الرابعة هي الثابتة، مع أن لولا وصل على أجنحة اليوتوبيا ولم يأتِ كما كان عام ١٩٨٩ ليصنع الثورة، بل ليمثّل اليسار في تداول السلطة. بالرغم من ذلك، وبالرغم من اختيار رجل أعمال لمنصب نائب الرئيس، كاد الاقتصاد أن يطير من الهلع الذي أصاب النخب المالية والأسواق العالمية، إذ ما زال في المخيلة صورة لمشروع جماعي نشأ في ضواحي سان باولو العمالية مع بداية الثمانينيات وأنتج «حزب الشغيلة».

في الواقع، الرئيس لولا الأول الذي وصل إلى السلطة عام ٢٠٠٢ بأكثر من ٦١٪ من الأصوات كان مرشح الطبقات الوسطى والطبقة العمالية في العواصم الصناعية جنوب البلاد وجنوب شرقه بعد أن نجحوا في إقناع جزء من الطبقات الفقيرة بالمخاطرة في انتخاب رئيس على شاكلتهم. بعد ولايته الأولى، لم يعد لولا الثاني الذي أعيد انتخابه عام ٢٠٠٦ بنسبة الـ٦١٪ ذاتها يثير الأحلام: صار مجرّد خيار واعٍ لتعميق السياسات العامة الاجتماعية. لولا الثاني وسيط اجتماعي بامتياز: هو مرشح الفقراء أكثر منه مرشح الطبقات الوسطى وحتى البعض ممن أخرجهم من الفقر، هو مرشّح شمال شرق البرازيل الذي زكّاه بثمانين في المئة من الأصوات فيما خسر لولا في معاقله القديمة بالجنوب. أما التهويل الاقتصادي، فلم يلاحظ انتخاب لولا الثاني؛ لا بورصات العالم تحركت ولا حتى صرّاف أصغر زاوية في البرازيل. خرج لولا من الرئاسة بأعلى نسبة تأييد عرفها سلفٌ له. وسمحت له شعبيته بأن يسهم في إيصال رئيسة جمهورية لأول مرة في تاريخ البرازيل هي ديلما روسيف – امرأة كفوءة وشجاعة لكنها لا تتمتع بكاريزما سياسية خاصة – فازت في الدورة الثانية بأكثر من ٥٦٪ من الأصوات.

من الحكم إلى البراءة

عرفت ولاية لولا الأولى أزمة سياسية كادت أن تقضي عليه وكشفت عن فساد سياسي بنيوي لم يسعَ إلى أو لم ينجح في تغييره مع وصوله إلى الرئاسة. مشكلة البرازيل أن العهود تتغير، وأكثريات الرؤساء المطلقة لا تغنيهم عن الحاجة إلى

كوكبة من الأحزاب الصغيرة لتتأمن لهم الأكثريات البرلمانية النسبية. على سبيل المثال، في أوج شعبية لولا عام ٢٠٠٢، منحه الناخبون ٦٢٪ من الأصوات ولم يعطوا لحزبه، الأكبر بين الأحزاب البرازيلية، إلا ٢٥٪ من المقاعد. والأدهى، أن الأحزاب الصغيرة نفسها التي سمحت لكاردوزو ولولا وبولسونارو بأن يحكموا، دعمت لولا وهي معروفة بأنها تقايض دعمها مقابل اقتطاعات ومراكز في هيكلية الدولة، أي نوع من المحاصصة الفاسدة والمفسِدة. وقد بيّنت تحقيقات عام ٢٠٠٥ أن عهد لولا الأول، على سبيل المثال لا الحصر، كان يشتري ولاء عدد من النواب برواتب شهرية. ولم ينقذ لولا وضعه السياسي إلا بعد استقالة وزيره الأول والرجل القوي في عهده، جوزي ديرساو، مع أنّ هذا الأخير كان أهم كوادر حزبه. لم يتورّط لولا في أي فضيحة ولكن تمت ملامته لأنه لم يتصدّ لهذه الممارسات من حوله ولأنه تأقلم مع ممارسات هذه الأحزاب التي تحول دون القيام بالإصلاح السياسي الضروري. خلال عهد ديلما روسيف، ارتُكبت أخطاء اقتصادية جسيمة تقاطعت مع انكماش اقتصادي عميق بما أدّى إلى تظاهرات سياسية عارمة وصاخبة، بدأت ضد غلاء أسعار النقل وتطورت وصولاً إلى إجراء كأس العالم. أدّت كل هذه العناصر إلى انهيار في شعبية الرئيسة روسيف من دون أن يمنع إعادةَ انتخابها عام ٢٠١٤ بفارق ضئيل (٥١,٥٪)، الأمر الذي ضاعف من حدّة التوتر السياسي في البلد.

خلال عهد روسيف، ارتُكبت أخطاء اقتصادية جسيمة تقاطعت مع انكماش اقتصادي عميق بما أدّى إلى تظاهرات بدأت ضد غلاء أسعار النقل

بموازاة ذلك، سيطر تحقيق قضائي. بوليسي عرف بـ«غسيل تحت الضغط» («لافا. جاتو») على تفاصيل حياة البلد خلال سنوات طويلة وأخذ يكشف قضايا فساد مترامية طاولت كافة قطاعات الاقتصاد بدءًا بشركة النفط الوطنية «بتروبراس» وبكبريات شركات البلد التي نشرت الفساد في كافة الأقاليم. كما كشف التحقيق عن تورّط مئات من السياسيين. وتحوّل التحقيق الذي بدأ تقنياً إلى تشبيك بين مصالح مختلفة، منها اقتصادية وإعلامية وسياسية وقضائية وعسكرية، توافقت على القضاء على ديلما كمقدمة لمنع لولا من تبوّء الرئاسة للمرة الثالثة. وعندما استعانت روسيف بلولا عبر تعيينه كأول وزرائها، تمّ توريطه بفضائح مالية هزيلة ومفتعلة أمام ضخامة ما كان يُحقّق فيه (عشرات مليارات الدولارات التي خسرها البلد ومئات الملايين من الأموال المنهوبة التي استرجعت وملايين الوظائف التي أتلفت).

بعد ذلك، بدأت مقاضاة لولا عام ٢٠١٦ وحُكم عليه بتسع سنوات سجن عام ٢٠١٧، وسرعان ما وصلت إلى ١٢ سنة لدى الاستئناف، ما أدّى إلى تجريده من حقوقه السياسية عام ٢٠١٨. وقد جرى ذلك قبل أشهر من الانتخابات الرئاسية التي كان يتقدم لولا استطلاعاتها. بموازاة محاكمة لولا، تمّت إقالة الرئيسة روسيف بشكل ظالم ولأسباب واهية في آب/ أغسطس ٢٠١٦ بالتواطؤ مع نائبها ميشال تامر. عندما صار حكم لولا مبرمًا، حلّ محله فرناندو حداد، المرشّح إلى نيابة الرئاسة، وحصل هذا الأخير على ٤٥٪ من الأصوات في الدورة الثانية ضد جايير بولسونارو مرشح اليمين المتطرّف. عُيّن القاضي سيرجيو مورو، الذي حكم على لولا بالسجن، وزيراً للعدالة، فيما أمضى لولا ٥٤٠ يومًا خلف القضبان قبل أن يُطلق سراحه لأخطاء في المحاكمة ثم ألغيت الأحكام بحقه عام ٢٠٢١ ما فتح المجال لكي يستعيد حقوقه السياسية. من جهة أخرى، نشر موقع «ذا إنترسبت» (the intercept) وثائق أثبتت كيف كان مورو يلجأ إلى وسائل غير شرعية لمطاردة لولا وكيف كان ينسّق مع الادّعاء ويوجّهه خلال مراحل التحرّي والتحقيق. وعام ٢٠٢١، أدان مجلس القضاء الأعلى مورو لتصرفه المتحيز في محاكمة لولا. اختلف الوزير مورو مع الرئيس بولسونارو، واستقال من الوزارة عام ٢٠٢٠، محاولًا الترشح إلى رئاسة الجمهورية، لكنّ حدة الاستقطاب بين لولا وبولسونارو جعلته يتراجع ليترشح أخيراً إلى عضوية مجلس الشيوخ حيث فاز بمقعد بعد أن عاد وتقارب من بولسونارو. بعد استعادة لولا حقوقه السياسية ورغبة بولسونارو في الترشح لولاية ثانية، دقّت ساعة المنازلة الكبرى التي حرمت منها البرازيل قبل أربع سنوات.

٢- لَوْلا لُولا...

الـ«لوليّة»: الاستقرار والحكم لصالح الفقراء بالأولوية

فشل لولا ثلاث مرات في الانتخابات الرئاسية ومنها استخلص أنه حتى لو طالب الناخب بالتغيير، فالسوق في المقابل تشترط الاستقرار، إن السوق تتحكم بالتغيير وليس العكس. من جهة ثانية، حتى في عزّ شعبيته، أُجبر لولا على «نسج» اتفاق مع تسعة أحزاب هي الاحتياط لأي حكومة، تقايض دعمها للرئيس – أيّ رئيس – بالحفاظ على مكتسباتها





لولا (في الوسط) مع أعضاء من حزب الشغيلة في تظاهرة ضد الخصخصة، ١٩٨٩.



الريعية داخل جهاز الدولة. هذان معطيان أساسيان لفهم خصوصية التجربة - موقعها ومحدوديتها - التي قام بها الطفل الجائع ثم الولد الفقير الذي أصبح عاملًا ثم نقابيًّا قبل أن يتسيّس ويساهم في تأسيس حزب سياسي «ثوري» في بلد قارّي أوصله إلى الرئاسة بعد ربع قرن. يشكل انتساب لولا إلى نادي «الخواجات» المغلق القطيعةَ الحقيقية، لأن وصول ائتلافه المثقل بأوزان تقليدية يجوز صرفه تحت خانة التداول في السلطة. أما خروجه من السلطة مكلّلًا بالنجاح، متمتّعًا بدعمٍ داخلي يلامس الـ٨٠٪ وبإعجاب دولي قَلّ مثيله ومثيل تنوعه، فأشّر بداية إلى انتقال البرازيل التي تسلّمها لولا من وضعية الاقتصاد الثالث عشر في العالم إلى المرتبة الثامنة: من جهة، هذا يعني ارتكاز لولا على قدرات البرازيل وتظهيرها وإعادة سكبها باللغة الأنسب لجمهوره أيًّا كان، ومن جهة أخرى، هذا عنى ببساطة تناغُم الرجل مع شعبه.

«الحكم لكل البرازيليين والأولوية للأشدّ فقرًا»

إذا بحثنا عمّا غيّرته الـ«لوليّة» بالفعل خلال فترة ترؤسها البرازيل، يأتينا الدليل الأول من التبدل النوعيّ الذي حصل في قاعدتها الانتخابية: خلال ربع قرن - وحتى عندما فاز بانتخابات عام ٢٠٠٢، مثّلت ظاهرة لولا صعود العمل النقابي المنظم المركّز في المناطق الأغنى من البلد وكانت تعبيرًا عن الطموحات «الثورية» للطبقات الوسطى. بعبارات أوضح، لم تنتخبه الشرائح الأكثر فقرًا ولا مناطق الشمال الأكثر تأخّرًا. أما في العام ٢٠٠٦، فكانت هذه الشرائح وتلك المناطق بالتحديد التي أعادته إلى سدّة الرئاسة. بالرغم من التزامها السياسات النيوليبرالية، لم تضيّع الـ«لوليّة» (والمقصود الرئاسات المحقّقة) بوصلة تجريبيّتها الهادفة، وقد سعت دائمًا إلى تدعيم السوق الداخلية وتوسيع جمهورها وشمولها المناطق التي تعيش على هامشها.

يردّد لولا دائمًا، وهو الحريص على دقّة تعبيره، أنه يحكم «لكل البرازيليين ولكن بالأولوية للأشدّ فقرًا». من دون المسّ بأسس الاستقرار، عاندت الـ«لوليّة» العقيدة المسلّم بها بأنّ التوزيع يلي دائمًا النمّو، فجعلتهما يتواكبان، وبيّنت أحيانًا كثيرة أن بيضة التوزيع أو الاجتماع هي التي تخلق دجاجة النمّو أو الاقتصاد: سياسات مثل «المنحة العائلية» أو زيادة الحد الأدنى الدورية للأجور بوتيرة أسرع من التضخم أو دعم الزراعة العائلية أو التسليف بضمانة رهن الراتب أو تسهيل إدخال الفقراء في الشبكة المصرفية، كلها خطط اجتماعية بيّنة، إلا أنها غيّرت أيضًا بالمعطى الاقتصادي. فالشرائح التي خرجت من التهميش - ٢٥ مليونًا من البؤس و٢٥ مليونًا غيرهم من الفقر خلال ولايتَي لولا - دخلت في السوق الداخلية وفعّلتها وولّدت قطاعات اقتصادية باتت مطالبة بالاستجابة لهذا الطلب الجديد. كان البلد الذي سلّمه لولا إلى خليفته أكبر وأعدل من ذاك الذي تسلّمه. مثلان بسيطان: بين عامَي ٢٠٠٣ و٢٠١٠ نمت مداخيل الـ١٠٪ الأفقر بمعدل ٨٪ في السنة، أي أكثر من نسبة نمو الاقتصاد ومن نسبة النمو لدى الـ١٠٪ الأغنى الذين نمت مداخيلهم بمعدل ١٫٥٪ فقط. لا يغيّر هذا المعطى الكثير في توزيع الثروة، لكنه يحدد وجهة لم تعرفها البرازيل من قبل وكان عليها أن تعتاد عليها. يُقال مرارًا - وهذا صحيح - أن لُولا لم يخض حربًا هجومية على الأغنياء، لكنّ الـ«لوليّة» خاضت حربًا دفاعية لصالح الفقراء.

وهذه الإضافات الاجتماعية على تواضعها، وبسبب منهجيّتها، عملت الكثير في تحريك الاقتصاد المحلّي، فإذا بمجموع تلك الإضافات المحلية يُحدث تعديلًا في الاقتصاد الوطني برمّته. وما يُقال عن المعطى الطبقي له ترجمة شبه آلية في ما يخصّ المعطى المناطقي: بدلًا من استراتيجية التموقع التنافسي في العولمة الذي كان يؤدي حتمًا إلى إعادة تدعيم المناطق النامية أصلًا، اعتمدت الحكومات الـ«لوليّة» استراتيجية الاندماج الوطني بتقليص الفوارق المناطقية وبإعطاء الأولوية لاستثمارات البنى التحتية في المناطق الشمالية الفقيرة. على سبيل المثال، بين عامَي ٢٠٠٣ و٢٠٠٩، نمت فرص العمل في البرازيل بنسبة ٥٫٤٪، في الشمال الشرقي ٥٫٩٪ وفي الجنوب الشرقي ٥٫٢٪. على تواضعه، يشكل هذا الرقم انقلابًا في جداول كانت دائمًا نسخًا طبْق الأصل عن سابقاتها، تعود إلى بداية الرأسمالية في البرازيل. إلا أن ما أنجزه لولا خلال ولايته الأولى تم بسبب ارتفاع أسعار الموادّ الأولية وبسبب النموّ الصيني وجلب الرساميل الأجنبية. وقد سمح تدخل الدولة وتوسيع السوق الداخلية بتأخير الاستحقاقات وتحاشي نتائج أزمة الاقتصاد الأميركي عام ٢٠٠٨. ولكن مع تغيير المناخ الاقتصادي العالمي وانخفاض أسعار الموادّ الأولية - قاعدة الصادرات البرازيلية - وتباطؤ النمو الصيني، لم تصمد هذه المعادلة واختلّ التوازن الذي كان يحملها.

التراكم البدائي للديموقراطية

يرى بعض الاقتصاديين أن الخطأ كان في إعطاء الأولوية للاستهلاك على حساب زيادة الإنتاجية خلال ارتفاع أسعار المواد الأولية. وقد حاولت الرئيسة روسيف تعويض ما فات واعتماد خطة اقتصادية جديدة لتحفيز الصناعة قامت على تخفيض الفوائد وقيمة العملة، وعلى توسّع التسليف وعلى

إعفاءات ضريبية ودعم سعر الطاقة. لم تنجح هذه القرارات لأن الصناعة لم توسع التوظيفات ولا زادت الإنتاجية. كل ما زاد هو العجز في الحسابات العامة، كما انخفض الناتج القومي حوالي ٣,٥٪ خلال سنتين متتاليتين (٢٠١٥ و٢٠١٦) وارتفعت البطالة إلى أرقام قياسية. ازدادت التظاهرات الاحتجاجية الصاخبة عام ٢٠١٣ وترافقت مع الانكماش الاقتصادي والابتزاز الذي مارسه مجلس النواب لتفجير القنبلة في وجه الرئيسة روسيف التي وصلت شعبيتها إلى الحضيض.

عندما زَحل جزء أساسي من قاعدتها نحو مواقع محافظة ورجعية، نجحت الـ«لوليّة» بالتعويض، باتجاه الناخب الأفقر عمّا خسرته بين الطبقات الوسطى

قبل الانتقال إلى مفاعيل الـ«بولسونارية» التي بدأت تنمو على قاعدة تعثّر الـ«لوليّة» الاقتصادي والاجتماعي، لا بد من التوقف عند ما مثّلته هذه الأخيرة كظاهرة سوسيولوجية أو حتى سوسيونفسانية. ميزة «لوليّة» الدولة - على وزن رأسمالية الدولة - أنها جمعت بين الاستقرار وتراجع الفوارق الطبقية والمناطقية، وأنها حوّلت مركز السلطة وحيدة المصلحة من قِبلها إلى مساحة تثاقف بين مصالح متمايزة، وعند استحالة تحقيق ذلك، حوّلتها إلى مجال تعايش بينها. قبل الـ«لوليّة»، كان الصراع الأساسي على الطبقات الوسطى فيما يتحكم أعتى وجوه الإقطاع السياسي بمصير وخيارات أفقر الفقراء وأقلّهم وعيًا وتنظيمًا، خصوصًا في الشمال. عام ٢٠٠٦ وما بعد، أي عندما زَحل جزء أساسي من قاعدتها الأصلية نحو مواقع محافظة أو حتى رجعية، نجحت الـ«لوليّة» بالتعويض، باتجاه الناخب الأفقر والمنطقة الأبعد، عمّا خسرته بين الطبقات الوسطى وفي الجنوب. أما وقد جمعت الـ«لوليّة» الأكثر فقرًا حولها، وقد عدّلت بتركيبة اللعبة من خلال التبدلات الطبقية والمناطقية، فدعّمت أسس النظام السياسي بتوسيع ما سمّاه أحدهم «تأمّل التراكم البدائي» للديموقراطية، أي الشروط الأساسية للتمكن من ممارستها، بما هي مكونات الحياة الأوليّة ومصالح يجب الدفاع عنها وحقوق قابلة للتحقيق. في هذا المشهد، بدت الـ«لوليّة» - بالرغم من إخفاقات ولاية روسيف وويلات بعض وزراء لولا وحلفائهما - «حكمًا مختلفًا مع أناس مختلفين يقومون بأشياء مختلفة».

ما ينطبق على لولا ينطبق أيضًا إلى حدّ كبير على الـ«لوليّة»، أي على أولويات حكمه وعلى بعض معاونيه: هنا أيضًا، نجاح هذه الفئة في إدارة «الدولة، على الأقل بنفس كفاءة أبناء عائلات ينطقون بالإنكليزية وتعلّموا في الخارج»، يشكل بحد ذاته صدمة في عقل السياسة التقليدية وتمتينًا لمبدأ التداول في السلطة والدولة أعمق من مجرّد تبادل بين فريقين، من دون أن يرتقي بالضرورة إلى إبراز نماذج مختلفة لتقاسم السلطة أو للجم الفساد (بل بالعكس). يبقى الحديث عن الأهم، وهو عنصر لا تتطرق إليه عادة الصحافة لأنه على حدود علم النفس الاجتماعي: في بلد أقل تسييسًا تقليديًّا من جيرانها حافظت فيه العلاقات المجتمعية على حيّز واسع من الإقصاء والتمييز والعنصرية، تقابلها القدرية والخضوع والخنوع - حتى لو حاولت بعض الشعارات المنمّقة الإيحاء بالعكس (هنا بلد الاندماج العرقي، إلخ) ، شكّلت الـ«لوليّة»، أولًا بفضل سيرة لولا الشخصية ولكن أيضًا بسبب شرحه «التثقيفي» لها، أداةً لجأت إليها الشريحة الأفقر والأضعف لإعادة ثقتها بنفسها ولتجديد ثقتها بالبلد، حتى في أحلك الظروف.

الـ«بولسونارية»

بدايةً، لا علاقة لجايير بولسونارو باليمين المتطرّف (الذي نظّر للعقيدة «الشمولية» integralismo في الثلاثينيات). فالـ«بولسونارية» والفكر نقيضان، إنها حصيلة آلية أخرى: سلَب الانقلاب العسكري البرازيلي الانتخابات المباشرة من الشعب واستعاض عنها بانتخاب الرئيس من قبل المجلس النيابي. ولم يعد الانتخاب بالاقتراع المباشر القاعدة إلا بعد عودة الديموقراطية. عام ١٩٨٩، وصل إلى الرئاسة سياسي مغامر ومغمور (كولور)، وكان مفاجأة السباق. رصّ النظامُ صفوفه حوله خوفًا من وصول لولا، وسرعان ما أقيل من منصبه. استقرّت الحياة الاقتصادية بعد إقرار «خطة ريال» التي قضت على التضخّم المَرَضي، وانتظمت الحياةُ السياسية حول قطبين. من جهة، «الحزب الاشتراكي الديموقراطي» الذي تحالف مع اليمين وصار يمثّل صفوة مصالح النظام القائم، ومن جهة أخرى، «حزب الشغيلة» الذي يعارضه. وخلال ست دورات للانتخابات الرئاسية المتتالية، انحصرت اللعبة بين هذين الحزبين واقتصرت المنافسة عليهما: أول مرّتين، فاز اليمين ممثلًا بـ«الاشتراكي الديموقراطي» (كاردوزو)، وفي الأربع مرات التالية، فاز اليسار ممثلًا بـ«حزب الشغيلة» الـPT (لولا ومن ثم روسيف). فشَل الاشتراكيين الديموقراطيين المتكرّر، وخصوصًا دراماتيكية إقالة روسيف واعتقال لولا - شكل وقودًا سياسيًّا تقاطع مع أزمة اقتصادية ضاعفت البطالة،





في شارع باوليستا، في مدينة سان باولو البرازيل، ٢٠٢٢/٠٩/٢٥.



ومع فضائح فساد مع إعلام وقضاء يمهّدان أوسع الطرقات لصعود سياسي مغمور لم يكن أحد يعيره اهتمامًا أو قيمة، لكنه موجود منذ ثلاثة عقود على الحافة اليمينية للمسرح لكي يتحوّل إلى «أسطورة» (ميتو mito) كما يلقبه محبّوه، ويدّعي هو أنه مرشح ضد «النظام» فيما هو ليس إلا وجهه القبيح.

جايير بولسونارو من مواليد ١٩٥٥، دخل الجيش في سلك المظليين وصار نقيبًا. غادر المؤسسة العسكرية نصف مطرود نصف متقاعد بعد أن كتب مقالًا يحرّض فيه على زيادة الرواتب واقترح إجراء تفجيرات «صغيرة» في الثكنات لهذه الغاية. وسرعان ما انتقل إلى السياسة. بدايةً، انتُخب عضوًا في مجلس مدينة ريو دي جانيرو ثم نجح في دخول مجلس النواب لستّ ولايات متتالية بدءًا من عام ١٩٩٠ بأرقام هامشية، باستثناء المرة الأخيرة عام ٢٠١٤. خلال تلك العقود، كانت خطاباته النارية ومواقفه الحادّة تواجَه إما بالسخرية وإما بالصدام. ترشح ثلاث مرات لرئاسة مجلس النواب ولم ينل في أيّ مرة أكثر من خمسة أصوات. قدّم ١٧٢ مشروع قانون أو تعديل ولم يُقرّ إلا واحد منها.

لم يتصدر بولسونـــــــــــارو المشهد إلا بعد اعتقـــــــــــال لولا. وقبل شهر من إجراء الانتخابــــــــــات، طُعنـــــ خلال حملته الانتخابية فأصبح ضحية

خلال سيرته السياسية، استهلك تسعة أحزاب مختلفة. صُنّف باليميني المتطرّف لمواقفه الكاريكاتورية، وتميّز بالدفاع عن أبشع حقبة من النظام العسكري، تلك التي حكمت في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات حيث راجت ممارسة التعذيب ومهاجمة الشيوعية باسم «الدين والوطن». عُرف أيضًا بدفاعه عن أجندات مجتمعية محافظة كمعاداة المثلية. متورّط مع أولاده بآليات إثراء غير مشروع كـ«توظيف أشباح» بواسطة الموارد التي تؤمّنها الدولة لمكاتب النواب والشيوخ، وهو قريب من شبكات «المليشيات» التي تتحكّم بالأحياء الفقيرة المحيطة بريو دي جانيرو. وهي، بالإضافة إلى فضائح أخرى تراكمت في عهده، قضايا ستلاحقه بعد فقدانه الحصانة. لحظةَ قرّر خوض الانتخابات الرئاسية تحت شعار «البرازيل أعلى من الجميع، الله أعلى من أي شيء» رافعًا ألوان العلم البرازيلي ومرتديًا قميص منتخب الكرة، وجد حزبًا يملك مصلحة في تبنّيه. طالما أن لولا في السباق، ظل بولسونارو بعيدًا في المرتبة الثانية، ولم يتصدّر المشهد إلا بعد اعتقال الزعيم اليساري. قبل شهر من إجراء الانتخابات، طُعن في بطنه خلال حملته الانتخابية فتحوّل إلى ضحية. حصل في الدورة الأولى على ٤٦٪ وفي الدورة الثانية على ٥٥٪ من الأصوات، ما يوازي ٥٧ مليون صوت، وهو رقم كبير لم ينله من قبله إلا لولا.

من الصعب تحديد ما سيحفظ التاريخ من عهده. على الأرجح لا شيء: كانت يومياته ممارسة قاسية بين مدنيين عقائديين متطرفين وعسكر راديكاليين كانوا متفوّقين. وفي آخر عامين، سادت صفقة بين أسوأ النوّاب المسيطرين على السلطة التشريعية من جهة، والعسكر المتطرفين الممسكين بجهازي الدولة التنفيذي والإدارة، من جهة أخرى. أما بولسونارو، فاتفق الطرفان على أن يُسمح له بأن يلعب في ما تبقى من الملعب: مصارعة القضاء وتجسيده للسدّ الوحيد القادر على منع عودة لولا الذي لم يكن يسمّيه إلا «اللص»، وإنْ أراد أن يضيف صفات أخرى، فيقول منها «السكّير» أو «الشيوعي الذي يريد أن يحوّلنا فنزويلا ثانية».

في الحقيقة، هناك عدد من الكوارث في عهد بولسونارو التي تذكّر بمأساة فنزويلا. إن شئنا أن نقيّم عهده بموضوعية علينا النظر في عدّة أمور: على سبيل المثال، لا يمكن أن نحمّل عهده مسؤولية الانكماش الاقتصادي الذي نتج من جائحة كورونا ولا حتى ارتفاع نسبة الفقر المدقع لأول مرة خلال العقدين الأخيرين. مع أنّ تصرّفه فاقم الأزمة لدرجة أنه لا يمكن تبرئته من نسبة غير بسيطة من الوفيات (أكثر من ستمئة ألف قتيل) التي ضربت البرازيل. فهو شكّك بحقيقة الفيروس وأخّر شراء اللقاح وصرف ثلاثة وزراء صحة لعدم تطابق أفكارهم مع أحكامه، وتهكّم على قرارات العزل التي أراد حكام الولايات فرضها، ورفض ارتداء الكمّامات وما شابه.

في المقابل، هناك إخفاقات يجب نسبها مباشرةً إلى عهده كتفكيك كافة السياسات البيئية في الأمازون تحديدًا التي خسرت خلال رئاسته أكثر من أربعين ألف كلم مربّع بسبب دعمه لقطاعات الزراعة والتعدين. أو اعتماده على العسكر وحشرهم في كل إدارات الدولة. أو عزل البرازيل عن علاقاتها الإقليمية والدولية (وهي المعروفة بدبلوماسيتها وانفتاحها) واقترابه شبه المرضي من دونالد ترامب ومن كل القوى المحافظة في العالم (من الطريف أن نلاحظ أن فلاديمير بوتين ربما هو القائد الوحيد في العالم الذي قال إن علاقته جيدة مع لولا ومع بولسونارو معًا). يضاف إلى ما ينسب لعهده، ما يجب نسبه لطبعه الخاص ومن استسهاله شتم محاوريه، ما أدّى إلى تدهور علاقاته مع الإعلام وإلى أزمات متتالية مع السلطة القضائية واستقالات فريدة في قيادة الجيش.

من الظلم على الأرجح مقارنة الـ«لوليّة» بالـ«بولسونارية». فالأولى مشروع جماعي جسّده رجل وعبّر عنه. ولكن لَوْلا هذا المشروع وأداته الحزبية، لما وُجِد الرجل السياسي أصلاً. أما الثانية، فمشروع شخصي لا يتطابق مع عمل جماعي، وقد استهلك حتى الآن تسعة أحزاب، والحبل على الجرّار. ما ينطوي تحت الاسم الجماعي في هذه الحالة هي فئات متمايزة تمحورت حوله لمصالح خاصة أو لبعض القناعات التي نجح في حملها والتعبير عنها. وهذه الكوكبة تبدأ بعائلته - أولاده الثلاثة - ثم تتوسع باتجاه مجموعات يمينية عقائدية مدنية وعسكرية تتشارك مع مصالح اقتصادية محددة في البزنس الزراعي وقطاعي التعدين والتسليح.

تجد هذه النواة صدًى لها في شرائح مرتبطة بالاقتصاد غير الرسمي (في جانبَيه الشرعي وغير الشرعي)، ومع مواقف محافظة مجتمعيًا تحرّكها بعض الكنائس والزعامات «الأنجيلية» الملتفّة حول زوجته. ويوحّد بين كل هذه «المجتمعات» العداءُ الذي «تَجَفْصَن» ضد مجتمع الـ«بي تي» الذي فاز في أربعة انتخابات متتالية. ليست علاقات هذه «المجتمعات» بعضها ببعض دائمًا موسومة بالتكاتف والتكامل، بل تتسم أكثر الأحيان بنزاع البعض ضد البعض الآخر. في نهاية عهده وكمحصلة واقعية، أمسكت بالـ«بولسونارية» زعاماتُ الأحزاب الصغيرة التي لجأ إليها الرئيس لتشكيل أكثريته والتي لا يقوم أيّ عهد أو يكتمل إلا بإرضائها.

خلال ولايتَي لولا، خرج حوالي ٢٥ مليون برازيلي من الطبقات الفقيرة للالتحاق بالطبقات الوسطى الدنيا (بين مرتين وخمس مرات الحد الأدنى للأجور) ثم تقلصت هذه الشريحة مع الانكماش الاقتصادي الذي بدأ في ولاية روسيف الثانية ومع ميشال تامر وعهد بولسونارو خلال الجائحة. هذا هو لبّ جمهور بولسونارو. ومن سخرية التاريخ أن بعضًا من الذين خرجوا مع لولا من الفقر صاروا أشدّ المدافعين عن بولسونارو. لا بدّ من الاعتراف لبولسونارو بشطارة تجميع فئات لا تمت بصلة إلى بعضها البعض وتوحيدها، وبكفاءة الإيحاء لها وبإقناعها أن الفقر الذي عاد يطرق أبوابها مرتبط بفساد حكومات الـ«بي تي» اليسارية. لقد استثمر قلق البعض المتجدد أمام انعدام أي حماية اجتماعية لهذه الفئات وأمام ابتعاد مشاريع المدارس الخاصة دون أولادها. وتفهّم هشاشة موارد البعض الآخر الذي هو بحاجة ماسّة إلى العمل خلال فترة الجائحة. وحّدهم بولسونارو وصار المدافعَ عن حقهم في أن يبادروا، وبات حاميهم في وجه دولة وُجدت كي تعيقهم وتقمع «حرياتكم»، حسب قوله، أي حرية قطع الغابات والتنقيب عن المعادن في أراضي الشعوب الهندية، وحرية التهرب من الضرائب وحرية كنائسهم «التي يريد أن يقفلها لولا»، ناهيك عن كل الحريات «التي تريد أن تسلبها الشيوعية». فصار بالنسبة إلى كل هؤلاء «نقيب الشعب»، كما يسمّونه، أو بكلمة بسيطة «زعيمهم».

ماذا بعد؟

نجم عن انتخابات العام ٢٠٢٢ أضيق فارق في انتخابات البرازيل منذ عودة الديموقراطية، وهي المرة الأولى التي يرتفع فيها عدد ناخبي الدورة الثانية على ناخبي الدورة الأولى. وهذا معطًى غريب لأن البرازيل في الدورة الأولى تختار، إضافةً إلى انتخابات رئاسة الجمهورية، أعضاءَ مجلسَي النواب والشيوخ وحكام الولايات. ولا يبقى للدورة الثانية إلا انتخابات رئاسة الجمهورية وحكام الولايات الذين لم يُحسم أمرهم في الدورة الأولى، ما يؤدّي عادةً إلى انخفاض عدد الناخبين. وارتفاعُ الاقتراع هذا دليلٌ ساطع على حدة الاستقطاب الذي مزّق البلد والعائلات. وقد بيّنت نتائجه أن لولا كان الوحيد القادر على منع رئيس جمهورية من تجديد ولايته وهذا لم يحدث من قبل مثلما كان بولسونارو وحده قادرًا على منع لولا من العودة إلى سدة الرئاسة.

اعتقدت حملة لولا - الذي تصدّر الاستطلاعات بدون انقطاع منذ أن استعاد حقوقه السياسية، مع أن الفارق تقلص آخر شهرين - أنه من الممكن أن يفوز من الدورة الأولى (حصل على ٤٨,٦٪)، وزادت أصوات بولسونارو على ما كانت تقدّره استطلاعاتٌ بستّ أو سبع نقاط مئوية (حصل على ٤٣,٢٪). والفارق الذي كان ستة ملايين صوت بينهما تقلص في النهاية إلى مليوني صوت مع أن المرشحَين الثالث والرابع (سيمون تابت وسيرو غوميز) أيّدا لولا بين الدورتين. وعند الفرز الإلكتروني لصناديق الدورة الثانية (تصدّر النتائج بعد ساعتين من نهاية الاقتراع!)، حصل لولا على ٥٠,٩٪ من الأصوات وصار أول رجل يتخطى عتبة الستين مليون ناخب، فيما اقترع لبولسونارو ٤٨,١٪ ونال أكثر بقليل من ٥٨ مليون صوت وأكثر ممّا ناله عام ٢٠١٨.

في تحليل النتائج، صحيح أنها أسفرت عن وجود برازيلَين اثنين، إلا أنّ أحدهما لا يستطيع العيش من دون الآخر. اقترع للولا ٥٦٪ من النساء واقترع لبولسونارو ٥٣٪ من الرجال. كما صوّتت للولا أكثرية من يملكون مستوى تعليميًا ابتدائيًا أو جامعيًا فيما الباقون في الدرجتين التعليميتين المتوسطتين اقترعوا بالأكثرية لبولسونارو. أكثرية البيض اقترعت لبولسونارو، وكان الفارق ضئيلًا لصالح لولا عند الملوّنين، وشاسعًا عند الأفريقيين. تقدَّم لولا بين الكاثوليك - وهم



أكثرية – فيما تقدّم بولسونارو بين الإنجيليين – وهم أقلية وازنة. طبقيًّا، نال لولا أكثر من ٥٤٪ من أصوات من يتقاضون ضعف الحد الأدنى للأجور (وهم تقريبًا نصف عدد السكان) وحصل بولسونارو على حوالي ٥٢٪ من أصوات الشريحة المتوسطة، أي الذين يتقاضون بين ضعفَي وخمسة أضعاف الحد الأدنى (الثلث)، فيما عند الباقين (الذين يتقاضون خمسة أضعاف الحد الأدنى وما فوق) رجّح الاقتراع كفّةَ بولسونارو مع ارتفاع مستويات الدخل.

لا ناخبو بولسونارو فاشيون ولا ناخبو لولا يساريون. وقسم كبير من الناخبين وجد في المرشح الذي اقترع له الوسيلة لإبعاد المرشح الآخر

أخيرًا وليس آخرًا، المعطى الجغرافي. إذا أجرينا التقاطع بين المعطى الجغرافي والمعطى الطبقي، نرى أن بولسونارو فاز في ١٤ ولاية من بينها ١١ ولاية تنتمي أكثريةُ السكان فيها إلى الشريحة التي تتلقّى بين ضعفَي وخمسة أضعاف الحد الأدنى للأجور. وبالعكس، فاز لولا في الولايات الـ١٣ المتبقية، ومن بينها ١١ ولاية أكثريةُ سكانها تتلقى أقل من ضعفي الحد الأدنى. في الجغرافيا الصرفة، فاز بولسونارو في أربع مناطق من أصل مناطق البرازيل الخمس (الجنوب الشرقي حيث سان باولو وريو دي جانيرو، والشمال حيث غابة الأمازون، والجنوب القريب من الأرجنتين والوسط الغربي حيث العاصمة والأراضي الزراعية وبفارق كبير بين آخر منطقتين. وفاز لولا في منطقة واحدة، بشمال شرق البرازيل حيث تتمركز كل الولايات الفقيرة، وقد فاز فيها بأكثر من ثلثَي الأصوات وعوّض عن كل تأخيره في المناطق الأخرى. الأكيد أنه لَوْلا أصوات شمال الشرق لما كان لولا انتُخب رئيسًا. لكنّ هذا التفسير لا يكفي لأن الفارق في الأصوات مع بولسونارو في شمال شرق البرازيل كان قد حقّقه فرناندو حدّاد قبل أربع سنوات. ما سمح للولا بأن يفوز هذه المرة هو التقدّم الذي حققه في كل المناطق الأخرى بالمقارنة مع أصوات حداد عام ٢٠١٨، حتى إن بقي خاسرًا فيها.

في الخلاصة، كانت استطلاعات تدلّ على أن نسَب تأييد أي من المرشحين كانت عالية جدًّا، والأهمّ أن نسَب نبذ أيٍّ من المرشحين قريبة جدًّا من نسَب تأييد خصمه. وهذا معناه أن الاستقطاب هذه المرة كان سلبيًّا أكثر منه إيجابيًّا، كما تدلّ وساخة الانتخابات من حيث استغلال ماكينة الدولة أو فقدان أي مضمون في المناظرات أو انتشار الكذب على وسائل التواصل الاجتماعي إضافة إلى التهويل والتخويف وحتى العنف. فلا الـ«بولسونارية» تمثل ٤٩٪ من الشعب ولا الـ«لوليّة» ٥١٪، ولا ناخبو بولسونارو فاشيون ولا ناخبو لولا يساريون. وقسم كبير من الناخبين وجد في المرشح الذي اقترع له الوسيلة الأنجع لإبعاد المرشح الآخر، لا غير.

والآن؟ بعد انتهاء الفرز، سارع العالم إلى التصديق على انتصار لولا، وكذلك فعل أيضًا من له شيء من الحكمة من بين البولسوناريين مثل رئيسَي مجلسي النواب والشيوخ اللذين يراهنان على الاستمرار في موقعهما باعتبار أن الأكثريات المجلسية الجديدة أتت لصالحهما وأن العهد الجديد سيكون لهذا السبب بأمسّ الحاجة إليهما. في المقابل، لم يسلّم بولسونارو بوضوح بنتيجة الانتخاب، بل اكتفى باعتبارها «ظالمة» وبأنه يتفهم التحركات التي قطعت الطرقات بدايةً ثم تجمّعت أمام الثكنات مطالبة بتدخل الجيش، كما حثّ الحزب الذي ترشح باسمه أن يطعن بالنتيجة الرئاسية (وليس بالبرلمانية فهو أول الأحزاب في البرلمان) معتبرًا أن الصناديق الالكترونية «قابلة للتزوير».

لن تُثمر كل هذه المحاولات. ستتقلص التجمّعات الشعبية مع مرور الوقت ويزداد السياسيون – البرلمانيون وحكام الولايات – المؤيدون لبولسونارو المطالبون بفتح قنوات اتصال مع لولا، وبينهم رجال الأعمال. أما العسكر المتساهلون مع تلك التجمعات الشعبية فيريدون تحسين ميزان القوى قبل عودة لولا، لا غير. فمشكلة بولسونارو أنه لا يملك المؤهلات الشخصية ولا التنظيمية لكي يحتفظ بالكمية الهائلة من الأصوات التي جمعها ولكي يقود المعارضة. يرتكز همّه الأساسي على كيفية تحاشي محاكمته بعد الخروج من السلطة. منذ صدور النتائج، انزوى في منزله الرسمي ولم يعد يتوجّه إلا نادرًا إلى المكتب الرسمي في القصر. كأنه ينتظر حدثًا ما، ليبني على الشيء مقتضاه. في المقابل، مشكلة لولا أنه لا يملك الهامش الاقتصادي لإعادة بناء البرامج الاجتماعية التي تمّ تفكيكها منهجيًّا في عهد بولسونارو، ولا الهامش السياسي للقيام بالإصلاحات التي وعد بها مرارًا من دون تحقيقها. لذلك، يردّد أن ولايته الجديدة ستكون الأخيرة إذ لن يسعى إلى تجديدها، وأنها ليست أكثر من مرحلة انتقالية للقضاء على المجاعة التي عادت وأطلت برأسها، ولإعادة وضع البرازيل إلى سكة الديموقراطية وإلى خريطة العالم. وهو يراهن، ومعه ائتلاف الأحزاب والشخصيات التي حضنته، بأن قدرته التوفيقية ستسمح له بفكفكة العُقَد التي قسّمت العائلات وجعلت من بلد الودّ موطنًا للكراهية.



خبز وملح



تحقيق صحافي عن مصرفيّ سجين اسمه يوسف بيدس

رياض نجيب الريس

(١٩٣٧-٢٠٢٠)

كاتب وصحافي وناشر. من مؤلفاته «صحافي المسافات الطويلة» (٢٠١٧)، «صحافة النسيان» (٢٠٢٠)

كتب التحقيق في ٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٧

في عام ١٩٦٧ وقعت كارثة بنك إنترا، وكان أول انهيار مصرفي كبير في لبنان، وغادر صاحب البنك ومديره العام، يوسف بيدس، إلى سويسرا، وأقامت الدولة اللبنانية دعوى ضده، ولاحقته بواسطة الإنتربول.

حينها، كلّفتني جريدة «النهار» (كنتُ أحد مراسليها) متابعة قضية هذا المصرفي الأشهر في لبنان.

إذا كان لا بد لقصة يوسف بيدس من أن تنتهي في مكان ما، فإن لوسيرن كانت، حتمًا، آخر الأمكنة التي أراد لها صاحبها أن تنتهي فيها. وإذا كان لا بد للمغامر من أن يستريح في وقت ما وفي مكان ما، فإن سجن لوسيرن المركزي ليس المكان الذي تمنّى يوسف بيدس أن يمضي فيه عيد الميلاد المقبل. حتى لوسيرن نفسها، المدينة السويسرية التي تنام في الشتاء من البرد ومن قلة السيّاح، لم تكن تحلم بسجين بهذه الأهمية بين جدرانها.

قصص كثيرة وروايات مختلفة ومتضاربة رُويت عن اعتقال بيدس. بعضها استسلم للخيال، وبعضها استرسل بدافع التشفي، والبقية الباقية انساقت وراء الشائعات. لكنني رحتُ وراء القصة الحقيقية أبحث خلال ستة أيام من التحقيق المضني بين جنيف وبرن ولوسيرن وبالعكس، عن أبطالها الحقيقيين، وعن خيوطها التي تربطها، بعضها ببعض، محاولًا أن أصل إليها من أولها.

لكنّ قصة اعتقال بيدس لا تبدأ من اليوم الأول الذي أعلنت فيه شرطة لوسيرن رسميًا اعتقاله، الاثنين ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، بل من يوم الأحد ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر، عندما دخل بيدس، في اعتقاد السلطات، الأراضي السويسرية، إلى حين اعتقاله يوم الخميس ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر أمام مبنى البريد المركزي في لوسيرن. وقد تأخر الإعلان الرسمي لاعتقاله أربعة أيام، أي من الخميس ٢٣ إلى الاثنين ٢٧، حتى تأكدت شرطة لوسيرن من هويته الحقيقية، وهو إجراء يبدو أنه متعارَف عليه في سويسرا.

الشاهد الأول: ضابط التحري

بطل القصة الحقيقي لم يكن يوسف بيدس، بل كان شيئًا اسمه «الصدفة»، أو «الحظ»، أو ما سمّاه العرب «ساعة التخلي»، وللقصة أكثر من أربعة شهود – ما عدا بيدس نفسه – ظللتُ أستصرحهم وأسألهم ساعات طويلة خلال الأيام الستة. وكان الشاهد الأول والمصدر الحقيقي الوحيد لعملية الاعتقال، ضابط التحري العام في شرطة لوسيرن الجنائية والخبير الاختصاصي بشؤون التزوير، جون هرزيك (٤٣ سنة، يجيد لغات عديدة، عازب) الذي روى لي خلال أربع ساعات بعد ظهر الثلاثاء ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٧، القصة من بدايتها.

باشر هرزيك، بعدما قابلنا معًا رئيس شرطة لوسيرن الجنائية الدكتور هانس شرايبر، واستحصل على إذن منه، بالتحدث إلى صحافي من لبنان جاء خصيصًا ليسمع القصة منه، وهو شاعر بأهميته وأهمية السجين الذي في عهدته.

جلسنا، أنا وهرزيك، وحدنا في غرفة الانتظار في مبنى شرطة لوسيرن المركزي، وهي غرفة رمادية واسعة فيها مقاعد مريحة وطاولة اجتماع طويلة حولها كراسيّ، وعليها مجلات عديدة، وعلى جدرانها رفوف عليها كتب مختلفة، بما في ذلك قواميس وموسوعة ومراجع قانونية، لا توحي أنها غرفة تستعمل للتحقيق أيضًا، إلا أن بابها يُغلَق من الخارج، وفيها ساعة كهربائية وشارة كهربائية تضيء، مُظهرةً اسم الشرطي المطلوب ورقمه. ولعلها تبدو إلى حدٍّ ما غرفة انتظار في عيادة طبيب.

قال هرزيك: «بعد ظهر الخميس ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر، اتصل أحد المواطنين بالشرطة، وقال إنه شاهد في الصباح سيارة أميركية ضخمة أمام مبنى البريد المركزي في لوسيرن، وحولها ثلاثة رجال، وسائقها في داخلها، ومحركها دائر، وهو يخشى أن تكون هناك عملية سطو على مبنى البريد أو أحد المصارف المحيطة به، لأنه عاد بعد ثلاث ساعات ووجد وضع

السيارة كما رآه من قبل، والأشخاص الثلاثة حولها والسائق وراء المقود كأنه يستعدّ للإقلاع بها في أية لحظة. ومن عادة المواطنين في لوسيرن أن يتعاونوا كثيرًا مع الشرطة، وغالبًا ما كنّا نتلقّى مكالمات من هذا النوع من مواطنين شاهدوا عمليات سطو أو سرقة أو خطف. لذلك، كانت هذه المخابرة من النوع الروتيني الذي نتلقّاه باستمرار.

رجل أنيق بالمعطف الأسود

«وهرعتُ مع زميلي ضابط الشرطة جوزيف ستادلمان، في سيارة من سيارات التحري العادية (فولكسفاكن صغيرة سوداء مزوَّدة بجهاز لاسلكي، وليس فيها ما يكشف أنها من سيارات الشرطة) إلى المكان الذي دلّنا عليه أمام مبنى البريد، فوجدنا سيارة أميركية كبيرة سوداء من طراز لينكولن مقفلة ومتوقفة، وليس فيها أو حولها أحد. وانتظرتُ أنا وزميلي ستادلمان نحو ساعة نراقب السيارة من بُعد معقول، حتى جاء رجل أنيق المظهر يرتدي معطفًا أسود، حاملًا معه أغراضًا مشتراة، كأنه كان يتبضع، وحاول فتح باب السيارة، وكانت الساعة قد قاربت السادسة مساءً، فتقدمنا منه، وقلنا له: «نحن من الشرطة»، وأبرزنا له بطاقتينا، فمدّ يده إلى جيبه وأبرز لنا بهدوء تام جواز سفره، كما هي الحال في هذا الوضع. وأمسكت بجواز السفر، فإذا هو برازيلي، فسألته بالبرتغالية - مفترضًا -: «هل تتكلم البرتغالية سيدي؟».

(هرزيك يتكلم الألمانية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية).

وكأنه فهم ما قلت، فردّ عليَّ بإنكليزية سليمة:

- «أنا لا أتكلم البرتغالية. لقد وُلدت فقط في البرازيل، وعندما كان عمري أربع سنوات جئت إلى بريطانيا حيث تلقيت تعليمي وبقيت». وتابع هرزيك: «ورأيت أن إنكليزيته ليست إنكليزية الإنكليز مئة بالمئة - فقد درست أنا في بريطانيا سنة كاملة - لكنني لم أقل شيئًا. ونظرتُ في جواز سفره، وكان يحمل اسم جوزيه كارلوس كوري، ويعمل تاجرًا. فسألته عن أيِّ نوع من التجارة يتعاطى، فأجاب: «تجارة الجلود الوحشية، كجلد النمر والفرو». وعدت أسأله عمّا إذا كان يعرف أيًّا من تجار الجلود أو وكالاتها في لوسيرن، فردّ بأنه وصل توًّا من بعد ظهر اليوم من ألمانيا، وأنه وحده، ولم يقابل ولا يعرف أحدًا. «وعدتُ أدقق في جواز سفره البرازيلي - ونحن ما زلنا وقوفًا أمام السيارة - فبدا لي أنه جواز صحيح صادر عن برازيليا، إلا أنني شككتُ في الختم الذي على جانب الصورة، لأنه غير مطبوع بكامله على بقية زاوية الصفحة، كما هي العادة، ومثل هذا يحدث غالبًا، ولا يشكل إثباتًا على عدم صحة الجواز. لكن عناصر الشك كانت قد تجمّعت عندي، وهي: عدم إجادته البرتغالية، الاشتباه في جواز السفر، وإصراره على أنه وحده وأنه قدم من ألمانيا اليوم. وكان التأكد من السبب الثالث صعبًا، لأن السلطات السويسرية لا تختم جوازات سفر القادمين إليها من أوروبا بالبر، إلا إذا طلبوا منها ذلك. فسألته أن يأتي معنا إلى المكتب».

هوية مكسيكية من بيروت

أضاف هرزيك: «في المكتب عاد إلى إصراره على أنه برازيلي اسمه جوزيه كارلوس كوري، وأنه قدِم اليوم من ألمانيا. وطلبنا تفتيشه، فوجدنا في جيوبه بطاقات هوية عدة عليها صورته وتحمل اسم يوسف بيدس. واحدة برازيلية صادرة عن برازيليا، وأخرى مكسيكية صادرة عن سفارة المكسيك في بيروت، وبطاقات غيرهما باسم يوسف بيدس أيضًا تحمل لقبه، مدير بنك إنترا. وتلقائيًا في مثل هذه الحالة، بحثنا في ملفاتنا عن اسم بيدس، فرأينا أنه ملاحق من الإنتربول بناءً على طلب من الحكومة اللبنانية. وعندئذٍ فقط، وكان قد مرّ أكثر من ساعة على استجوابه في المكتب، وإصراره بثقة على شخصيته البرازيلية، اعترف بيدس بهويته الحقيقية، فاعتقلناه. وأعلمنا الإنتربول فورًا، وبعد يومين جاءنا التأكيد من الإنتربول أنه بيدس المطلوب».

«وفي أثناء تفتيشنا له، عثرنا في جيوبه على ٧ آلاف دولار نقدًا، ونحو ألف فرنك سويسري نقدًا أيضًا. والحقيبة الوحيدة التي في السيارة، لم يكن فيها إلا ملابسه العادية وعدة حلاقة وتوابعها. مضت ثلاثة أيام، فاتصل بنا فندق «شاتو غوتسش» في لوسيرن، وقال إن رجل أعمال أميركيًا لم يعد إلى الفندق منذ ثلاثة أيام، وقد ترك حقائبه، فأدركنا أن من المعقول أن يكون بيدس. وعند تفتيشنا للحقائب الثلاث في الغرفة، عثرنا على أوراق باسم يوسف بيدس وملفات لها علاقة ببنك إنترا، وعلى جواهر، من خواتم وأساور وأقراط، غير مستعملة وملفوفة بأغلفتها، وما زالت أوراق الأسعار معلّقة بها. كذلك وجدنا عددًا كبيرًا من الشيكات السياحية والخاصة (تقدّر بعض المصادر الخاصة المقربة من بيدس في جنيف قيمتها بأكثر من ٣٠ ألف دولار). وعثرنا أيضًا على مفاتيح لصناديق حديدية عديدة، وعلى ملاعق وشوك وسكاكين تحمل علامات فنادق مختلفة في أوروبا». وتابع هرزيك: «وأعدنا فتح التحقيق مع بيدس لسؤاله عن الموجودات الجديدة، فقال إن الشيكات له، وإن الجواهر اشتراها من بيروت منذ سنوات، وهي لزوجته. أما عن سبب احتفاظه بأوراق الأسعار عليها، فحتى يعرف قيمتها دائمًا إذا احتاج أن يبيعها. أما الملاعق والشوك والسكاكين،



فهي هدايا تذكارية «سوفنير» من الفنادق التي كان ينزل فيها. وعاد فأقرّ بأنه كان مقيمًا في هذا الفندق، وأنه مرت أربعة أيام وهو في لوسيرن قبل أن يعتقل. لكنه أصرّ على أنه وحده، ولا يعرف أحدًا، وأنه قدم من ألمانيا. لكن في ضوء أقوال بيدس الجديدة، والتراجع والتناقض مع الكثير مما قاله من قبل، كان لا بد لنا من أن نفترض أن الجواهر مسروقة، وخاصة أنه لا يذكر أسماء المحلات التي اشتراها منها. وبقينا نوالي تحقيقاتنا في الموضوع، رغم تأكيد زوجته أن الجواهر ملكها، لأن هذا إجراء قانوني لا مفرّ منه. أما الشوك والسكاكين والملاعق، فهي حتمًا غير مسروقة ولا تستحق الاهتمام. وبيدس غير متهم بالسرقة، على عكس ما ذُكر في بعض الصحف، لكنّ التحقيقات تجري لمعرفة مصدر هذه الموجودات».

في المكتب عاد إلى إصراره على أنه برازيلي اسمه جوزيه كارلوس كوري. طلبنا تفتيشه، فوجدنا في جيوبه بطاقات هوية عدة عليها صورته وتحمل اسم يوسف بيدس

«أما التهم الموجّهة إليه من السلطات السويسرية، فهي الدخول إلى البلاد بطريقة غير قانونية (وكان قد مُنع من دخول سويسرا منذ نحو سنة، إثر صدور تعميم الإنتربول، لأسباب لم يستطع أحد أن يفسرها لي)، بجواز سفر مزوّر. وهي تهم عقوبتها خفيفة، لا تتجاوز في أسوأ الحالات غرامة ضئيلة».

واستراح هرزيك على كرسيّه في رأس الطاولة، وقد انتهت روايته. فسألته عمّا إذا كان بيدس أهمّ شخص يُلقى القبض عليه حتى الآن، وقد أجاب: «خلال ٢٣ سنة من الخدمة في الشرطة يمرّ العديد من الحوادث على المرء. لكن بيدس كان أهمّ «صدفة» مرّت عليّ. ولا شك في أنّ اعتقاله أثار اهتمامًا في الخارج أكثر مما كان يخطر على بالي». وأخذني هرزيك ليريني سيارة بيدس في كاراج المركز، وهي تحمل رقم ولاية نيوجرسي "GARDEN STATE ٦١٧-N.J. JZA"

وما زالت أعداد «التايمز»، «تايم»، «الهيرالد تريبيون» الصادرة يوم الخميس ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر، على مقعدها الأمامي، ورفض هرزيك أن ألتقط صورة له، مع السيارة، قائلًا: «لا تصوروني، فأنا ضابط تحرٍّ يجب ألّا يعرف المجرمون صورتي، وإلا فما الفائدة؟». وسألت هرزيك وأنا أودعه: «كيف تصرّف بيدس عندما اعتقل وانكشف أمره؟»، فردّ وهو يشدّ على يدي: «كجنتلمان، أرتج عليه لبعض الوقت ودهش. لكن كجنتلمان، لا شيء معيب». وأضاف وهو يرافقني إلى الباب: «أتمنى أن أزور لبنان، ليس برفقة سجين بأهمية بيدس. لقد سمعت عن عجائب مار شربل. هل هي صحيحة؟ إنني أريد زيارة ديره، لكن ليس برفقة مستر بيدس. ربما قريبًا، من يدري؟».

الشاهد الثاني: المحامي والسيكار

ومن «الصدفة» إلى «الحظ» حتى «ساعة التخلي» التي دفعت يوسف بيدس إلى اختصار طريق الهرب الطويلة عبر سجن لوسيرن المركزي، كان الشاهد الثاني محامي بيدس في لوسيرن، الدكتور كيسلين، يروي طرفًا آخر من القصة. في مكتب متواضع ذي فوضى غريبة من الأوراق والكتب والمطبوعات، جلس كيسلين، وهو رجل في الخمسين، بَدين، له شخصية محببة قريبة من القلب، يدخن سيكارًا غليظًا، ليحدثني عن «الزبون» الجديد الذي جاءه بغتة، دون سابق إنذار، لينفجر أهمية في أيام قليلة بعد إفصاحه عن شخصيته.

قال كيسلين: «إذا جئت لتسألني كيف اعتُقل يوسف بيدس، ولماذا، فأنا لا أعرف أكثر مما نُشر أو قيل، اذهب واسأل الشرطة عن ذلك. أما إذا جئت لتسألني عن الوضع القانوني، فأقول لك إن السلطات السويسرية، وبالتالي سلطات لوسيرن، لا تملك اتهامًا ضده. وفي أقصى ما تحمله تهمة دخول البلاد بجواز سفر - لم يثبت أنه مزور - يحمل اسمًا غير اسم صاحبه الحقيقي، غرامة مالية ضئيلة. لكن السلطات الفيدرالية السويسرية، بناءً على طلب من الحكومة اللبنانية لاسترداده، تحقق بواسطة سلطات لوسيرن القضائية، في التهم الموجهة إليه من حكومة لبنان. ولا تنوي حكومة لوسيرن المحلية أن تقيم عليه أية دعوى».

لقاء واحد مع بيدس

وأضاف كيسلين، ونحن نتحدث صباح الثلاثاء ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، ومع بداية ثلج يضرب نوافذ المكتب من الخارج: «صدّقني، لم أعرف يوسف بيدس من قبل، ولم أقابله إلا أمس - الاثنين ٤ تشرين الثاني/نوفمبر - للمرة الأولى، وكان اللقاء الأول بيننا. فالقانون السويسري، وقانون لوسيرن، لا يبيحان للمحامي أن يقابل موكله إلا بعد انتهاء التحقيق معه، وخاصة في قضية كالتي اعتقل في الأساس من أجلها. أما الآن وقد أصبحت هذه القضية هامشية، فإن مهمتي تتعلق بطلب الاسترداد اللبناني الذي علمت أن السلطات الاتحادية في برن تسلمته اليوم. وبانتظار دراسة الملف كله، لا أستطيع أن أقول شيئًا، سوى أن يوسف بيدس سيبقى عندنا طويلًا».



يوسف بيدس (في الوسط)، في المقر الرئيسي لبنك إنترا في الحمرا.



وسألت كيسلين عمّن اختاره ليتولى قضية بيدس، فأجاب، وكأنه ارتاب في سؤالي: «زوجته السيدة وداد بيدس. بعد إعلان نبأ اعتقاله بنحو أسبوع جاءت إليّ وكلفتني الدفاع عن زوجها».

وما الخطوة التالية الآن؟ سألتُ المحامي الذي كان مستعدًا للحوار معي. قال: «ستكلف السلطات الاتحادية سلطات لوسيرن التحقيق في التهم الواردة في الاسترداد اللبناني، في الوقت الذي درستُ أنا فيه كمحامٍ ملف القضية كلها. وإذا وجدت السلطات القضائية في لوسيرن أن في الملف نواقص أو نقاطًا بحاجة إلى إيضاح، فإنها تطلب من الحكومة الاتحادية في برن رفع هذه الإيضاحات إلى الحكومة اللبنانية، وهي عملية - كما ترى - تستغرق وقتًا طويلًا».

بين المنع والتبليغ

قيل لي في جنيف إن القرار الذي أصدرته الحكومة الاتحادية بمنع بيدس من دخول الأراضي السويسرية، قد يضطرها إلى مقاضاته بتهمة الدخول إلى البلاد بطريقة غير مشروعة. وعدتُ أسأل كيسلين، لكنه ابتسم هذه المرة، وأجاب: «هل هذا ما يقال عندكم في لبنان؟ صحيح أن الحكومة السويسرية منعت بيدس من دخول أراضيها بعد تعميم الإنتربول، لكن الحكومة السويسرية لم تبلغه بأمر منعه، لأنها لا تعرف مكانه، ولأنه كان مجهول الإقامة. وبما أنه لم يبلَّغ، فهو قانونًا غير ممنوع. وهناك أكثر من اجتهاد في هذا الموضوع. أما أمر مقاضاته، فلم يبلغني بعد».

وسألتُ المحامي: ما انطباعك عن لقائك الأول مع يوسف بيدس؟ أجاب كيسلين: «بدا لي أنه رجل متماسك، لا يمكنه أن يكون مهرِّبًا أو مزوِّرًا أو سارقًا. كانت كبرياؤه أوضح ما لمست. سألني هو: «إلى متى سأبقى هنا؟»، رددتُ: وقتًا طويلًا يا سيدي. ورغب إليَّ أن أخبر زوجته أنه لا يريد أن يرى أولاده في عيد الميلاد وهو في السجن».

وما زال محامي بيدس ينتظر نسخة من ملف الاسترداد اللبناني لدراسته، دون أن يستعجل الزمن، كأنّ بيدس مصطاف في لوسيرن، وليس سجينًا. وبلباقة ذكية ماكرة، ابتسم كيسلين وقال لي: «إنه ضيفنا!».

الشاهد الثالث: المدعي العام في لوسيرن

صباح الأربعاء ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧، كنتُ في مكتب المدعي العام لمقاطعة لوسيرن، الدكتور فالكر، أستمع إليه يروي قصة بيدس بدقّة الساعات السويسرية المتناهية. قال: «إنّ يوسف بيدس سجين عندنا، فقط لأن الحكومة الاتحادية



بنك إنترا، بيروت.



طلبت منّا أن نبقيه، وليس لشرطة لوسيرن أو قضائها أية دعوى ضده. وهو نزيل في عهدتنا إلى أن تقرر حكومة برن ما تراه مناسبًا، فنحن نعمل بالنيابة عن الحكومة الاتحادية. ولولا ذلك، لأطلقنا سراحه من زمان. هو مسجون لأن هناك طلباً من الحكومة اللبنانية لاسترداده، ما زالت برن تنظر فيه. هذا ما أستطيع أن أخبرك، وأجهل غيره».

وسألتُ الدكتور فالكر عمّا إذا كنتُ أستطيع أن أقابل بيدس في السجن، فأجاب: «أنا لا مانع عندي، وكنتُ أمنحك فورًا إذنًا، لو كان سجيني، طبعًا مع الافتراض أن بيدس لا يمانع في ذلك. لكن - وللأسف - هو سجين الحكومة الاتحادية، ولا أملك سلطة فوقها. آتني بإذن من المدعي العام الاتحادي، بشرط أن يقبل بيدس نفسه، فأسمح لك بالتحدث إليه ولقائه». وودعني الدكتور فالكر إلى الباب معتذرًا عن «قانونية القانون وصعوبته»، وقال: «اذهب إلى برن وآتني بإذن منها، وأنا بانتظارك. وسأرى بيدس بعد الظهر، وأقول له إنك ترغب في التحدث إليه».

قال الدكتور فالكر: «اذهب إلى برن وآتني بإذن منها، وأنا بانتظارك. وسأرى بيدس بعد الظهر، وأقول له إنك ترغب في التحدث إليه»

الشاهد الرابع: المدعي العام الاتحادي

بعد ظهر اليوم نفسه، الأربعاء ٦ تشرين الثاني/نوفمبر، كنتُ في مكتب نائب المدعي العام الاتحادي الدكتور مولر في مبنى وزارة العدل والشرطة في برن (المسافة بين لوسيرن وبرن في القطار تستغرق نحو ساعة ونصف ساعة). قلتُ للدكتور مولر: «أريد أن أعرف أولًا أين صارت قضية بيدس بالنسبة إلى الحكومة الاتحادية، ثم إذا كنت أستطيع التحدث إليه وزيارته في السجن».

أجاب نائب المدعي العام الاتحادي، وهو جالس وراء مكتب متواضع في غرفة تتميز بكل الأناقة والنظافة السويسريتين: «لقد سلّم اليوم - الأربعاء - السفير اللبناني في برن وزارة الخارجية السويسرية ملف الاسترداد بحق بيدس، ونحن في وزارة العدل لم نتسلمه بعد، لأنه يجب أن يمرّ بالطرق التقليدية في الروتين الحكومي، وسندرس نحن الملف خلال ثلاثة أشهر في حدٍّ أدنى. وإذا وجدناه ناقصًا أو غير واضح في نواحٍ معينة، فإننا نطلب من الحكومة اللبنانية المزيد من الإيضاحات، حتى نصل إلى قناعة قانونية في الموضوع. وسيستغرق ذلك، ولا شك، وقتًا. وإذا رأينا أن الطلب اللبناني غير مستوفٍ الشروط، نُطلق سراحه فورًا. إذ ليس للحكومة السويسرية أي اتهام ضده».

«أما مقابلته فمستحيلة. ومع تقديري للمشاقّ التي تكبدتَها، فإن القانون ينص صراحة على أنه لا يحق لأحد أن يقابله إلا محاميه وزوجته وأولاده. وإذا أراد هو أن يتحدث إلى الصحافة، أو يقول شيئًا، يجب أن يقوله للحكومة السويسرية وبواسطتها، وليس للصحف مباشرة. لذلك، لم يقابله أي صحافي حتى الآن، سويسريًا كان أو لبنانيًا أو أجنبيًا. أما وضعه القانوني، فنحن في وزارة العدل بانتظار دراسة الملف».

الشاهد الخامس: الزوجة والسجين

تجمعت لديَّ خيوط القصة الكاملة لاعتقال بيدس وحقيقة وضعه القانوني من فم أصدق الناس وأصحاب العلاقة المباشرين. بقي الشاهد الإنساني الأخير، وهو زوجته المقيمة في لوسيرن منذ أكثر من أسبوع، وقد قابلَته ثلاث مرات، كانت آخرها اليوم. وكانت المقابلات تجري في غرفة المدعي العام، لا في غرفة السجن حيث هو في الانفراد، ويسمح لها بأطول وقت ممكن معه. وهو يأكل طعامًا خاصًا، وسلطات لوسيرن تعامله معاملة خاصة ضمن ما يسمح به القانون، كذلك فإنها سهّلت مهمة زوجته، ويطلب بيدس الصحف الإنكليزية باستمرار، لأن الصحف الوحيدة التي تصله هي الألمانية. وستقيم زوجته في لوسيرن، بانتظار ما سيسفر عنه التحقيق.

إنترا جنيف وبيدس

في جنيف علمت أن «إنترا جنيف»، وهو بنك سويسري مستقل، طلب من محاميه ومحامي بيدس السابق الدكتور جان لاليف، عدم التوكل عن بيدس في هذه الدعوى، لأن هناك دعوى عالقة بين البنك في جنيف منذ حادثة الإفلاس، وبيدس، ولأنه يخشى من تضارب في الولاء. وقبِل لاليف، وهو يعمل على تصفية «إنترا جنيف» على مهل، تمهيدًا لبيعه لأحد المصارف السويسرية قريبًا.

وتبقى قصة يوسف بيدس الشخصية، السجين البعيد المرفَّه في لوسيرن، تعدّ الأيام، لتُروى مرة أخرى على حقيقتها، بعد أن يكون ملف الاسترداد اللبناني قد مرّ على جميع الأيدي التي تريده، وتكون العيون قد تعبت من قراءته، أو على الأغلب ملّت، فتطلق سراحه أو تعيده، لتعود القصة فتبدأ، كما في الأصل، من لبنان.

من تاريخ الأوليغارشية اللبنانية في عهد الاستقلال - ٢

نواصل في هذا العدد نشر وثائق الخارجية الأميركية عن الأوليغارشية اللبنانية في عهد الاستقلال. يحوي هذا القسم طلب رئيس الوزراء عبد الله اليافي مساعدة أميركية ضد الشيوعية بعد تظاهرة لطلاب الجامعة الأميركية في بيروت وتقريرًا عن أسرة المصالح الاقتصادية لآل كتّانة، ومحادثة مع رجل الأعمال والسياسي هنري فرعون.

١- عبد الله اليافي يطلب مساعدة أميركية ضد طلاب الجامعة الأميركية!

برقية من الجهاز الخارجي

من: بيروت

إلى: وزارة الخارجية، واشنطن. ٦ نيسان/ أبريل ١٩٥٤

المرجع: غير واضح

الموضوع: رغبة الحكومة اللبنانية في مناهضة الشيوعية

تلخيص: أثارت الاضطرابات في الجامعة الأميركية في بيروت قلق الحكومة اللبنانية تجاه النشاطات الشيوعية في لبنان. من أجل مواجهة النفوذ التخريبي، طلب رئيس الوزراء عبد الله اليافي مساعدة أميركية، وهو طلبٌ تعتقد السفارة أنه يستحق الاهتمام المركّز.

نحا بي رئيس الوزراء عبد الله اليافي جانبًا خلال حفل غداء في منزله أمس لإبلاغي القلقَ الذي يشغل الحكومة اللبنانية حاليًا بصدد النشاطات الشيوعية التخريبية في هذا البلد. وكما لاحظتْ برقية السفارة رقم ٦٢٣ بتاريخ الثاني من نيسان/ أبريل ١٩٥٤، حظيَ هذا الموضوع باهتمام غير مسبوق نتيجة صدام بين الطلاب والشرطة في الجامعة الأميركية في بيروت يوم ٢٧ آذار/مارس وحوادث مشابهة*.

وإذ استذكر رئيس الوزراء اتصالات سابقة من السفارة به وبمسؤولين لبنانيين آخرين بصدد جدّية الخطر الشيوعي، قال إنه يدرك الآن أنّ قلقنا كان مبررًا كليًا. وقال إن التأثيرات التخريبية الشيوعية أضخم ممّا كان يتصور، مؤكدًا تصميم حكومته الصارم على اتخاذ إجراءات بصدد تلك المسألة. وقال إن التعاون الأميركي سيكون موضع تقدير، وإنه يفكّر، بنوع خاص، بنوعين من أنواع المساعدة، على أن يقدَّم كلاهما من دون إعلان محلّي عنهما: (أ) مساعدة مالية، تقدّم ربما بصفتها مساعدة اقتصادية، يمكن تخصيصها لشراء تجهيزات وآليات للسيطرة على الاضطرابات الشارعية؛ و(ب) توفير اختصاصيّ في مكافحة الشيوعية يعمل بالسر وعلى نحو وثيق مع إدارة الإذاعة الحكومية للتصدي للتأثيرات الشيوعية.

واليوم، اتصل بي السفير البريطاني لإبلاغي أن رئيس الوزراء اليافي اتصل به طالبًا مساعدة مماثلة من البريطانيين. ويرى السفير البريطاني أنّ الاختصاصي بمكافحة الشيوعية لن يقتصر عمله على الحقل الإذاعي ولكنه سيساعد في مروحة واسعة من النشاطات الإعلامية الحكومية، بما فيها النشاطات الصحافية. وعلّق السفير البريطاني قائلاً إن الحكومة اللبنانية طلبت لفترةٍ خلَت إنشاء مركز لمكافحة الشيوعية بدعم غربي في لبنان، يمكن أن تتعاون معه الحكومة اللبنانية، إلا أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن متحمّسة للمقترح، وبنَت معارضتها على أنه يتعيّن على الحكومة اللبنانية ذاتها أن تتخذ المبادرة وتتحمل المسؤولية الأولى في حقل مكافحة الشيوعية في هذا البلد. ويَفترض السفير أن الموقف البريطاني لا يزال على حاله وقال إنه يشعر بأنه وحكومته قليلا الاهتمام بالطلب اللبناني الجديد.

بناءً على حديثي مع رئيس الوزراء، كما على تقرير السفير البريطاني، لديّ انطباع حاسم بأن السيد اليافي لم يأخذ الوقت

* في ذلك اليوم، خرجت تظاهرة من بوابة الجامعة الأميركية تندّد بالأحلاف العسكرية الأميركية، أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين فسقط حسان أبو إسماعيل، عضو الحزب التقدمي الاشتراكي، الذي كان في مقدمة المسيرة، وأكثر من ٣٠ جريحًا.



الكافي للتفكير بالاقتراح الذي قدّمه. كما لديّ انطباع بأن رئيس الوزراء قلق جداً من التخريب خصوصًا بسبب الأزمة التي مرّت بها الحكومة مؤخرًا، لكن لا يبدو أنه متأكد ممّا يريده بالضبط. مهما يكن، مجرّد شعوره بتلك الحاجة هو بذاته ذو دلالة.

بهذا الصدد، قد تتذكر نظارة الخارجية أنني في حديثي مع وزير الخارجية (برقية السفارة رقم ٧٩٦، في ٢٨ آذار/ مارس ١٩٥٤) فور اضطرابات الجامعة الأميركية، كما في حديثي اللاحق مع الرئيس [كميل] شمعون، أشرتُ إلى ما بدا لي شخصيّاً نقطةَ ضعف جدية في أداء الحكومة، وهي افتقادها الأجهزة المناسبة والتدريب اللازم لقوّات الأمن اللبنانية المعنيّة بالسيطرة على التظاهرات الشارعية. إن عدم الكفاءة هذه التي برزت بوضوح خلال حادثة الجامعة الأميركية تعترف بها الأوساط اللبنانية الحكومية وغير الحكومية.

منذ عدة أيام، مثلاً، النقيب جوزيف حركة، وهو نقيب شرطة واعد في بيروت (برقية السفارة رقم ٥١٦ في ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٥٤) اتصل بصديق أميركي له، وأخذ يلحّ بأن تساعد الولايات المتحدة قوات الأمن اللبنانية بموجب مشروع «النقطة الرابعة» أو بأي واسطة أخرى. قال حركة إنه، بصفته الشرطي الأعلى رتبةً في بيروت، فاقد الكفاءة كليًا في توجيه رجاله في أمور من هذا النوع. وقد أمل بصدق أن ترسل الولايات المتحدة شخصًا إلى لبنان يستطيع أن يوصي بآخر الوسائل والتجهيزات اللازمة لمواجهة التخريب والسيطرة على الاضطرابات الشارعية، ومعظم هذه الأخيرة هي من وحي الشيوعيين، جزئيّاً على الأقل.

بالنظر إلى طلب رئيس الحكومة، أشاطر وجهة النظر البريطانية القائلة إن المسؤولية الأولى عن هذا النوع من النشاط يجب أن تقع على عاتق اللبنانيين. وأنا مدركٌ أيضًا أن حماس اللبنانيين لحملة مكافحة التخريب قد يخفت ما إن تهدأ الأمور هنا. مهما يكن من أمر، الوضع الأساسي باعث على القلق وثمّة حاجة مؤكدة للعمل ضد الشيوعيين.

لذا إنني مقتنع بأنه يفيد الوزارة والسفارة أن تفكرا في الخطوات التي يمكن للحكومة الأميركية اتخاذها، على نحو علني أو سرّي، لتشجيع ودعم المبادرات اللبنانية المعادية للشيوعية. وإني أعتقد أن الوزارة قد تكون تلقّت طلبات مماثلة من جهات أخرى. وإذا كان بإمكان الوزارة أن تستعين بتلك التجارب لكي ترشد السفارة إلى السبل المتاحة، فإن السفارة ستدرس الإمكانيّات المختلفة بالتعاون مع الوزارة لتقرير نوع المساعدة التي يمكن لحكومة الولايات المتحدة الأميركية تقديمها للحكومة اللبنانية في تلك القضية الحيوية.

رايموند أ. هاير

٢- آل كتّانة

الملحق البحري، بيروت، لبنان U3
المفوضية الأميركية، بيروت

معلومات خلفية عن الأخوة كتّانة، سامي شقير وصلاح الدين باقي
شخصيات اقتصادية فردية – رؤساء مؤسسات أعمال هامة
المراجع:
(a) DIO-11ND serial 36-49 dtd 14 June 1949.
(b) MA Beirut serial 70-49 dtd 8 Aug. 1949.
(c) MA Beirut serial 46-49 dtd 27 May 1949.
موجز: يقدّم هذا التقرير معلومات خلفية عامة عن الإخوة كتّانة، سامي شقير وصلاح الدين باقي.
١- جوابًا على مرجع (أ)، الذي طلب المعلومات عن الموضوع، نقدّم الآتي:

الإخوة كتّانة
الإخوة كتّانة الآتية أسماؤهم هم شركاء ومديرو ومالكو رأس مال.
- فرانسيس- ٥١ سنة – مواطن أميركي يسكن في الولايات المتحدة.
- ألفريد- ٤٨ سنة – مواطن لبناني يسكن في لبنان.
- ديزيريه- ٣٩ سنة – مواطن لبناني يسكن في لبنان.
- شقيقتهم وصهرهم شريكان مضاربان، يملك كلٌّ منهما ٥٪ من رأس -المال/ المصلحة في مكتب بيروت فقط.

تأسست شركة Kettaneh Freres، المعروفة أيضا باسم F.A. Kettaneh العام ١٩٢١ ومركزها الرئيس في بيروت ولها فروع في دمشق وحلب بسورية؛ وبغداد بالعراق؛ وطهران بايران؛ والقاهرة بمصر؛ والقدس بفلسطين؛ وجدّة بالعربية السعودية. ولها أعمال في تركيا. تفيد معلومات بأن الشركة تملك الآن استثمارات بقيمة ثلاثة ملايين دولار على شكل سلع أو عملة نقدية في الولايات المتحدة والشرق الأوسط. عدا ذلك، فإن المساهمين في الشركة يملكون شركات كبيرة في لبنان وسورية ومصر. ويقال إن الأول (فرانسيس) يملك مؤسسات الأعمال الآتية:
- ١٠٠٪ من شركة Chemica- Cicurel and Co. ، رأسمالها ٢٠،٠٠ جنيه مصري
- ١٠٠٪ من شركة ف .أ. كتّانة وشركاه (فلسطين) شركة محدودة/ رأسمالها ١٠،٠٠ ليرة فلسطينية.

DECLASSIFIED BY AUTHORITY OF EXECUTIVE ORDER 12065, Section 3-402,
NNDG 765022, W.G.Lewis (cm), NARS, 11/10/81.

CONFIDENTIAL
78-49 - NA Beirut, Lebanon IR dtd 8 September 1949 CONFIDENTIAL Page Two.

100% Eastern Distributors Ltd., Beirut - Capital: 500,000 Lebanese pounds.
80% Societe Allumettiere du Levant, S. A. - Capital: 500,000 Lebanese pounds
80% Iraq Trading and Manufacturing Co., Baghdad - Capital: Iraqi dinar 100,000.
50% A. Hakim and Co., Teheran - Capital: 4,000,000 Rials.
100% Auto-Teheran, S. A., Teheran - Capital: 30,000,000 Rials.
51% North East Africa Trading Co., S.A.E., Egypt - Capital: 250,000 Egyptian pounds(75% fully paid up).
100% F. A. Kettaneh (Egypt), Cairo - Capital: 100,000 Egyptian pounds (fully paid up).

F. A. Kettaneh are agents for the following firms:

Chrysler Corporation, Export Division, Detroit, Michigan (Syria, Lebanon, Iraq, Iran, Arabia and Persian Gulf).
Fairbanks-Morse and Co., Inc., 80 Broad Street, New York 4, N. Y. (Syria, Lebanon, Iraq and Iran).
Willard Storage Battery Co., 246 East 131 Street, Cleveland, Ohio. (Syria, Lebanon, Iraq, Iran and Arabia).
Champion Spark Plug Company, Toledo, Ohio. (Syria, Lebanon, Iran and Arabia).
E. I. DuPont de Nemours and Co., Wilmington, Delaware (Middle East).
Winthrop Products Inc., ...

Anaconda Wire and Cable ...

General Electric Medical ...
Chicago 3, Ill. (Middle ...
International General El...
(Syria, Lebanon, Iraq, ...
Berkshire Knitting Mill...
United States Steel Exp...
(Syria, Lebanon and Ira...
Allis Chalmers Manufact...

S. S. White Dental Co., ...
International Business ...
Master Surgical Instrum...
Kinetic Chemicals Inc., ...
Remington Arms Co. and ...

The firm imports motor vehicles, ... electrical appliances and equipment, i... pharmaceuticals, heavy chemicals, and ... articles, the firm operates a service ... and olive oil.

The United States representative ... 743 Fifth Avenue, New York, N. Y. Fin...

U. S. Naval Attache, Beirut, Lebanon American Legation, Beirut.

See below A-2

Background Information on KETTANEH FRERES, SAMI SCHOUCAIR and SALAHHEDDINE BAKI.

INDIVIDUAL ECONOMIC PERSONALITIES - Heads of Important Business Institutions.

References: (a) DIO-11ND serial 36-49 dtd 14 June 1949.
(b) NA Beirut serial 70-49 dtd 8 Aug. 1949.
(c) NA Beirut serial 46-49 dtd 27 May 1949.

BRIEF: This report provides general background information on KETTANEH FRERES, SAMI SCHOUCAIR and SALAHHEDDINE BAKI.

1. In answer to reference (a), which requested subject information, the following is submitted:

KETTANEH FRERES

The following Kettaneh brothers are partners and managers and control the capital:

Francis - 51 years old - American citizen residing in the U. S.
Alfred - 48 years old - Lebanese citizen residing in the Lebanon.
Charles - 44 years old - Lebanese citizen residing in the Lebanon.
Desire - 39 years old - Lebanese citizen residing in the Lebanon.
A sister and brother-in-law are silent partners, and own 5% interest each in the activities of the Beirut office only.

Kettaneh Freres, also known as F. A. Kettaneh, was established in 1921 and has its head office in Beirut and branch houses in Damascus and Aleppo, Syria; Baghdad, Iraq; Teheran, Iran; Cairo, Egypt; Jerusalem, Palestine; and Jidda, Saudi Arabia. It also does business in Turkey. It is reported that the firm actually has about $3,000,000.00 invested in merchandise or in current account in the United States, and the Middle East. Aside from that its partners reportedly own large properties in the Lebanon, Syria, and Egypt. The firm is said to control the following business enterprises:

100% Chemifa - Cicurel and Co., Cairo, Capital £Eg. 20,000
100% F. A. Kettaneh and Co. (Palestine) Ltd., Capital: 10,000 Palestinian pounds.
100% F. A. Kettaneh and Co., Ltd., Baghdad, Capital: £Stg. 10,000.

CNO(DNI); DIO-11ND; AMLEG, Damascus; AMLEG, Beirut; FILE.

350.3



- ١٠٠٪ من شركة Eastern Distributors Lt., Beirut رأسمالها ٥٠٠ ألف ليرة لبنانية.
- ٨٠٪ من شركة Société Alimentaire du Levant, S.A. رأسمالها ٥٠٠ ألف ليرة لبنانية.
- ٨٠٪ من شركة Iraq Trading and Manufacturing Co., Baghdad رأسمالها ١٠٠ ألف دينار عراقي.
- ٥٠٪ من شركة A. Hakis and Co., Teheran رأسمالها أربعة ملايين ريال.
- ١٠٠٪ من شركة Auto Teheran, S. A., Teheran رأسمالها ٣٠ مليون ريال.
- ١٠٠٪ من شركة North East Africa Trading Co., S.A.E., Egypt/رأسمالها ٢٥٠ ألف جنيه مصري (مدفوع منه ٧٥٪) .
- ١٠٠٪ من شركة F.A. Kettaneh (Egypt), Cairo/ رأسمالها ١٠٠ ألف جنيه مصري (مدفوع بالكامل).

وشركة ف .أ. كتّانة هي وكيلة للشركات الآتية:

- Chrysler Corporation, Export Division, Detroit, Michigan
  لسورية ولبنان والعراق وإيران والجزيرة العربية والخليج الفارسي.
- Fairbanks-Mores and Co., Inc., 80 Broad Street, New York, N.Y.,
  لسورية ولبنان والعراق وإيران.
- Killard Storage Battery Co., 246 East 131 Street, Cleveland, Ohio;
  لسورية ولبنان والعراق وإيران والجزيرة العربية.
- Champion Spark Plug Company, Toledo, Ohio,
  لسورية ولبنان وإيران والجزيرة العربية.
- E.I. Dupont de Nemours and Co., Wilsington, Delaware,
  لعموم الشرق الأوسط
- Winthrop Products Inc., 350 Rudeon St., New York, N.Y.,
  للشرق الأوسط وتركيا
- Anaconda Wire and Cable Co., 25 Broadway, New York 4, N.Y.
  للشرق الاوسط وتركيا
- General Electric Medical Products Co., 135 South La Salle Street, Chicago3, Ill.,
  للشرق الأوسط باستثناء مصر.
- International General Electric Co., Inc., Schenestady, New York.,
  لسورية ولبنان وإيران والعراق والجزيرة العربية.
- Berkshire Knitting Mills, Reading, Pensylvania
- لعموم الشرق الأوسط.
- United States Steel Exports Co., 30 Church Street, New York, N.Y.,
- لسورية ولبنان وإيران.
- U.S. White Dental Co., Philadelphia, Pennsylvania
- لعموم الشرق الأوسط.
- International Business Machines corp., New York, N.Y.,
- لعموم الشرق الأوسط.
- Kinetic Chemicals Inc., Wilington, Delaware,
- لعموم الشرق الأوسط.
- Kenington Arms Co., and Peter Cartridge Div., Bridgepot, Conn.
  لعموم الشرق الأوسط.

تستورد الشركة سيارات، قطع غيار وتجهيزات للسيارات، عجلات، آلات وتجهيزات كهربائية منزلية، آلات صناعية للحديد والصلب، مواد صيدلية، كماويات ثقيلة، ومواد صباغة. بالإضافة إلى البيع بالجملة للمواد المذكورة أعلاه، تشغّل الشركة محطة خدمة. وتتكون المصدّرات من صوف وتبغ وزيت زيتون.

المثل في الولايات المتحدة-.Kettaneh, Bros., Inc Squib Building, &43 Fifth Avenue, New York, N.Y.

تشغّل الشركة ١٥٠ شخصًا تقريبًا في مكاتبها و٤٠ في محطة الخدمة.

ملاحظة: يعود تاريخ هذه المعلومات إلى ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٤٩ وقد أخذناها من تقرير لـ«دليل التجارة الدولية» (دائرة التجارة، مكتب التجارة الدولية، التصميم ٣٤١، الملف رقم ٥١٠،٢١) التي قدّمتها المفوضية الأميركية ببيروت في ٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٤٩.

سامي شقير

وهو ابن شقيقة زوجة رئيس الجمهورية اللبنانية، مهندس شاب هو حالياً عضو في لجنة تحكيم مكلّفة بالتفاوض على عقود لمشروع المطار الجديد في خلدة، لبنان. وقد عاد مؤخرًا من جولة على مطارات أوروبية الغرض منها تعيين متطلبات المطار الجديد.

DECLASSIFIED BY AUTHORITY OF EXECUTIVE ORDER 12065, Section 3-402.
NNDG 765022, W.G.Lewis (cm), NARS.

CONFIDENTIAL
73-49 NA, Beirut, Lebanon IR dtd 8 September 1949 — Page Three

The firm employs about 150 persons in its offices and 40 in the service station.

Note: The above information is as of 10 June 1949 and was extracted from a World Trade Directory Report (Department of Commerce, Office of International Trade, Form 341, File No. 510.21) submitted by the American Legation, Beirut on 20 June 1949.

SAMI SCHOUCAIR

Reportedly a nephew of the President of the Lebanon, is a young engineer presently assigned to a special adjudication committee charged with negotiating contracts for the new airport project at Khalde, Lebanon. He has recently returned from a tour of European airfields which was made for the purpose of determining the needs of the new airport.

SALAHEDDINE BAKI

No information yet available.

REPORTING OFFICER'S COMMENT

The firm of Kettaneh Freres (F. A. Kettaneh) is very influential in business circles in the Middle East and in Lebanese government circles. The partners are very aggressive and have had a great deal of trading experience. The Kettaneh family is one of the wealthiest in the Lebanon.

صلاح الدين باقي

ليست لدي معلومات عنه إلى الآن.

ملاحظة الموظف كاتب التقرير

إن شركة كتّانة إخوان (ف.أ. كتّانة) قوية النفوذ في دوائر الأعمال في الشرق الأوسط وفي دوائر الحكومة اللبنانية. الشركاء عدوانيون جداً ولديهم تجربة تجارية غنية جدّاً. وأسرة كتّانة واحدة من أغنى الأسر في لبنان.

٣-هنري فرعون ولبنان المسيحي

الحقيبة الدبلوماسية - معلومات متحفّظ عليها أمنيّاً

برقية من الجهاز الدبلوماسي

من: المفوضية الأميركية في لبنان

إلى: وزارة الخارجية، واشنطن -

بتاريخ ٢٦ آذار/ مارس ١٩٥٢

الموضوع: هنري فرعون يشدد على الحاجة للحفاظ على الطابع المسيحي للبنان

هنري فرعون (روم كاثوليك) هو من السياسيين الأقوى نفوذًا في لبنان، شدد في مقابلة مع أحد موظفي المفوضية على أهمية الحفاظ على النفوذ المسيحي في البلد. وقال إن هذه الرؤية قد شُرحت مرات عديدة، لكنها تحتاج إلى التكرار لأن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى لم تفهما بعد أهميتها فهمًا كاملاً.

أعلن أن لبنان المسيحي ليس دولة آسيوية. إنه دولة تتطلع صوب البحر الأبيض المتوسط وهي شديدة التعاطف مع الأمم الغربية. وزعم أن لبنان ينفرد بين البلدان العربية بأنه الصديق الحقيقي للغرب، لكن الغرب سوف يفقد الأسبقية فيه إذا وقع البلد تحت النفوذ الإسلامي. وقال السيد فرعون إنه يتمنى دومًا أن تدرك الولايات المتحدة كما بريطانيا العظمى أنهما بدعمهما لبنان المسيحي إنما يدعمان بلديهما.

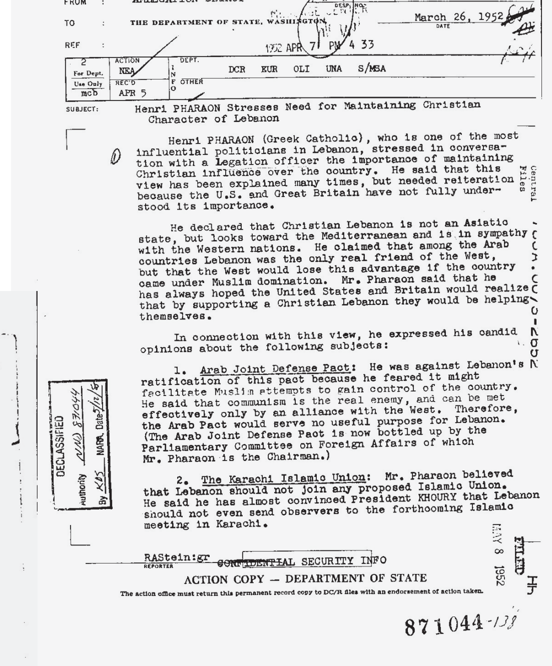
بناءً على وجهة النظر هذه، عبّر عن آرائه بصراحة بصدد المواضيع الآتية:

١. اتفاقية الدفاع العربية المشتركة: عارض أن يوقّع لبنان على هذه الاتفاقية خشية أن يسهم ذلك في محاولة المسلمين السيطرة على البلد. وقال إن الشيوعية هي العدو الحقيقي ولا يمكن مجابهتها الا بالتحالف مع الغرب. من هنا، فإن اتفاقية الدفاع العربية المشتركة لن تخدم لبنان بأي شيء مفيد. (علمًا أن اتفاقية الدفاع العربية المشتركة هي الآن عالقة في لجنة العلاقات الخارجية البرلمانية التي يرأسها السيد فرعون).

٢. الوحدة الإسلامية في كراتشي. يعتقد السيد فرعون أن لبنان لن ينضم إلى الوحدة الإسلامية المقترحة. وقال إنه نجح في إقناع الرئيس [بشارة] الخوري تقريبًا بأن لبنان يجب ألّا يرسل حتى مراقبين إلى الاجتماع الإسلامي المقبل في كراتشي.

٣. الحزب القومي السوري PPS*: قال السيد فرعون إنه لا إمكانية أن تتورط حكومة الرئيس الخوري مع الحزب القومي السوري الذي يتعارض هدفه في [وحدة] سورية الطبيعية تعارضًا كاملاً مع مصالح لبنان. وهو لا يتوقع الاعتراف بالحزب السوري القومي كحزب شرعي في لبنان.

* يعتمد النص التسمية الفرنسية الرائجة عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، Parti Populaire Syrien وترجمتها الحرفية «الحزب الشعبي السوري».



AIR POUCH CONFIDENTIAL SECURITY INFO
PRIORITY (Security Classification)
FOREIGN SERVICE DESPATCH

DO NOT TYPE IN THIS SPACE
783a.00/3-2652

FROM : AMLEGATION BEIRUT — 494 DESP. NO.
TO : THE DEPARTMENT OF STATE, WASHINGTON — March 26, 1952 DATE
REF :
1952 APR 7 PM 4 33

2 For Dept. Use Only mcb | ACTION NEA | REC'D APR 5 | INFO DEPT. DCR EUR OLI UNA S/MSA | OTHER

SUBJECT: Henri PHARAON Stresses Need for Maintaining Christian Character of Lebanon

Henri PHARAON (Greek Catholic), who is one of the most influential politicians in Lebanon, stressed in conversation with a Legation officer the importance of maintaining Christian influence over the country. He said that this view has been explained many times, but needed reiteration because the U.S. and Great Britain have not fully understood its importance.

He declared that Christian Lebanon is not an Asiatic state, but looks toward the Mediterranean and is in sympathy with the Western nations. He claimed that among the Arab countries Lebanon was the only real friend of the West, but that the West would lose this advantage if the country came under Muslim domination. Mr. Pharaon said that he has always hoped the United States and Britain would realize that by supporting a Christian Lebanon they would be helping themselves.

In connection with this view, he expressed his candid opinions about the following subjects:

1. Arab Joint Defense Pact: He was against Lebanon's ratification of this pact because he feared it might facilitate Muslim attempts to gain control of the country. He said that communism is the real enemy, and can be met effectively only by an alliance with the West. Therefore, the Arab Pact would serve no useful purpose for Lebanon. (The Arab Joint Defense Pact is now bottled up by the Parliamentary Committee on Foreign Affairs of which Mr. Pharaon is the Chairman.)

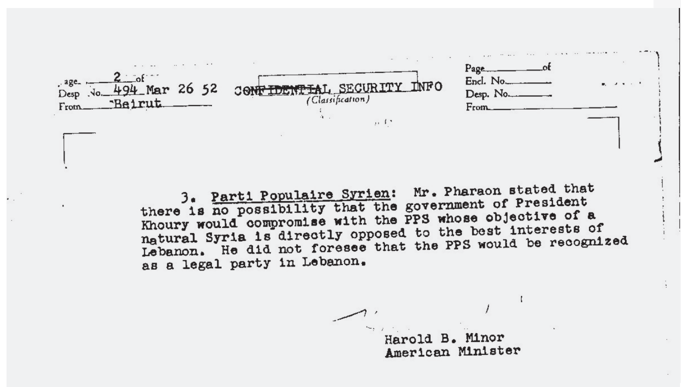
2. The Karachi Islamic Union: Mr. Pharaon believed that Lebanon should not join any proposed Islamic Union. He said he has almost convinced President KHOURY that Lebanon should not even send observers to the forthcoming Islamic meeting in Karachi.

DECLASSIFIED Authority NND 871044 By KDS NARA, Date 5/12/86

RAStein:gr CONFIDENTIAL SECURITY INFO
REPORTER
ACTION COPY — DEPARTMENT OF STATE
The action office must return this permanent record copy to DC/R files with an endorsement of action taken.

MAY 8 1952 FILED

871044-138



Page 2 of
Desp No. 494 Mar 26 52 CONFIDENTIAL SECURITY INFO
(Classification)
From Beirut

Page of
Encl. No.
Desp. No.
From

3. Parti Populaire Syrien: Mr. Pharaon stated that there is no possibility that the government of President Khoury would compromise with the PPS whose objective of a natural Syria is directly opposed to the best interests of Lebanon. He did not foresee that the PPS would be recognized as a legal party in Lebanon.

Harold B. Minor
American Minister


فيما نظر
كتابات في الماركسية

عن الماركسية والتاريخ والثورات والدولة الوطنية والمجتمع المدني والطائفية وأشياء أخرى

فواز طرابلسي

كاتب ومؤرخ ورئيس تحرير مجلة «بدايات»

أجرى المقابلة مصطفى ديب ونشرت في موقع «الترا صوت» كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٢

طرح عليّ الأخ مصطفى ديب أكثر من ١٥ سؤالًا يدور معظمها مدار نظريات وأفكار من فترة ما بعد الحرب الباردة وقد وصلت إلى المنطقة العربية وباتت فاعلة في الحياة الفكرية والثقافية وبدأ تداولها، حتى لا أقول استهلاكها، وقد حلّت بسرعة محلّ مفاهيم ونظريات سابقة، جرى التخلي عنها، وتبنّي الجديدة قبل أن تتعرّض لما تستحقه من تدقيق ونقاش. قبلت التحدي خصوصًا أن بعض الأسئلة حفزني على التفكير والكتابة في مواضيع لم أكن قد تطرّقت لها من قبل. وغني عن القول أن الإحاطة بهذا العدد من المواضيع استدعى مقدارًا من الضغط والاختصار.

نشأت في زمن الثورات

بدايـــــــةً، ثمّة سؤال لا بدّ منه، وهو: نعرف فوّاز طرابلسي كاتبًا وباحثًا ومؤرّخًا ومُفكّرًا أيضًا، ولكنّنا لا نعرف فعليًا ظروف لقائه بالتأريخ والسياسة. هلّا تكرّمت وحدّثتنا عنها؟

نشأت في زمن الثورات وثرت مع الثوار. كنت أرى إلى نفسي مناضلًا في حركة التحرر الوطني والاجتماعي العربية. مارست ذلك النضال بما هو نضال للتحرر الفردي أيضًا. لعب عدوان السويس ١٩٥٦ دورًا كبيرًا في تأسيس وعيي السياسي والوطني.

لم أمارس السياسة، بالمعنى التقليدي، كان إطار عملي السياسي هو دومًا العمل الحزبي الجماعي. وقد مارسته بالتزامن الدائم مع التفكّر بتلك الممارسة، وخدمتها، عن طريق الإنتاج الفكري والثقافي. عملت في الصحافة منذ وقت مبكر وبعد الانتهاء من تفرّغي الحزبي، الذي دام عقد ونصف العقد من الزمن، امتهنت التدريس لكسب العيش.

والسياسة هي أيضًا اختصاصي الأكاديمي. درستها في المرحلة الجامعية ودرّستها في الجامعة. بعد العام ١٩٨٤ قررت استكمال دراستي نحو الدكتوراه التي قطعتها العام ١٩٧٠ وعدت إلى البلاد للمشاركة في تنظيم كنت قد شاركت في تأسيسه هو منظمة العمل الشيوعي. انتقلت إلى باريس، اخترت أن أكمل دراستي بقسم التاريخ وقد بتّ مقتنعًا بأن علم التاريخ هو الأنسب والأشمل بين كافة الاختصاصات للتعبير عن التجارب والحروب التي عشناها وقد قررت أن أتفرّغ للكتابة عنها، بوسائل متعددة، منذ تلك الفترة.

قررت أن أروي تلك التجارب في أعمال سمّيتها «تصنيع التجربة»، وهي مزيج من شهادات عن التجارب ومحاولات إعطاء معنى لها ومراجعتها نقديًا أضعها بتصرّف القراء والثوار من الأجيال الجديدة. وسنتكلم عن ذلك فيما يلي.

بين التاريخ والشعر والدبّاغات

الجدّ شاعر، والأخوال شعراء أيضًا، بمعنى أنّ الظروف كانت مهيأة ربّما لتُصبح شاعرًا أو كاتبًا أو رسّامًا، لكنّك تركت كلّ ذلك جانبًا وانخرطت في السياسة وبعدها كتابة التاريخ. هل تشعر الآن بأنك أديب ضلّ طريقه إلى السياسة؟ أم ترى نفسك اهتديت إليها؟ وعند الكتابة في السياسة أو التاريخ، ألا تُراودك الرغبة في كتابة قطعة أدبية خالصة؟

الجدّ عيسى إسكندر المعلوف مؤرّخ ولغوي. ثلاثة من الأخوال شعراء وثلاثة من أخوال الأخوال شعراء. كنت مصابًا بالربو في الطفولة، وكان منزلنا رطبًا، فسكنت خلال فترات طويلة منزل جدّي وجدتي في بيروت في الشتاء أو في زحلة خلال الصيف. تعلمت من الجدّ الولع بالكتب وباللغة العربية واكتسبت متعة القراءة وفضول التحري والبحث.

لكني أنتمي أيضًا إلى عالم آخر. تتحدّر أسرة الوالد من بلدة مشغرة المختلطة (مسيحية-شيعية) في البقاع الغربي

توزَع أفرادها بين العمل في دباغة الجلود والتجارة بالجلود والهجرة. عرفت صناعة الجلود الازدهارَ خلال الحرب العالمية الثانية، بسبب الطلب العسكري على الجعب والأحزمة والجزمات الجلدية. كان الوالد يعمل موظفًا في «فندق الشرق» (أوريانت پالاس) بدمشق فتزوج وانتقل خلال الحرب إلى بيروت حيث فتح محلًا لبيع الجلود التي تنتجها دباغة أخيه وكانت له حصة متواضعة فيها. انتكست صناعة الجلود انتكاسة كبيرة في نهاية الأربعينيات عندما أقفلت الحدود مع فلسطين، المستورد الأول لجلود البلدة، بسبب الاحتلال الإسرائيلي، كما أقفلت مع سورية بسبب القطيعة الاقتصادية بين لبنان وسورية ١٩٤٨-١٩٥٠. أخذ الوالد يزاوج بين تجارة الجلود واستثمار فندق في بحمدون حتى تفرّغ للأخير.

لم أفكّر كثيرًا بهذا الأثر العائلي المركّب. غير أنه فاعل دون شك، وأحسب أنه أغنى حياتي ونوّعها ووسّع آفاقها. لكنني صنعت حياتي بقدر كبير من الاستقلال عن البيئة العائلية.

مثل أي مراهق عربي، كانت لي محاولات شعرية لم تعمّر بعد المدرسة الثانوية. لكن ولعي الأول منذ أيام الدراسة كان بالفن التشكيلي، ما دفعني، في ختام المرحلة الثانوية، إلى دراسة الفن في معهد فني بمدينة مانشستر نهاية الخمسينيات. ثم اكتشفت الاشتراكية والماركسية وقررت دراسة الاقتصاد والسياسة.

لم تقتصر كتاباتي على السياسة. مع أن كتاباتي السياسية موزّعة على عدة مؤلفات ومجموعات مقالات في السياسة اللبنانية والعربية والدولية مع وفرة من المقالات والأبحاث عن ثورات العام ٢٠١١، إضافة إلى عدة مؤلفات تلامس السياسة دون أن تنحصر بها: نقد الأيديولوجيا اللبنانية، من خلال فكر ميشال شيحا (١٩٩٨). إلى هذا، ألهمتني مشغرة دراسة في الأنثروبولوجيا بعنوان «يا قمر مشغرة: المحسوبية والاقتصاد والتوازن الطائفي» (٢٠٠٤). وفي الاجتماعيات أصدرت «الطبقات الاجتماعية والسلطة السياسية في لبنان» (٢٠١٦) إلخ.

خلال التفكير في أجدى وسيلة للتعبير عن تجارب الحرب والثورات، توصلت إلى أن التعبير الأدبي والفني أقدر على الإحاطة بالصراعات والتحولات الاجتماعية والسياسية من النص السياسي الصرف. وأدركت عكسًا، أنه يمكن قراءة تلك الصراعات العنيفة والتحولات الجذرية من خلال تعبيراتها في الأدب والفن. قرأت تحولات المجتمع والسلطة في لبنان بين حربين أهليتين (١٩٥٨-١٩٧٥) من خلال مسرح الأخوين رحباني وفيروز «مسرح فيروز والرحابنة: الغريب، الكنز، والأعجوبة» (٢٠٠٧)، وفي مقالات وأبحاث في الثقافة الشعبية في «إن كان بدّك تعشق...» (٢٠٠٤). في «غيرنيكا-بيروت: جدارية لبيكاسو/مدينة عربية في الحرب» (١٩٨٧) قرأت جدارية بيكاسو الشهيرة بعيون شاهدتْ حربًا أهلية؛ وختمت بمقارنة بين مقاطع من جدارية عن الحرب ومشاهد من مدينة في الحرب. واصلت الإنتاج عن الحروب الأهلية والعنف في «دم الأخوين. العنف في الحروب الأهلية» (٢٠١٧) من خلال أعمال هاينر موللر ومحمد الماغوط، ولوحات كارافاجيو، وفيلم عن حصار ساراييفو البوسنية، والتعريف بطائفة الكاثار الفرنسية، وملصقات الحروب اللبنانية، وتاريخ القصف الجوي ضد المدنيين، وغيرها. وفي اليوميات، كتبت عن حصار الجيش الإسرائيلي لبيروت صيف ١٩٨٢ في «عن أمل لا شفاء منه» (١٩٨٤) وعن زياراتي لليمن في «وعود عدن» (٢٠٠٠). ونشرت مختارات من أعمال مجهولة لأحمد فارس الشدياق، مع عزيز العظمة (١٩٩٥) مساهمةً في التعريف بهذا الكبير والمنسي بين شخصيات النهضة العربية في القرن التاسع عشر. وفي كل هذا أدين بالكثير الكثير إلى صديقي وأخي الناشر والصحافي (الراحل) رياض الريّس صاحب الدور الأكبر في تحريضي على التأليف والنشر وملاحقتي في التنفيذ.

لا تراودني كتابة الأدب لذاته. لست أملك الموهبة ولا القدرة على كتابة رواية، مع ثقتي بأن أفضل نوع أدبي للتعبير عن الصراعات والتحولات المجتمعية هو الرواية. أتوسل الأسلوب الأدبي من أجل أفضل أداء في المواضيع التي أكتب عنها. ترجمت الشعر الحديث من العربية وإليها، كما ترجمت أعمالًا ثقافية وأدبية لإدوارد سعيد وإتيل عدنان وجون برجر وآخرين. كتبت في النقدين الأدبي والفني على سبيل الهواية. وحظيت بصداقة شعراء وأدباء وفنانين أقدّر نتاجهم وأشخاصهم وأعتزّ بصداقتهم. وأنا أصدر منذ عقد من الزمن فصلية ثقافية اسمها «بدايات». أتابع ما استطعت في الشعر والرواية والمسرح والفن والنقد. وأنا محاط بأسرة تتعاطى الفن. شقيقتي آمال تدير «غاليري» للأعمال الفنية في بيروت. وزوجتي نوال عبود فنانة ترسم كالأطفال للأطفال وكلانا يتابع بشغف وإعجاب شغل ابنتنا جنى في الرسم والتصميم الغرافيكي.

الماركسية لا تزال مرجعي الأول

بما أنّنا نراوح بين الماضي والحاضر، اسمح لنا أن نسألك عن صورة الفتى بالأحمر: ما الذي تبقّى منها؟ لبنان الاشتراكي، منظمة العمل الشيوعي، الحرب الأهلية، ظفار، اليمن، وغيرها. ما الذي تبقّى من صورتك في تلك المرحلة؟ ما الذي ظلّ ثابتًا؟ وما الذي تغيّر أيضًا؟ ولماذا؟



عايشت عدة ثورات مباشرة وشاركت ببعضها. وقد شهدت على تلك التجارب وراجعتها نقديًا في «اليمن الجنوبي في حكم اليسار» (٢٠١٥) بمساعدة الروائية والمناضلة بشرى المقطري؛ وفي «ظفار، شهادة من زمن الثورة» (٢٠٠٣)، وفي كتابات عديدة في القضية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية وغيرها. لم أكتفِ بالشهادة والمراجعة لتجاربي، حرصت على تحرير ونشر شهادات لتجارب رفاق من المناضلين اليساريين عرب، بينهم جارالله عمر اليمني وجورج بطل اللبناني.

أشدد على الشهادة والمراجعة، أي على تقييم تلك التجارب وتعيين الأخطاء المرتكبة في سياسة معيّنة وأسبابها وتعيين المسؤول أو المسؤولين عنها. لست مقتنعًا بالنقد الذاتي، لأنه طقس تكفيري، لا يفسّر الخطأ وفي العادة لا يتضمن استعداد مَن يمارسه، فردًا أو جماعة، لتحمّل المسؤولية أو التعرّض للمحاسبة. ينتهي مفعول النقد الذاتي عادة بمجرد الإدلاء به. ولا أنا معجب بفعل الندامة فمثله مثل نقيضه الذي يتباهى بتبني التجربة بحرفيتها لو قدّر لها أن تتكرر. أما اعتبار أن عكس الخطأ في الممارسة السياسية والمجتمعية هو الصح فطقس بليد لا يثبت بذاته صحّة الصح.

لست مقتنعًا بالنقد الذاتي، لأنه طقس تكفيري، لا يفسّر الخطأ وفي العادة لا يتضمن استعداد مَن يمارسه، فردًا أو جماعة، لتحمّل المسؤولية أو التعرّض للمحاسبة

اليسار بين القومية والليبرالية

خلاصة تجربتي في اليسار الشيوعي و«اليسار الجديد» تقول إنهما ينتميان بالجملة إلى مرحلة انقضت هي مرحلة التحرر الوطني التي لا تزال تهيمن على الوعي والرؤية لديهم. واليسار الآن بقايا أحزاب وتنظيمات معظمها انشقّ تحت وطأة الانهيار السوفييتي بين مكوّنين رئيسين: المكون القومي، والغالب عليه عداء بدائي للاستعمار الكولونيالي، والأحرى لأميركا - أكثر مما هو عداء للإمبريالية الجديدة والرأسمالية النيوليبرالية، من جهة، والمكون الليبرالي، أكثر مما هو ديموقراطي، داعية تعددية، أكثر منه داعية مساواة سياسية وقانونية، شديد التأثر بالثقافوية وسياسات الهوية ومقولات «المجتمع المدني» والرأسمالية النيوليبرالية.

والتشديد هنا على أنه لا وجود ليسار واحد. اليسار متعدد، كما في كل مذهب أو تيار، وقد انتهى عهد احتكار المرجعية على أمل استكمال ذلك بالقضاء على منطق التكفير بين اليساريين. رأيت في ثورات ٢٠١١ فرصة كبيرة لليساريين كي يلتقطوا أسباب وآليات وخصائص تلك المرحلة ويعيدوا تأسيس تنظيماتهم وإنتاج رؤية يتعاقدون عليها وبناء قواهم وتجديد قواعدهم الاجتماعية. فالمؤكد أن الثورات والانتفاضات مناسبات استثنائية لكشف أعماق السلطة والمجتمع وآليات تشغيل هذه وذاك. كانت تلك فرصة ضائعة ولا يزال ثمة دور ينتظر من يضطلع به. ولا أزال مقتنعًا بأن اليسار، واليسار الماركسي خصوصًا، هو الأقدر بين المذاهب والتيارات المعاصرة على فهم عالمنا المعاصر وخصوصًا هذا الطور الأخير من الإمبريالية والرأسمالية. إلا أن ذلك يقتضي الاستعداد للبدء من البداية في إنتاج رؤية للوضع العربي الراهن تستجيب لتحديات المرحلة الجديدة، رؤية لا تقضي على الخاص بحجّة العامّ. أي لا تستسلم للتعميمات على مجمل العالم العربي، الصادرة عن المؤسسات الدولية أو الأكاديميات الأميركية: من تعميم نمط إنتاج كولونيالي على المنطقة، بحجة أن فلسطين لا تزال تحت الاحتلال الاستيطاني، إلى التصنيفات الاختزالية المختلفة للاقتصاد، الريعية والباتريمونيالية وأخواتها، المبنية على تعميم تجربة الدول النفطية، والكل للتغطية على عولمة الرأسمالية وحقبتها النيوليبرالية.

بعبارة أخرى، الصراع الفكري موجود ومحتدم مقدّمةً لبلورة الرؤية الجديدة التي ترقى إلى مستوى مواجهة تحديات العولمة والطور الجديد من الرأسمالية في وقعهما على العالم العربي. ومن أبرز التحديات الإضافية هنا المطلوب التفكّر بها نجاح الولايات المتحدة لأول مرة في عقد علاقات تحالف بين قاعدتيها في المنطقة: الأنظمة النفطية وإسرائيل. وهو منعطف تاريخي لا يختزل بالتطبيع ولا تنحصر آثاره قطعًا بالقضية الفلسطينية.

الصورة باللون الأحمر ونشيد «موطني»

لا أزال أرى إلى صورتي باللون الأحمر. مع أن النشيد الذي أحب وتدمع له عيناي هو نشيد «موطني».

كانت الماركسية ولا تزال مرجعي الفكري الأول. أقصد نقطة الانطلاق الرئيسة في الجهد النظري لا نهاية المطاف. الماركسية نظرة شاملة إلى العالم تنطوي على فلسفة واقتصاد وتاريخ واجتماع وهي تشكل أبرز تراث فكريّ لفهم الرأسمالية في اتجاهاتها وتحولاتها وقوانينها. ليس غريبًا أن رجال الأعمال اليابانيين يقرأون «رأس المال» لماركس ليساعدهم على فهم

آليات تشغيل الاقتصاد الذي يترأسونه. ولا عجب أن يكون السيد فرانسيس فوكوياما قد تراجع عن نظرية نهاية التاريخ وأبدية النظام الرأسمالي، في استدارة نقدية ضد النيوليبرالية وأخذ يدافع عن ضرورة تدخّل الدولة في التوزيع الاجتماعي لتعديل الفوارق بين الطبقات. ولعل في ذلك ما يجب أن يشجّعنا نحن أبناء القارات الثلاث على أن لا نهلط كل ما يأتي من فكر أو نقد قبل أن يمتحنه الزمن.

أتصور الرأسمالية والماركسية بطلين تراجيديين مثل أبطال التراجيديات الإغريقية، في مبارزة لا متناهية بينهما لن تنتهي إلا بمصرع الاثنين

أتصور الرأسمالية والماركسية بطلين تراجيديين مثل أبطال التراجيديات الإغريقية، في مبارزة لا متناهية بينهما لن تنتهي إلا بمصرع الاثنين.

أسترشد بما أسميه «الماركسية العملية» أي ما يمكن استنسابه من التراث الماركسي، بكل موارده ومدارسه وتياراته، من مفاهيم وتجارب لإنتاج معارف عن أوضاعنا العربية. وهذه بعض نقاط الاستدلال.

أبرز ما أنتجه ماركس يتخطى التناقض بين تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. إنه الفكرة التي تقول: بفضل الرأسمالية والتطور العلمي والاقتصادي، بات العالم قادرًا على أن ينتج ما يفي بالحاجات الضرورية لجميع سكانه. ولكنه في ظل سيادة السوق ومبدأ الربح والملكية الفردية، لا يزال يعرف المجاعات، وتنامي الفوارق بين القارات، وبين المداخيل والثروات والموارد. وقد بلغ هذا التناقض ذروته الفاضحة في العصر النيوليبرالي حيث يملك ٦٢ من أثرى الأثرياء ما يزيد على ما يملكه ثلاثة مليارات من البشر.

التناقض بين الفرد والمجتمع مقولة خصبة في الماركسية تقدّم الدليل على كيفية تجاوز قطبي المعادلة السائدة: إما سحق المجتمع للأفراد في المذاهب القومية والشمولية، وإما الفردانية الليبرالية الواهمة بأنه يمكن للأفراد أن يولدوا وينموا خارج العلاقات المجتمعية وأحكامها أو بالضد منها.

الديموقراطية ثورة والدين بحاجة إلى تثوير

الديموقراطية ثورة بذاتها وإنجاز تاريخيّ بذاته تحقق المساواة السياسية والقانونية بين مواطنين في الدولة. لم تأت تاريخيًا على يد البرجوازية، على عكس ما يروّج له ليبراليون وماركسيون معًا. نشأت وتراكمت وهيمنت بواسطة الثورات والحركات الشعبية ضد الرأسمالية وانتهت إلى مساومة تاريخية شرّعت الحرية والمساواة السياسية والقانونية في الدولة، وكرّست وحمَت اللامساواة في المجتمع المنقسم إلى طبقات وأشكال تراتب وتمييز مختلفة. وهذا التناقض بين المساواة في الدولة وعدم المساواة في المجتمع ينخر المساواة في الدولة بتقييد الحرّيات والحقوق السياسية والقانونية وإخضاعها لسلطة المال. وقد تصور ماركس وإنغلز أن يكون حل هذا التناقض هو الانتقال من الديموقراطية السياسية والقانونية إلى الديموقراطية الاجتماعية، التي هي الاسم الآخر للمساواة الاجتماعية، أي الاشتراكية.

في المادية التاريخية، يمكن الانطلاق من الرفيق ابن خلدون «إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش». وقد أضاف ماركس إلى إنتاج المعاش «إنتاج الحياة الحقيقية» أي دور المرأة في التاريخ. وفي أبرز تطويراتها باتت تتخطى التحديد الاقتصادي، أي تفسير الحياة والمجتمع والسلطة وفق مبدأ تفسير وتسيير واحد. بل يزداد الاهتمام لدى الماركسيين بما يسمّى «التحديد المضاعف» الذي يجدل الاجتماعي والسياسي والثقافي في دراسة الرأسمالية. وكم هو معبّر أن نُقاد المادية التاريخية المعاصرين، الذين يرفضون أحادية العامل الاقتصادي في تفسير الحياة والتاريخ وتسييرهما، ينتهون في معظمهم إلى الأخذ بالتحديد السياسي، أي القول بمبدأ تفسير وتسيير أوحد للحياة والتاريخ هو السياسة، وهي نظرية تقع في مجملها في أسر الليبرالية الجديدة.

على عكس ما ينسب إلى الماركسية من تتابع حتمي لأنماط الإنتاج، أبان إنغلز في التأريخ للإمبراطورية الرومانية كيف يمكن لنمط إنتاج أن يدمّر نفسه بنفسه دون أن يفضي إلى نمط إنتاج جديد وتشكيلة اجتماعية أرقى. ومن هنا الخيار التاريخي الفاجع الذي أطلقه ماركس وإنغلز، وتستعيده روزا لوكسمبرغ: «الاشتراكية أو البربرية!» وأحسب أننا نقارب هذه الأخيرة في عهد التوحش النيوليبرالي.

كل المجتمعات منقسمة إلى طبقات تتعايش - ولو بنسب متفاوتة - مع مراتب وتكوينات أخرى مثل القوميات والأعراق والإثنيات والمذاهب الدينية والأقليات المسيّسة وسواها. والصراع بين الطبقات، الخفيّ منه والسافر، ليس يختصر الصراعات السياسية والاجتماعية، لكنه قائم وفاعل ومتفاوت القوة والأثر، يتدخّل فيها جميعًا ويتقاطع معها ويتغذى منها. وغالبًا ما يمارَس الصراع الطبقي من فوق



لتحت أكثر مما يمارس من تحت لفوق. صدق الأميركي وارن بوفيت، رابع أغنى أغنياء العالم، إذ قال إنه لا يعترف فقط بوجود «حرب طبقية»، بل يؤكد أن طبقته، طبقة الأغنياء، هم الذين يخوضون تلك الحرب وينتصرون فيها. ومن يُرد مثالًا عينيًا راهنًا عن حرب طبقية تشنّها طبقة حاكمة بمكونيها الاقتصادي والسياسي، فليتابع سطو الأوليغارشية اللبنانية على أموال اللبنانيين وعلى حياتهم ومستوى معيشتهم ومستقبلهم في الأزمة متعددة الأوجه المستمرة منذ العام ٢٠١٩.

في نظرتها إلى الدين والتديّن، تتجاوز الماركسية النظرة العقلانية المجرّدة القائمة على معادلة «ظلمات الجهل يبددها نور العلم». تثير حاجة البشر إلى الدين، حاجة المقهورين إلى العزاء وإلى تحمّل العوز والقهر والألم («لا تهملني لا تنساني، يا شمس المساكين» - تصلّي فيروز). تعترف الماركسية بهذا الوجه من الدين وتؤكد التناقض القائم في كل الديانات: إنها تفرض الإستكانة بل الامتثال، قدر ما تحرّض على الثورة على الظلم والاستغلال. ثم إنها تحوي أقوى وأبلغ تسويغ للعنف والقتل مثلما تحوي أعظم الدوافع للتضحية والغيرية والتضامن الانساني.

لا يكفي التنوير في الدين، الحاجة ملحّة للتثوير. وهؤلاء هم بعض الثوار المعاصرين: أصحاب تيار فقه التحرير في أميركا اللاتينية، محمد محمود طه السوداني وعلي شريعتي الإيراني.

لا يكفي التنوير في الدين، الحاجة ملحة للتثوير. وهؤلاء هم بعض الثوار المعاصرين: أصحاب تيار فقه التحرير في أميركا اللاتينية، محمد محمود طه السوداني وعلي شريعتي الإيراني

المهتمّون الجدّيون بالتغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي لا يمكنهم الاستغناء عما تحويه الماركسية من تراث زاخر في نظريات وتجارب الثورة والتحرر الوطني والاجتماعي والتوحيد القومي والتغيير السياسي والاجتماعي والحركات الاجتماعية والتجارب النقابية والتعاونية.

أخيرًا ليس آخرًا تثير الماركسية الإشكالية الوجودية الكبرى للاجتماع البشري، إشكالية العلاقة بين الحرية والمساواة، وإن لم تكن تحمل وحدها وسائل معالجتها أو التعبير عنها.

المرحلة الجديدة والثورات

ذكرنا للتوّ أحداثًا وعناوين مختلفة رسمت فصلًا مُهمًّا من تاريخ المنطقة. والآن، هناك أحداث جديدة تُحاول رسم فصل جديد لتاريخ المنطقة؛ ثورات شعبية وثورات مضادّة واضطرابات لا تعدّ ولا تحصى. كيف ينظر فوّاز طرابلسي إلى هذه الأحداث؟

افتتح العام ٢٠١١ أشكالًا جديدة من الاحتجاجات والانتفاضات الشعبية مع أنها لم تكن من دون مقدمات وسوابق. كانت ثورات بمعنى أنّ نواياها المعلنة إسقاط الأنظمة بواسطة الضغط الشعبي («الشعب يريد إسقاط النظام»). وقد أدّت في بعض الحالات إلى ما تؤدي إليه الثورات عادة - عسكرة الاحتجاج والاقتتال الأهلي.

١. اندلعت الانتفاضات في سياق ردود الأفعال الشعبية على فرض إعادة الهيكلة الاقتصادية وإطلاق قوى الأسواق على غاربها والخصخصة وسائر الإجراءات النيوليبرالية، خصوصًا بُعيد الأزمة العالمية الكبرى التي ضربت النظام العالمي العام ٢٠٠٨. ومن نتائجها عربيًا: تقلّص التوزيع الاجتماعي، بما فيه دعم المواد الغذائية والمحروقات، وانهيار الخدمات العامة، واقتحام الرأسمالية والخصخصة ميادين التعليم والصحة والسكن، ونموّ البطالة وانسداد آفاق العمل والمستقبل أمام الشباب، واتساع الهجرة الريفية مع ضمور القطاع الزراعي، وارتفاع معدلات الفقر، وانخفاض مستوى المعيشة لدى الطبقات المتوسطة، وتنامي الفوارق الطبقية والمناطقية على نحو غير مسبوق في التاريخ الشباب، وغيرها. وهذه ظواهر لم تأخذ نصيبها من البحث والمراجعة والتقييم واستخلاص الدروس نظراً إلى شحّة ما صدر عن القوى التي خاضت الانتفاضات.

الدور الخارجي في ثورات ٢٠١١

٢. لعبت القوى الإقليمية والدولية دورها في الانتفاضات منذ البداية. وهذا أمر نادرًا ما يؤتى على ذكره اللهم إلّا عن طريق أصحاب نظريات المؤامرة. خلافًا لاتهامات معارضي الانتفاضات بأن الولايات المتحدة طبّقت بواسطتها سياسة «الفوضى الخلّاقة»، كان المبدأ الأول للإدارات الأميركية المتعاقبة هو الحفاظ على الأمر الواقع المحلي والإقليمي: أمن حدود إسرائيل واتفاقات السلام مع إسرائيل وحماية الأنظمة التابعة وخصوصًا تحصين أنظمة حكم الأوليغارشيات النفطية. وحيث وقعت الانتفاضات، في الأنظمة الصادرة عن حركات التحرر

الوطني، اعتمدت سياسة التعديل/الإصلاح في الأنظمة، بواسطة تنحّي الرئيس واستبداله بنائبه وتنظيم انتخابات نيابية كان واضحًا أنها ستأتي بالتنظيمات الإسلامية - أي بـ«الإسلام المعتدل» - إلى الحكم. وهي سياسات خضعت بالدرجة الأولى للاستراتيجية الأميركية الشاملة في الحرب الكونية ضد الإرهاب.

هي دعوة للاعتماد على الذات وتنمية القوى الذاتية لتيار الحرية والتغيير وقياس قواه الفعلية بناء على ما يستطيع ولا يستطيع تحقيقه

طُبّقت هذه السياسة في تونس ومصر والمغرب، وحظيت بدعم من الجيش وبتدخّل إقليمي سعودي وإماراتي. وانتكست الانتفاضات إلى حروب داخلية وإلى تدخلات عسكرية دولية وإقليمية، عندما انكسر الجيش في ليبيا وسورية واليمن. ومع أن الولايات المتحدة دعمت فئات من المعارضة السورية، لم يصل بها الأمر إلى أبعد من البحث عن بديل لبشار الأسد من داخل السلطة. والعامل الحاسم في ذلك هو القبول بأن النظام السوري نجح في أن يقدم حربه ضد قسم كبير من شعبه على أنها «حرب ضد الإرهاب». وقد استدرج النزاع السوري تدخلات إقليمية خليجية وتركية داعمة لقوى المعارضة المسلحة بما فيها التنظيمات الجهادية، ومعها التدخلات الدولية المباشرة من الولايات المتحدة حمايةً للشريط الذي تسيطر عليه التنظيمات الكردية، كما تدخلت القوات الروسية والمليشيات الموالية لجمهورية إيران الإسلامية لإنقاذ نظام بشار الأسد. الأمر نفسه يمكن أن يُقال بالنسبة إلى اليمن، حيث جرى استبدال الرئيس بنائبه، بناءً على مبادرة مجلس التعاون الخليجي، برعاية الولايات المتحدة والمؤسسات الدولية، أعطت صلاحيات استثنائية للرئيس وهمّشت الحكومة الائتلافية التي تضمّ أطراف الأزمة. وأعيد تنظيم المقاطعات اليمنية بتجاهل واضح لأبرز مطالب مكونين مسلّحين في الأزمة: أنصار الله في صعدة والحراك الجنوبي في المحافظات الجنوبية. ومن تداعيات هذا الحل سقوط السلطة في صنعاء ومعظم الشمال بيد الحوثيين وسيطرة الحراك الجنوبي على المقاطعات الجنوبية، واندلاع حرب استدرجت التدخل السعودي والإماراتي والإيراني معاً. وفي السودان، اتخذ التدخل السعودي الإماراتي، المدعوم من الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل، شكل دعم انقلاب عسكري أطاح بالرئيس عمر البشير، ومهّد الطريق أمام شراكة عسكرية-مدنية، تحت ضغط الانتفاضة الشعبية، لكنه كرّس، في المقابل، حضور الجيش البديل (مليشيا الجنجويد) في رأس السلطة.

أشدد على هذا الدور الخارجي من أجل قياس مبلغ المراهنة الواهمة على القوى الخارجية و«المجتمع الدولي» و«الرأي العام الدولي» التي راجت في الانتفاضات والتحذير من مغبّة التعويل عليهما، ما أفقد الحركات الشعبية استقلاليتها وحرية الحركة. وهي دعوة للاعتماد على الذات وتنمية القوى الذاتية لتيار الحرية والتغيير وقياس قواه الفعلية بناء على ما يستطيع ولا يستطيع تحقيقه.

غلبة السياسة، غياب الاستراتيجية، النفور من التنظيم ووحدانية التكتيك

٣. الاختلاط بين الردة السلطوية ضد الانتفاضات والردة الجهادية، الأمر الذي اضطر الانتفاضات إلى أن تقاتل على جبهتين ومن نتائج ذلك إضعافها عمومًا وإضعاف وجهها المدني والديموقراطي مع انحياز فصائل متزايدة منها إلى المعسكر الجهادي، كما في الحالة السورية مثلًا.

٤. الانشقاق في الانتماء المجتمعي والأهداف والوجهة في صفوف الانتفاضات بين الطبقات المتوسطة، وقطاعاتها المتعلمة والحداثية من جهة، والقوى العاملة والريفية والطرفية والمفقرة من جهة أخرى. وقد تجسد هذا الانشقاق إلى حد كبير، دون أن يتطابق، في ثنائية «مدني/إسلامي». وبلغ تدهور النزاع بين القطبين إلى حد انحياز قطاعات من الثوار إلى الحكم الاستبدادي العسكري في بعض الأحوال، مصر وتونس مثلًا.

٥. سيادة رؤية وأهداف ووسائل عمل في القسم المدني من الانتفاضات مستمدّة في معظمها من أفكار بعد الحداثة والمفاهيم ووسائل العمل التي راجت إبّان فترة سقوط الأنظمة الأوروبية الشرقية تضاف إليها حملات الترويج للديموقراطية الأميركية وأيديولوجيا منظمات المجتمع المدني. وهذه أبرزها:

أولًا، مع أن الأهداف الأصلية المشتركة بين كافة الساحات العربية المنتفضة - عيش/عمل، حرية، عدالة اجتماعية - حملت بذاتها رؤية عميقة لأسباب الانتفاضة، إلا أنها أهمِلت في مجرى الاحتجاج وغلبت السياسة ووجهها الأبرز، العداء للدولة باسم رفض «السلطوية» والدعوة إلى إسقاط الأنظمة، واختفت معها المطالب الاجتماعية والمعيشية.



ثانيًا، غياب الاستراتيجية. حَل محلّها مطلب التغيير. تغيير ماذا؟ ما الأولويات؟ التغيير بواسطة أي قوى؟ وبأي وسائل؟ في ظل أي ميزان قوى مع السلطة والطبقات الحاكمة؟ وذلك في غياب تشخيص يسمح بتقدير حجم الأزمة، والقوى التي أطلقتها، والوضع الفعلي للسلطة وبالتالي تعيين طبيعة التغيير الممكن: فهل تتيح الأزمة الاستعدادَ لتسّلم الحكم (وبأية وسائل؟) أو تنظيم مقاومة لصد هجوم من الطبقة الحاكمة، أم أن الإمكانات مفتوحة فقط أمام تحقيق إصلاحات (وما هي؟).

مع أن الأهداف الأصلية المشتركة بين كافة الساحات العربية المنتفضة – عيش/عمل، حرية، عدالة اجتماعية – حملت بذاتها رؤية عميقة لأسباب الانتفاضة، إلا أنها أهمِلت في مجرى الاحتجاج

ثالثًا، النفور من التنظيم ومن الأحزاب ومن القيادة باسم نزعة فردانية تزداد انتشارًا بين الشباب («بيننا مليون قائد» في مصر؛ أو «أنا القائد» في لبنان؛ ورفض المطالبة والبرامج («ننتزع ولا نطالب» في لبنان). ولعل أبرز المفارقات أن منظمات المجتمع المدني التي تبشّر بالديموقراطية وتعادي الأحزاب والنقابات في آن نادرًا ما يرد في ورشاتها وتمارينها أنّ منظمات المجتمع المدني في بلدان المنشأ الأوروبية والأميركية ليست هي أدوات التغيير، بل أدوات التغيير هي الأحزاب السياسية ترفدها قوى شعبية ضاغطة منظمة في حركات اجتماعية ونقابات عمالية واتحادات مهنية!

رابعًا، وحدانية التكتيكات: مقولة «احتلال الفضاء العام» (المستعارة من نظرية يورغن هابرماس حول الانتقال إلى الديموقراطية مع أن الرجل أكّد أنها لا تنطبق إلا على أوروبا!!) وقد عبّرت عن نفسها بتكتيك تحرير ساحات من سلطة الدولة - ميدان التحرير بالقاهرة، ساحة الساعة بحمص، ميدان التغيير بصنعاء، شارع بورقيبة بتونس، ساحة الميدان بالخرطوم، ساحة الشهداء ببيروت، إلخ. وملحقها في الحالة اللبنانية: تطويق ساحة البرلمان بدافع من وهم أنه يكفي لفرض استقالة حكومة أو حتى تغيير نظام. وهو تكتيك مبنيّ على ما تروّجه ورشات منظمات المجتمع المدني عن انهيار أنظمة أوروبا الشرقية بواسطة تطويق البرلمانات بالتظاهرات الشعبية. وهي رواية لا تتطابق مع مجريات الأمور. فمثلًا، سقط الرئيس الموالي للروس في «ثورة الميدان» بأوكرانيا عام ٢٠١٤ عندما احتلت كتيبة آزوف اليمينية المتطرفة عدة بنايات حكومية في العاصمة واقتحمت البرلمان بالسلاح واعتقلت أكثرية النواب. وفي الحالات الأخرى، سلّم بيروقراطيون السلطة السياسية لأحزاب معارضة طوعًا بعد انهيار ألمانيا الشرقية وقد احتفظوا بحصص كبيرة من المؤسسات المؤممة.

خامسًا، الدور المتناقض للإعلام ولوسائل الاتصال المجتمعية في الانتفاضات. لا شك في أن هذه لعبت دورًا كبيرًا في تأمين الربط بين الساحات والتواصل والتبليغ والتعبئة. لكنها شكلت في الآن ذاته بيئة تلغي الفواصل بين الافتراضي والواقع، بين المتخيّل والممكن، بين الكلمة والفعل، وتروّج للسائد عالميًا: الفردانية الجامحة والثقافوية وسياسة الهويات.

عن الديموقراطية

هل أصبح تحقيق الديموقراطية اليوم أمرًا مستحيلًا عربيًا في ظل استمرار تصاعد الخطاب الطائفي والشعبوي؟ وكيف ترى إلى مستقبلها في ظل صعودهما واستمرار مآزق الدولة الوطنية ومسألة الأقليات؟ وهل ترى أن تطبيقها قد يكون مخرجًا من هذه الأزمات؟ وما رأيك بربط البعض للديموقراطية وتحقيقها بتيارات سياسية معيّنة؟ هل هناك فعلًا تيار أقرب من آخر إلى الديموقراطية؟

لن تتحقق الديموقراطية بضربة واحدة أو في فترة زمنية معينة. هذا هو الوهم الذي أشاعته وتشيعه حملات الديموقراطية الأميركية ودعوات التبشير الخاصة بمنظمات المجتمع المدني وورشاتها وتمارينها. وهل من مفارقة أشنع من أن حملة الترويج للديموقراطية كانت مترافقة مع غزو العراق واحتلاله؟! الصراع ضد الاستبداد مسارات وقوى ووسائل ومراحل.

كتبتُ أن الديموقراطية ثورة. قصدت أنها سلسلة من التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ضد الدكتاتورية والاستبداد تُفرض بالقوة الشعبية. وهي مسار يحتمل التقدم والتراجع والهجوم والانتكاس وتحقيق التراكم وتبديده. هذا هو تاريخ المسار الديموقراطي في بلادنا وهذا هو ما يعلمنا إياه تاريخ الديموقراطية في البلدان الغربية كما في القارات الثلاث، حيث نجحت بلدان في بناء أنظمة ديموقراطية مثل الهند وجنوب أفريقيا.

لا يوجد نضال من أجل الديموقراطية لا ينطوي على نضال اجتماعي واقتصادي وثقافي ويتقاطع معه ويتأثر به. أو لا يجمع بين مقادير معيّنة من الحرية ومن المساواة. آخر دليل على ما أقول هو الانتفاضة الجديدة في إيران. انطلقت من أجل حقوق النساء ضد بطريركية الملالي التكفيرية، لتشمل حركات

الاحتجاج ضد الاستبداد السياسي وضد تدهور مستوى المعيشة وانضمّت إليها حركات المطالبة بالحكم الذاتي والحقوق الثقافية في كردستان والأحواز وبلوشستان.

عقبتان أمام المسار الديموقراطي

في مجرى البحث في مسائل التغيير، لا بدّ من إثارة مسألتين: دور القوى الخارجية ودور العنف.

الأولى: لمّا كانت القوى الإقليمية والدولية متداخلة إلى أبعد حد في السياسات المحلية في المنطقة، ولما كانت الأنظمة العربية تستمدّ شرعيتها من الخارج أكثر مما تستمدّها من شعوبها، كيف يمكن أخذ هذا العامل بعين الاعتبار انطلاقًا وكيف التعامل معه؟

الثانية: تخطّت معظم الأنظمة العربية – العسكرية وغير العسكرية – مرحلة الاعتماد على الجيوش النظامية لفرض سيطرتها على شعوبها. أنشأت جيوشًا خاصة وميليشيات موازية للجيش النظامي. تلك هي حال سورية والعراق واليمن والعربية السعودية (الحرس الوطني)، والسودان (الجنجويد) ولبنان (حزب الله)، وإيران (الحرس الثوري)، إلخ. وهذه مؤسسات تزيد من استعداد الأنظمة للجوء إلى العنف ضد الحركات الشعبية وتضاعف خطر الاقتتال الأهلي. وثمة وجه آخر في ترسيخ وطأة الجيوش في الحياة العامة، واكتسابها مزيدًا من القوة على شعوبها، هو تحوّل القوات المسلحة إلى مؤسسات اقتصادية تستأثر بحصّة لا يستهان بها من النشاط الاقتصادي كما في مصر وإيران.

السؤال: كيف تفادي الانزلاق، أو الاستدراج، إلى العسكرة والاقتتال الأهلي؟ كيف الاستمرار في التحركات السلمية وتحقيق المكاسب ضد الأنظمة العسكرية؟

السؤال: كيف تفادي الانزلاق، أو الاستدراج إلى العسكرة والاقتتال الأهلي؟ كيف الاستمرار في التحركات السلمية وتحقيق المكاسب ضد الأنظمة العسكرية ومن أجل إعادة الجيوش إلى ثكناتها وحصر دور الأجهزة الأمنية في الأمن الخارجي؟ التجربة الوحيدة التي أسقط بها حكم عسكري بواسطة انتفاضاتٍ شعبية هي الحالة السودانية. تستحق الانتفاضة السودانية الأخيرة الدراسة بما هي تجربة نجحت في خرق السلطة العسكرية وتأسيس شراكة عسكرية–مدنية، وإن تكن مختلة، بالحركات الشعبية العارمة والتضحيات الجسيمة والتقدم التدريجي، والمثابرة بالنَفَس الطويل من اجل إعادة العسكر إلى ثكناتهم وحلّ المليشيات. ولكن يمكن الانطلاق بالإجابة عن السؤال من أن الحركة الشعبية السودانية العاملة على التغيير قادرة على ذلك لأنها قائمة على وجود حياة حزبية، بما فيها حزب شيوعي مناضل، ونقابات عمّالية واتحادات مهنية قوية.

«الدولة الوطنية» والعيش في مستويين

يرى عدد كبير من المثقّفين العرب أنّ فشل بناء الدولة الوطنية سببٌ رئيسيٌّ لأزمات الطائفية والأقلّيات وغيرها. وأنّ تحقيقها في المقابل وتحويلها أمرًا واقعًا، قد يكون المخرج الوحيد منها. ولكن بعد بلوغ عملية التكتّلات المذهبية والنزوح نحو الطائفية والتخلّي عن الهوية الوطنية مرحلة مخيفة، هل لا يزال ممكنًا إقناع الشعوب العربية بفكرة الدولة الوطنية؟ ألم تعد الفكرة ضربًا من الخيال؟

هناك مدرسة فكرية في بلادنا اسمّيها «التفكير في الغياب». تفسّر الاستبداد بغياب الديموقراطية؛ والطائفية بغياب الاندماج الوطني؛ والاحتكار بغياب المنافسة؛ والفقر بالحرمان من الحقوق الاقتصادية والاجتماعية؛ والاقتصاد العادل بغياب «الرأسمالية الحقيقية» التي هي إما رأسمالية الاقتصاد الحر أو الرأسمالية الإنتاجية، إلخ. وقد شكّل هذا النمط من التفكير ولا يزال عائقًا أمام تشخيص ما هو موجود وقائم والتعرّف إلى آليّات تشغيله، وهذا أول شرط للتغيير، وأحلّ محله المرتجى والمشتهى وواجب الوجود، في تكرار لمنطق الثنائيات الذي يخنق التفكير.

أصْل المفهوم هو الدولة القومية، والأدقّ «الأمّة في دولة» Nation State/Etat-Nation، أي وجود أمة تؤطّرها وتحكمها دولة. والتركيز هنا على الأمة أي انتماء السكان، أو أكثريتهم على الأقل، إلى قومية ولغة مشتركة وقدر من التاريخ المشترك والاقتصاد الموحّد.

أما الاستخدام المعاصر للمصطلح في المنطقة العربية فنتاج مقولتين من مرحلة ما بعد الحرب الباردة: ١) الفكرة القائلة إن العولمة تجاوزت الدولة القومية وبات العالم قرية كونية (كأن القرية لا يوجد فيها تراتب وانقسامات ونزاعات!!)؛ ٢) السياسة الأميركية في طور الانفراد الإمبريالي وخلال عهد «المحافظين الجدد» الداعية إلى «تغيير الأنظمة» regime change بل «البناء القومي» nation building.

لم يبدأ المشرق العربي من دولة وطنية–قومية. فرض علينا الاستعمار البريطاني والفرنسي كيانات مقسّمة حسب



تظاهرة ضد الحكومة المصرية، القاهرة، ٢٠١١/٠١/٢٨.


POLIC



مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية. ولم تكن المجتمعات المأسورة داخل الحدود نتاج نموٍّ عضوي وتاريخي أو اقتصادي. تولّد وهم، وتبلورت أفكار وسياسات، رأت في تلك الكيانات كأنها أشباه الدول القومية الأوروبية، لأن السلطات الاستعمارية منحتها المؤسسات الجمهورية التي أنتجتها الدولة القومية الأوروبية عبر النمو والتراكم العضويين التاريخيين. والواقع أن مواطني تلك الكيانات عاشوا، وعاشت السلطات التي حَكمتهم، في مستويين: مستوى الأمر الواقع التقسيمي-القطري ومستوى المرتجى القومي. وهذا مدخل فهم الكثير من الأحداث والمشكلات والتطورات والتقلّبات في المشرق العربي أقلّه.

في التجربة الفعلية لـ«مشروع الدولة الوطنية» ينبغي التمييز بين دولة وأخرى. تشكل مصر كيانًا مستقرًّا منذ آلاف السنين ويمكن الحديث عن مشروع وطني مصري هو مشروع تحرّر وطني اجتماعي تطور في مصر الناصرية نحو تكامل التحرر الوطني والقومي. فمن خلال الصراع العربي الإسرائيلي بالدرجة الأولى انفتح على المدى القومي العربي (الوحدة المصرية-السورية، الدعم العسكري للجمهورية اليمنية، إلخ.) ونحو أفريقيا والعالم الثالث.

إنّ مواطني تلك الكيانات عاشوا، وعاشت السلطات التي حَكمتهم، في مستويين: مستوى الأمر الواقع التقسيمي - القطري ومستوى المرتجى القومي

منذ نشأته، كان العراق يسعى أصلًا لاستعادة الدولة العربية التي أنشأها فيصل في سورية، وتوحيد المشرق العربي تحت العرش الهاشمي، في منافسة مع مشروع الهاشمي لأخيه عبد الله حاكم الأردن الذي قضم جزءًا من فلسطين. كانت الجمهورية العراقية العام ١٩٥٨ أول محاولة لبناء «دولة وطنية» عراقية وقد قضى عليها النزاع بين القوميين والشيوعيين. في البدء، لم يحمل مشروع البعث العراقي مشروعًا لبناء دولة وطنية، ورث مشكلات انهيار الوحدة السورية المصرية ١٩٦١، ومحاولة إحيائها بالوحدة الثلاثية الفاشلة بين سورية والعراق البعثيين ومصر الناصرية. افتتح صدّام حسين عهده بإعطاء الأولوية لمشروع عراقي يقوم على السيطرة على مركز السلطة في بغداد ومنها التوجه إلى الأطراف. في الشمال، خاض حربه ضد الأكراد وتنازل خلالها عن شط العرب لإيران لقاء تخلي الشاه عن دعم الأكراد. وفي الجنوب، مارس سياسات الضبط والتمييز السياسي والمذهبي ضد الأكثرية الشيعية. وقد أسهمت حرب الثماني سنوات التي أعلنها صدام ضد إيران وخاضها في خدمة السعودية ودول الخليج وبدعم من القوى الغربية قاطبة والولايات المتحدة خصوصًا، في نشوء معارضة شيعية عسكرية بتمويل وتسليح ودعم من الجمهورية الإسلامية. على أن تداعيات تلك الحرب أفضت إلى توسعية «قومية» في احتلال صدام للكويت وانفجار حرب الخليج الأولى.

في سورية، وضع حافظ الأسد حدًّا للانقلابات العسكرية وقلَب الآية من سورية بما هي موضع تنافس عربي، إقليمي ودولي للسيطرة عليها (المطامع الهاشمية والسعودية-المصرية، والتوسعية التركية، إلخ.) إلى سورية التي تمدّ نفوذها والسيطرة على مداها الحيوي: بلدان الجبهة الشرقية ضد إسرائيل، لبنان، الأردن، ومنظمة التحرير الفلسطينية، دون التخلي عن الطموح للتدخل في العراق، إلخ.

هكذا، خرّبت الدعوة القومية العربية مشاريع بناء «دول وطنية» بدلًا من أن تمهد لأهدافها القومية بالتوحيد الوطني. وقد تحوّلت تلك المشاريع إلى أدوات سيطرة داخلية أكثر ما كانت وسيلة دمج ديموقراطي لمكوّنات البلد، قدْر ما تحولت في المدى العربي من مشاريع اتحادية ووحدوية إلى مشاريع توسّع عسكري على حساب الجوار العربي أو محاولات ضم بالقوة.

ولعل الخلاصة التي تستحق التفكير فيها هي أنه لا يمكن تطبيق مشروع من هذين المشروعين ضد الآخر أو بمعزل عنه: الاتحاد العربي المبنيّ على المصالح المشتركة، على غرار الاتحاد الأوروبي، يمكن أن يتكامل ويتعزز من خلال بناء ديموقراطية تحقق المساواة السياسية والقانونية بين المواطنين في إطار من الاعتراف بالتنوع اللغوي والإثنيّ ومن العلمنة المتزايدة للدولة.

المسألة الطائفية من منظار مخالف

كتبت كثيرًا عن المسألة الطائفية وبحثت ولا أزال أبحث فيها. وساجلتُ في شتى التفسيرات ومنها: إنكار وجود الطائفية؛ وتلخيصها بالتعصّب والنكوص عن الولاء الوطني؛ ونَسب الطائفية إلى الخارج؛ واعتبارها أداة بيد السلطات لتقسيم الشعب والسيطرة عليه؛ وتنزيهها عن أي صلة بالدين، وعن الاقتصاد والطبقات والتفاوت المناطقي، في حين هي متداخلة مع هذه كلها. في ضوء أحداث نصف القرن الأخير، لم يعد البحث في المسألة الطائفية والإنتاج عنها محصورًا بلبنان، مع أن التجربة اللبنانية توفّر بعض المفاتيح لفهمها في تعبيراتها العربية.

أدعو للاعتراف بوجود مسألة طائفية هي نتاج أشكال متنوعة من التفاوت - أي التمييز والحرمان - في مواقع الجماعات المعرّفة دينيًا ومذهبيًا من السلطة والدولة؛ ومن القوة العسكرية والأمنية؛ وتوزيع الموارد والثروات وخدمات الدولة؛ وفروع الاقتصاد المميزة؛ والنصيب من النمو الاقتصادي؛ وفرص العمل والحياة والتعليم؛ ومن تسييس الفروقات العددية بين الجماعات.

صرت ميّالًا إلى التفكير بالاتكــــــــــال في تجاوز الطائفيـــــــة على الوسائل غير المباشرة وهو ما اسمّيه «التجويفـــــــ الاجتماعي للطائفية»

من هنا نبدأ. من دون التفاوت في تلك المواقع أو في عدد منها، يصعب الحديث عن مسألة طائفية ونزاعات طائفية. وبالتالي، فإن معالجة المسألة يفترض معالجة تلك الأشكال من التمييز والحرمان. لذا أرى إلى مسار تجاوز الطائفية على أنه يتضمّن وتيرتين على الأقلّ.

الوتيرة الأولى، التجاوز بالوسائل المباشرة. هنا يجري تجاوز الطائفية السياسية - وهي نظام يميّز في الحقوق والواجبات السياسية بين الجماعات، أكان علنيًا أم مضمرًا - بتحقيق المساواة السياسية والقانونية بين أبناء الشعب الواحد، وتثبيت المواطنة كانتماء وطني. وهذا إجراء ديموقراطي وليس إجراءً علمانيًا. أما الإجراء العلماني - أي إعلان الحياد الديني للدولة - فيتعلّق بالأحوال الشخصية التي تُخضع الأهالي كلٌّ حسب شريعة دينه أو مذهبه. هنا يفيد التفكر بمسارات تأخذ بالتدرّج والواقعية باعتماد قانون مدنيّ اختياريّ للأحوال الشخصية تعرض بنوده المتعارضة مع هذه الشريعة أو تلك للبتّ عن طريق الاستفتاءات الشعبية. وهو الأسلوب الذي اعتُمد في بلدان مثل إيطاليا للبتّ بالتحريم المسيحي الكاثوليكي ضد الإجهاض ومنع الحمل.

لكن اقتراح الحلول ليس بسهولة تبيّن مسار الحل وقواه وأساليبه. لدينا على الأقل بعض التجارب في تسوية نزاعات أهلية اكتسبت طابعًا طائفيًا ومذهبيًا في العراق ولبنان تؤكد أن السعي إلى عدالة طائفية ضرب من العبث وأن التسويات التي تسعى إلى تعديل موازين القوى بين الطوائف والمذاهب المسيّسة لا تلبث أن تستدعي ردود أفعال من الطوائف ذات الامتياز أو الحرمان سرعان ما تخرّب التسوية.

الوتيرة الثانية. مع الوقت، وبناء على تطورات المسألة الطائفية اللبنانية ومحاولات حلّها وانتكاس تلك الحلول، صرت ميّالًا إلى التفكير بالاتكال في تجاوز الطائفية على الوسائل غير المباشرة وهو ما اسمّيه «التجويف الاجتماعي للطائفية» وهذه محاجّتي:

إذا تأمّن التوظيف والترقّي بناء على معيار الكفاءة،

إذا اعتُمد نظام تعليمي رسمي ومجاني في كل مراحله،

إذا تحققت تنمية حقيقية وعادلة بين المناطق واعتمد توزيعٌ متكافئ لخدمات الدولة عليها،

إذا تقلّصت الفوارق في فرص العمل وفي المداخيل والثروات،

إذا اعتمد نظام للتقاعد ونظام للضمان الصحّي الشامل.

وإذا قطِعتْ أشواط في السيطرة على الانتفاع من المال العام (الفساد)،

هل يبقى الكثير من أسباب التظلّم الطائفي، أم تتناقص حاجات الناس للجوء إلى جماعاتهم وقياداتهم وأحزابهم الطائفية والمذهبية والمرجعيات الدينية لتدبير أمور معاشهم؟

ألن تضمحلّ بذلك مكوّنات النظام الطائفي فتتحول الطوائف والمذاهب، مع الوقت، إلى تنوّع إيماني وتعدّد ثقافي ويبقى لها من تواريخها ونزاعاتها ما شاءت من ذكريات؟ هي ذكريات مميزة ومتعددة طبعًا لكنها أكثر قابلية لأن تنضوي داخل تاريخ مشترك.

أعتقد أنّ ثمة فرقًا كبيرًا بين هذه المقاربة وتلك التي تلخّص الأمر بأن «الحل» للطائفية هو «إلغاء الطائفية».

«سايكس بيكو» وعد بدولة عربية مستقلة

يقول البعض إن الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) حطمت حدود سايكس - بيكو التاريخية بربطها سورية بالعراق، الأمر الذي دفع ببعض الأشخاص الذين حمّلوا فيما مضى هذه الحدود مسؤولية المصائب العربية، للمطالبة بالحفاظ عليها، معتبرين أنّ بقاءها ضرورة. برأيك، لماذا هذا التحوّل في الموقف من حدود سايكس - بيكو؟ أي المطالبة بكسرها سابقًا، والدعوة إلى الحفاظ عليها فيما بعد؟ ما الجديد الذي قدّمته في كتابك «سايكس - بيكو - بلفور: ما وراء الخرائط» حول هذه المسألة؟

لم تكسر الدولة الإسلامية في العراق والشام حدود سايكس بيكو لسبب بسيط، هو أن الحدود بين دول المشرق العربي لا صلة لها بالحدود المعيّنة على خريطة الاتفاقية الشهيرة.

لنبدأ بالوقائع:

- اسم الاتفاقية «اتفاقية آسيا الغربية».
- هي اتفاقية بين ثلاث دول لا دولتين.



- فاوض عليها مارك سايكس وجورج بيكو ووقّعا الخريطة. أما الاتفاقية فوقّعها وزيرا خارجية بريطانيا وروسيا وسفير فرنسا في لندن.
- أبرز بنودها: تعهّد بريطانيا وفرنسا دعم «قيام دولة مستقلة بقيادة رئيس عربي» تشمل معظم بلاد الشام والحجاز.
- ما يسمّي تجزئة المنطقة هو أقرب إلى عملية ضم وفرز بين ألوية وسناجق في الولايات العربية في السلطنة العثمانية.
- لم تكن الاتفاقية سرّية على المعنيين بها. تبلّغها الشريف حسين بعد أسابيع من توقيعها ونشرت الثورة البلشفية نصّها الكامل بعد سنة وبضعة أشهر على توقيعها.
- العمليات العسكرية للجيش العربي بقيادة فيصل ولورنس، الموضوع تحت إمرة الجنرال أللنبي، قائد جبهة الشرق في جيوش الحلفاء، لا تستحق لقب «الثورة العربية الكبرى». الأحرى أن تطلق التسمية على ثلاث دورات من الانتفاضات ضد الانتداب البريطاني والفرنسي في العراق وفلسطين وسورية ولبنان في ١٩٢٠-١٩٢١ و١٩٢٥-١٩٢٧، و١٩٣٦-١٩٣٩.

لم تكسر الدولة الإسلامية في العراق والشام حدود سايكس بيكو لسبب بسيط، هو أن الحدود بين دول المشرق العربي لا صلة لها بالحدود المعيّنة على خريطة الاتفاقية الشهيرة

القصة بإيجاز:

- عام ١٩١٥، دعت بريطانيا فرنسا لتوقيع اتفاقية تكرّس ما وعدت به شريف مكة، حسين بن علي، في تبادل رسائل سرّي مع المقيم البريطاني في مصر هنري ماكماهون، أي دعم الدولتين «قيام دولة عربية مستقلة يحكمها زعيم عربي»، تمهيدًا لإعلان شريف مكة الثورة العربية ضد العثمانيين.
- تبلّغ الشريف حسين الاتفاقية خلال زيارة مشتركة لسايكس وبيكو. أجاب على السيطرة البريطانية على العراق - أي ولايتي البصرة وبغداد - بالقول إنه يؤجّر العراق لبريطانيا لمدة ٢٥ سنة. ورحّب بهجرة «أبناء عمّنا اليهود» لكنه تذمّر من أن الدولة العربية العتيدة لا تملك منفذًا إلى البحر. وبعد أقل من سنة ونصف السنة، نشرت الثورة البلشفية النص الحرفي للاتفاقية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧.

إعلان بلفور نقض اتفاقية سايكس-بيكو

نُقِضت اتفاقية سايكس بيكو مرّتين: المرة الأولى، مع إعلان بلفور الذي قضى على الإدارة الدولية في فلسطين. والمرة الثانية، عند القضاء على الدولة العربية، بعدما انعقدت تسوية بين الدولتين انسحبت القوات البريطانية بموجبها من سورية واحتلتها القوات الفرنسية، مقابل اعتراف فرنسا بالاحتلال البريطاني لفلسطين وتخليها عن لواء الموصل لصالح بريطانيا لقاء حصة في نفط المنطقة.

أبرز ما في إعلان بلفور زمن إصداره هو ١) التمهيد للاحتلال البريطاني لفلسطين، وقد صدر في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ وقوات الجنرال أللنبي على حدود غزة للهجوم الذي سوف ينتهي باحتلال القدس في كانون الأول/ديسمبر؛ ٢) إلغاء حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، وهو المقياس المعتمد في مؤتمر الصلح بباريس ١٩١٩ للتعاطي مع البلدان المحرّرة من الإمبراطوريات المهزومة. لم يتم ذلك بالاعتراف لليهود بما هم «شعب» بـ«وطن قومي» فقط بل أيضًا بتعريف عرب فلسطين على أنهم «غير اليهود» واقتصار حقوقهم على الحقوق المدنية والدينية، أي حرمانهم من حقوقهم السياسية في تقرير المصير وتأسيس دولة وحتى في المشاركة السياسية.

رُسمت مسوّدة الحدود الحالية في المشرق العربي ابتداء من مؤتمر سان ريمو، نيسان/أبريل ١٩٢٠، وعدّلت العام ١٩٢١ بإنشاء إمارة شرق الأردن، وفي العام ١٩٢٣ باتفاقية نيوكومب-بوليه التي رسمت الحدود بين منطقتي الانتداب الفرنسي والبريطاني، وبالتالي الحدود بين سورية ولبنان وفلسطين، ولم تثبت في وضعها الحالي إلا عام ١٩٢٧ عندما سلّم أتاتورك أخيرًا بضم الموصل إلى مملكة العراق. بل تعدلت العام ١٩٣٣ عندما تخلى الانتداب الفرنسي لتركيا عن لواء إسكندرون، إلخ. أدى تطبيق مقررات تلك المؤتمرات إلى القضاء على آمال جمهور واسع من أبناء الولايات العربية في السلطنة العثمانية في الاستقلال والعيش في دولة واحدة ورفض المشروع الصهيوني في فلسطين. وهذا ما عبّروا عنه في شهاداتهم أمام لجنة كينغ-كراين عام ١٩١٩.

١٩٢٠ أسّس نمطًا جديدًا من الاستعمار

ما وراء الخرائط؟

وراءها التاريخ الفعلي لولادة نمط جديد من الاستعمار تقاسمت فيه بريطانيا وفرنسا السيطرة على المشرق العربي، يرتكز على نخب حاكمة عربية، تسيطر على السكان نيابة عن القوّات الأجنبية. وهو نظام تحكمت فيه المصالح الإستراتيجية: تقاسم المرافئ وخطوط سكك الحديد، وحماية الضفة الشرقية

من قناة السويس (السبب الرئيس لاحتلال بريطانيا فلسطين ومنع وصول فرنسا إليها)، والدفاع عن طريق الهند من خلال مرفأ البصرة الذي هو في الآن منفذ مصفاة عبادان للنفط الفارسي الذي تسيطر عليه بريطانيا؛ وإنشاء إمارة شرق الأردن لتكون صلة وصل بين فلسطين والعراق تصل هذا الأخير بالبحر الأبيض المتوسط. ومن حيث المصالح الاقتصادية: احتكار التجارة الخارجية، والوكالات الأجنبية، وتثبيت التبادل غير المتكافئ بين منتجات أولية (النفط، القطن، الحرير، الحبوب، إلخ.) ومنتوجات صناعية، والسيطرة على مالية البلدان واقتصادها بواسطة المصارف الأجنبية، والسيطرة على مؤسسات الخدمة العامة، واستغلال اليد العاملة، إلخ.

ما وراء الخرائط؟

وراء الخرائط أن «سايكس-بيكو» بات الاسم الرمزي لأسطورة تأسيسية عن نشأة كيانات المشرق العربي وشيفرة تفسّر المؤامرة المستمرة على المنطقة تمارسها قوى غربية سيطرت عليها لتقسيمها (لا العكس) وقد تبلورت مع قيام دولة إسرائيل إلى «مشروع» متكامل ومتواصل لتفتيت المنطقة وشعوبها ودولها إلى دويلات وكيانات عرقية دينية مذهبية وطائفية تكون «على صورة إسرائيل مثالها» وتبرّر وجودها.

هكذا غطت رواية الانتهاك لوحدة الجماعة المقدسة على أي مسؤولية تتحمّلها القوى المحلية في خدمة الاستعمار الجديد وعلى دورها في الحفاظ على التجزئة بل وفي الإسهام في التجزئة الداخلية لكل بلد على حدة. إضافة إلى أن هذه الوحدانية في التأويل والنظرة أسهمت إلى حد كبير في التغطية على الأوجه الأخرى للسيطرة والاستغلال الاستعماريين وعلى مراحلهما المختلفة.

وراء الخرائط أن «سايكس-بيكو» بات الاسم الرمزي لأسطورة تأسيسية عن نشأة كيانات المشرق العربي وشيفرة تفسّر المؤامرة المستمرة على المنطقة

وحتى لو اكتفينا من تلك الرواية التأسيسية بثنائية وحدة/تقسيم، وراجعنا مشاريع الوحدة والتقسيم، منذ تلك الفترة التأسيسية، لاكتشفنا أن القوى الغربية تعاطت مع المسألة حسب مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، في كل حالة بحالها، تارة تحافظ على التجزئة وتسهم في إسقاط محاولات التوحيد وتارة أخرى تسهم بذاتها في عملية التوحيد.

مقولة الدولة/المجتمع المدني مقولة نيوليبرالية

في حوارنا كما تُلاحظ يولد السؤال من آخرَ سبقه. وبالتالي، نودّ أن نسألك هنا عن الأُسس التي وضعت الدولة في تناقض مستمر مع المجتمع المدني. بالإضافة إلى الأسس التي أدّت إلى التسلّط الراهن للدولة على المجتمع؟ وكيف يقرأ فوّاز طرابلسي مستقبل العلاقة بين الدولة والشعب في ظلّ هذا الفشل المستمر في إحداث عملية التحوّل الديموقراطي؟ لا سيما في ظلّ النزوح المستمر نحو الطائفة والبنى الاجتماعية ما دون الوطنية؟

يوجد فارق بين ثنائية الدولة/الشعب والدولة/المجتمع وثنائية الدولة/المجتمع المدني.

سأركز على ثنائية دولة/مجتمع مدني. والمقصود هنا بالمدني ما هو غير السياسي.

أرى أن مقولة الدولة/المجتمع المدني على قدر من التبسيط والسطحية من الناحية المعرفية، مثلها مثل جميع الثنائيات. تفترض وجود كتلتين متضادّتين: من جهة، الدولة التي هي تعريفًا مستبدّة تقمع الحريات الفردية بل الأفراد وتخنق القطاع الخاص والحرية الاقتصادية في آن. ومن جهة ثانية، «المجتمع المدني»- وهو القطاع الاقتصادي الخاص والمؤسسات الأهلية غير السياسية وقد طردت منها الأحزاب السياسية والنقابات. في الدولة يتجسّد الاستبداد وغلبة القطاع العام على القطاع الخاص. فترتبط الحرية الفردية بالحرية الاقتصادية في وجه عدوّ واحد: الدولة.

وهذه الترسيمة في شيطنة الدولة من مخلفات الحركات المناهضة للشيوعية زمن سقوط الأنظمة السوفييتية في أوروبا الشرقية، مارستها قوى اجتماعية وسياسية معادية للاستبداد وما لبثت أن سلّمت السلطة والاقتصاد إلى النيوليبرالية وأثرياء الأثرياء المتداخلين مع الأطقم السياسية إلى حد التماهي بينهما (الأوليغارش).

صودرت مقولة «المجتمع المدني» من أبرز تعبير لها عند أنطونيو غرامشي وقلِب مضمونها ودلالتها رأسًا على عقب. كل سلطة طبقية عند غرامشي تحافظ على نفسها وتمارس دورها كسلطة، أي كسلطة أقلية على أكثرية، بمزيج من وسيلتي القسر والطواعية. تقع «الخنادق الأمامية» للدولة في المجتمع المدني حسب غرامشي وهذا قوامه المدرسة، والعائلة والمؤسسات الدينية، ويمكن أن نضيف إليها الإعلام ووسائل



التواصل المجتمعي. هنا ميدان الهيمنة، أي النفوذ الثقافي أو الدور القيادي الذي تمارسه الطبقة الحاكمة على المحكومين وتضمن طواعية القبول بسلطتها وفكرها. وهنا ميدان الصراع الثقافي للمعارضة ضد هيمنة فكر وثقافة وأيديولوجية الطبقة المسيطرة. ويرى غرامشي إلى هذا الصراع لكسب الهيمنة على الهيمنة على أنه مقدمة لتسلّم السلطة – بالثورة – في المجتمع السياسي، أي في الدولة، وليس بديلًا منها. وتسلّم السلطة يتم بواسطة أحزاب ونقابات عمالية ومهنية بالدرجة الأولى.

«المنظمات غير الحكومية»، وتاليًا «منظمات المجتمع المدني» هي أبرز مكوّنات هذا «المجتمع». ومع أنه يصعب إيجاز البحث فيها وفي تجربتها، أودّ أن أجازف بطرح مضبطة انتقادات في موضوع إما يلفّه الصمت وإما الاتهامات وهواجس التآمر.

نقد منظمات المجتمع المدني

١. المجتمع المدني يعادل إلى حد كبير بيئة الطبقات المتوسطة والأفكار السائدة فيها، وهو يعبّر عن التباعد المتزايد بينها وبين سائر الطبقات الشعبية.

٢. تتوزع منظمات المجتمع المدني على اختصاصات تجزّئ قضايا المجتمع والدولة إلى دزينة من المطالب: بيئة، حقوق إنسان؛ عدالة انتقالية، فضّ نزاعات، ريادة أعمال، تسليف ميكروي، عناية بالفئات المهمشة، نسوية، خيارات جنسية، شباب، حماية اجتماعية، إلخ. ويمكن بيان كيف أن كل واحدة من هذه الحقول هي بديل عن مشاريع أو برامج سابقة خلال فترة حركات التحرر الوطني والاجتماعي في ظل النزاع بين المعسكرين. وهي عاجزة عن أن تؤدّي الدور الذي تلعبه الأحزاب من حيث تقديم التصورات الشاملة لقضايا الدولة والمجتمع، وعن القدرة على الجمع والحشد والتعبئة لتحقيق التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي.

في ظل النيوليبرالية، تسلب المؤسسات المالية والتنموية أدوارَ الدولة، ثم تأتي منظمات المجتمع المدني لتبرر وجودها وأدوارها وخدماتها بأنها تعويض عن دولة غائبة أو مقصّرة

٣. في ظل النيوليبرالية، تسلب المؤسسات المالية والتنموية أدوارَ الدولة في التخطيط والاستثمار الاقتصادي والخدمات العامة والتوزيع الاجتماعي. ثم تأتي منظمات المجتمع المدني لتبرر وجودها وأدوارها وخدماتها بأنها تعويض عن دولة غائبة أو مقصّرة، علمًا أن كل ما تستطيع تحقيقه لا يعوّض إلا بالقليل القليل عما تستطيع الدولة.

٤. تقدم منظمات المجتمع المدني نفسها، ضمنًا أو علنًا، على أنها بديل عن الأحزاب السياسية، بحجّة أن الأخيرة «فاشلة» أو سلطوية أو متّهمة بالمشاركة في الحروب. وتجدر الإشارة إلى أنها تستميل بل تستوعب الكثير الكثير من الحزبيين الذين ناضلوا سابقًا في حركات التحرر الوطني والاجتماعي ومن أجل التغيير الاجتماعي والسياسي. والمعروف أن منظمات المجتمع المدني نفسها، الدولية منها («أوكسفام» مثلًا) أو الوطنية (المنظمات الألمانية مثلًا) ممولة من حكومات وأحزاب.

٥. تروّج منظمات المجتمع المدني للديموقراطية والمساءلة والمحاسبة علمًا أنها في معظمها غير منتخبة إلا من أعضائها محدودي العدد، إنها لا تضع نفسها موضع مساءلة أو محاسبة إلا لمموليها، ونادرًا ما تعقد المؤتمرات أو الندوات لمراجعة تجاربها على الملأ، وقد انتهت المرحلة التي كانت فيها منظمات عمل طوعية وباتت مدفوعة الأجر وبالعملات الصعبة.

والأخطر في ثنائية دولة/مجتمع مدني هو مساهمتها في حجب دور الدولة في الوحدة الوطنية وتماسك النسيج المجتمعي، في الدول حديثة النشأة خصوصًا. فباسم الديموقراطية و«البناء القومي» احتلّت الولايات المتحدة العراق ودمّرت أبرز مؤسسات الدولة فيه – قسمًا كبيرًا من الإدارة، وجرى حلّ الجيش والأجهزة الأمنية، وحل حزب البعث، واستصدار قانون «اجتثاث البعث»، إلخ. حمل الاحتلال إلى السلطة المليشيات الموالية لإيران وبنى السلطة الجديدة على تحالف كردي-شيعي، في نظام سياسي فيدرالي (من ثلاث محافظات كردية من أصل ١٨ محافظة) تتوزع السلطة فيه على أساس طائفي-مذهبي-إثني. فماذا كانت النتيجة؟ استدعى الاحتلال معارضة قوامها الجهادية السنية (بقيادة ضباط بعثيين سابقين، مدعومين من النظامين السوري والسعودي أول الأمر) وتفككت أوصال الوطن العراقي فوصل الفساد إلى حد الإسهام في انحلال الجيش العراقي، فحلّت محله مليشيات «الحشد الشعبي» ذات الغالبية الشيعية والموالية لإيران التي دخلت إلى المعركة لتحرير الموصل من حكم «داعش»، وقد فاقم ذلك من النزاعات المناطقية والإثنية والدينية والمذهبية والعشائرية، وصولًا إلى ما نشهده الآن من انفجار النزاعات داخل المذهب الواحد.

التأريخ، السرد، الأدب

أطلنا الحديث في السياسة وأمورها. اسمح لنا بالانتقال باتّجاه التاريخ، وطرح السؤال التالي: في جميع مؤلّفاتك نجد نبرة تاريخية تُجاورها نبرة سردية. وعليه، كيف تنظر إلى الماضي؟ كيف تتعامل مع منتوجه التاريخي؟ هل تراه نصًّا إبداعيًا مبنيًا على تراكيب سردية وبلاغية تصوغ التفسير التاريخي؟ وفقًا لرؤية هايدن وايت. أم لديك رؤيتك الخاصّة؟

نودّ سؤالك أيضًا عن رأيك في فكرة أنّ ما يجرّد التاريخ من مكانته كأساس وطيد للحقيقة الوثيقة، ويعلي من شأن السرد بوصفه جوهر التاريخية، هو وصف الكتابة التاريخية على أنّها «كتابة» والتعامل معها على هذا الأساس. إلى أي حدّ تتطابق مقولة كهذه مع كتابك «حديد وحرير» تحديدًا؟ وإلى أي حد تختلف أو تتفق معها؟ ولماذا؟

التاريخ هو علم الإنسان في زمانـــــــــــه. هذا هو التعريفـــــــ الرائع للتاريخ عند ابنـــــــ خلدون: «الناس بزمانهم أكثر منـــــــه بآبائهم»

التاريخ هو علم الإنسان في زمانه. هذا هو التعريف الرائع للتاريخ عند ابن خلدون: «الناس بزمانهم أكثر منه بآبائهم». في وجه تاريخ القبيلة الذي يبحث عن جذور، ينهض التأريخ الخلدوني ليروي ما يفعله الزمن في البشر. بهذا المعنى ليس التاريخ هو علم الماضي فقط بقدر ما هو علم دينامي عن الاستمرارية والانقطاع. ولأنه علم عن فعل الزمن، فما نعرفه عن الماضي متطوّر بتطور مكتشفاتنا عنه ووسائلنا المعرفية والتعبيرية. وبناء على هذه المقدّمات، لست أعتقد أن التاريخ يطمح إلى تثبيت حقيقة أو حقائق.

لست معنيًا في أعمالي بفلسفة التاريخ وبنظريات في تأويل الوقائع التاريخية عمومًا. همّي أكثر تواضعًا بكثير، وهو الشغل على تبديد عدد كبير من الأساطير والخرافات السائدة والمقاربات الجزئية من أجل المساهمة في ملء ثغرات فاغرة في مداركنا التاريخية، علمًا أن جهدي لا يتعدّى تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين في لبنان والمشرق العربي.

هل حقًا انقضى زمن السرديات الكبرى؟

لدي هذه الملاحظات على سؤالك.

أنا شديد الفضول بشأن الطريقة التي بها تتأسس وتستبدل المناهج الأكاديمية الغربية، الأميركية خصوصًا، ثم تشيع في العالم في الأكاديميا والإعلام ووسائل التواصل المجتمعية والنتاج الفكري والرأي العام في العالم وفي بلادنا خصوصًا. هذا موضوع نادرًا ما يجري التطرّق إليه. يؤخذ على علّاته. ويغلب الفكر النقلي. تنتقل دَرْجة (موضة، تقليعة) أكاديمية-ثقافية الى أخرى فنجهد للّحاق بالجديدة بلا تساؤل عن كيف تمت النقلة ولماذا، يحدونا افتراض بأن التقدم يساوي اللحاق بآخر دَرْجَة. لكن من قال إن آخر تقليعة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية هي بالضرورة أجدى منهج لمقاربة أوضاعنا؟ ومن قال إنه يتعيّن علينا أن نعيد تعريف أنفسنا ومجتمعاتنا بناء عليها؟ هذا عدا عن أن تلك الدَرجات ملغومة دومًا بالسلطة وبالمصالح.

هذا مثال. تبشّرنا جماعة ما بعد الحداثة بأن عصر السرديات الكبرى قد انتهى- ويا للصدفة! يبدو أنه انتهى مع نهاية الحرب الباردة! وماذا عن لاهوت السوق السحرية؟ وأحادية تفسير العالم بواسطة الثقافة والهويات؟ أليست هذه وتلك سرديات كبرى وشاملة، حتى لا أقول شمولية؟

يوجد فرق بين إنكار وجود حقيقة أو حقائق عامة وبين اعتبار الصراع الفكري صراع سرديات بلا أي مقياس للمفاضلة بينها، أي بدون القواعد التي يوفّرها علم التاريخ، فيغلب فيها الرأي أي «الهوى» كما يسمّيه علماء العرب الأقدمون، أو تصير أي سردية تعادل أي سردية أخرى. بل تتفوّق سردية بسبب قوة الطرف الذي يحملها أكثر من تفوّقها بسبب متانة الإسناد والبحث والحجة والبراهين فضلًا عن المقدرة البلاغية.

يوجد فرق كبير بين اللجوء إلى الأدب في سرد التأريخ، واختزال التأريخ بالأدوات اللغوية المستخدمة لإعطاء معنى للوقائع التاريخية.

إن اختصار التأريخ بإعطاء معنى للأحداث والوقائع، يفترض أن تعيين الأحداث والوقائع قد تم أولًا بأوّل، أي أن التحقق من وقوعها قد تأكد وحظي بدعم أكثرية من المراجع الثقات. المهمة الأولى في التأريخ هي السرد، سرد الوقائع والأحداث. ونقطة البداية فيه هي التأكد من أن الوقائع قد حصلت فعلًا وتعيين الطريقة التي حصلت بها. توجد وقائع حصلت في التاريخ ووقائع لم تحصل أي وقائع متخيّلة بقصد أو دون قصد. هنا الشغل: التحقق والإسناد والمرجعية.

المؤرّخ البلجيكي لامنس، هو صاحب رواية «لبنان ملجأ الأقليات الدينية» وبينهم الموارنة. يروي أن تلك الأقليات لجأت إلى جبال لبنان هربًا من الاضطهاد الإسلامي في القرن العاشر. الواقعة مخترعة. دحضها المؤرخ كمال صليبي



بالتذكير، في حالة الموارنة، بأن هؤلاء عاشوا ثلاثة قرون في ظل الخلافة الأموية في منطقة حمص، وأنهم هُجّروا منها لا على يد الحكم الإسلامي، وإنما على يد البيزنطيين الذين سيطروا على الشمال السوري ووادي نهر العاصي خلال القسم الكبير من القرنين العاشر والحادي عشر لاتهامهم الموارنة بالهرطقة.

السرد التاريخي عملية سجالية

هذا من حيث الوقائع. الأهم أن بناء السرد التاريخي يجري عادة بالسجال مع أساطير وخرافات، أو بملء الثغرات في روايات ناقصة، أو يتولى تحيين روايات قائمة بعد العثور على أدلة ومكتشفات جديدة بصددها. تكتسب هذه العملية أهمية خاصة في بلداننا حيث القسم الكبير من تاريخنا مكتوب من خارجها، ما يعني أنه يحتمل، بل يستوجب، المراجعة النقدية والتدقيق والتفكيك وبناء سرد بديل. الاستشراق الموضوع في خدمة السياسات الاستعمارية غالب في تاريخ المنطقة. توجد روايات فاضحة في قصدها الاستعماري ورواية لامنس واحدة من مئات من أمثالها. وكثير منها معتمد عربيًا على أنه متحقق ومرجعي.

في «تاريخ لبنان الحديث: من الإمارة إلى اتفاق الطائف» (٢٠٠٨) أردت كتابة تاريخ يشبك الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي في سعيي إلى التأريخ الشامل

أسلوبي في رواية التاريخ يقرره الموضوع ذاته. في «تاريخ لبنان الحديث: من الإمارة إلى اتفاق الطائف» (٢٠٠٨) أردت كتابة تاريخ يشبك الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي في سعيي إلى التأريخ الشامل. تتبعت نشأة النواة في إمارة جبل لبنان والمتصرّفية، وصولًا إلى نشأة الكيان بعيد الحرب العالمية الأولى وتابعت أبرز محطات تطوره. أفردت حوالي نصف الكتاب للتأريخ للحرب الأهلية ومقدماتها خلال عقدٍ صاخب تميّز بالحركات والنزاعات الاجتماعية الكثيفة. عالجت الحرب كصيرورة، قسّمتها إلى ثلاث حقب بناء على ثلاثة مقاييس: طبيعة القوى المتحاربة في كل حقبة، والموضوع الرئيس الذي يجري عليه النزاع المسلّح، وتدخل القوى الخارجية وأثره في مجريات النزاع. وأفردت عدة صفحات لما سمّيته «الاقتصاد السياسي للمليشيات» لبيان دور العنف والسلطة السياسية في إنتاج مصالح اقتصادية والإثراء على حساب دماء اللبنانيين، وهو ما يؤسس لفهم الاقتصاد السياسي والاجتماعي لما بعد الحرب وتنامي الظاهرة المافياوية.

في كتاب «حرير وحديد. من جبل لبنان الى قناة السويس» (٢٠١٣) اعتمدت أسلوب التدوين المستوحى من الحوليات، وعرضته على شكل مشاهد ولقطات، ما قد يصلح لسيناريو فيلم وثائقي يشبك شخصيات وأحداثًا بعضها ببعض. ستلقى فيه: نساء جبل لبنان واقتصاد الحرير؛ الاحتلال الفرنسي للجزائر، حلم نابليون الثالث بإنشاء «المملكة العربية» في السلطنة العثمانية، أو على أنقاضها، برئاسة الأمير عبد القادر الجزائري؛ أتباع الاشتراكي سان سيمون لدى محمد علي باشا لتلقيح مصر بالحداثة الصناعية؛ الليدي هستر ستانهوب البريطانية، تعلن نفسها ملكة على اليهود في تدمر وتنتظر عودة المسيح في القدس من منزلها بقرية جون في جبل لبنان؛ النهضوي اللبناني فارس الشدياق يجوب المتوسط في دورة كاملة تنتهي في إسطنبول، يدرس في الأزهر ويترجم الكتاب المقدس في بريطانيا، ويشهر إسلامه في تونس، ويتأثر بالاشتراكية، ومغامرات أخرى. تتقاطع هذا المسارات، تنعقد ثم تتفكك، لتصل إلى ذروتها في الاقتتال الأهلي العام ١٨٦٠والتدخل العسكري الفرنسي الذي يمهّد لتسوية فرنسية-عثمانية ولدت بموجبها متصرفية جيل لبنان، وأفسحت المجال للمهندس الفرنسي دُ لسبس (نسيب زوجة نابليون الثالث) لافتتاح أعمال شَقّ قناة السويس في أكبر صفقة اقتصادية استعمارية في القرن التاسع عشر.

أما «سايكس-بيكو-بلفور»، فالتأريخ فيه أقرب إلى تحقيق بوليسي، يكشف أن «الثلاثي» ليس بريئًا من ارتكاب «الجريمة» التاريخية. لكنهم ليسوا المتهمين الوحيدين، وأن «الجريمة» ليست مطابقة تمامًا لما أظهره التحقيق الذي تلاعب بالوقائع والأدلّة والشهادات، وسوف يتبيّن في نهاية التحقيق المضاد أن «الجريمة» تخفي «جرائم»!

التاريخ، الذاكرة، النسيان

كيف ترى النزعات التي بدأت تنتشر مؤخّرًا والتي تدعو إلى المساواة بين التاريخ والذاكرة؟ بل إنّ بعضها ذهبت نحو تفضيل الذاكرة على التاريخ معتبرةً أنّها أكثر أصالة وصحّة ووضوحًا من التاريخ الذي تراه مصطنعًا؟

أفترض أن الحديث هو عن الذاكرة الجمعية. الاهتمام بالذاكرة دائم لكنّ الراهن منه من نتاج ما بعد الحداثة

وإجمال التأريخ بما هو من قبيل السرديات الكبرى. النظرة التي تؤثر الذاكرة على التاريخ من مخلفات أيديولوجيا الحرب الباردة: تتهم الأنظمة الشيوعية بطمس الذاكرة بحيث يصير التذكّر فعل معارضة وهو ما تعبّر عنه معادلة ميلان كونديرا «النضال ضد السلطة هو نضال الذاكرة ضد النسيان».

من الوسائل البديهية التي تملكها السلطات للسيطرة أو الهيمنة أو اكتساب الشرعية إنتاج ذاكرات شعبية أو جمعية، وتغذيتها والتحكّم بها

ليست الذاكرة والنسيان على طرفي نقيض كما سنرى بعد قليل. وقد تبدو معادلة كونديرا جذّابة أدبيًا لكنها خاوية من حيث المضمون. من الوسائل البديهية التي تملكها السلطات للسيطرة أو الهيمنة أو اكتساب الشرعية إنتاج ذاكرات شعبية أو جمعية، وتغذيتها والتحكّم بها، من خلال الاحتفال بأحداث معينة، وإحياء ذكرى حكام سابقين يبرّرون حكم اللاحقين، والتذكير بمواقع عسكرية معينة، وتكريم أبطال وطنيين، والتباهي بانتصارات، بل حتى التباكي على هزائم وويلات وكوارث، إلخ. هذه كلها تغذية لذاكرة وليست فرضًا لنسيان.

أما العلاج بالذاكرة فوصفة من الوصفات التي يوصى بها للمجتمعات التي عانت من الكوارث والحروب، بما فيها الحروب الأهلية. والافتراض السائد أن التذكير بأعمال العنف والكوارث قابل بذاته لضمان عدم تكرارها، جريًا على المثل الشعبي الدارج «تنذكر وما تنعاد». هذا في الحد الأدنى. ومن منوّعاته، التبشير بالسلمية، وتنظيم ورشات «الحقيقة والمصالحة» أو «الحقيقة والكرامة» في صيغتها العربية؛ والتربية ضد الكراهية، ما شابه. ويقوم العلاج هنا على الافتراض بأن إعادة بناء وحدة الشعب وتماسكه وتوازنه، يتم عن طريق بناء «ذاكرة جمعية» مشتركة للأحداث وصولًا إلى رواية مشتركة للتاريخ. لم ينجح هذا العلاج بمفرده في منع تكرار الحروب، في أي حالة من الحالات، لأنه يعوّض بذاكرة العنف والأهوال عن دراسة الأسباب والنتائج والدروس. مثلًا، وقع اقتتال أهلي ذو طابع طائفي في جبل لبنان خلال فترة ١٨٤٥-١٨٦٠ لا يزال في الذاكرة إلى الآن، مع أن ذكراه لم تمنع من اندلاع حرب أهلية صغيرة عام ١٩٥٨، ولا ذاكرة الحربين السابقتين حالت دون اندلاع حروب الأعوام ١٩٧٥-١٩٨٩.

الذاكرة الجمعية لا وجود لها

الحقيقة أنه لا توجد ذاكرة جمعية قدر ما توجد رواية تقدّم نفسها على أنها الرواية الشائعة أو الرسمية لحادثة معينة أو حقبة معينة. وهي رواية تغلب فيها الوظيفة الأيديولوجية النفسانية على الوظيفة المعرفية. خذ مثلًا ذاكرة المجاعة في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى. إنها مظلومية جمعية تتهم السلطات العثمانية بمشروع إبادة مسيحيي جبل لبنان. تروي أن العثمانيين «أقفلوا البحر» لمنع وصول المؤن والمساعدات لأهالي جبل لبنان، علماً أن الذي «أقفل البحر» هو الحصار البحري الإنكليزي كفعل حربي ضد السلطنة العثمانية. صحيح أنّ وقْع المجاعة كان الأقسى على جبل لبنان قياسًا إلى سائر بلاد الشام. لكن «الذاكرة» لا تذكر الأسباب: البعد عن حوران وصعوبة وصول القمح والحبوب وارتفاع كلفة النقل والسعر وجشع التجار؛ والندرة الإضافية للمواد الغذائية بسبب انتقال جبل لبنان إلى اقتصاد الحرير وتخلي الأهالي عن زراعة القمح والحبوب واستبدالها بملايين أشجار التوت لإطعام دود القز؛ فساد موظفي الإعاشة العثمانيين، والأهم دور التجار والمرابين المحليين في تخزين الموادّ الغذائية واحتكارها، وسلب الأهالي ممتلكاتهم المتواضعة لقاء توفير القوت لهم بل إفقارهم والإثراء على نكبات المجاعة ومآسيها. وهي ممارسات موثّقة من شهود عيان أشهرهم رجل الدين الماروني الخوري أنطون يمّين («لبنان بعد الحرب ١٩١٤-١٩١٩»، ١٩١٩). يبقى «الدليل الإحصائي» أن عدد الضحايا المسيحيين أكبر من عدد الضحايا الدروز. والرد عليه بسيط: عدد المسيحيين أكبر أصلًا من عدد الدروز في جبل لبنان، وقد نزحت أعداد كبيرة من الدروز إلى حوران هربًا من المجاعة.

وهذا مثال آخر معاصر على «الذاكرة الجمعية» بما هي رواية لمظلومية: قصة البوارج الحربية الأميركية التي تحركت نحو ساحل لبنان، خلال الفترة الأولى من الحرب الأهلية (١٩٧٥-١٩٧٦) لنقل المسيحيين إلى الولايات المتحدة الأميركية وتوطين الفلسطينيين مكانهم. بالفعل، حركت الإدارة الأميركية قطعًا من أسطولها في خريف ١٩٧٦ لحظة دخول القوات السورية إلى لبنان، وقد توسطت الدبلوماسية الأميركية بين سورية وإسرائيل لإجازة دخولها لوقف الحرب ومنع طرف من الانتصار على الطرف الآخر، على ما أعلن



حافظ الأسد. كان الإجراء البحري من قبيل الاحتياط من إمكان تدخل سوفييتي إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية؛ أو من احتمال صدام بين القوات السورية المتقدّمة والقوات الإسرائيلية. لم يقع أي صدام وكان رئيس الوزراء السوفييتي كوسيغِن في زيارة رسمية لدمشق عندما أعلن الأسد دخول قواته إلى لبنان. هذه الوقائع موثقة من المصدر في وثائق مجلس الأمن القومي والخارجية في حكومة الولايات المتحدة الاميركية وهي مترجمة ومنشورة باللغة العربية في العدد الأول من فصلية «بدايات» العام ٢٠١٢. والطريف أن النائب جميل السيّد كرر الرواية ذاتها عن مجيء دين براون إلى لبنان لنقل المسيحيين على البوارج الأميركية في حديث له مع الإعلامي جاد غصن خلال كتابة هذه السطور (٢٠٢٢/١١/٤).

ليست الذاكرة والنسيان على طرفَي نقيض

نأتي إلى الأهم: إن وضع الذاكرة مقابل النسيان وبالتضاد معها يحجب ما بينهما من علاقات وتأثيرات متبادلة. لا يمكن للإنسان أن ينسى كل شيء ولا يمكنه أن يتذكّر كل شيء. كلاهما عملية انتقاء. كل عملية تذكّر تتضمن إهمال ما لا يراد تذكره، إهمالاً إراديًا أو غير إرادي. واعيًا أم من غير وعي. ثم إننا لا ننسى إلا ما نعرفه أو ما نتذكره.

تحدث حالات فقدان الذاكرة في الحالات الفردية وغالبًا نتيجة كبت لواقعة مؤلمة أو حادثة رضّية. لكن لا يوجد فقدان ذاكرة أو محو ذاكرة في الحالات الجمعية.

ما يسقط من الذاكرة تحل محله ذاكرة أخرى. و«النسيان» إن هو إلا عملية استبدال ذاكرة بأخرى. ويمكن القول بالتالي إن «التذكر» الفعلي هو نقد الذاكرة الشائعة

ومثلما لا يوجد ذاكرة جمعية لا يوجد نسيان جمعي. ما يسقط من الذاكرة تحلّ محله ذاكرة أخرى. و«النسيان» إن هو إلا عملية استبدال ذاكرة بأخرى. ويمكن القول بالتالي إن «التذكر» الفعلي هو نقد الذاكرة الشائعة.

خذ تصوير الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥-١٩٩٠ بأنها «حرب الآخرين» حسب مقولة الصحافي غسان تويني الشهيرة، ولها منوّعان «حرب الآخرين على لبنان» و«الحرب في لبنان من أجل الآخرين». هذا ليس ضربًا من النسيان. هذه رواية مفروضة، مشغولة، ومعممة بواسطة الإعلام، والأبحاث ووسائل الاتصال المجتمعية وغيرها، تحظى بنسبة عالية من الانتشار. ولها وظائف متعددة: تبرّئ السلطات التي لم تعمل لمنع اندلاع الحرب كما تبرّئ المليشيات التي خاضت الحرب وقد بات قادتها في السلطة؛ وتطمئن اللبنانيات واللبنانيين عمومًا أن لا مسؤولية تقع عليهم على القتل ودمار الذي ألحقوه ببلادهم (من دون أن ينفردوا في ذلك)؛ وتغيّب البحث في أسباب الحرب وتعيين المسؤوليات والمحاسبة بإلقائها اللوم على الآخرين. وأخيرًا، تقدم هذه «الذاكرة» التسويغ لإعادة بناء النظام الاقتصادي والسياسي الذي كان قائمًا قبل الحرب مع تضخيم أبرز معالمه، أي الانتقال من الليبرالية إلى النيوليبرالية، وبناء مجتمع الاستهلاك، وإعادة بناء موسّعة لنظام الطائفية السياسية مع تعميق طابعها الديني، وإن بتعديل في توازناته الداخلية. وكل ذلك باسم العودة إلى لبنان كما كان، أو حتى العودة إلى عصر ذهبي سبق الحرب. وشرط ذلك ألّا يخطر ببال أحدٌ أن يسأل: إذا كان ذاك العصر الذهبي عصرًا ذهبيًا كما تصفونه، لماذا أدى إلى الحرب؟ فتعود قصة إبريق الزيت: كانت الحرب حرب الآخرين على أرض لبنان. ويكون الرد: إذا كانت حرب الآخرين لماذا ارتضى نحو ٨٠ ألف لبناني أن يموتوا فيها؟

في المقابل، دعوت وأدعو إلى واجب التذكّر وضرورة النسيان. واجب تذكّر أسباب الحرب ومساراتها وكيفية انتهائها والدروس المستخلصة منها. ودعوت وأكرر الدعوة إلى ضرورة تناسي أعمال العنف والمجازر التي تبادلها اللبنانيون خلالها. نتذكر تلك الأعمال لكي ننساها. وإننا نستطيع أن ننساها لأننا نعرفها، ولأننا نتذكرها. ويمكن لعملية التذكر والنسيان المتبادلة هذه أن تشكل الأساس لتسوية تاريخية تصفّي بقايا الحرب. وهو ما لم يحصل في اتفاق الطائف وتوابعه. لذا أتحدث عن تناسٍ، بما هو فعلٌ إرادي. حتى أنه يمكن إجمال كل هذه المحاجّة بالعنوان الذي أعطاه محمود درويش ليومياته عن الحصار الإسرائيلي لبيروت صيف ١٩٨٢ – وما تضمّنه من مراجعة الشاعر النقدية لما تحمّله لبنان واللبنانيون من وجود المقاومة الفلسطينية المسلّحة على أرضه – «ذاكرة للنسيان».

أخيرًا، ما هي مشاريعك المقبلة؟

أنا في طور إنجاز الجزء الثاني من «صورة الفتى بالأحمر» وهي شهادة عن تجربة «لبنان الاشتراكي» و«منظمة العمل الشيوعي في لبنان» وعنوانه «زمن اليسار الجديد».

نحو إعادة نظر في المادية التاريخية

جايروس بناجي

جامعي ومؤرخ ماركسي، الهند. يدرّس في «كلية الدراسات الآسيوية والأفريقية» بجامعة لندن. آخر أعماله «تاريخ موجز للرأسمالية التجارية» ٢٠٢٠

نشرت هذه المقابلة في مجلة «المادية التاريخية» البريطانية، ٢٠١٦

**** عندما يلقي المرء نظرة على مؤلفاتك المنشورة، يلاحظ تنوعًا كبيرًا في الاهتمامات، من نظرية القيمة-الشكل («من السلعة إلى رأس المال: جدلية هيغل في كتاب «رأس المال» لماركس»)، إلى النظريات النقدية عن الفاشية («الفاشية: مقالات عن أوروبا والهند») إلى التأريخ الماركسي والنظرية التاريخية («النظرية بما هي تاريخ»). هل يحق للمرء أن يرى في هذه الاهتمامات المتنوعة تدخلات مختلفة من ضمن حقول بحث متغيرة أم أن في نتاجك استمرارية وانتظامًا؟***

الاستمرارية هي ببساطة استمرارية النظرية الماركسية ذاتها. المادية التاريخية كما فهمها ماركس كانت مفهومًا مدمجًا أو حقلًا بحثيًا ولم تكن مجزّأة إلى اختصاصات. يستحيل التفكير في الرأسمالية، مثلًا، بواسطة مصطلحات اقتصادية صافية، مجردة عن الدولة؛ أو التفكير بالدولة بمعزل عن الثقافات التي تحدو بجماهير واسعة من الناس إلى القبول المستكين بالسلطة أو بكل القيم التي تقوم عليها وتدعمها (كان سارتر يسمّيها «القبول المتسلسل»). لم يمكن لهتلر أن يوجد لولا وجود بيئة سمحت له بالظهور والنجاح (أيّ أن يتحول إلى «تجسيد» لـ«شعب» مقولب عبر عقود من تعريضه للقومية والنزعة العسكرية وما شابه). إن هذا الفهم للماركسية بما هو اختصاص مدمج بالأساس، إن شئنا تسميتها ذلك، هو ما حاول سارتر أن يحيط به في كتابه «مسألة المنهج». لذا أرى إلى عملي على أنه تدخل موحّد في مستويات مختلفة جدًا، وفي حقوق مختلفة إلى حد بعيد.

في محاولة استخراج بعض المعنى عن حال رأس المال الهندي، أجرينا أنا وصديق يدير الآن اتحادًا من النقابات المستقلة هنا في الهند، قرابة مئتي مقابلة مع أشخاص في القطاعات المالية والاقتصادية (مديري مؤسسات مالية، مراقبي محاسبة، مديري شركات، محللين، إلخ). لكن كان لا بد من تأطير هذا التدخل بطريقة ما، وقد توفر ذلك لسبب فريد هو اضطرار الرأسماليين إلى أن يناقشوا طريقة إدارة أعمالهم، ونظام حوكمة الشركات. فجعلنا من ذلك محور الدراسة ذاتها ولم تعد المقابلات مقتصرة على ذلك، بل شملت مروحة واسعة من المواضيع بما فيها الطريقة التي تدار بها كبريات الشركات (الآليات المستخدمة لتنظيم آليات السيطرة والتحكّم على شركات ضخمة) ومدى استشعار رأس المال الهندي بالخطر جراء تدفق الشركات الأجنبية إلى السوق.

في مقدمة كتابك «النظرية بما هي تاريخ» تميّز بين «علاقات الإنتاج» و«أشكال الاستغلال»، هل لك أن تفصل في هذا التمييز وتشرح لماذا أدى عجز المادية التاريخية عن التمييز بين هذين المفهومين إلى أن يحكم عليها بالشكلانية؟

إن علاقات الإنتاج هي مجموع علاقات نمط إنتاج معيّن، بما في ذلك تلك التي تنتمي إلى قطاع الاستهلاك (في ظل الرأسمالية) وهو موضوع لم يتسنّ لماركس أن يعالجه. يبني ماركس كتاب «رأس المال» على طريقة الشرائح، كل شريحة تقارب «الواقعية» بإدخال تحديدات أهملت أصلًا. الاستغلال هو محور الجزء الأول من الكتاب لأن ماركس أراد منه بيان كيف يولد رأس المال عمومًا، بما هو تجسيد صنمي للعمل وفائض العمل، أي أنه الشكل الموضوعي للعمل الحيّ. لإجراء هذا البيان، كان على ماركس أن يبدأ بالقيمة، وأن يفسّر ما هو المال، وأن ينتقل من ثم ليعالج مسار العمل بما هو موقع إنتاج القيمة وفضل القيمة. إن اختزال كثرة التحديدات التي تنتمي إلى «علاقات الإنتاج» إلى هذا المستوى الأصلي من التجريد يوازي القول إن ماركس لم يكن بحاجة إلى كتابة باقي أجزاء «رأس المال»، والاكتفاء بالجزء الأول.



أودّ أن أسجل نقطة إضافية هنا. لقد قرن ماركس حتمًا الرأسمالية بالرأسمالية الحديثة التي كانت تنمو وتتطور في أيامه. إلا أن التشكيلات قبل الرأسمالية كانت منتشرة في أجزاء عديدة من العالم من الصين في عهد السونغ الجنوبي إلى أجزاء واسعة من العالم الإسلامي. انظر مثلًا الدراسة الميدانية الرائعة لـ[لوسيت] فالينسي عن صناعة الشاشيات في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي صناعة مبعثرة ومنزلية بحتة، لكنها منظمة بطريقة محكمة ويسيطر عليها رأس المال (مجلة التاريخ الحديث والمعاصر، ١٩٦٩).

إنــــ علاقـــــــات الإنتاج هي مجموع علاقات نمط إنتـــــــــاج معيّن، بما في ذلك تلك التي تنتمي إلى قـــــــطاع الاستهلاك (في ظل الرأسماليـــــــــة)

هذا نموذج لنوع الرأسمالية التي ازدهرت في الاقتصاديات المدينية خلال القرون الوسطى بل في العهد العتيق. ولكن طالما أننا واضحون بأن هذه ليست هي الرأسمالية بالمعنى محكم التحديد الذي يعطيها إياه ماركس، فلن ينشأ أيّ خلط إذا ما شخّصنا هذا النوع من العلاقات الاقتصادية على أنها علاقات «رأسمالية». ولا مجال للادّعاء بأن أشكال الإنتاج تلك تدفع سائر قطاعات الاقتصاد. لكن الحصيلة التي نخرج بها هي نظرة تقول إن العمال كانوا يتعرّضون لاستغلال الرأسماليين خلال حقب من التاريخ أطول بكثير مما كنا نتصوّر.

في الفصل الخامس من كتابك «النظرية بما هي تاريخ» («تخييل العمل الحر») تحاجج بأن العمل المأجور لا يمثّل أي «تقدم» إذا ما قورن بالعبودية أو الرق، وتعتمد في ذلك على كتاب سارتر «نقد العمل الجدلي». ما الذي يقدّمه سارتر من حيث النقد الكاشف للغموض بخصوص العمل المأجور ولم يقدمه نقد ماركس في مقولته عن الصنيمة (الفيتيشية) أو نقد [جورج] لوكاش للتشيؤ؟

لا. أنا لا أحاجج بأن العمل المأجور لا يشكل «تقدمًا ما»، مهما يكن للكلمة من معنى. في الفصل الذي تشير إليه أقول إن العمل المأجور ليس أقلّ تعرضًا للقسر من أشكال سابقة من السيطرة على العمل. يعمل القسر بطريقة مختلفة وتجري معاناته بطريقة مختلفة طبعًا، لكن الذي أعترض عليه هو الطريقة السطحية التي تفهم العمل الحر/المقيّد واستخدام ذلك الفهم سياسيًا. في بلدان مثل الهند، يوجد جمع كبير من العمال الموسميين والمتعاقدين، خصوصًا في الأرياف وهم من أبناء طائفة الداليت [«المنبوذين»]، وهم لا يختلفون كثيرًا عن الأرقّاء ولكن هذا لا يعني أنهم أرقاء فعلًا. التقدم الذي يحققه العمل المأجور، على الأقل في رأي ماركس المتفائل بحذر، هو أنّ الرأسمالية الصناعية الحديثة متمركزة في وحدات إنتاج شاسعة وأن الإنتاج نفسه يعلّم العمال على النضال وعلى أن يعوا تضامنهم الجماعي وقدرتهم بما هي قدرة على معارضة لا رأس المال وحده وإنما معارضة المجتمع الرأسمالي برمّته.

لقد حمل سيرج ماليه مثل هذه النظرة إلى الطبقة العاملة في مؤلفاته ولكنه اضطر في تلك الفترة - أي حوالي مئة سنة على تأليف ماركس كتاب «رأس المال» - إلى التمييز بين مختلف «أنواع» الطبقات العاملة وتخلّى تقريبًا عن تلك القطاعات (في صناعات الإنتاج المكثّف مثل صناعة السيارات) حيث طابعُ العمل غير الماهر لا يسمح إلا بأشكال مؤقتة من التضامن يسهل كسرها، لأن لا أساس لتلك النظرة في فهم أوسع وأكثر عضوية للمصنع ولكيفية انخراطه في المجتمع. وشكل هذا بداية تراجع عن مفهوم ماركس في الستينيات من القرن التاسع عشر لأنه حصر الطاقة الثورية بنوع معيّن ومخصوص من الطبقة العاملة (العمال في الصناعات التي تستخدم الأتمتة automation) في تأثر جزئي بأعمال بيير نافيل عن الأتمتة، وبنظريات الآن توران التطورية عن الصناعة وبتأثر أكيد بالظرف الناشئ في فرنسا، الذي أفضى إلى ثورة أيار/مايو ١٩٦٨، خصوصًا ما يتعلق بالاستثمارات الضخمة التي وظّفها الاتحادان النقابيان الأكبران في التدريب.

في الفصل الثاني («أنماط الإنتاج في مفهوم مادي للتاريخ») والرابع («العمال قبل الرأسمالية») من كتابك «النظرية بما هي تاريخ»، تُقدم زعمين قويين يتضادّان مع ما تسمّيه «الماركسية المبتذلة». تحاجج بأن مَزارع الأرقاء في الولايات المتحدة، بعيدًا عن أن تحمل أيًا من مخلفات ما يسمّى «نمط إنتاج العبودية» كانت مزارع رأسمالية أساسًا، بحيث إنه لا يمكن تعريف نمط الإنتاج الرأسمالي بما هو نمط إنتاج يستخدم العمل المأجور حصرًا.
وفي الفصل الرابع، تحاجج موكدًا أن العمل المأجور كان نمطًا من استغلال العمل واسع الانتشار في روما العتيقة

وأدى إلى مطالب عمالية مخصوصة تتعلق بالأجور وبالتنظيم. كيف تصنّف نمط الإنتاج الرأسمالي إذًا؟

تتميّز الرأسمالية بالنزعة إلى مراكمة رأس المال بغضّ النظر عن الشكل المخصوص للسيطرة على العمل واستخراج فضل القيمة. لا فرق لدى الرأسمالي الفرد إذا كان العامل حرًا أو غير حر، يعمل في المنزل أو في مصنع، وهلمّ جرًّا. تلك القرارات هي قرارات اقتصادية وتقنية محضة. إنها تتعلق بأمور مثل أكلاف الإنتاج، وتوافُر اليد العاملة، وما إذا كان نوع من أنواع العمل (عمل نساء، عمال منزلي) يناسب أكثر من سواه لنوع معيّن من الإنتاج. على هذا المستوى – مستوى رأس المال الفردي – يكون حتى بناء «المهارة» الفردية مسألة ذاتية إلى أبعد حد. ولكن من منظار رأس المال الاجتماعي الشامل، تصير حركية العمل مهمة طبعًا لأن الرأسماليين يتنافسون على العمال ويتعيّن على السوق أن تجعل مسار التنافس هذا يعمل بطريقة فعّلة. كانت العبودية في العالم الحديث (العبودية الأطلسية) نتاجًا رأسماليًا صرفًا لكن رأس المال المعني كان بالدرجة الأولى ذلك الذي يسمّيه ماركس رأس المال التجاري. ومهما يكن من أمر، كان مالكو المزارع في جنوب الولايات المتحدة مديونين بمبالغ طائلة للمؤسسات المالية الشمالية، مثلما كان أصحاب مزارع العبيد الكوبية مندمجين مع بيوتات هافانا التجارية والمصارف الأميركية والسماسرة الأميركيين الذين كانوا مرتبطين بهم.

تتميّز الرأسمالية بالنزعة إلى مراكمة رأس المال بغض النظر عن الشكل المخصوص للسيطرة على العمل واستخراج فضل القيمة

لقد ركّزتَ مؤخرًا على تحليل أمْولة الرأسمالية. ولذلك نظرت في مصدرين نظريين متمايزين: الأول هو كتابات ماركس عن «حروب الأفيون» في الصين؛ والثاني، هو نظرية سارتر عن التسلسل. ما الذي تقدّمه هاتان المقاربتان من إيجابي وجديد لتحليل ظاهرة معاصرة؟

أردت من محاضرتي عن الأزمة المالية الأخيرة تصحيح التركيز المتضخم والمبالَغ فيه في كتابات ماركسية أخيرة على رأس المال «المنتج» كأنه منوّع من منوّعات «الرأسمالية الصافية». حاولتْ المحاضرة أن تستعيد التوازن بين التمويل والإنتاج. وتم ذلك جزئيًا بجعل رأس المال الافتراضي مقولة تحليل مركزية. فما أن نصل إلى الجزء الثالث من «رأس المال» حتى ندرك أن الرأسمالية لا يمكنها أن تشتغل دون تسليف، التسليف هو قاعدتها الشاملة، كما يعلمنا ماركس.

ما أن نقرّ بذلك، نتمكن من أن ندمج بالتسليف سائر أجزاء التحليل بدلًا من أن نهملها. فإذا كان التسليف أساس الاقتصاديات الرأسمالية الحديثة، فإن الأسواق المالية إذًا هي مركزية لعملية التراكم فيتعيّن علينا أن نتفهم كيفية تشغيلها. أما عن فكرة سارتر، فيبدو لي أنها تحمل طاقة كبيرة جدًا لإغناء النظرية الماركسية عن الدولة وعن الكيفية التي يُحكِم به رأس المال سيطرته على المجتمع ككل.

كيف يمكن في أيامنا هذه عزل رأس المال عن الدولة والدولة عن أجهزة الإعلام وأجهزة الإعلام عن رأس المال؟ ما أن نعترف بأشكال الاتّكال المتبادلة بينها، يصير التحليل بمجمله أكثر تعقيدًا فنجدنا في حاجة إلى مقولات جديدة لتنظيمه. وبالتأكيد يثور السؤال: هل لدينا نظرية ماركسية عن الدولة الرأسمالية الحديثة؟ لقد ولدت أقوى دولتين رأسماليتين في العالم المعاصر (الصين والولايات المتحدة الأميركية) من خلال مسارات تاريخية متباينة جذريًا. على أن هذا لا يحول دون أن تكونا تجسيدًا لمادية رأس المال المخصوصة. وأعني بـ«مخصوصة» ببساطة أن السيطرة تمارَس بطرائق مختلفة، بحيث إن العلاقة بين السياسة والإيديولوجيا والثقافة ورأس المال ليست تسير بالتأكيد وفق ترسيمة موحّدة ووحيدة.

لما كنتَ تركّز على تنوّع أشكال الاستغلال وعلاقات الإنتاج التي يمكن للرأسمالية أن تتخذها، وتنكر أي جدوى تاريخية للنموذج الكلاسيكي لتتابع أنماط الإنتاج (شيوعية بدائية، رقيق، إقطاع، رأسمالية، اشتراكية) كيف يمكن التنظير للانقطاعات والقفزات النوعية في التاريخ؟ بعبارة أخرى، كيف يمكن التفكير في الانتقال عندما يتخلى المرء عن أي نوع من أنواع التاريخانية؟ وأي خلاصات استراتيجية يمكن للمرء أن يخلص إليها من هذه النظرة متعددة المسارات الى المادية التاريخية؟

ما أنكره هو أي تتابع جامد في أنماط الإنتاج. حتى ضمن الإطار المحدود لتاريخ أوروبا، «الانتقال» بين العالم العتيق والقرون الوسطى أكثر تعقيدًا بكثير من أي انتقال مبسّط من الرقيق إلى القنانة. كان ثمّة قرون بحالها في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الرومانية عندما ضمّت قوة العمل الريفية عمالًا لا يمكن تصنيفهم بما هم أرقّاء أو أقنان، لكنهم كانوا



قاطفو القطن، ١٩١٥.





عرضة لأشكال جديدة من السيطرة تتضمن قدرًا لا بأس به من القسر. إن تصنيف هؤلاء العمال على أنهم «انتقاليون» يعني أن نحقن شحنة ثقيلة من الغائية في قراءتنا للتاريخ. وهذا ما قاله ماركس في ردّه على ميخايلوفسكي.

وماذا بشأن تلك المناطق من الشرق الأدنى والبحر الأبيض المتوسط التي احتلتها جيوش الإسلام بين منتصف القرن السابع ونهايته وفي مطلع القرن الثامن في إسبانيا؟ هنا يقدم مانويل آسيين المنسى نموذجًا للمؤرّخين الماركسيين بالطريقة التي رفض بها التصنيفات التقليدية وسعى إلى إعادة التفكير بالتشكيلات الإسلامية الاجتماعية بطريقة مبتكرة كليًا، بتأثير جزئي من أعمال [بيار] غيشار. أما الضحية الرئيسة للجزء الأكبر من هذه المراجعات فهي فكرة مبسّطة ترى إلى «الإقطاع» على أنه مقولة تاريخية كلية الشمول ذات مدى كونيّ يصل مداه إلى مدى شمولية الرأسمالية. ليست هذه هي الحال ونسيج التاريخ أغنى بكثير حتى من منظار مادي صرف يعطي الأولوية للتأريخ الاجتماعي والاقتصادي.

حتى ضمن الإطار المحدود لتاريخ أوروبا، «الانتقال» بين العالم العتيق والقرون الوسطى أكثر تعقيدًا بكثير من أي انتقال مبسّط من الرقيق إلى القنانة

توجد «مراحل انتقال» بالتأكيد لكنها ليست محكومة بقوانين كتلك التي حلل بها ماركس الرأسمالية، وهي بالتأكيد لن توفر وجهة غائية للطريقة التي نفهم بها التاريخ أو المادية التاريخية. لنأخذ مثلًا بديهيًا: كيف نصنّف التغيّرات الضخمة التي حولت النظامين الاقتصاديين السوفييتي والصيني في العقود القليلة الأخيرة؟ إذا كان «الانتقال» هو المقولة الأساسية للتحليل، فعن أي نوع من الانتقال نتحدث في هاتين الحالتين؟

إذا أخذت بالاعتبار تنوّع مسارات الانتقال، ما الذي يميّز مقاربتك عن فكرة «تمفصل أنماط الإنتاج» الآلتوسّيرية، وهي فكرة يبدو لي أنك ترفضها؟ وبالتأكيد، ماذا عن الاتحاد السوفييتي والصين، كيف تصنّف هذين المجتمعين؟ هل فكرة رأسمالية الدولة مجدية في تصنيفهما؟

في التشديد على تنوع مسارات «الانتقال» التي تميّز كل حقبة تاريخية شاملة (مثلًا، نشوء الرأسمالية التي تتخذ مثل تلك الأشكال المختلفة باختلاف الأزمنة والأمكنة) أشير ببساطة إلى مسارات لا يمكن إخضاعها إلى منظومة من «القوانين». الأكيد أنني لا أعتقد أنّ لهذا أي صلة بـ«التمفصل» بالمعنى البنيوي. [لوي] آلتوسّير يجيد أكثر في موضوع «أجهزة الدولة الأيديولوجية» مما في مضمار «أنماط الإنتاج». حول هذه الأخيرة، بالكاد يتجاوز التمتمة بنوع من العاديات من مِثل «وحدة قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج» التي كانت شائعة في الأوساط الشيوعية فترة ما بعد الستالينية. ومن المدهش أن معظم ما يقوله عن علاقات الإنتاج الرأسمالية هو أنها في الآن ذاته علاقات إنتاج استغلالية. لم يتأمل آلتوسّير بعمق بمعنى هذه العبارة – عبارة «التزامن» – أبعد من ذلك. الواضح أنه كان يشعر بأن التفكير بواسطة «تحديدات» رأس المال يعني الانزلاق إلى شمولية تعبيرية تتنازل للهيغليين أكثر مما يجب.

ولكن عندما يقول إنها علاقات استغلال «متزامنة» فهو يفسح في المجال أمام عمارة رأس المال المعقّدة التي تخترق الأجزاء الثلاثة من كتاب «رأس المال» برمتها. المظهر الأساسي لضعف آلتوسّير النظري حول هذه النقطة هو أنه لا يأتي على ذكر التراكم، فهو عاجز عن رؤية الرأسمالية بطريقة دينامية (بما هي قوانين تراكم وتزاحم). وهذه مفارقة لأنه حين يتصدى لمعالجة مسألة الدولة، يتخذ من إعادة الإنتاج مقولة رئيسة. وكما قلت سابقًا، آلتوسّير جيد جدًا عن الدولة وأجهزتها ولدينا الكثير أن نتعلمه من تلك الأجزاء من مؤلفاته.

أما بصدد الاتحاد السوفييتي والصين، فقد كنت ولا أزال أرى إليهما على أنهما من أنظمة «رأسمالية الدولة» لكني أصفهما بهذا الوصف لغياب بديل. ما الذي أعنيه بذلك هو أنهما لم يكونا في الظاهر مجتمعات لاحقة على الرأسمالية بأي معنى من المعاني، ناهيك عن مجتمعات انتقالية نحو الشيوعية (أي مجتمعات «المنتجين المتشاركين») بحيث استقرّ المرء على رأسمالية الدولة بما هي الوصف الأقل تبريرًا. مع أن هذا التشخيص صحيح بمعنى بدائي جدًا، فالمؤكد أنه غير كافٍ.

إذا كانت الدولة هي الرأسمالي، فردًا أو جماعة، فالرأسمالي هو أيضا دولة. هذا هو الوجه الثاني الذي يجب أن يحدونا إلى بلورة اقتصاديات سياسية من نوع الاقتصاديات السياسية الرأسمالية التي نجمت عما سمّيت الثورات «الفاشلة». والصين حالة معقدة بنوع خاص، لكن روسيا والصين عرفتا حقبًا تاريخية مديدة من سيطرة

الدولة. ما يحدث عالميًا هذه الأيام، على ما يبدو، هو الاتجاه الكارثي الأخير الذي يخوضه رأس المال لاستيعاب الأرياف وإخضاعها، ليس فقط بإبادة الفلاحين (القرى تتفكك بسرعة على امتداد معظم بلدان العالم، والهند مثال جيّد على ذلك) وإنما أيضًا بتحويل الأرياف ذاتها إلى مرحلة من مراحل تاريخ رأس المال. في الصين تجري هذه العملية بشكل صاعق لأن الدولة هي الفاعل الأساسي فيها باسم رأس المال في هجوم، سمّاه بازوليني «اختفاء ذبابات النار». وتصوّر لنا أفلام جيا زانغكي («طبيعة صامتة»، «لطخة خطيئة»، إلخ.) الاكتشاف الصاعق حقًا لحركة «التراكم الأولي» الضخمة تلك، ليس أقلّ لأن المخرج يلتقطها بأسلوب شبه توثيقي.

ما يحدث عالميًا هذه الأيام، على ما يبدو، هو الاتجاه الكارثي الأخير الذي يخوضه رأس المال لاستيعاب الأرياف وإخضاعها

أنت تستطيع استيعاب طبيعة الرأسمالية في الصين حاليًا، بطريقة أفضل، في نهاية عدة عقود من التراكم والقمع، أكثر من أي عدد من النصوص التي تكرر العاديات النظرية الأكثر بدائية. فلنعترف ببساطة أننا لسنا نملك المقولات اللازمة لمواجهة رأسمالية بذلك الحجم.

ما مساهمة الماركسية الأوروبية ([هربرت] ماركوزه، [فيلهلم] رايش، [جان بول] سارتر) في فهم التحدي المعاصر للفاشية؟

هذا تحدٍ أساسي تمامًا. لا يملك اليسار نظرية متماسكة وقوية عن الفاشية، فضلًا عن وسائل النضال ضدّها سياسيًا. لفتت مؤلفات رايش الأنظار إلى الطاقات المتضافرة بين السلطوية وتأييد الحركات الفاشية، إذ وضعهما معًا في صعيد نفساني وثقافي ونظر إليهما بما هما بنى جامدة أصلًا (أي أشكال يسمّيها سارتر «عملية-هامدة»). يستطيع المرء أن يرى في الهند حاليًا لماذا جموع من الشباب الذكور المقتلعين من الجذور، وقد تجاهلتهم الأحزاب اليسارية كليًا وأهملت مخاطبتهم، أخذوا ينجذبون نحو اليمين المتطرف بأعداد كبيرة. فالثقافة السائدة بينهم تعجّ بأكثر الأفكار وأنماط السلوك سلطوية وعنفًا (عنصرية ضد الداليت [طائفة المنبوذين]، تمييز جنسي ضد النساء، وعصبية طائفية) كما هي مشحونة بشحنة قوية من الكبت الجنسي تشوّه حياة الشباب، ذكورًا وإناثًا. تقدمّ لنا مؤلفات سارتر أدوات تحليل لطرائق السيطرة في العمل مع صعود الفاشية وإحكام قبضتها القوية على «الجماهير». إنّ السيطرة على الجموع هي أساس كل نظام فاشي لكن النظرية الماركسية بالكاد بدأت النظر في كيفية تشغيل تلك السيطرة وكيف يمكن كسرها.

ما هو الدور الاستراتيجي للنظرية اليوم في اليسار، في الهند وربما في سائر أوروبا أيضًا؟

النظرية أساسية ولا غنى عنها، لكنها لن تنمو في فراغ، إنها سوف تشبّ وتُزهر عندما تولد ثقافة جديدة وحركة جديدة في اليسار توفر لها ظروفًا تحرّرها (من النزعة المدرسية والتراتب الأكاديمي والإفقار الدوغمائي، إلخ.) لتستأنف تطورها اللاحق. ثم إن يسارًا لا يأخذ الأفكار جديًا، ولا يتعمق في النظرية، ولا يوسّع مفهومه للنظرية، لن يكون قادرًا على إنتاج ثقافة ثورية ولا حركة ثورية. لذلك فكل حقبة تعتمد على أخرى، وبينهما تقع كل مشكلة «الاستراتيجية».

أودّ أن أوضّح أيضًا أن اليسار لن يستطيع أن يستجمع قواه بواسطة أشرطة حذائه. أعني أنّ الشرط المسبق لنموّه الذاتي كقوة سياسية أساسية في عالم اليوم هو في نشوء طبقات عاملة جديدة أو شرائح جديدة من الطبقة العاملة تسترجع بعض الحس بالمبادرة الذاتية الجمعية والقوة وبما يعنيه أن تكون طبقةً تطمح إلى إعادة صياغة المجتمع. لقد بذل رأس المال قصارى جهود لخنق نشوء تلك الظروف، وقد تعلّم بسرعة من تحديات فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وصولًا إلى الستينيات، إن المالثوسية [خفض نسبة تزايد السكان بالوسائل القسرية] التي احتجّ عليها سارتر في حالة فرنسا وحالة البرجوازية الفرنسية كانت في الواقع أفضل خيار حتى لو عنى ذلك تفكيك دول الرعاية، والتنكر للعقود الاجتماعية، وتشظية الإنتاج إلى مستويات ومقادير من البعثرة بحيث يجري التخلي عن وفورات القياس. الطبقة العاملة التي تناولها ماركس في «رأس المال» موجودة اليوم للأسف بحالة أقل قوة وتمركزًا. التفاؤل الذي يخترق «البيان الشيوعي» يقوم على أنه لا يوجد إمكانية لأن تقدر قوة رأس المال على أن تواجه جماهير العمال المتمركزة في وحدات إنتاج كبيرة. لذلك فإذا ظل الإنتاج مركزيًا بالنسبة لاستراتيجيات اليسار، يتعيّن علينا أن نبدأ من هنا. أيَّ شكل سوف تتخذ الحركة النقابية؟ كيف يمكن لجموع المتعطلين من العمل أن يصيروا جزءًا من حركة منظمة؟ وكيف يمكن أن يبنى تضامن حقيقي عندما تكون جموع العمال المأجورين مجزّأة ومبعثرة إلى هذا الحد؟



الاشتراكية والاستعمار والاستشراق

جلبير الأشقر

باحث وأكاديميّ لبناني في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، من مؤلفاته «انتكاسة الانتفاضة العربيّة. أعراض مَرَضيّة» (٢٠١٧)

النص هو ترجمة للفصل المعنوَن «الاستعمار/ الإمبريالية/ الاستشراق» في ***Histoire globale des socialismes XIXe-XXIe siècle, sous la direction de Jean-Numa Ducange, Razmig Keucheyan et Stéphanie Roza, Paris: Presses universitaires de France, 2021, pp. 109-122.***

ترجمه من الفرنسية عمر الشافعي

إن فكرة التوزيع الاجتماعي للثروات، وكذلك الممارسة التاريخية لتلك الفكرة على نطاقاتٍ متنوّعة، تسبقان بكثير ظهور مصطلح «الاشتراكية» (socialisme) في بداية القرن التاسع عشر. وقد عرَفهما الشرق على وجه الخصوص قبل قرون عدة، لا سيما في التعبير الديني الذي كان الشكل السائد عالميًا للطوباويات الاجتماعية حتى القرن الثامن عشر. هكذا، شكّل يسوع الجليلي ومزْدَك الفارسي وقرامطة شبه الجزيرة العربية لحظات هامة من التاريخ العالمي للاشتراكيات منذ فجر الإنسانية. والحال أن المسيحية، التي وُلدت في الشرق، لعبت دورًا حاسمًا في تاريخ الاشتراكية الأوروبية، سواء على هيئة مشاعات دينية سابقة لقرن التنوير، على غرار مشاعة توماس مونتسر في ألمانيا، أو بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تكوين مختلف اشتراكيات القرن التاسع عشر.

بيد أنّ الصورة الرئيسية التي تجلَّى فيها الشرق في العقائد الاشتراكية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر هي صورة ممثّليه المتخيَّلين داخل الغرب، ألا وهم اليهود الذين ألحقتهم صورتُهم النمطية بعالم المال الذي يمقته الاشتراكيون بطبيعة الحال. فمن فورييه إلى بلانكي ثم باكونين، نعرف إلى أيّ مدى شاطَر اشتراكيّو القرن التاسع عشر – لا سيّما الفرنسيون منهم – الأفكارَ النمطية المناهضة لليهود، الموروثة من تراثٍ مسيحي يعود إلى العصور الوسطى. والحال أنّ من هؤلاء اليهود، الذين كثيرًا ما سمّوا بالعبرانيين أو الإسرائيليين على نحو أحالهم إلى الشرق الذي يُفترض أنهم منه جاءوا – هؤلاء اليهود الذين كتب عنهم برودون عام ١٨٤٧ في دفاتره كلامًا بذيئًا يدعو إلى «إعادة هذا العِرق إلى آسيا، أو إبادته»– جاء مفهومُ معاداة السامية، الذي بدأ ينتشر في نهاية القرن التاسع عشر مستلهمًا خزعبلات إرنست رينان، ليرسّخ إدماجهم في النطاق الشرقي للّغات الساميّة الذي نبعت منه الديانات الإبراهيمية الرئيسية الثلاث.

التراث المخزي بشأن «المسألة اليهودية» لأغلب العقائد الاشتراكية في القرن التاسع عشر إنما هو الدليل، لو كانت ثمّة حاجة إلى دليل، على أن معارضة «البلوتوقراطية» (حكم الأثرياء) لا تستتبع بأي حال من الأحوال قطيعةً تلقائيةً مع مجمل النسق المعرفي السائد. ويصحّ هذا تحديدًا بشأن الأفكار النمطية إزاء الاختلافات التي لا تتّصل بتقسيم الثروة، مثل الأفكار المتعلقة بالعرق والجندر – أو الاستشراق، من حيث هو تعبير عن التمركز الإثني (ethnocentrisme) الغربي، وفقًا للمعنى المعاصر لمصطلح «الاستشراق» الذي روّج له إدوارد سعيد والمعتمَد في بقية هذا المقال. والواقع أن كراهية اليهود شكّلت بوجه عام غيضًا من فيض احتقار الشرق، «آخَر» الغرب بامتياز.

السان سيمونيّون والشرق

على أننا نجد مع ذلك مقاربةً أكثر سخاءً إزاء الشرق المسلم لدى هنري دو سان سيمون، الذي كان له، من بين «الاشتراكيين الطوباويين»، الأثر المستقبلي الأهمّ، ففي مواجهة الاستشراقي النموذجي الذي مثّله ڤولني، رأى سان سيمون عام ١٨٠٨ أن العرب شكّلوا «طليعة الإنسانية» على الصعيدين السياسي والعلمي بين القرنين السابع والثاني عشر. وبينما سقط الشرق المسلم في الانحطاط منذ ذلك الحين وحلّت محلّه أوروبا في دور الطليعة، ظلّ سان سيمون مقتنعًا بأن المجتمعات غير الأوروبية يمكنها التقدم على الطريق الذي سلكته أوروبا، شريطة أن تتولى الأخيرةُ إرشادها في انتقالها من «المرحلة اللاهوتية» إلى «المرحلة الوضعية». ويكرّر سان سيمون في كتابه «عقيدة الصناعيين» (١٨٢٤) الفكرة القائلة إن «شعوب الأرض جميعًا، تحت حماية فرنسا وإنكلترا متّحدتين، ستنهض تباعًا وبالسرعة التي ستسمح بها حالة حضارتها، إلى النظام الصناعي».

أما التلميذ الرئيسي لسان سيمون، وهو پروسبير أنفانتان الملقّب «الأب»، فقد وقع في غرام الشرق آملاً أن يجد فيه «الأم» (أمّ من «العِرق اليهودي» في تصوّره) مساهمًا بذلك في إضفاء طابع شهواني على علاقة الغرب/ الشرق، وهو أمر بالغ الشيوع في القرن التاسع عشر. وكانت مصر الأرضَ المفضّلة لمخطط السان سيمونيين الكبير؛ فبعدما حاولوا سُدًى كسب تأييد واليها العثماني محمد علي لقضيّتهم، راحوا يضغطون باتجاه السيطرة الفرانكو-إنكليزية المباشرة عليها. وساورهم في هذا المجال هوسٌ بحفر قناة في برزخ السويس، وهو المشروع الذي نال فرديناند دي لِسبس امتيازه الحصري مورثًا إياهم بالغ الأسى. وقد دفع إخفاق مغامرتهم المصرية بالسان سيمونيين إلى الالتفات نحو الجزائر، ناصَر أنفانتان بقوة استعمارها من قِبَل فرنسا، لكنه مع ذلك أعرب عن نفوره من المجازر التي ارتكبتها فيها القوّات الفرنسية، فانطلاقًا من إخلاصه لاعتقاد سان سيمون بإمكانية تغيير العالم عن طريق الإقناع، حلَم أنفانتان في عام ١٨٤٠ بإقناع مجموع الشرق الإسلامي الخاضع للهيمنة العثمانية بفضائل العقل «الوضعي» الفرنسي. هذا وأيًّا كانت غرابة أطوار فلسفة التاريخ لدى السان سيمونيين، فقد شكّلت نموذجًا للجناح اليساري للفكر الاستعماري، المؤمن، بمنطق أبوي وبنيّة حسنة، بـ«الرسالة التمدينية» لأوروبا تجاه شعوب الجنوب العالمي «الهمجية».

الاستعمار من هيغل إلى ماركس وإنغلز

الواقع أنّ الاستشراق- تلك القراءة الجوهرانية للشرق التي تزعم أن مفتاح فهمه يكمن في ثقافات تتميّز بالديمومة، بل بعدم القابلية للتغيير- ليس في نهاية المطاف، إذا ما تسامى إلى مستوى التأمّل الفلسفي، سوى أحد نماذج التفسير المثالي للتاريخ. هكذا نجد تعبيرًا مكتملاً عن الاستشراق لدى ذروة فلسفة التاريخ المثالية متجسدةً في هيغل، الذي يشكّل عملُه المعنون «محاضرات في فلسفة التاريخ» (١٨٢١-١٨٣١) جمعًا من القوالب النمطية الثقافوية، سواءً تعلّقت بالشرق أو بالغرب. ويترتب على ذلك أنّ الشرط الأول لتجاوز الاستشراق، مثله مثل كافة أنماط الجوهرانية، هو القطيعة المعرفية مع قراءة التاريخ عبر منظور الثقافة. وعلى الرغم من أصوله اليهودية، كان ماركس الشاب نفسه، قبل أن يُتمّ قطيعته الفكرية مع الهيغلية اليسارية، قد غازل الكليشيهات الجوهرانية المعادية لليهود الواردة لدى برونو باور، في نقده لهذا الأخير.

ومنذ اكتشافه مع إنغلز للفاعلية العلمية للتفسير المادي للتاريخ، الذي قاما بتعميقه عند تحريرهما «الأيديولوجيا الألمانية» عام ١٨٤٦، صار الصديقان ينسبان إلى العوامل المادية، وفي المقام الأول العوامل الاقتصادية، اختلافات التطور بين البلدان. غير أنهما ظلّا أسيرَي النسق المعرفي الأوروبيّ- التمركز السائد في عصرهما، حينما نسبا إلى المشروع الاستعماري الأوروبي دورًا تاريخيًّا تقدميًّا. لم يكن الأمر في ذهنهما «رسالة تمدينية» بمعنى تهذيب الهمجيين، ولكن بمعنى التوسّع العالمي لنمط الإنتاج الرأسمالي. ومن هذه الزاوية، يمثّل «البيان الشيوعي» (١٨٤٨) تسبيحة بحمد العجائب الحضارية التي يُفترض أنها تحققت على يد البورجوازية، التي «تدفع [...] إلى الحضارة حتى أشد الأمم هجميّةً [...] وترغمها على إدخال ما تسمّيه «الحضارة» إلى وسطها» - تلك البورجوازية التي، مثلما أخضعت «الريف للمدينة»، كانت تُخضع أيضًا «البلدان الهمجية وشبه الهمجية للبلدان المتحضرة، [و] الشعوب الفلاحية للأمم البورجوازية، والشرق للغرب».

لم تعد الحضارة والهمجية هنا خصائص ثقافية؛ فما يميّز الغرب عن الشرق في فهم ماركس وإنغلز ليس هو القدرة الثقافية الأعلى، بل اختلاف في الموقع على السلّم التاريخي للتطور البورجوازي. فمثلما ذهب سان سيمون إلى أنّ أوروبا لم تفعل سوى خلافة العرب حينما وضعت نفسها في «طليعة الإنسانية» من حيث العقل العلمي، رأى ماركس وإنغلز أنها تبوّأت ذروة التطور الاقتصادي من خلال كونها فضاءً ازدهر داخله نمط الإنتاج الرأسمالي الحديث. وقد أناط ذلك بالبرجوازية الأوروبية مهمّة نشر الحضارة الصناعية في بقية العالم.

هذا وعلى غرار إخضاع الأرياف للمدن في أوروبا ذاتها، لم يكن ليتسنّى إخضاع الأمم الهمجية للأمم المتحضرة والشرق للغرب بلا وحشية، فبوصفهما ماديّيْن جيّديْن، عرف ماركس وإنغلز أن العنف هو «قابلة» إمكانية التقدم التي ينطوي عليها كل مجتمع، على نحو ما وصفه ماركس لاحقًا في «رأس المال» (١٨٦٧). لذا رأى الرجلان من منظور التاريخ أنّ وحشية التوسع الإمبريالي الأوروبي في الشرق وفي أفريقيا، وكذلك وحشية توسع امتدادات أوروبا على الجانب الآخر من الأطلسي، كانت الثمن الذي يتعيّن دفعه من أجل إنجاز رسالة التقدم المنوطة بالتوسّع. والخلاصة، أن الغاية التمدينية تبرّر الوسائل الهمجية التي لجأ إليها التوسع الأوروبي.

الاستعمار والتقدم الاقتصادي

والحاصل أن ماركس وإنغلز عبّرا بطريقة نموذجية عن ذلك المنظور المتطلّع إلى غاية التاريخ في تصوّرهما للشرق في مستهلّ مسارهما الفكري المشترك. ويوفّر المقال عن الجزائر الذي نشره إنغلز في *The Northern Star* عام ١٨٤٨ مثالاً مدهشًا على



ذلك، فقد قدَّر إنغلز الشاب أنه «على الرغم من أن الطريقة التي حارب بها الجنود [الفرنسيون] الوحشيون، أمثال بيجو، جديرةٌ بأن تقرَّع تقريعًا شديدًا، فإن احتلال الجزائر واقعة مهمة وموائمة لتقدّم الحضارة». ونجد المنظور نفسه لدى ماركس في مقاله الشهير عن الهند عام ١٨٥٣، فبينما عبّر عن الأسى على مصير ضحايا السيطرة الاستعمارية البريطانية من السكان الأصليين، حذّر القرّاء إزاء أي إغراء رومنطيقي بإضفاء طابع مثاليّ على الهند ما قبل دخول الاستعمار إليها، داعيًا إياهم إلى «عدم نسيان أن تلك المجتمعات القروية الشاعرية، ولو كانت في ظاهرها غير مؤذية، كانت على مرّ الزمان تمثّل الأساس المتين للاستبداد الشرقي». وخلُص إلى استنتاج مماثل لما خلُص إليه إنغلز عن الجزائر: «مهما تكن جرائم إنكلترا، فإنها كانت الأداة اللاواعية للتاريخ» في تثوير المجتمع الهندي.

من خلال إكمالهما للقطيعة المعرفية مع المثالية الهيغلية، كان ماركس وإنغلز قد أكملا بالمثل قطيعتهما مع الاستشراق من حيث هو فهم ثقافوي للتاريخ. لكن هذه القطيعة لم تكن لتكفي في حد ذاتها لتخليصهما من القوالب النمطية الاستشراقية السائدة في الحقل المعرفي والإعلامي الأوروبي لزمنهما، تلك القوالب التي نجدها بكثرة في تعليقاتهما على مدار العقود الأولى لتعاونهما، لا سيما بشأن تركيا العثمانية والهند. ولم يكن كافيًا من أجل التخلص من تلك القوالب أن يُنسب أصلُها إلى عوامل مادية، والحال أنّ «الاستبداد الشرقي» كان محكومًا لدى مونتسكيو نفسه بالظروف المناخية والجغرافية. فطالما ظلّ ماركس وإنغلز أسيرَين للنسق المعرفي الأوروبي لحقبتهما، محدودَين بالمصادر الحصرية التي كانت متاحة لهما، ظلّا يتبنّيان جزئيًّا المنظور الاستشراقي، فحتى لو أخذ تمركزهما الأوروبي شكل الاعتراف بالدور التاريخي التقدّمي للرأسمالية، لم يقلّل ذلك من حقيقة قبولهما بأسطورة «الرسالة التمدينية» للسيطرة الأوروبية.

أكمل ماركس وإنغلز قطيعتهما مع الاستشراق، لكن هذه القطيعة لم تكفِ لتخليصهما من القوالب النمطية الاستشراقية السائدة في زمنهما

بقي عليهما أن يكملا قطيعتهما المعرفية مع المثالية التاريخية بقطيعة مع النسق المعرفي للسيطرة الأوروبية، فإذ تبنّيا منظور الطبقة العاملة في علاقتها مع رأس المال، بقي عليهما أن يتخلصا من الأفكار النمطية المفعمة بالتمركز الإثني والسائدة في فضائهما الجغرافي، بغية تبنّي وجهة نظر مقهوري الإنسانية غير الأوروبية في علاقتها بأوروبا وامتداداتها. وستشغل أيرلندا في هذا المقام موقعًا مركزيًّا في تطوّر أفكار ماركس وإنغلز، بدءًا بالأخير. إنّ تغيّر نظرة إنغلز إلى الأيرلنديين لافتٌ بحق، فبينما تضمّن كتابه «حال الطبقة العاملة في إنكلترا» (١٨٤٥) صدًى للأفكار النمطية الإثنية التي أفرزتها لدى العمّال الإنكليز حالةُ المهاجرين الأيرلنديين البائسة، استحوذ عليه شغف قوي بالقضية الأيرلندية بعد ذلك ببضع سنوات، وهو شغف بقي لديه حتى نهاية عمره.

وقد لعبت العاملة الأيرلندية ماري بورنز، رفيقة حياة إنغلز الأولى، دورًا رئيسيًّا في توعيته. لقد أفرزت زيارة أيرلندا التي قاما بها عام ١٨٥٦ تغييرًا كاملاً في تفسيره للمسألة الأيرلندية، ففي رسالة إلى ماركس بتاريخ ٢٣ أيار/ مايو ١٨٥٦ يحكي له فيها عن رحلته، وصف إنغلز أيرلندا بأنها أول مستعمرة لإنكلترا، كما وصف الطريقة التي أدّت بها قرون عدّة من حروب الغزو إلى «التدمير الكامل للبلد». وبعد سنوات، في رسالة بتاريخ ١٩ كانون الثاني/ يناير ١٨٧٠ يحيط فيها ماركس علمًا بتطور بحوثه عن التاريخ الأيرلندي، كتب إنغلز مؤكّدًا «كلما درست الموضوع أكثر، اتّضح أمام عينيّ أن أيرلندا، نتيجةً للغزو الإنكليزي، قد حُرمت من تطورها الخاص وأُعيدت قرونًا إلى الوراء».

في معسكر أعداء الاستعمار

وداعًا إذًا لفكرة الاستعمار كعامل للتقدم الاقتصادي! هذا الانقلاب في المنظور سيضع ماركس وإنغلز على نحو حاسم في معسكر أعداء الاستعمار. منذ عام ١٨٥٧، راجع إنغلز بالكامل حكمه بشأن الجزائر، وذلك في المقال الذي كتبه عنها لـ«الموسوعة الأميركية الجديدة» (*The New American Cyclopaedia*). لم يعد الجزائريون في المقال الجديد ذلك الشعب الذي كان قد وصفه إنغلز بأنه «شعبٌ من اللصوص، وسائلهم الرئيسية للعيش هي غزو بعضهم بعضًا»، وشعبٌ يجلب إليه الاستعمارُ الفرنسي، بالرغم من وحشيته، «الحضارة» والصناعة، مثلما شرح في مقال ١٨٤٨، بل أصبح الفرنسيون، على العكس، هم الذين يدمّرون البلد على طريقة الغزوات الهمجية «فالقبائل العربية والقبائلية [...] قد أخضِعت أو فُتَّ في عضدها عن طريق غزوات رهيبة أحرِقت فيها مساكنها وأملاكها ونُهبت، وأتلفت مزروعاتها، بينما أولئك البائسون من أهلها الذين

لزموا أماكنهم لاقوا مصرعهم أو تعرّضوا لشتى أهوال الوحشية أو الفجور».

وبالمثل، ففي المقالات التي كتبها ماركس في ١٨٥٧ - ١٨٥٨ لجريدة *New-York Daily Tribune* عن «ثورة السباهية»، أول هبة استقلالية هندية كبرى، جعل ماركس من نفسه محاميًا عن المتمردين ضد الإمبراطورية البريطانية، إذ دان وحشيّة قوّاتها واستغلالها للسكان المحليين. واتخذ إنغلز هو الآخر موقف الدفاع عن الصينيين ضد الأوروبيين في تعليقه عام ١٨٥٧ على حرب الأفيون الثانية. وعلى مسافة أميال من أوهام الماضي عن الدور التمديني للاستعمار، نجد في الفصل الوارد في المجلد الأول من «رأس المال»، الذي كرّسه ماركس لـ«منشأ الرأسمالي الصناعي»، وصفًا لدور التوسع الاستعماري في تحقيق «التراكم البدائي» لرأس المال في الدول الاستعمارية على حساب البلدان المستعمَرة ومواردها الطبيعية.

«لقد أشّر اكتشاف الذهب والفضة في أميركا، واستئصال السكان الأصليين واستعبادهم ودفنهم في المناجم، وبدء احتلال الهند الشرقية ونهبها، وتحويل أفريقيا ساحةً للصيد التجاري لأصحاب البشرة السوداء، كل ذلك أشّر على الفجر الوردي لحقبة الإنتاج الرأسمالي. هذه المجريات السعيدة هي القوى الدافعة الرئيسية للتراكم البدائي. [...] لقد أنضج النظام الاستعماري نموّ التجارة والملاحة. وغدَت الشركات الاحتكارية التي منحتها الحكومات احتكارات وامتيازات رافعات جبّارة لتركز الرساميل. وضمنت المستعمرات سوقًا للتصريف بالنسبة إلى المعامل الناشئة بسرعة، أما احتكار السوق هذا فقد ضمن مضاعفة التراكم. إن الكنوز المنتزعة من خارج أوروبا، بالسطو السافر واستعباد السكان المحليين والفتك بهم، سرعان ما تدفقت على البلد الأم وتحولت فيه إلى رأسمال».

وعلى الرغم من وجهة نظرهما الجديدة الناقدة بشدّة للاستعمار، لا يمكن أن نتوقّع أن نجد لدى ماركس وإنغلز نظرية مكتملة عن تحرر الشعوب المستعمَرة، ذلك أن تحوّلهما المعرفي في فهم دور السيطرة الاستعمارية في خلق وإدامة تشكيلة تراتبية للعالم، لم يكن كافيًا بحد ذاته لتخليصهما كلّيًا من الأفكار النمطية الناجمة عن التمركز الإثني والمنتشرة في فضائهما الثقافي. لذا سنظل نجد في كتاباتهما حتى النهاية آثارًا لهذه الأفكار. غير أنها لم تعد سوى بقايا ثقافية، عوضًا عن أن تكون عناصر رئيسية من فهمهما للعالم.

هذا وقد حدّد إنغلز عام ١٨٨٢ الموقف الذي يتعيّن على الحركة العمّالية الأوروبية أن تتّخذه بشأن المسألة الاستعمارية في حالة انتصارها. في رسالة إلى كارل كاوتسكي بتاريخ ١٢ أيلول/ سبتمبر، صاغ رفيق درب ماركس المبادئ الآتية، مشيرًا بوجه الخصوص إلى الجزائر ومصر والهند: «على بروليتاريا الدول الاستعمارية أن تقود البلدان المستعمَرة إلى الاستقلال بأسرع ما يمكن؛ عليها أن ترفض الخوض في أي حرب استعمارية، حتى لو أخذت الثورات القومية في البلدان المستعمَرة منحىً عنيفاً؛ إن استقلال البلدان المستعمَرة هو بالنسبة للبروليتاريا الأوروبية الحل الأمثل؛ ويجب على البروليتاريا الأوروبية إقناع البلدان المستعمرة بالتقدم صوب الاشتراكية عن طريق المثال والجاذبية الاقتصادية وحدهما؛ فلا يجوز للبروليتاريا فرض سياساتها الاجتماعية على شعب آخر».

«في رأيي أنّ [...] البلدان التي يسكنها مواطنوها الأصليون، وهي بلدان مغلوب على أمرها لا غير، مثل الهند والجزائر وممتلكات هولندا والبرتغال وإسبانيا، لا بدّ وأن تسودها البروليتاريا مؤقتًا وتقودها بأسرع ما يمكن نحو الاستقلال. ولكن يتعسّر علينا أن نحدد الآن مسار هذه العملية، إذ ربما قامت الهند بثورة وهذا احتمال كبير جدًّا في الحقيقة، ونظرًا لأن البروليتاريا الآخذة في تحقيق تحررها الذاتي لا يجوز مطلقًا أن تشنّ أي نوع من الحروب الاستعمارية، فإنه يلزم السماح لتلك الثورة بشقّ طريقها؛ ولن يتسنّى لها بطبيعة الحال أن تتحقق دون المرور بأشكال شتى من التدمير، بيد أنّ هذا أمرٌ لا مناص منه بالنسبة لكل الثورات. وربما يحدث الشيء نفسه في بلدان أخرى مثل الجزائر ومصر، وسيكون هذا بالتأكيد أفضل شيء لنا. فسيكون لدينا حينئذ ما يكفي لإشغالنا داخل بلادنا. وما أن يُعاد تنظيم أوروبا وأميركا الشمالية، فإن هذا سيؤدي إلى خلق قوة هائلة وسيوفّر مثالاً يُحتذى على نحو سيدفع البلدان شبه المتحضّرة إلى اللحاق بالركب؛ ومن شأن الاحتياجات الاقتصادية وحدها أن تجعل ذلك محتومًا. أما عن معرفة المراحل الاجتماعية والسياسية التي يلزم على هذه البلدان أن تمرّ بها قبل أن تصل بدورها إلى التنظيم الاشتراكي، فأحسب أننا لا نستطيع اليوم أن نقدّم في هذا الصدد سوى فرضيات غير ذات قيمة. ثمة شيء واحد يقينيّ: البروليتاريا المنتصرة لا تستطيع أن تفرض قسرًا بركاتها أيًّا كان نوعها على أيّ أمّة أجنبية دون أن تقوّض دعائم نصرها بفعلتها هذه».

المسألة الاستعمارية في الأممية الثانية

من المعلوم أنّ كاوتسكي نصّب نفسه بعد وفاة إنغلز مدافعًا عن الأرثوذكسية الماركسية داخل الاشتراكية. الديموقراطية الألمانية والأممية الثانية، لا سيّما في تصدّيه لمراجعة إدوارد برنشتاين الإصلاحية. أمّا ما هو غير معروف بالقدَر نفسه، فهو



أنّ هذا الدفاع عن الأرثوذكسية امتدّ أيضًا ليشمل المسألة الاستعمارية. وقد ظلّ كاوتسكي مخلصًا للخط الذي رسمه إنغلز، إذ نشر رسالة هذا الأخير إليه في ملحق كرّاسه الصادر عام ١٩٠٧ بعنوان «الاشتراكية والسياسة الاستعمارية». وفي هذا الكرّاس، ردّ كاوتسكي على برنشتاين، الذي كان قد دافع في مقال ظهر في العام نفسه عن «الضرورة التاريخية للاستعمار» وعن الفكرة القائلة بأن سياسة استعمارية معتدلة ستكون في صالح بروليتاريا الدول الاستعمارية.

ردّ كاوتسكي على برنشتاين الذي دافع عن «الضرورة التاريخية للاستعمار» وعن أنّ سياسةً استعماريةً معتدلةً ستكون في صالح بروليتاريا الدول الاستعمارية

وكان قد جرى التعبير عن هذا الفكر «الاستعماري الاشتراكي» لأول مرة داخل الأممية الثانية قبل ذلك بثلاثة أعوام، في مؤتمر أمستردام (١٩٠٤)، حيث قدّم الاشتراكي-الديموقراطي الهولندي هنري فان كول مشروع قرار يبرِّر الإبقاء على الاستعمار في ظل حكومة عمّالية متذرعًا بصيغة «اشتراكية» للرسالة التمدينية. وقد أثار ذلك نقاشًا محتدمًا داخل الأممية في وقت كان التوسع الاستعماري قد بلغ ذروته على الصعيد العالمي بينما أخذت أحزاب اشتراكية أوروبية متسارعة النموّ، تبوّأت مواقعَ داخل برلماناتها الوطنية، تواجه أكثر فأكثر مسألة «الإمبريالية».

وقد تواصَل الجدال وحُسم في مؤتمر شتوتغارت (١٩٠٧). عاود فان كول طرح موقفه بدعم من أغلبية الوفد الألماني الذي شارك فيه برنشتاين. ومع احتدام النقاش، نطق بعبارات عنصرية فجّة كشفت بجلاء عن نفاق الموقف الأبوي السان سيموني الذي كان يتفاخَر به. وتستحق هذه العبارات، الصادمة بشكل خاص، أن نقتبسها لمقدار ما هي كاشفة- مثلها في ذلك مثل رد فعل جانب من الحضور - عن الذهنية الاستعمارية لجزء كبير من الاشتراكية - الديموقراطية في ذروتها. ولعلّها تساعد في وضع الأمور في نصابها بشأن اصطفاف غالبية أقسام الأممية الثانية وراء حكومات كلٍّ منها في الحرب العالمية الأولى، التي كانت إلى حدّ كبير حرب إعادة تقسيم استعماري للعالم.

دعا كاوتسكي إلى تقديم عون للتنمية بديلاً من الاستعمار: «لدينا كلّ المصلحة في وصول الشعوب البدائية إلى ثقافة أرقى، لكن ما أنازع فيه هو أنّ هذا يتطلب ممارسة سياسة استعمارية. [...] إذا أردنا أن نتصرّف كجالبين للحضارة للشعوب البدائية، فإن الضرورة الأولى بالنسبة لنا هي كسب ثقتها، ولن نكسب هذه الثقة إلا حينما نعطيها الحرية». وردّ فان كول هازئًا: «إذا أرسلنا ماكينة إلى زنوج أفريقيا الوسطى، هل تدرون ما سيفعلون؟ من المرجّح جدًّا أنهم سينفّذون حول منتوجنا الأوروبي رقصة حربية (قهقهة) ومن المرجّح بالقدر نفسه أنّ آلهتهم التي لا تُعدّ ولا تحصى ستزداد إلهًا (قهقهة جديدة). [...] إذا ما ذهبنا، نحن الأوروبيين، إلى أفريقيا بماكيناتنا الأوروبية، سنكون ضحايا لحملتنا [شرَح فان كول قصده قائلاً: «بل من الجائز أن يقوموا (السكان الأصليون) بسلخ جلودنا أحياءً أو بأكلنا...»]. علينا، على العكس، أن نحمل أسلحتنا بأيدينا لكي ندافع عن أنفسنا عند الاقتضاء، حتى لو كان كاوتسكي يسمّي ذلك بالإمبريالية (صيحات استحسان من بعض المقاعد)».

انتصر اليسار في المؤتمر، لكن بأغلبية ضئيلة برغم كلّ هيبة كاوتسكي. وقد شهد هذا الجدال مواجهة بين أغلبيات يمينية من منظمات البلدان المستعمِرة (باستثناء الروس الذين كانت غالبيتهم يسارية)، من جهة، وأقليات يسارية من البلدان نفسها، تساندها وفودُ البلدان غير المستعمِرة، في الجهة المقابلة. وشملت الوفود الأخيرة الوفدَ البولندي الذي ضمّ روزا لوكسمبورغ، التي سيكون كتابها «تراكم رأس المال»، الصادر عام ١٩١٣، أول عمل نظري ماركسي هام يعطي مكانًا كبيرًا للعالم المستعمَر، وإنْ لم يتضمّن نظرية سياسية بشأن مناهضة الاستعمار. وستدفع الإحاطةُ بطبيعة الانقسامات في مؤتمر شتوتغارت بلينين نحو بلورة نظريته عن «الأرستقراطية العمّالية» التي يرعاها الاستغلال الإمبريالي، وهي النظرية التي فسّر بها التحوّل «الاشتراكي - الشوفيني» الذي طغى على صفوف أغلب الأحزاب الاشتراكية - الديموقراطية في البلدان المحاربة.

في غضون ذلك، أدّت الثورة المجهَضة في روسيا عام ١٩٠٥، وكذلك انتصار اليابان، وهي قوة عظمى آسيوية، في الحرب الروسية اليابانية في ١٩٠٤-١٩٠٥، إلى تحفيز اضطرابات ثورية في فارس وتركيا والصين، وهي بلدان ثلاثة كانت على تداخل ثقافي مع الفضاء الاستعماري للإمبراطورية القيصرية. وقد أجّجت الحرب العالمية الأولى التجذّر السياسي في البلدان الثلاثة، وكذلك في الهند وفي بلدان أخرى من آسيا وأفريقيا الشمالية. ومع وصولهم إلى السلطة من خلال ثورة أكتوبر ١٩١٧، سيراهن البلاشفة أكثر فأكثر على الحركات القومية والثورية في الشرق بغية كسر عزلتهم، لا سيّما بعد إخفاق ثورة

١٩١٨-١٩١٩ الألمانية وفي مواجهة الحرب التي شنّتها ضدهم قوات الحلفاء بدءًا من عام ١٩١٨.

المسألة الاستعمارية في الأممية الثالثة

أما الأممية الثالثة (الكومنترن) التي تأسست عام ١٩١٩، والتي جمعت اليسار الجذري للاشتراكية - الديموقراطية السابقة على الحرب، فستضع المسائل القومية والاستعمارية على جدول أعمال مؤتمرها الثاني عام ١٩٢٠. وكان فحوى النقاشات في ذلك المؤتمر مختلفًا جدًّا عنه في مؤتمر شتوتغارت: لم تعُد النقاشات منصبّة على الموقف في الدول الاستعمارية إزاء الاستعمار، وهي المسألة التي كان موقف الأممية الشيوعية منها متوافقًا مع الموقع ماركسي الأصيل، بل على الموقف الذي يتعيّن اتخاذه إزاء الحركات القومية في البلدان المستعمَرة وشبه المستعمَرة – سواء من قِبَل شيوعيي الدول الاستعمارية، أو من قِبَل شيوعيي تلك البلدان نفسها، الذين بات تمثيلهم داخل الأممية الجديدة منذ البداية أكبر منه في سابقتها.

بالتوازي مع هذه المسألة، نَبَعت أخرى تتّصل بموقف البلاشفة، الذين وصلوا إلى السلطة، تجاه شعوب الإمبراطورية الاستعمارية الروسية وأممها، فمنذ عام ١٩١٣، على وجه الخصوص، كان لينين قد جعل نفسه مدافعًا بحماسة عن حق الأمم في تقرير مصيرها خلال سجالات متنوعة، أشهرها ذلك الذي وضعه في مواجهة روزا لوكسمبورغ. وقد دعا إلى الاحترام الصارم لهذا الحق من قِبَل السلطة الجديدة في مواجهة موقف يساري متطرف ممثَّل بقوة في صفوف البلاشفة يعكس احتقارًا للشعوب «المتخلّفة» باسم مصلحة الدولة الجديدة، المتماهية مع «مصلحة البروليتاريا».

«ما الذي بوسعنا فعله لصالح شعوب مثل القرغيز والأوزبك والطاجيك والتركمان، تلك الشعوب التي ما تزال واقعة تحت تأثير الملالي؟ [...] هل نستطيع أن نذهب إلى تلك الشعوب قائلين: سنُسقِط مستغلّيكم؟ لا نستطيع ذلك، لأنهم خاضعون بالكامل لنفوذ الملالي. لا بدّ من الانتظار في مثل هذه الحالات حتى يؤدّي التطور بهذه الأمم إلى تمايز البروليتاريا عن العناصر البرجوازية، وهو الأمر المحتوم». هكذا حاجج لينين في مؤتمر الحزب البلشفي عام ١٩١٩، متمنيًا أن يمتنع البلاشفة عن فرض إرادتهم على الشعوب التي قهرتها القيصرية قبل الثورة. بيد أنّ ذلك سيذهب سدًى، ففي ملاحظاته الأخيرة المدوّنة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٣ حول مسألة القوميات، اعترف مؤسس البلشفية بأنه أذنب بتراخيه في الكفاح من أجل مبدأ تقرير المصير، بل ذهب إلى حدّ وصف الدولة الروسية الجديدة بأنها جهاز «ورثناه من القيصرية مكتفين بطلائه بشكل طفيف بطلاء سوفييتي».

لم يقتصر الاختلاف بالطبع على الطلاء، إذ حاولت الدولة الجديدة أن توظّف أيضًا حركات السكان الأصليين في الشرق منتصرةً لها، أحيانًا بلا تمييز سياسي، ما دامت تعارض القوى الغربية. وتمثّلت اللحظة الرئيسية لهذا المسعى في «مؤتمر شعوب الشرق» الذي التأم في باكو عام ١٩٢٠ تحت رئاسة غريغوري زينوفييف، والذي كانت الغالبية العظمى من المشاركين فيه (عددهم ١٨٩١ ومنهم ٥٥ امرأة فقط) منتميةً إلى الفضاء الاستعماري القيصري السابق. أما الشيوعي الهندي م. ن. روي، الذي لعب دورًا هامًّا في نقاشات الأممية الثالثة حول المسألة الاستعمارية، فقد رفض المشاركة في هذا المشروع الذي سماه «سيرك زينوفييف» حسبما روى في مذكراته المنشورة عام ١٩٦٠. وحينما يُقرأ كلامه اليوم، فإنه يذكّرنا بنقد الاستشراق المنقلب إلى «استشراق معكوس». والحال أنّ روي نحا باللائمة على القادة الروس لأنهم طلوا باللون الأحمر القومية ونزعة الوحدة الإسلامية المناهضتَين للاستعمار، ولم يُطبّقوا على شعوب الشرق المنظورَ التحليلي الطبقي الذي طبّقوه على الشعوب الغربية.

نجد هنا مصدرًا معروفًا جيدًا للتوتر بين الدولة البلشفية الجديدة وشيوعيي البلدان المستعمَرة، حيث لم تتطابق المصالح الدبلوماسية الدولانية بالضرورة مع الأممية الثورية. وقد تمثّلت إحدى أوائل علامات التوتر في استمرار موسكو في وصف الزعيم التركي الجديد مصطفى كمال بأنه ثوري على الرغم من الاضطهاد الذي أنزلته حكومته بالحزب الشيوعي الوليد آنذاك في تركيا. ووفّرت المسألة الصينية مناسبةً أخرى للتوتر بين مَيْل موسكو إلى مغازلة القادة القوميين لبلدان الشرق، خارج الاتحاد السوفييتي، والشيوعيين المحليين الواقفين في وجه هؤلاء القادة القوميين أنفسهم. وعلى العكس من ذلك، فحين أكّد الكومنترن في ظلّ ستالين خلال مؤتمره السابع عام ١٩٣٥، انعطافَه إلى اليمين لصالح أوسع جبهة ممكنة في مناهضة الفاشية، دُعيت الأحزاب الشيوعية في البلدان الشرقية الخاضعة للسيطرة البريطانية أو الفرنسية إلى النأي بنفسها عن النضال ضد الاستعمار. وتحت قيادة موريس توريز، تبنّى الحزب الشيوعي الفرنسي بحماسة خاصة سياسةَ الكومنترن الجديدة هذه التي وافقت الميل نحو الموقف «الاستعماري الاشتراكي» الذي كان منتشرًا في صفوفه، لا سيما بشأن الجزائر.

إن السيطرة الغربية على الحركة الشيوعية الدولية، مع ما رافق تلك السيطرة من مَيْل طبيعي إلى إعادة إنتاج منظور

«استشراقي»، لم تتلقَ ضربة قوية سوى بوصول الشيوعيين الصينيين إلى السلطة في بكين عام ١٩٤٩. وقد جاء الانشقاق الصيني- السوفييتي تتويجًا لذلك الاختلاف الكبير. ومع ذلك، فمن مسألة التيبيت إلى مسألة سنجان اليوم، أعادت الدولةُ الصينية نفسُها إنتاجَ موقفٍ استعماري، بل موقف ينطوي على «رهاب الإسلام» في الحالة الأخيرة. بيد أنّ أيًّا من ماركس وإنغلز ما كان ليجد فكره ممثلاً في أيٍّ من الحكومات التي زعمت الانتساب لتراثهما في القرن العشرين، فإنّ الجمع بين الاشتراكية الديموقراطية الجذرية في ممارسة السلطة، مع تطبيق فعلي لسياسة قائمة على أممية حقيقية تنبذ كلّ أشكال التمركز الإثني وترفض إخضاع النضال الثوري للمصالح الدولانية، لهي أمورٌ لا يزال يتعيّن اختراعها.



يمنيون يرفعون لافتة «أخبر والدك أننا جميعًا سعداء تحت الحكم البريطاني»، خلال زيارة أمير ويلز إلى عدن، اليمن، ١٩٢١.

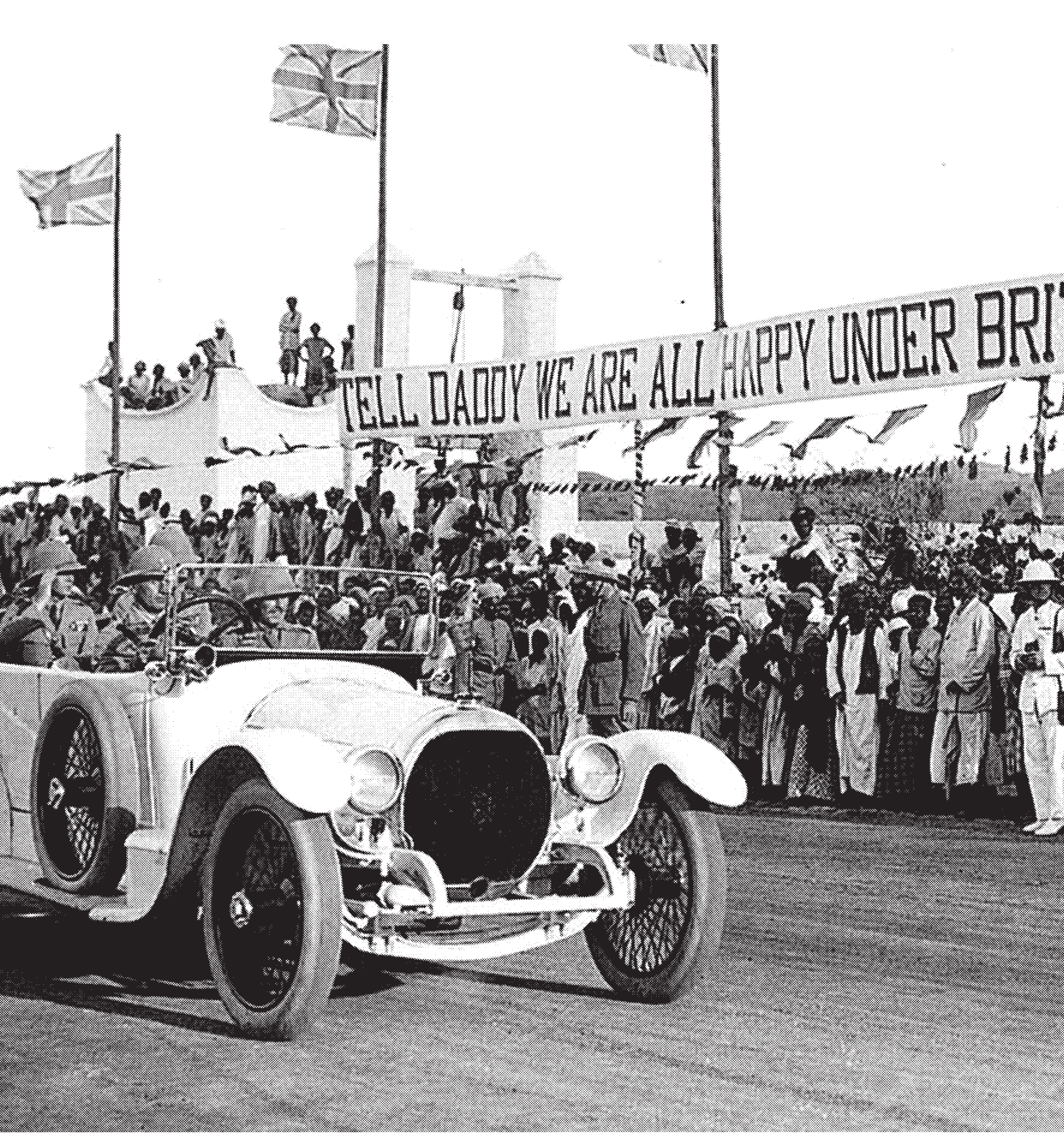
المراجع

المتوفّرة بالعربية

- الأشقر، جلبير، «**الماركسية والدين والاستشراق**»، ترجمه من الإنكليزية سماح إدريس، دار الآداب، بيروت، ٢٠١٥.
- أندرسون، كيفين، «**ماركس ومجتمعات الأطراف**»، ترجمه من الإنكليزية هشام روحانا، دار نينوى، دمشق، ٢٠٢٠.
- سعيد، إدوارد، «**الاستشراق**»، ترجمه من الإنكليزية محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦.

الفرنسية

- Carrère d’Encausse, Hélène et Stuart Schram, *Le Marxisme et l’Asie 1853-1964*, Paris, Armand Colin, 1965.
- Charléty, Sébastien, *Histoire du Saint-Simonisme*, Paris, Gonthier, 1965.
- Dreyfus, Michel, *L’Antisémitisme à gauche. Histoire d’un paradoxe, de 1830 à nos jours*, Paris, La Découverte, 2009.
- Gallissot, René, *Marx, marxisme et Algérie. Textes de Marx-Engels*, présentés par René Gallissot avec la collaboration de Gilbert Badia, Paris, UGE, coll. 10/18, 1976
- Haupt, Georges et Madeleine Rebérioux (sld), *La Deuxième Internationale et l’Orient*, Paris: Cujas, 1967.


TELL DADDY WE ARE ALL HAPPY UNDER BRI



مجموعة «لبنان الاشتراكي» السنوات الأولى ١٩٦٥-١٩٦٨

فوّاز طرابلسي

فصل من كتاب يصدر قريبًا بعنوان «صورة الفتى بالأحمر٢- زمن اليسار الجديد»- حوارات مع مريم يونس. (رياض الريس للطباعة والنشر)

بعد فترة قصيرة من مغادرة «البعث»، تعرّفتُ إلى وضّاح شرارة من خلال قريب له هو طلال شرارة، العضو في قيادة قطر لبنان المنشقّة. كان وضاح على صلة بال«بعث» في لبنان لكنه انتسب إلى «الحزب الشيوعي الفرنسي» خلال سنيّ الدراسة. عاد وقد ترجم كتاب أنور عبد الملك «مصر مجتمع عسكري» وكان يفكّر بإصدار مجلة فكرية على غرار «الأزمنة الحديثة»، مجلة سارتر. كان طلال شرارة ومجموعة من المنشقّين يسعون إلى تكوين كتلة سياسية، منهم غسان شرارة، عضو القيادة القومية سابقًا، وعبد الوهاب شميطلّي، الأمين القطري السابق في لبنان، وفؤاد شبقلو، ومحمود سويد وأحمد الزين، وآخرون. شاركتُ ووضاح في اجتماعاتهم. وقد كانوا يميلون إلى تكوين جناح بعثي معارض وكنّا أكثر جذرية في نقدنا لل«بعث» والفكر القومي وأكثر التزامًا باليسار والماركسية، فافترقنا عن مجموعة البعثيين السابقين واتفقنا على تأسيس مجموعة يسارية مستقلة.

تكوّنت النواة الأولى التي أسست «لبنان الاشتراكي» من أحمد الزين، محامٍ وبعثيّ سابق؛ كريستيان غازي، ابن عقيد في الجيش ومخرج تلفزيوني؛ زوجته مادونا مجدلاني غازي، مدرّسة وممثلة مسرحية؛ وداد شختورة، نقابية في قطاع التعليم الخاص، زميلة مادونا في التدريس وصديقتها؛ ومحمود سويد، الصحافي في أسبوعية «الأسبوع العربي» وعضو سابق في قيادة حزب «البعث» في لبنان.

تأخرت البداية الفعلية للمجموعة. كان وضاح وكريستيان على صلة بأحمد ستَيتيه، القيادي في «حركة القوميين العرب» الذي يتفاوض مع نخلة المطران، أبرز وجوه «التيار اللينيني» في «الحزب الشيوعي» مع إدمون عون وأحمد الحسيني، وهو تيار يجمع بين نظرة منفتحة إلى الشيوعية متأثرة بالشيوعية الإيطالية وولاءٍ لا يلين لخالد بكداش ويعارض بالتالي محاولات استقلال الحزب اللبناني عن الشقيق السوري. نتج من تلك اللقاءات انجذاب وضاح وكريستيان إلى فكرة العمل من داخل «الحزب الشيوعي» في إطار «التيار اللينيني» خصوصًا بعد أن اكتشفا أنّ للتيار وجودًا بين مزارعي التبغ في الجنوب. تعطلت اجتماعات النواة التأسيسية، غير أن الثنائي لم يطُلْ به المقام في «التيار اللينيني» لأكثر من عدة أشهر وغادرا لأسباب لم أعد أذكرها.

مع عودة وضاح وكريستيان، انتظم عمل المجموعة وستنضم إلينا باكرًا يولا بوليتي، زوجة وضاح آنذاك، وعزيز العظمة، الذي سيغادر باكرًا للدراسة في الخارج، وأحمد بيضون وحسن قبيسي، وكرّت المسبحة ولو بطيئًا. بدأنا بإصدار نشرة «لبنان الاشتراكي» العام ١٩٦٦. اقتنينا آلة ترقين يعمل عليها إسكندر حمام، طالب الهندسة الكهربائية في الجامعة الأميركية والعضو في يسار «حركة القوميين العرب». في البدء، كنا نطبع النشرة على آلة «رونيو» في «النادي الثقافي العربي» بمساعدة زملاء الدراسة في الجامعة الأميركية فؤاد السنيورة وعصام عرقجي. ثم اشترينا آلة طباعة «سْتِنْسِلْ» خاصة بنا تعمل على «السبيرتو». وصدر العدد الأول من «لبنان الاشتراكي» في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦ وسوف نصدر من النشرة ١٧ عددًا قبل أن تتوقف عن الصدور في آذار/ مارس ١٩٧٠.

«لبنان الاشتراكي»

الأرجح أنّ الذي اقترحه هو وضّاح. تعدّى الأمر التسمية. يمكن النظر إلى كامل فكر مجموعة «لبنان الاشتراكي» ومواقفها وسلوكها، وفكر مثيلاتها من منظمات اليسار الجديد، انطلاقًا من التمسّك بوضع الاشتراكية على جدول الأعمال. سوف يطبع هذا المنظور رؤيتنا لكل ما يجري حولنا. حاكمْنا الناصرية والبعث من منظار بناء الاشتراكية.

وكانت الاشتراكية عنصر التمايز الأبرز تجاه «الحزب الشيوعي» الذي كان لا يزال متشبثًا بمقولة الرأسمالية الوطنية أو بالاختيار بين جناحين من البرجوازية، أو بالثورة الوطنية الديموقراطية قبل أن يتبنى مقولة «الطريق اللارأسمالي إلى الاشتراكية».

لم يكن الأمر مستغربًا. كنا نعيش في عالم منقسم بين معسكرين وبين رؤيتين للعالم والحياة، وكانت الفترة أيضًا فترة نهوض حركات التحرر الوطني والاجتماعي وولادة دول عدم الانحياز، والسائد أن الاشتراكية لن تأتي في العالم الثالث من التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وإنما من خلال نضال الشعوب ضد المركز الإمبريالي والربط بين التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي. وكانت لدينا الأمثلة الوفيرة على ذلك في مجموعة الدول التي تعتبر نفسها في طور الانتقال إلى الاشتراكية: فيتنام، الجزائر، كوبا، مصر الناصرية، اليمن الديموقراطي، الصومال، إلخ. وإلى هذه محاولةٌ مبتكرةٌ لبناء الاشتراكية وصلت إلى السلطة بواسطة الانتخابات النيابية كما في تحالف الوحدة الشعبية بين الشيوعيين والاشتراكيين في تشيلي، بقيادة سالفادور ألليندي.

أما لماذا اقتصرت التسمية على لبنان، فأحسبُ أنها كانت ردة فعل ضد شطحاتنا القومية السابقة والتعبير عن التصميم على التفكير والفعل في لبنان أولًا.

ورشة فكرية

كان «لبنان الاشتراكي» بالدرجة الأولى ورشة فكرية لقراءة وإعادة قراءة التراث الماركسي بالعودة إلى «أمّهات النصوص» وإلى التفسيرات والتأويلات التي تتضمنها مراجع ثانوية جديدة ضمن شاغل سائد في تلك الحقبة هو «تعريب الماركسية». وقد اعتبرنا أن مساهمتنا الأساس في ذاك الجهد هي إنتاج المعارف عن التشكيلة الاجتماعية اللبنانية. والوسيلة: إعادة الاعتبار إلى دور النظرية في تحليل وقائع الحاضر وتطوراته والحياة اليومية وفي الفعل السياسي والنشاط العملي. أما الواسطة فنشرة سرّية دورية تخدم كوسيلة للاتصال قصد كسب الأنصار والأعضاء وتشكّل «المنظّم الجماعي» على الغرار البلشفي، إذ كان الهدف الذي تجهر به المجموعة هو بناء «الحزب الماركسي اللينيني الثوري». وكان لوضاح شرارة في تلك المجموعة موقع «المتقدم بين متساوين»، كما يُقال، خصوصًا في مضمار اقتراح الكتب التي تستوجب القراءة والصحف والمجلات والدوريات إلى ما مثّله من انضباط واحترافية في البحث والتأليف.

قرأنا وشرحنا وحلّلنا «البيان الشيوعي» وكتابات ماركس الفرنسية و«الأيديولوجية الألمانية»، وقرأنا من إنغلز «أصل الأسرة» ومن لينين «مصادر الماركسية الثلاثة» و«ما العمل»، كما قرأنا مؤلفات في تاريخ الثورتين الروسية الصينية وفكر ماو تسي تونغ. ودرسنا مؤلفات هنري لوفيفر وجورج لوكاش ولوي ألتوسير ونيكوس بولانتزاس وإسحق دويتشر وفرانز فانون. وقرأنا عن كتاب «رأس المال» لماركس في تأويل لوي ألتوسير وفي كتاب إرنست مانديل الثمين عن الاقتصاد الماركسي، أكثر ممّا قرأنا في «رأس المال» بأجزائه الثلاثة. عدا عن قراءته الرحبة للمادية التاريخية، فتح لنا لوفيفر آفاقًا جديدة في الماركسية من خلال مفاهيمه عن الممارسة، والحياة اليومية، والتناقض بين الفرد والمجتمع. وكان لفكر أنطونيو غرامشي مكان خاصّ في التحصيل والدراسة. تعرّفنا إليه من خلال إعجابنا بـ«الحزب الشيوعي الإيطالي» المتحرر من التبعية السوفياتية وأيضًا من خلال ألتوسّير ونيكوس پولانتزاس. جذبتنا إلى غرامشي عوامل عديدة: تكريس إنتاجه المعرفي لبلده إيطاليا؛ التاريخانية في مقابل الحتمية التاريخية؛ الاستقلال النسبي للبناء الفوقي السياسي والأيديولوجي؛ الأهمية التي يوليها للثقافة والمثقفين ومفهومه للمثقف العضوي؛ ونصّه عن «المسألة الجنوبية» التي غذّا اهتمامنا بالجنوب اللبناني، في وقت كانت تلك المنطقة الطرفية على حدود فلسطين المحتلة أبرز ضحية لقيام دولة إسرائيل وإقفال السوق الفلسطينية، تُصدّر أهلها إلى ضواحي العاصمة وأحيائها وأبناءهم إلى مدارسها والجامعات، عدا عن تهجيرهم إلى تغريبتهم الأفريقية. وباتت فكرة غرامشي القائلة إن «كل وجهة نظر جديدة تبدأ دومًا عبر السجال» مبدأنا في التعامل مع الأقربين وإن كنا مارسناه بقسوة ومبالغة وقدر من التعالي أحيانًا كثيرة.

بالنسبة لي، لازمتني رفقة غرامشي ولا تزال. تركت آثارها في أبحاثي وكتاباتي في التأريخ، والطبقات الاجتماعية وعلاقتها بالسلطة السياسية، وجدل الريف والمدينة، وخصوصًا في نقد الأيديولوجيا في «صلات بلا وصل. ميشال شيحا والأيديولوجيا اللبنانية» (١٩٧٩) وأوحت لي بالشغل على الثقافة الشعبية والفولكلور في «مسرح فيروز والأخوين رحباني: الغريب، الكنز، الأعجوبة (٢٠٠٦)» وفي «إن كان بدّك تعشق... مقالات في الثقافة الشعبية» (٢٠٠٥). وقد ترجمتُ لغرامشي في تلك الفترة واحدًا من أهم نصوصه في التأريخ- «عن الوحدة القومية الإيطالية»- لكني لم أنشره إلا عام ٢٠١٧.



جمعتْ أفرادَ «لبنان الاشتراكي» أفكارٌ وأحلام وطقوس وعادات مشتركة. قراءة دؤوبة للصحف- «النهار» و«الحياة» و«المحرر» لبنانيًا وما تيسر من الصحافة المصرية، خصوصًا الأسبوعيات «روز اليوسف» و«صباح الخير». إلى مشاركتي الرفاق في القراءات الفرنسية من منشورات دار «ماسبيرو» خصوصًا، والمواظبة على مطالعة اليومية «الموند» والأسبوعية «نوفيل أوبسرفاتور» ومجلة سارتر «الأزمنة الحديثة»، كنت أتابع «نيو ليفت ريفيو» البريطانية و«مونثلي ريفيو» الأميركية. ومن الطقوس، تدخين السجائر الفرنسية من نوع «غولواز» و«جيتان» (كانت «سلتيك» الأضخم والأقوى سيجارتي المفضّلة) وسهرات النبيذ والجبنة الفرنسية عند كريستان ومادونا غازي تنتهي بنشيد «الإنترناسيونال» والقبضات المضمومة، بالإضافة إلى الاستخدام الفائض لبادئة «يبدو» في مطلع الجملة – من قبيل التحفّظ العلمي!- و«جيّد» من قبيل الاستحسان، على غرار ما يتصدق به معلِّم، و«سلامات» للتحية أو الوداع، وللاثنين أحيانًا، وقد تفشّت في أوساط الإنتليجنسيا اللبنانية، وغيرها. ودرجنا على حضور السينما والمسرح، واعتبار هذا وذاك نشاطًا ثقافيًا لا مجرّد تسلية وإثارة، نمارسه في أولى «نوادي السينما» في زمن كانت القبلة لا تزال تثير بين الحضور صرخات «عسل يا موزا!» في الصالات التجارية. وحضور الفيلم مناسبة لتحليل وتأويل ونقد وتقييم من حيث الفكر والسرد والفن السينمائي وأسلوب التمثيل والممثلين، أما المسرح فشدّتنا إليه مادونا مجدلاني وزميلاتها وزملاؤها المشاركون في النهضة الكبيرة التي شهدها المسرح في لبنان خلال الستينيات والسبعينيات.

من الطقوس، تدخين السجائر الفرنسية من نوع «غولواز» و«جيتان» وسهرات النبيذ والجبنة الفرنسية عند كريستان ومادونا غازي تنتهي بنشيد «الإنترناسيونال» والقبضات المضمومة

أما السرّية واستخدام الأسماء المستعارة فلم تكن تحتمل اعتبارها طقسًا، ولا المبالغة في التأويل الأنثروبولوجي المضخّم لها، كما في سيرة وضاح شرارة «الرفاق». اعتمدناها بالدرجة الأولى تلبيةً لضرورة حماية وظائف البعض منّا من أساتذة التعليم الرسمي والخاص، ومنهم وضاح شرارة وأحمد بيضون، ولدرء حالة القمع التي كانت تفرضها الأجهزة الأمنية الشهابية في تلك الفترة.

الترجمة والنشر

لم ينفصل جهد التحصيل والكتابة والإنتاج عن جهد الترجمة. احتضننا بشير الداعوق، مؤسس «دار الطليعة» ومديرها، وهو الإنسان الدمث، والقارئ الدائب، والبعثي المنفتح، والناشر الجريء الاستثنائي الذي أسهم بدور بارز في نشر أدبيات التحرر الوطني والاشتراكية والماركسية. إضافةً إلى تحصيل دخل إضافي، كان الهدف من الترجمة المساهمة في الجهد إياه، جهد تعريب النتاج الماركسي ومشاركة القراء بمؤلفات أثّرت فينا، خصوصًا الكتب التي امتنعت دورُ النشر السوفياتية عن نشرها. ولمّا أصدر بشير الداعوق مجلة «دراسات عربية»، كتبنا فيها وتسلّمنا مسؤولية تحريرها لفترةٍ تولّاها محمود سويد.

ترجم وضاح شرارة وعزيز العظمة «الأمير الحديث» لغرامشي عام ١٩٧٠ (بتوقيع زاهي شرفان وقيس الشامي) وترجمتُ أنا له «المادية التاريخية» عام ١٩٧١، ولعلّ هذه وتلك أولى ترجمات غرامشي إلى العربية. وترجم عزيز العظمة (بتوقيع قيس الشامي) مختارات في المادية التاريخية بما فيها أولى نصوص لآلتوسّير تنشر بالعربية. وفي وقت مبكر، ترجم وضاح شرارة كتاب أنور عبدالملك «مصر مجتمع عسكري» الذي عنونته دار الطليعة «مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون» (١٩٦٤) وترجم «البيان الشيوعي» وقدّم له باسم زاهي شرفان (١٩٧٢). أما ترجماتي فلائحة تطول: «الثورة الدائمة» لليون تروتسكي (بتوقيع بشار أبو سمرا)، ورائعة جون ريد عن الثورة الروسية، «عشرة أيام هزت العالم»، و«ستالين: سيرة سياسية» لإسحق دويتشر، وجمعتُ الحوارَين الكبيرين عن مفاهيم وآليات الانتقال إلى الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وكوبا في كتاب بعنوان «مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية»، كما ترجمتُ «بناء الاشتراكية في الصين»، لشارل بتلهايم، و«يوميات بوليفيا» لتشي غيفارا (مع منير شفيق)، و«تحرر المرأة العاملة» لألكسندرا كولونتاي (مع طلال الحسيني) ونصوصًا لأميلكار كابرال ولقادة الثورة الفيتنامية و«المسيرة الكبرى لأميركا اللاتينية» لريجيس دوبريه. لغزارة ترجماتي، اقترح عليّ بشير الداعوق التفرّغ للترجمة في الدار بمعاش شهري قدره ٢٠٠ ليرة وكنت لا أزال على مقاعد الدراسة الجامعية.

التراكم الأوّلي

غلب على السنوات الأولى ما يمكن تسميته «التراكم الأولي»، أي كسب الأعضاء والأنصار، من خلال الاتصالات الفردية والنقاشات المطوّلة. وعند نضج الشخص الذي

كان يسمّى «اتصال»، يرشحه عضوان عاملان للانضمام إلى حلقة يشرف عليها أحد الأعضاء العاملين، إلى أن تبلغ الحلقة، أو أحد أعضائها، الأهلية لـ«الترفيع» إلى العضوية العاملة في خليّة. ومع تعدد الخلايا، تتولى التنسيق في ما بينها بواسطة مندوبين عن كلٍّ منها في «هيئة تنسيق» وهي، كما يشير اسمُها، هيئة لا سلطة لها على الخلايا الممثلة فيها. أو بالأحرى أنها قائمة على مبدأ الإجماع أو النقض. عدا المعارف الشخصية وزملاء الدراسة والعمل أو الأقارب، كان لتوزيع نشرة «لبنان الاشتراكي» وبعدها نشرتَي «نضال الطلاب» و«نضال العمال» الدورُ الكبير في كسب الأعضاء والتوسع.

انعقدت لنا صلات مبكرة في صيدا وصور وطرابلس وزحلة، أذكر في هذه الأخيرة معلّمَ الرياضة باسم ميقاتي، الذي سوف يتحول إلى أحد شيوخ الإسلاميين. وتشكلت مجموعة في الأشرفية منها حاتم حوراني، ومن الجبل، جاء جنان شعبان ورشيد الحسن، القادمان من «الحزب الشيوعي»، بالإضافة إلى مجموعتَي الجامعة الأميركية وحيّ النبعة الوافدتين من «حزب البعث». وتكوّنت أول حلقة طلابية من تلامذة وضاح وأحمد في الكلية العاملية أذكر منهم سامي سويدان ومحمد دبس وسميح عبّاني ومعهم محمد أيوب، علي شامي، محمود بيضون، علي يوسف، محمد عبد الحميد بيضون وآخرون.

انتقدت «جبهة القوى الطالبية» النظام الطائفي والزعامات السياسية وطرحت أهمية التنظيم النقابي للطلاب، وقد ضمّت كذلك طلابًا يهودًا يساريين معادين للصهيونية

على صعيد آخر، ظهرت في تلك الفترة «جبهة القوى الطالبية» FFE التي تأسست العام ١٩٦٤ من مجموعة شباب في المعاهد والجامعات الفرنسية تنتقد النظام الطائفي والزعامات السياسية وتطرح أهمية التنظيم النقابي للطلاب على ميل يساري عام لدى أعضائها وأبرزهم غسان فواز، سمير فرنجية، خليل شميّل، آن موراني، كريم مجدلاني، آن ماري أغاجانيان، جاد تابت، خالد لطفي، نوال عبّود، أمين معلوف، هاني حمدان، مروان الحص، راجي الحص، فرانسوا زبّال، إلخ. وقد ضمّت المجموعة عددًا من الطلاب اليهود اليساريين المعادين للصهيونية من خريجي مدرسة «الآليانس» اليهودية بينهم اليكو بيضا، سليم تركية (المعروف في الصحافة باللغة الفرنسية باسم سليم نصيب)، يولا پوليتي، هيني سرور، موريس سرور، روبير عدّي، وغيرهم. وكانت النواة القيادية للمجموعة مكوّنة من غسان فواز، اليكو بيضا، سمير فرنجية وفرانسوا زبّال. والمنافسة على أشدّها لاستمالة «الجبهة» بين «الحزب الشيوعي»، ممثلًا بنسيم ضاهر، وكتلة «التيار اللينيني» داخل الحزب التي انحاز إليها معظم أعضاء المجموعة. ومع أن يولا كانت من المؤسسين للجبهة، فقد طُردت من «التيار اللينيني» بتهمة تمرير معلومات عن «التيار» إلى «لبنان الاشتراكي» عن طريق وضاح شرارة. وخرجت بالتالي من الجبهة. واستقلت أنا بدوري.

وكان لنا صلة بحركة الثانويين من خلال محمود بيضون، شقيق أحمد بيضون، ومحمد أيوب وعلي شامي وعلي يوسف، ومحمد عبدالحميد بيضون، وغيرهم، نشطوا خلال إضراب الثانويين الشهير من أجل تخفيض رسوم التسجيل في الامتحانات الرسمية وتوحيد الكتاب المدرسي وتعديل مناهج التعليم وإلغاء العلامة اللاغية على اللغة الأجنبية – التي تميّز ضد الطلاب الذين لا يجيدون اللغة الفرنسية وأكثريتهم في التعليم الرسمي. وقد استشهد في ذلك الإضراب الطالب إدوار غنيمة برصاص الدرك في صور في آذار/ مارس ١٩٦٧. وقد واكبنا مؤتمر اتحاد الطلاب الجامعيين. في القطاع التعليمي كان لحركة الثانويين حضور في نقابة معلمي المدارس الخاصة من خلال وداد شختورة.

في الجامعة الأميركية، عملتُ بالتعاون مع مجموعة من الشباب اليساري الفلسطيني، في «حركة القوميين العرب»، بينهم خليل الهندي وكمال عرنكي وإسكندر حمام؛ ومع عدد من أعضاء الحركة من مختلف البلدان العربية: وليد قزيحة من لبنان؛ عبد الرحمن النعيمي (سعيد سيف)، عبد النبي العكري (حسين موسى)، وليلى فخرو (هدى) من البحرين؛ عبدالله الأشطل، محمد الأرياني، خالد الحريري، فتحية منقوش، وعبد الرحمن فخري، من اليمن. سوف يمارس معظم هؤلاء أدوارًا حزبية ونضالية وحكومية في عدد من بلدان الخليج واليمن. هذا بالإضافة إلى زملاء النضال اليساري من طلاب بريطانيا العراقيين ممّن انتقلوا إلى بيروت وهم: فالح عبد الرحمن، الذي دخل الجامعة الأميركية، قسم الفلسفة، ومكّي العاني، الذي أمضى بعض الوقت في بيروت يعاوننا في العمل السياسي والتنظيمي.

غلبت قضية فلسطين على جو الجامعة الأميركية وأطلقت نشاطًا متعدد الأوجه خصوصًا مع بروز المنظمات الفدائية العام ١٩٦٥. تظاهرنا تضامنًا مع طلاب الجامعة اللبنانية وأساتذتها، وكسرنا الحظر على التظاهر داخل الجامعة وتظاهرنا من أجل



تظاهرة طلابية في بيروت، ١٩٧٤/٠٣/٥.


الجامعة الوطنية يجب ان تكون مصنعا لتخريج الكوادر
المتخصصة وليس سجنا موقتا للمحرومين من العمل



فلسطين. ومن نشاطاتنا حملة دعاوية ضد الحرب الأميركية في فيتنام. أصدرنا منشورًا باللغتين العربية والإنكليزية بعنوان «حقائق حول الحرب في فيتنام» بتوقيع «الطلبة الاشتراكيون في الجامعة الأميركية ببيروت» (١٩٦٦) يدين العدوان على فيتنام ويعلن الانضمام إلى الحملة العالمية الداعية لانسحاب القوات الأميركية والاعتراف بحق الشعب الفيتنامي في تقرير المصير. وسيتسبّب البيان في منعي من دخول الولايات المتحدة الأميركية لمدة عشرين عامًا. وكانت ذروة تلك النشاطات احتلال الطلاب للحرم الجامعي خلال حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وتنظيم حملة تطوّع للمساهمة في القتال.

أصدرنا منشورًا بعنوان «حقائق حول الحرب في فيتنام» يدين العدوان على فيتنام، ما تسبب بمنعي لعشرين عامًا من دخول الولايات المتحدة

وفي الأميركية، كنت أيضًا على صلة بعدد من الموظفين. ابن عمّي نبيه عبّود العامل في مشغل كلية الهندسة كان قليل الاهتمام بالسياسة. لكني تعرّفت من خلاله إلى زميله سليم الشامي، اللاجئ الفلسطيني والمناضل الشيوعي الذي كان مرافقًا للقائد الشيوعي إميل توما. أسرّ لي سليم بأنه انضمّ إلى الماسونية ولمّا سألته عن هذا المذهب الغامض، بدا أنه لا يعرف عنه الكثير ولا يهمّه أن يعرف. انتسب بحثًا عن لقمة العيش بعد أن نزح من فلسطين. دلّه زميل إلى أحد المتنفذين من الماسونيين فضمّه للماسونية ووجد له وظيفة في الجامعة الأميركية. كنت ألتقي سليم باستمرار، يحدثني عن فلسطين وشيوعيّيها. وبين أصدقاء الجامعة أيضًا جورج يوسف، الموظف في مكتب المحاسبة. وجورج من القوزح، القرية الحدودية الجنوبية، غادر «الحزب الشيوعي» وبقي طويلًا في صفوف اليسار الجديد وكان ابنُه إيلي من مؤسسي «تجمع الشبيبة الديموقراطي» الفرع الشبابي في «منظمة العمل الشيوعي».

الإنتاج الفكري

من مفارقات الأبحاث والدراسات عن «لبنان الاشتراكي»، في الأكاديميات الأميركية والأوروبية، أنها نادرًا ما تتطرق إلى الموضوع الأساسي الذي برر وجود المجموعة بالنسبة لمؤسسيها وأعضائها: الإنتاج الفكري. حتى أحمد بيضون عندما نشر نصه عن تجربة المجموعة أغفل هذا الوجه من نشاطها، مع أن النص كان بالأصل محاضرة أكاديمية في «الكوليج دو فرانس» بباريس.

في محاولة لملء هذه الثغرة، سأتناول أبرز معالم الإنتاج الفكري في «لبنان الاشتراكي» وما علق منه في خطاب اليسار و«الحركة الوطنية». امتد الإنتاج على أقل من خمس سنوات وهو موجود في ١٧ عددا من أعداد النشرة بين أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦ وآذار/ مارس ١٩٧٠حوت زاوية ثابتة عن الحزب والمسألة التنظيمية. يضاف إليها عدد من الأبحاث والدراسات صدرت على حدة. وقد صدرت مختارات من مقالات النشرة في كتاب «العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني» تأليف «اشتراكيون لبنانيون» (بيروت، كانون الثاني/ يناير، ١٩٧٠).

أولوية الصعيد السياسي

كان أهم شاغل فكري عند المجموعة هو تمييز النصاب السياسي، في رد فعل على «اقتصادوية» «الحزب الشيوعي». وأبرز النصوص في هذا الموضوع «تناقضات الصعيد السياسي في لبنان» (العمل الاشتراكي وتناقضات الوضع اللبناني، ٧٧-٩٢- كتابة وضاح شرارة) عن المفارقة بين الدور العربي والعالمي للرأسمالية اللبنانية من جهة وبقاء الحياة السياسية أسيرة الريف وعلاقاته السياسية. بناءً عليه، يعيّن شرارة التناقضين اللذين يحكمان الحياة السياسية:١) بين البرجوازية المالية-التجارية والإقطاع السياسي؛ ٢) بين الإقطاع السياسي ومجموع الناخبين، ومعظمهم ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة في الريف والمدينة والعمال الزراعيين والفلاحين. سوف يحتل التناقض الأول الحيّز الأكبر من الاهتمام والشغل، أما التناقض مع البرجوازية الصغيرة فلم يكن بالمستوى نفسه من الأهمية خصوصًا أننا حِدْنا عنه مرارًا بالحديث عن البرجوازية الصغيرة بما هي قاعدة النظام.

عرّفْنا «الإقطاع السياسي» بما هم أبناء أسر من المالكين للأرض يحتكرون التمثيل السياسي على القاعدة العائلية والطائفية. وقدّمنا مقاربة أولى لمفهوم المحسوبية (الزبونية) بما هي التبادل بين الولاء السياسي، المعبّر عنه في الانتخابات النيابية خصوصًا، من جهة، والتنفيع الفردي والعائلي والمناطقي في الإدارة وخدمات الدولة، من جهة ثانية. ولم نغفل الإشارة إلى الطابع غير المتكافئ للتبادل، على اعتبار أن الزعيم يوظف الولاء السياسي لأغراض التكسب المادي من خلال السلطة.

تعرّض مفهوم الإقطاع السياسي لتعديلات وتطويرات. أكدنا منذ البداية على دور الإقطاع السياسي في لعب دور الوكيل السياسي للبرجوازية. ولاحظنا لاحقًا «تبرجز الإقطاع

السياسي»، أي نشوء مصالح اقتصادية رأسمالية جديدة لرجالاته من خلال سلطة الدولة والشراكة مع البرجوازية. وبدأنا من جهة أخرى نتلمّس الدور المتصاعد للمهن الحرّة والطبقات الوسطى في تمثيل المصالح البرجوازية في المؤسسة التشريعية.

أمّا مفهوم التناقض بين البرجوازية وطاقمها السياسي فسوف تكون له حياة طويلة في اليسار الشيوعي وفي «الحركة الوطنية»، وعلى منوّعات عدة. في تلك الفترة التأسيسية وردَ اجتهاد يرجّح إمكان حل التناقض. ومن الحجج المستخدمة على ذلك أن دور الرأسمالية في توسعة السوق وتحرير قوى الإنتاج سوف يمهّد حكمًا لتصفية الرواسب الإقطاعية والعشائرية وتوفير شروط وحدة الوطن فتتحول الطبقة الحاكمة إلى «طبقة حاكمة فعلًا». بناءً عليه، رجّحنا اندماج قطاعَي البرجوازية - المسيحي، «صاحب الامتيازات السابق»، والجناح المسلم «الأقل امتيازًا» - ما يمهّد لحل جذري لمشكلة الطائفية ويسهل العمل على إزالتها «من تحت»، في صفوف الشعب، بعد أن زالت «من فوق». (انظر: فواز طرابلسي، «ملاحظات حول وحدة اليسار في لبنان»، مجلة «الثقافة العربية»، السنة ٨، العددان ٦و٧، حزيران/ يونيو وتموز/يوليو ١٩٦٦، ص ٣٥١- ٣٦٨).

أكدنا منذ البدايـــــــة دور الإقطاع السيـــــــاسي في أداء مهمة الوكيل السياسي للبرجوازيـــــــة. ولاحظنا لاحقًا «تبرجز الإقطاع السيـــــــاسي»

نمط إنتاج الخدمات الرأسمالي

حاولنا تمييز النظام الاقتصادي اللبناني في دوره العربي بإقامة الصلة بين فصل الكيان اللبناني عن سائر سورية وتغليب دور الوساطة المالية والتجارية عليه بحيث تحوّل إلى «حلقة الوصل المحلية» بين السوق العالمية والداخل العربي. وأكدنا أنّ انعزال لبنان السياسي والثقافي عن سورية وسائر العالم العربي هو شرط «عروبته الاقتصادية» أو وجهها الآخر.

ترافق ذلك مع محاولة تفكير ماركسية في الاقتصاد من خلال صياغة مفهوم «نمط إنتاج الخدمات الرأسمالي» (العمل الاشتراكي، ص ٩٣-١٢١؛ «لبنان الاشتراكي»، أيار/ مايو ١٩٦٨، كتابة فواز طرابلسي) عن غلبة قطاع المال والتجارة الموجّه للخارج. أفدنا في تلك الأبحاث من مقولة ألبرت حوراني عن «جمهورية التجار» في لبنان خلال العهود الاستقلالية، وكتاب «نظرة ثانية على الاقتصاد اللبناني» ليوسف صائغ ومحمد عطالله، الذي أبان حجم قطاع الخدمات وتوجهه الخارجي. وشكّل تقرير «بعثة إرفد» محطّة هامة في تطوّرنا الفكري وقد كشف لأول مرة وبالأرقام وجود الفقر والفوارقَ الطبقية حيث أربعة في المئة من اللبنانيين تستحوذ على ثلث الدّخل القومي، والامتيازات التي تتمتع بها بيروت وقسم من الجبل، على حساب الأطراف، إلخ.

مع ذلك، لم يكن لنا إنتاج يذكر عن التركيب الطبقي للمجتمع اللبناني. اكتفينا من الطبقة العاملة وبالحديث من موقعها، ومن موقع حزبها الماركسي اللينيني المرتجى أو المفترض (الذي ينعت بالثوري أحيانًا) ورأينا إلى البرجوازية الصغيرة على أنها القاعدة الطبقية للتحالف الحاكم وحمّلناها أيضًا ما اعتاد عليه الشيوعيون من التوجّس والحذر على اعتبارها المصدر الرئيس للانحرافات.

الشهابية

قاربْنا «الشهابية» على أنها بالمقام الأول مشروع إصلاحي لرأسمالية الاقتصاد الحر قصد تنظيم نموّها وحمايتها وتحريرها من عدد من سلبياتها، ولو رغمًا عنها في بعض الأحيان. تحقق ذلك بواسطة جهاز تكنوقراطي-أمني عوّض عن فريقَي الحكم المتناقضَين والعاجزَين: إقطاع سياسي غير قادر على التمثيل السياسي لنظام رأسمالي في طور النمو من جهة، وبرجوازية مالية-تجارية ضعيفة الحضور في السياسة، وعاجزة عن تنظيم التطور الفوضوي لقطاعها المالي الناتج من تدفّق أموال النفط، من جهة أخرى. وأبرز الأدوات في هذا المجال صدور قانون النقد والتسليف الذي أنشأ المصرفَ المركزي وثبّت العملة وأمّن للمصارف، والبرجوازية بالجملة، قدرًا من الثبات والحماية. إلا أننا في مقالات العام ١٩٦٨ قلنا إن الشهابية باتت تمثل «مصالح الرأسمالية اللبنانية ذات الطابع التجاري-المصرفي الغالب» («لبنان الاشتراكي»، تموز/ يوليو ١٩٦٨)

تولّت الشهابية تقليم أظافر الإقطاع السياسي بتفريخ وجاهات وسيطة في وجه كبار الزعماء، وصدّ تدخلهم في الإدارة عن طريق استحداث عدد من الأجهزة والمؤسسات الناظمة للحقل العام - مجلس الخدمة المدنية، ديوان المحاسبة، التفتيش المالي، مجلس تنفيذ المشاريع الكبرى، إلخ. على أن تلك الإنجازات تلازمت مع نقل مركز السلطة إلى الجهاز



التنفيذي على حساب السلطة التشريعية وتأسيس دور خاص للجيش وأجهزة الأمن في التدخل في الحياة السياسية والعامة، خصوصًا بعد محاولة الانقلاب العسكري الفاشلة التي قام بها «الحزب السوري القومي الاجتماعي» العام ١٩٦١.

في ظل أيديولوجية «النمو» (التي وصفناها بـ«التكنوقراطية»)، تولّت الدولة الشهابية الإنفاق الواسع على مشاريع البنى التحتية - إيصال الكهرباء والماء لأرياف البلد والأطراف، وإقامة السدود وربط البلد بشبكة طرقات - وعلى استصلاح الأراضي. ومع اعترافنا بأن هذه المشاريع حملت الحد الأدنى من مستلزمات الحياة الإنسانية للأرياف والأطراف، إلا أننا شددنا على دورها في توسعة السوق وإيصال الأجهزة الكهربائية المنزلية والمواد الاستهلاكية إليها، أي أنها شجعت على الاستهلاك بديلًا من تنفيذ مشاريع تنمية تسدّ الحاجات المعيشية الأولى في أرياف تنهار فيها الزراعة الكفافية، وبدلًا من أن تعمل على زيادة إنتاجية الأرض وتشجيع التصنيع الزراعي، إلخ. مع العلم أننا لم نتغافل عن دور «المشروع الأخضر» في توسيع مساحة الأراضي القابلة للزراعة. لكننا اتخذنا موقفًا سلبيًا من طلب الجهاز الشهابي قروضًا بقيمة ٣٠٠ مليون ليرة لبنانية لأغراض التنمية الاقتصادية («لبنان الاشتراكي»، ٢، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦) وانتقدنا عدم كفاية برامج حماية الصناعة.

قاربْنا «الشهابية» كمشروع إصلاحي لرأسمالية الاقتصاد الحر قصد تنظيم نموّها وحمايتها وتحريرها من عدد من سلبياتها، ولو رغمًا عنها أحيانًا

ومع الاعتراف بقيمة السياسات الاجتماعية للدولة الشهابية - وأبرزها إنشاء صندوق الضمان الاجتماعي - ركّزنا على ما فرضته في المقابل من قيود على الطبقة العاملة: عقود العمل الجماعية، والتحكيم، والوساطة الإلزاميين في النزاعات بين العمال وأرباب العمل، والضبط الأمني للحركة النقابية من خلال «المكتب الثاني».

ويجدر التذكير أننا بدأنا الإنتاج والفعل وقد انتهى عهد فؤاد شهاب (١٩٥٨-١٩٦٤) والحياةُ السياسية قد انقسمت بين أنصاره وخصومه، فحلّلنا بدقّة عهدَي حلو وفرنجية، بما في ذلك أزمة «بنك إنترا» ١٩٦٦- وصعود «الحلف الثلاثي» المعادي للناصرية والشهابية معًا، من كميل شمعون وبيار الجميل وريمون إده، بعد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، إلا أننا لم ننشغل كثيرًا بمدى نجاح الخصوم في الارتداد على تلك السياسات وتفكيك مؤسسات التنمية والرقابة والمحاسبة، ما سوف يسهم في تفكك الدولة ذاتها عشية الحرب الأهلية.

مهما يكن، النظر إلى الشهابية قبل الحرب الأهلية ليس كالنظر إليها بعدها. وهذا ما سأعود إليه.

المواقف العربية والعالمية

لم يكن لنا نتاج وفير عالميًا عدا عن موقفنا النقدي من الستالينية التي كانت لا تزال تخيّم على الحركة الشيوعية العربية. وقد أفدنا في ذلك من أعمال هنري لوفيفر وجورج لوكاش وإسحق دويتشر وآخرين. أولينا أهمية خاصة لمتابعة الثورة الفيتناميّة واعتبرنا التضامن مع فيتنام هو محك الأممية البروليتارية، في مغايرةٍ للدارج عن التضامن مع الاتحاد السوفييتي. ومن أبرز نصوصنا النقدية عن الستالينية، نشرنا دراسة معمّقة ومستفيضة للأزمة التشيكية والتدخل العسكري السوفياتي، بكتابة أحمد بيضون («لبنان الاشتراكي»، العددان ١٢ تموز/ يوليو ١٩٦٨ و١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٨) حلّلتْ الأزمةَ التشيكية على أنها نتاج تناقضات مخلّفات الحقبة الستالينية، ووضعت الجناح التكنوقراطي في مواجهة الحزب والإدارة، وأبانت أن التدخل العسكري للاتحاد السوفياتي والدولة الحليفة لم ينجح في قلب الاتجاه الذي فرضته الحركة الإصلاحية، وإذ لاحظ بيضون مشاركة الطبقة العاملة في الحركة الإصلاحية، ختم متمنيًا أن تنجح الطبقة العاملة، في ظل نظام ليبرالي، في الخروج «من الوصاية الستالينية لتبني حكمها المستقل: الديكتاتورية الديموقراطية للبروليتاريا».

وتضمّنت النشرة زاوية دائمة للتثقيف النظري كنتُ أتولى تحريرها من وحي اللينينية خصوصًا، يفترض بها أن تقدّم الدعم النظري لهدف المجموعة المعلن- بناء الحزب الماركسيااللينيني. تضمنت الزاوية موادّ عن التنظيم الحزبي، ومخاطر البيروقراطية في الحزب، والمفهوم اللينيني للمركزية الديموقراطية، ووحدة الحزب، ومختارات من «ما العمل؟» لينين، ومن كتابات لينين عن التحالفات، وما شابه. ومن باب التثقيف أيضًا مادة منشورة على حدة عن مبادئ الاقتصاد الماركسي.

أما أبرز مشاغلنا العربية فكان الموقف من النظام الناصري استوحيناه من كتابات الماركسيين المصريين خصوصًا. كتاب أنور عبد الملك («مصر، مجتمع عسكري»، ١٩٦٤) يعرّف النظام على أنه وليد مجموعة عسكرية صادرة عن البرجوازية الصغيرة، إلا أنه يرى أن عبد الناصر بنى دولة اشتراكية نظرًا للتحولات الاقتصادية والاجتماعية الجذرية التي أحدثها، لكنها ذات نظام

بيروقراطي عسكري تفصله هوة كبيرة عن جماهير الشعب المصري. وفي العام نفسه، أصدر سمير أمين «مصر الناصرية» باسم مستعار (حسن رياض) اعتبر فيه أن أجزاء من البرجوازية الصغيرة تحوّلت إلى برجوازية دولة حلّت محل الطبقة الحاكمة السابقة وسمّاها «الأرستقراطية البرجوازية». أما الأكثر جذرية في نتاج الماركسيين المصريين فكان محمود حسين- الاسم المستعار لبهجت النادي وعادل رفعت، وهما مناضلان شيوعيان اعتقلا العام ١٩٥٩ وغادرا إلى فرنسا حيث ألّفا بالفرنسية «الصراع الطبقي في مصر، ١٩٤٥-١٩٦٨» (١٩٦٩). يرى الكتاب إلى انقلاب الضباط الأحرار على أنه جاء لقطع الطريق على ثورة شعبية. وسوف تلهم هذه الدراسات النقدية اليسارَ العربي الجديد في نقده النظام الناصري بعد نكسة العام ١٩٦٧.

أبرز مشاغلنا العربية كان الموقف من النظام الناصري استوحيناه من كتابات الماركسيين المصريين خصوصًا

لم يقتصر الاهتمام العربي على مصر. تابعنا أوضاعَ «الحزب الشيوعي العراقي»؛ ودعمنا حق الأكراد في الحكم الذاتي ضمن الجمهورية العراقية؛ وتابعنا أوضاع «حركة التحرر الوطني» في الجنوب اليمني ضد الاستعمار البريطاني، عشية الاستقلال؛ ونشرنا لزملاء ورفاق يمنيين وبحرينيين وسعوديين وعراقيين وسوريين في الجامعة الأميركية عن أوضاع بلدانهم. وكان لي اجتهاد حول حكم «حزب البعث» في سورية سعى إلى تشخيص قاعدته الاجتماعية الريفية، بعد انحسار قواعده المدينية خلال النزاع مع الناصرية، وإبّان نمو الامتيازات الاجتماعية للضباط، وحلّل تحكّم المنطق الانقلابي بتقلبات الكتل العسكرية المتناحرة. («لبنان الاشتراكي»، العدد ٣، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦).

نقد اليسار

يؤخذ على نتاج «لبنان الاشتراكي» طغيان هاجس التمايز عن «الحزب الشيوعي» والتعبير عن شعور بالتفوّق تجاهه لامتلاكه أدوات التحليل الماركسية. في القول الكثيرُ من الصحة خصوصًا أن تأكيد التمايز حمل قدرًا من المبالغة والادعاء والتشاوف النظري إضافة إلى اتخاذ موقع ادّعاء النطق والمحاسبة باسم الطبقة العاملة.

لكن لن يكون التمايز من دون مبرر. كان «الحزب الشيوعي» لا يزال في المرحلة السرية لم يخرج بعد من حالة العزلة التي نتجت من تأييده قرار تقسيم فلسطين العام ١٩٤٨ومعارضة خالد بكداش الوحدةَ المصرية السورية والنزاع مع مصر الناصرية، وكان يعيش حالة من الصراعات الداخلية من عناوينها استكمالُ الاستقلال عن الحزب السوري والتحرر من طغيان بكداش على الحزب اللبناني واستقبال تحديات قيام النظامين البعثي والناصري. وكانت أجهزته في حالة ركود بقيادة عتيقة لا تزال تعيش في العهد السرّي. وقد تجمعت تلك العوامل لتطلق حركة التجديد التي تكرست في المؤتمر الثاني للحزب العام ١٩٦٨. أقصد القول إن «الحزب الشيوعي» في تلك الآونة كان قليل الجاذبية لشبّان متمردين ومستعجلين يريدون الإطلالة من خلاله على الماركسية وعلى الانخراط في حركة شعبية جذرية.

ثم إن حركةً جديدةً في طور النشوء لا بد أن تغلِّب وجه التمايز مع الأقربين على وجوه التماثل والتقارب. من حيث المنهج، أخذنا على الحزب غياب التحليل الماركسي للوضع الطبقي في لبنان (مع أننا أنفسنا لم نقدّم فيه أي مساهمة تذكَر)؛ والانحراف النظري الستاليني؛ والتبعية للاتحاد السوفياتي؛ والتحالف مع البرجوازية الوطنية (كان النزاع داخل الحزب بين القيادة القديمة التي ترى في رشيد كرامي ممثلًا عن البرجوازية الوطنية والجيل الجديد الذي ينصّب كمال جنبلاط ممثلًا لها)؛ وضعف التمايز عن الحلفاء الذي يفقد الحزب دوره الطليعي. وأرجعنا كل ذلك إلى ما سمّيناه «تذبذب البرجوازية الصغيرة» وأيديولوجية الحزب التكنوقراطية، وأخيرًا أخذنا على الحزب انعدام الديموقراطية في حياته الداخلية وعدم اعتماد المبدأ الانتخابي والمساءلة ورفض الآراء المعارضة، إلخ.

لكن الخلافات الأبرز مع «الحزب الشيوعي» دارت على قضايا راهنة: الموقف من قبول جمال عبد الناصر مشروع روجرز العام ١٩٧٠ لتسوية النزاع العربي الإسرائيلي؛ الموقف من العمل الفدائي ومن الكفاح المسلح عربيًا وعالميًا؛ اختلاف وجهات النظر إلى الشهابية وسعي الحزب الدائم للالتحاق بجناح أو بآخر من أجنحة البرجوازية، إلخ. وظهرت أيضًا خلافات في وسائل العمل مع تغليبنا العمل القاعدي في النضال العمّالي والفلاحي، وإعطاء الأولوية لمجالس الصفوف في الثانويات وللجمعيات العمومية في الجامعات.

التدخل السياسي والاجتماعي

انفجرت النضالات العمالية والشعبية بعد رفض شهاب التجديد لولاية جديدة وانتخاب شارل حلو رئيسا العام



١٩٦٤. نشطنا في تلك الفترة على هامش الحركة النقابية والعمالية. أصدر الصحافي سامي ذبيان جريدة «العمّال» ودعانا إلى العمل معه من خلال صديقه محمود سويد. هكذا تعرفنا عن كثب على أجواء الحركة النقابية، خصوصًا «جبهة التحرر العمالية»، وهي تحالف بين نقابيي «الحزب الشيوعي» و«الحزب التقدمي الاشتراكي»، يرأسها أسعد عقل من «الحزب الاشتراكي» ويشغل منصب أمين السر عادل عبد الصمد من «الحزب الشيوعي».

شهد ذلك العام تحركات مزارعي الأشجار المثمرة في جبل لبنان من أجل تصريف منتجاتهم، وقد أثاروا موضوع تحكم السماسرة بالأسعار والإيجارات الباهظة التي يفرضها أصحاب البرّادات التي ترفع كلفة الإنتاج، وطالبوا بمساعدة الدولة على تصدير منتجاتهم. افتتح الإضراب النشاط الاجتماعي الريفي لتحالف «الحزب الشيوعي» و«الحزب التقدمي الاشتراكي» و«حركة القوميين العرب» في «جبهة الأحزاب والشخصيات الوطنية والتقدمية» وتُوّج بـ«مهرجان بتخْنَيه» في قضاء عاليه شارك فيه اللواء جميل لحود، وزير العمل، وخطَب فيه كمال جنبلاط ونهاد سعيد، النائبة المستقلة، وجورج البطل، عن «الحزب الشيوعي»، ومحسن إبراهيم عن «حركة القوميين العرب».

طالبْنا بمنح العمال غير اللبنانيين – ومعظمهم سوريون – حق الانتساب للنقابات والتصويت فيها من دون الترشح؛ ودعونا إلى إشراف عمّالي على صندوق الضمان

علّقنا بوسائل عدة على الأحداث الجارية (طرابلسي، «ملاحظات حول وحدة اليسار»). ثمّنّا إيجابيًّا «مهرجان سينما بيبلوس» الذي دعت إليه جبهة الأحزاب ضد مشروع ضمان رؤوس الأموال الأميركية، الذي تقدمت به حكومة حسين العويني، وقد أطلِقت عليها تسمية «حكومة المليونيرية»، ونجحت المعارضة في إفشال المشروع وأسهمت في استقالة الحكومة. في المقابل، انتقدنا مهرجان بتخْنَيه لمطالبته بحماية «المصارف الوطنية» في وجه المزاحمة الأجنبية، مشككين في وطنية مصارف يعمل القسم الأكبر منها برؤوس أموال أجنبية، إضافة إلى لعبها دور المرابي في القطاع الزراعي.

في القطاع العمّالي انصبّ نقدنا على «جبهة التحرر العمالي»: النَفَس القصير، التقاعس في تأييد إضراب عاملات وعمال شركة حصر التبغ والتنباك- الريجي، الارتهان للتسويات البرلمانية، إلغاء تظاهرة تحمل مطالب العمال إلى البرلمان. وردًّا على اقتراح الجبهة تمثيل العمال في البرلمان وفق نسبة مئوية من عددهم، ذكّرنا بأن تمثيل العمال يتم من خلال أحزابهم وأنّ «دور الطبقة العاملة هو قيادة المجتمع إلى الاشتراكية».

ومن النقاط الجديدة التي أثرناها في مجال النضال العمالي المطالبة بمنح العمال غير اللبنانيين – وهم عمال سوريون في معظمهم – حق الانتساب للنقابات والتصويت فيها من دون الترشح؛ والدعوة إلى إشراف عمّالي على صندوق الضمان الاجتماعي وعلى كيفية توظيف أمواله على اعتبار أن تلك الأموال «أجورٌ مؤجلة» عائدة للعمال.

في تقييم تجربة التحالف، عيّنا شروط جبهة يسارية ناجحة: الأولويات المطلبية؛ تعيين العقدة الاستراتيجية التي تتكثف عندها تناقضات النظام (ولكن من دون أخذنا عناء المساهمة في تعيينها)؛ عدم تنازل ممثلي الطبقة العاملة الاشتراكيين عن الدعاية لمطالبهم المستقلة التي تتجاوز المطالب المشتركة؛ وأخيرًا التمييز بين الإصلاحات التي تتم من داخل النظام الرأسمالي وحسب منطق تطوره والإصلاحات التي تفتح ثغرات فيه باتجاه تغييره. وتأكيدًا على أن الدعوة للتحالف لا تتنافى مع استمرار الصراع الفكري مع الحلفاء، دبّج أحمد بيضون ردًّا بليغًا ومشغولًا على محاضرة لكمال جنبلاط بعنوان «في ما يتعدّى الماركسية» عنونه «تهافت الجنبلاطية في تعدي الماركسية».

الانتخابات النيابية

كانت الانتخابات النيابية في أيار/ مايو ١٩٦٨ مناسبة لنشاط علني يدعو إلى مقاطعتها على اعتبار أن مركز الثقل في النظام ليس البرلمان وإنما الجهاز التنفيذي، وأنّ بكوات الإقطاع هم في خدمة البرجوازية. ورفضنا التمييز بين مرشحي «الطغمة المالية» والمرشحين الشهابيين، على ما فعل «الحزب الشيوعي»، على اعتبارهما وجهين لعملة واحدة. ولعلّنا كنا أول المبادرين في نقد قانون الانتخاب وتبيان المفارقة الكبرى فيه حيث تعيش أكثرية اللبنانيين ويعملون في المدن لكنهم ملزمون بالاقتراع لنواب تحت ضغط شبكة الانتماءات العائلية والطائفية في قرى وبلدات لا يقيمون فيها.

تمهيدًا للانتخابات النيابية للعام ١٩٦٨، نشرنا مقالًا بعنوان «انتخابات الإقطاع السياسي وديموقراطية الشعب» («لبنان الاشتراكي»، العدد ١١، آذار/ مارس ١٩٦٨، كتابة فواز طرابلسي) يردّ على مقولة «الحزب الشيوعي» عن «الطغمة المالية» بمقولة التحالف الحاكم بين البرجوازية التجارية- المالية والإقطاع السياسي المكوّن من عائلات مالكة للأرض

فقدت نفوذَها الاقتصادي أمام التطور الرأسمالي، تقوم علاقتُها مع جمهورها الريفي الفلاحي السابق على تبادل الولاء السياسي، مقابل خدمات وتنفيعات في الدولة أو بواسطتها (عقود لمقاولين، توظيف في القطاعين الخاص والعام، رخص دخان في الجنوب، رخص استيراد وتصدير، إلخ). ولعلّ هذا هو أول طرح لمقولة سوف تسمّى لاحقا «الزبائنية» أو «المحسوبية». وتلاحظ المقالة المفارقة في ذلك التحالف الحاكم حيث النفوذ السياسي للإقطاع السياسي أقوى بكثير من سلطته الاقتصادية، في حين أن النفوذ السياسي للبرجوازية التجارية المالية لا يعكس قوّتها الاقتصادية. وفي معرض السجال مع «الحزب الشيوعي» حول دور البرلمان في الحياة اللبنانية، والبرنامج الذي يقدمه للإصلاح النظام الانتخابي، تشدّد المقالةُ على ملاحظتين. الأولى أن مركز الثقل في النظام اللبناني، بفعل الشهابية خصوصًا، انتقل من البرلمان إلى الجهاز التنفيذي-الإداري. والثانية هي لفت النظر إلى أبرز وجه للنظام الانتخابي الوارد أعلاه: بفعل حركة الهجرة الريفية الواسعة منذ الخمسينيات، باتت أكثرية اللبنانيين تسكن المدن في حين أنها مضطرة إلى التصويت في أماكن الولادة في الأرياف والأطراف حيث تتحكم بها، وبأصواتها، أشدُّ العلاقات الاجتماعية والسياسية تخلفًا.

كانت الانتخابات النيابية في أيار/ مايو ١٩٦٨ مناسبة لنشاط علني يدعو إلى مقاطعتها على اعتبار أن مركز الثقل في النظام ليس البرلمان وإنما الجهاز التنفيذي

إلى هذا، أصدرنا بيانَين خاصين بالجنوب يتوجّه الأول إلى «العمال والفلاحين وسائر الكادحين في جنوبنا البائس» ويدعوهم إلى مقاطعة الانتخابات «حيث لا شرعية إلا لسلطة تختارها الجماهير من خلال أحزابها الديموقراطية والنقابات الحرة». أما البيان الثاني، فموقّع باسم «تجمّع عمال وفلاحي الجنوب» يعرض لمظالم أهل الجنوب «المحروم» ويعدد أبرزها: قضايا زراعة التبغ، المحصول الرئيسي لأهل الجنوب، ويعارض تحكّم شركة الريجي الاحتكارية والإقطاع السياسي بتوزيع الرخص، وتعيين مساحاتها، وتثمين المنتوج وغيره. ودعا البيان إلى تنويع المنتجات الزراعية، والتصنيع الزراعي، وإنشاء معاهد التعليم المهني في الجنوب، وأثار البيان النقص الفادح في العناية الصحية وفي التجهيزات الطبية والمستشفيات في المنطقة، وختم بالدعوة إلى تحقيق مطالب الحملة الشعبية في تحصين القرى الأمامية وتأمين الملاجئ لحماية الأهالي من الاعتداءات الإسرائيلية.

ملاحظات ومراجعات

عند إعادة قراءة هذه النصوص، يتبيّن لي أنها تنطوي على عدد من المفارقات والتناقضات تستحق التوقف عندها.

أولًا، التفاوت بين التشخيص والتحليل من جهة والخلاصات البرنامجية والأهداف الاستراتيجية من جهة أخرى. عيّنت مقالة «نمط إنتاج الخدمات الرأسمالي» التناقضَ الرئيس على أنه بين أكثرية الشعب والقطاع المصرفي، لكنها استدركت مباشرةً أنه لا يمكن المساس بهذا القطاع لأنه ركيزة دور لبنان الاقتصادي («العمل الاشتراكي»، ص ٩٣). وأثار مقال «تناقضات الصعيد السياسي»، التساؤل نفسه حول حيوية الدور الخارجي للاقتصاد اللبناني، مؤكدًا أن الليبرالية الاقتصادية والسياسية هي شرط أساسي لذاك الدور الوسيط ولحماية الأموال المودعة، وتساءل:

> «هل يعني ذلك أن الطريق اللبناني إلى الاشتراكية هو طريق مسدود؟ ويعني بالتالي أنه لا بدّ للحزب الماركسي اللينيني من التخلي عن اضطلاعه بأعباء التحضير لقلب الأوضاع وعن البدء بطرح الأفق الاشتراكي عبر المواقف الجزئية الراهنة؟» («العمل الاشتراكي»، ص ٨٨).

فإذا بالجواب على هذه العقبة هو الدعوة إلى «مرحلة وطنية ديموقراطية» تمهّد الطريق إلى الاشتراكية، يتم خلالها «السيطرة على موارد التراكم الأولي» وتنميتها وخوض معركة الديموقراطية (السياسية) إلى أقصى مداها. أي أننا، في نهاية المطاف، دعونا إلى مرحلة وسيطة هي تلك التي انتقدْنا «الحزبَ الشيوعي» لأنه يدعو لها. ولا يخفف من الدعوة إلى تلك المرحلة الوسيطة أننا حذّرنا من التحالف مع جناح من البرجوازية واشترطنا أن يتولى القطب الذي تمثله «الطبقة العاملة اللبنانية وحزبها الماركسي اللينيني» جرّ الحليف إلى صفّه؛ علمًا أن «جرّ» الحليف للحليف يتوقف على توازن القوى بينهما؛ وإنْ حصل «الجرّ»، فلن تعود العلاقة بين الحليفين علاقة تحالف بل علاقة غلبة.

ويعود مقال «تناقضات الصعيد السياسي» إلى الإشكالية ذاتها في ملاحظته البحبوحة والنزعة الاستهلاكية اللتين سادتا خلال الستينيات، فيتساءل عما إذا كان الطريق اللبناني إلى الاشتراكية بات طريقًا مسدودًا؟ وهل



يملي على الحزب الماركسي اللينيني التخلي عن اضطلاعه بأعباء التحضير لـ«قلب الأوضاع»؟ فيخلص هذه المرة إلى أن النموذج البديل للوضع الراهن «يلفّه ضباب كثيف» وأنه لا يمكن تصور هذا الاقتصاد المالي- التجاري بإدارة عمالية- فلاحية. بناءً عليه، يقدم المقال عددًا من الخطوط الاستراتيجية: ١) ارتهان شروط البناء الاشتراكي بتحولات عربية أساسية لا بد من أخذها في الحسبان عند التحضير لـ«الطفرة الاشتراكية»، ٢) إضفاء الشمول على التناقضات الاقتصادية والجزئية لا يتم إلا على الصعيد السياسي؛ ٣) بلورة برنامج يؤمّن العبور إلى الترابط والشمول بين المطالب، ٤) يختم المقال بأن مصداقية الاتجاه الجديد مرهونة بقدرة النضال على تحقيق مكاسب تقنع الناس بجدوى الاتجاه، إلخ.

الجدير بالملاحظة أن هذين النصين التأسيسيين لنتاج «لبنان الاشتراكي» يؤشران إلى أبرز المفاهيم والإشكالات التي ستشغل حركة التغيير في لبنان لفترة طويلة، حيث سيطر التناقض بين البرجوازية والإقطاع السياسي- واستطرادًا التناقض بين البرجوازية ونظامها الطائفي- طويلًا على فكر اليسار الشيوعي، في الحزب الشيوعي (انظر كتابات مهدي عامل مثلًا) كما في «منظمة العمل الشيوعي»، وسوف يؤسس هذا التناقض لاستراتيجية التغيير كما تجلّت في «البرنامج المرحلي للإصلاح السياسي الديموقراطي» الذي طرحتْه «الحركة الوطنية» في آب/ أغسطس ١٩٧٥ وللسلوك في الحرب الأهلية.

هذان النصان التأسيسيان لنتاج «لبنان الاشتراكي» يؤشران إلى أبرز المفاهيم والإشكالات التي ستشغل حركة التغيير في لبنان لفترة طويلة

ثانيًا، ستُسهم إشكالية العلاقة بين الشروط الداخلية والشروط العربية للتغيير في الإيحاء المبكر بأولوية التغيير عربيًا كشرط للتغيير في لبنان. وقد عرفتْ الفكرة منوعات عديدة، وأبرز ما نجم عنها في فكر «لبنان الاشتراكي» هو الدور التثويري لدخول المقاومة الفلسطينية إلى لبنان (في مقالة «مقاومتان»، كتابة وضاح شرارة). لكنّ إشكالية الداخل/ الخارج ستشكل أرضية الأزمات في فترات الانتكاسة والإحباط والارتداد التي أعقبت هزيمة العام ١٩٧٦-٧٧ والاجتياح الإسرائيلي العام١٩٨٢. والإشكالية لا تزال موضع تجاذب إلى الآن.

ثالثًا، في نقدنا للشهابية الذي لا أتردد في تسميته نقدًا «اقتصادويًّا»، أغفلنا أن الشهابية تضمنت قراءة معيّنة لحوادث ١٩٥٨ وتصرّفت بناء على دروس معينة استخرجتْها من تلك التجربة.

تحت شعار «بناء دولة الاستقلال»، انطلق شهاب مما كشفته حوادث ١٩٥٨ من استسهال الأطراف المهملة والمحرومة، ذات الأكثرية المسلمة، حمْلَ السلاح ضد الدولة. فكان همّه إطلاق سياسات تسعى إلى تحقيق ما لم يتم خلال العقود الاستقلالية السابقة: ربط أنحاء البلد بواسطة شبكة طرقات، وتوفير الكهرباء والماء، واستصلاح الأراضي، وتنمية الأرياف والأطراف، بما يجسّر الفجوة الكبيرة بينها وبين المركز (بيروت وجبل لبنان)، وإجراء تعديلات في التوازن الطائفي وفي الحصص في الإدارة، بما يسهم في دمج المسلمين في الاجتماع اللبناني. وكانت الإجراءات الاجتماعية هادفة إلى تحقيق قدر من التوازن بين الفئات الاجتماعية، وأبرزها إنشاء صندوق الضمان الاجتماعي ودَعْم التعليم الرسمي والجامعة اللبنانية؛ كل هذا من دون المساس بالتزام لبنان بمبادئ الاقتصاد الحر.

وقد عززت الشهابية الدولة عمومًا على حساب قوى المجتمع عن طريق إضعاف زعامات الإقطاع السياسي والتشجيع على قيام زعامات متوسطة في وجهها مدعومة من الأجهزة الأمنية، وعن طريق زيادة عدد النواب؛ وعملت السياسات الشهابية على قطع دابر نفوذ الإقطاع السياسي في الإدارة بالاعتماد المتزايد على التكنوقراط والعسكر وإنشاء الأجهزة الرقابية – مجلس الخدمة المدنية وديوان المحاسبة والتفتيش المركزي وغيرها.

وهكذا، لم تضع الشهابية النظام الطائفي موضع تساؤل، لكنها عدّلت في نسب التمثيل الطائفي والمذهبي في الإدارة لصالح المسلمين وكانت مختلّة أيّما اختلال لصالح المسيحيين، بسبب سياسات العهود السابقة والأسبقية في التعليم.

على أن أهم ما استخلصه هذا القائد العسكري من حوادث العام ١٩٥٨ هو أولوية معالجة المسألة الاجتماعية من أجل ما سمّاه «تأمين الأمن والتوازن في البلد». في حديث استشرافي مع العالم السياسي الفرنسي موريس دوفرجيه، شذّ شهاب عن التداول المألوف بمعالجة المسألة الطائفية وقال لمحدّثه إن التسوية الاجتماعية، التي سعى إلى تطبيقها في عهده، أكثر أهمية من التسوية

الطائفية لعلاج الأزمات اللبنانية، مؤكدًا أن المشكلة الأساسية في لبنان كانت وستبقى مشكلة اجتماعية، وتنبّأ بأن البلد على برميل بارود إن لم تنفذ فيه إصلاحات تحقق العدالة الاجتماعية. وكم هو معبّر أن أول من كسر وصية شهاب الثمينة هو تلميذه وذراعه اليمني، التكنوقراطي الباهت الياس سركيس الذي وضع ولايته الرئاسية (١٩٧٦-١٩٨٢) تحت شعار «الأمن قبل الرغيف».

أودّ التأمل في إمكانية دفع معادلة شهاب إلى نهايتها بطرح السؤال عمّا تستطيعه العدالة الاجتماعية في معالجة المسألة الطائفية ذاتها

وتجدر المقارنة الإجمالية بين عهد شهاب الذي جاء بعد الاقتتال الأهلي العام ١٩٥٨ وعهد إعادة الإعمار بعد حرب ١٩٧٥ من منظار الدروس والعِبَر المستمدة من حالتين من الاقتتال الأهلي، مع الفارق بينهما لناحية المدة الزمنية للعمليات العسكرية واتساع رقعة الضحايا والدمار.

نظر عهدُ إعادة الاعمار إلى الحرب بتحميلها للآخرين وتجهيل أسبابها، وتصوَّر نهاية الحرب فرصةً لجني «فوائد السلام»، وقدّم الإعمار على أنه عودة إلى عصر ذهبي سابق، والسعي إلى تجديد اعتماد النظام الاقتصادي على الأدوار الخارجية، حيث الدور الجديد هو ملاقاة سلام إسرائيلي عربي متوقّع – ومتوهَّم – من خلال بناء مركز أعمال دولي في وسط بيروت – وقد عزز مركزيتها عن قصد على حساب سائر المدن والأطراف – وأعطى الأولوية اقتصاديا لتنمية قطاعات المال والعقار وتجديد الخدمات الصحية والتعليمية الموجهة للخارج.

في ظل ذلك المشروع، تضخّمت معالم نظام الاقتصاد الحر، وهو القطاع الذي أسهمت أزمته في اندلاع الحرب الأهلية، بتحويله إلى نظام نيوليبرالي مع تركيز خاص على القطاع العقاري، وإعادة رسملة القطاع المالي بواسطة مديونية الدولة، وتثبيت سعر العملة، وتعميم القيم المالية في ظل توسيع أنماط الاستهلاك الشعبي، ما فاقم من الاختلال في ميزان المدفوعات. وبدلًا من مواجهة ذلك الاختلال بتنمية القطاعات الإنتاجية، جرى الاتكال على عائدات المغتربين والعاملين في الخارج. حل النمو محل الإنماء. واستُكملت عملية تصفية الدولة الشهابية بواسطة عمليات خصخصة واسعة النطاق شملت النقل العام والخدمات البريدية والمرفأ والتعليم العالي والاستشفاء من جهة، وتفكيك أجهزة الرقابة والمحاسبة من جهة أخرى. وتولّى عهدُ الانتداب السوري تسليم السلطة إلى قادة المليشيات وأحزابها وإلى مافيات محتكري الخبز والمحروقات والأدوية والآلات والأدوية الزراعية والمواد الغذائية ليجنوا في السلم أضعاف ما جنوه في الحرب. وتولى اتفاق الطائف إعادة الإنتاج الموسّعة لنظام الطائفية السياسية، بإعادة توزيع نِسب القوى داخله – خصوصًا داخل الجهاز التنفيذي في العلاقة بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة – ولكن مع تضخيم طابعه الديني، وتعزيز دور أئمة وشيوخ ورجال الدين والمؤسسات الدينية فيه.

لكني أريد التوقف عند وصية شهاب الأخيرة التي دعا فيها إلى إيلاء الأولوية لمعالجة المسألة الاجتماعية على المسألة الطائفية، والتأمل في إمكانية دفع معادلة شهاب إلى نهايتها بطرح السؤال عمّا تستطيعه العدالة الاجتماعية في معالجة المسألة الطائفية ذاتها. وهو ما سمّيته مؤخرًا خيار «التجويف الاقتصادي-الاجتماعي للطائفية». وإنني أتساءل حقًا:

إذا تأمن التوظيف في قطاع الخدمة العامة والترقي بناءً على معيار الكفاءة،

وإذا تحققت تنمية مناطقية متوازنة، وتوفَّر توزيعٌ عادل لموارد الدولة وخدماتها،

وإذا تقلّصت الفوارق في فرص العمل والمداخيل والثروات،

وإذا اعتمِد نظام للتقاعد وشملت التغطية الصحّية جميع اللبنانيين،

وباتت الأولوية للتعليم الرسمي المتطور بمراحله المختلفة،

وإذا قطع البلد أشواطًا في السيطرة على الفساد،

هل يبقى الكثير من أسباب قوية للتظلّم الطائفي من جهة أو للتمسك بامتيازات مادية طائفية مفترضة من جهة أخرى؟ ألن تتناقص حاجة كل جماعة إلى ادعاء احتكار المظلومية، وتتقلص معها حاجة الناس إلى اللجوء إلى جماعاتهم وقياداتهم وأحزابهم الطائفية والمذهبية والمرجعيات الدينية لتدبير أمورهم المعيشية، فيتحررون تدريجيًا من وهْم أن نمو قوة جماعتهم في السلطة يعادل تحسين أوضاعهم المعيشية وتزايد فرص العمل والوظيفة وتتسع آفاق الارتقاء الاجتماعي؟

لمزيد من التأمل...



ضد مدّ التاريخ

سموّ السياسة في فكر سلامة كيلة

ياسمين مبيّض

مديرة تحرير The Syria Report في منشور عن الاقتصاد السوري والأعمال والشؤون المالية

كُتبت هذه الورقة أثناء عملها كزميلة أبحاث في مؤسسة روزا لوكسمبورغ، مكتب بيروت

التكوين السياسي

ولد سلامة كيلة عام ١٩٥٥ في فلسطين ببيرزيت، وهي بلدة صغيرة شمال رام الله. عايش خلال حياته الباكرة موجات المدّ القومية العربية بزخمها وإرهاصاتها. غذّت هذه الأيديولوجيا آنذاك حركات التحرر ضد السلطات الاستعمارية وما سمّاه بيري أندرسون «التسلسل غير المنقطع تقريبًا للحروب الإمبريالية والتدخلات في فترة ما بعد الاستعمار»[١]، إذ إنّ إقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ قد شددت القبضة الإمبريالية على العالم العربي ومعها ضرورة تشكيل جبهة عربية موحدة لردع القوات الغازية وتحرير فلسطين.

بحكم نشأته في كنف والدٍ ناصريّ، بدأ كيلة احتكاكه بالقومية العربية منذ الصغر، ولم يردعه الإفلاس الإيديولوجي الذي عايشه في سنين لاحقة فضلاً عن إخفاقات الدول القومية في فترة ما بعد الاستقلال عن المحافظة على الدافع الأساس وراء هذه الأيديولوجيا. في الواقع، فهم كيلة المنطقة كمنطقة، معترفًا بالترابط بين الدول والنضالات، معيدًا صياغة العروبة باعتبارها سياسة عربية اشتراكية ذات بعد أممي.

من وجهة النظر هذه، تخيّل كيلة منظومةً يساريةً عابرةً للحدود الوطنية قادرة على تحقيق التحوّل الاجتماعي الكامل والاستقلال الاقتصادي في جميع أنحاء العالم العربي. وفي حدود رؤيته، ستعمل هذه المنظومة على مستوى المنطقة كقوة وسيطة للحركات الشعبية ضد القوى الإمبريالية وإسرائيل والدول العربية الكومبرادورية وتوحيد وسائل الإنتاج وتوجيهها بشكل منهجي في كلّ بلد نحو التنمية المتساوية لكامل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

جادل المفكر الفلسطيني بأن إعادة تأهيل الماركسية شرط ضروري لتحقيق هذا المشروع الضخم. وأكد أنه يجب إنقاذ الماركسية من الدوغمائية وتكييفها وإعادة ابتكارها وفقًا للخصوصيات التاريخية للمنطقة وموقعها العالمي في الزمان والمكان. لا شكّ في أنّ تجذره المبكر تجاه اليسار كان جزءًا من نزعةٍ أكبر بين وفرة من المثقفين والمناضلين المسلّحين العرب الذين أعادوا توجيه أنفسهم أيديولوجيًّا بعد هزيمة مصر والأردن وسورية على يد إسرائيل عام ١٩٦٧، إذ كان هذا الحدث ونتائجه نقطة تحوّل بالنسبة لعموم المثقفين العرب، ولحظة تاريخية «حطمت نظرتهم للعالم وقلبت آمالهم الثورية»[٢].

تركت تلك الهزيمة شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس ومرتفعات الجولان تحت السيطرة الإسرائيلية، ممّا أدى إلى استمرار التوسّع الاستعماري الإسرائيلي وتقويض روح القومية العربية وقيادات دول ما بعد الاستعمار، كما فاعلية الأحزاب الشيوعية الرسمية داخل فلك الاتحاد السوفييتي. أما بالنسبة للفلسطينيين على وجه الخصوص، فقد أكّدت الهزيمة خيبة أملهم من الأنظمة العربية، والتي تعود إلى أكثر من عقد من الزمان، وجعلت ظهور حركات المقاومة الفلسطينية المسلحة الناشئة أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى[٣].

أثر هزيمة الـ٦٧

إن تجربة كيلة لمأساة عام ١٩٦٧ في بيرزيت، وهو في الثانية عشرة من عمره، شحذت تركيزه على الحركة الوطنية الفلسطينية وحرّضت تحوّله السياسي. «اللحظة التي شعرتُ فيها أنني تحولت من طفل إلى رجل هي لحظة هزيمة ٥ يونيو... عشتُ بداية الحرب وبداية دخول الاحتلال الصهيوني، منحتني تلك اللحظة فهمًا لمعنى مواجهة إسرائيل وتحرير فلسطين والعمل بالمقاومة. منذ تلك اللحظة أنهيت نفسي كطفل وبدأت الاهتمام بالسياسة»[٤].

ومع غلبة القناعة بأن التحرير يتطلّب قوة سياسية وممارسة، انعكس ذلك على فكر كيلة منذ ذلك الحين:

«كنت بعتبر حالي مع فتح وأنا لا بعرفه ولا بيعرفني»[٥]. وعلى الرغم من أن كيلة لم يملك آنذاك سوى انطباع شابّ عن الحركة المسلّحة، إلا أن الحماس والتقديس اللذين شعر بهما تجاه المناضلين الفلسطينيين في أعقاب الحدث الكارثي سادا أنحاء العالم العربي، إذ لم يعد من الممكن اعتبار الدول العربية الفاعلَ الرئيسَ في مسار التحرّر. وبالفعل، برز الفدائيون الفلسطينيون كـ«رمز للتحدي العربي والتمرّد الجريء مقابل فشل الجيوش العربية وانعدام كفاءتها هي وأنظمتها التي تزعم التقدمية»[٦].

خلال هذا الوقت، اتخذ الفكر شكل النقد الذاتي الذي أدرك المثقفون العرب من خلاله أوجه القصور في أيديولوجياتهم المعلنة واستراتيجياتهم للتحرر وتحالفاتهم السياسية[٧]. وظهر اليسار العربي الجديد في هذا السياق باعتباره مساءلةً للأيديولوجيات القومية والتفسيرات العقائدية للماركسية، إضافةً إلى العلاقة العمودية (من أعلى لأسفل) بين الاتحاد السوفييتي والأحزاب الشيوعية الرسمية في العالم العربي. ففي الواقع «لم يبدأ الشيوعيون العرب، بدرجات متفاوتة، عملية نقد ذاتي جادّ في ما يتعلق بقضية فلسطين إلا بعد عام ١٩٦٧». ومن الأمثلة على ذلك إدانةُ تأييدهم السابق للسياسة السوفييتية الرسمية الداعمة لخطة التقسيم عام ١٩٤٧[٨]. ومنذ ذلك الحين، أعربت الأحزاب الشيوعية بشكل متزايد عن مواقف أكثر راديكالية من المقاومة الفلسطينية إذ أصبحت الماركسية والعمل المسلّح الإحداثيّتين الرئيسيّتين للسياسات التحررية في العالم العربي، وارتبطتا في حالة كيلة ارتباطًا وثيقًا بصيرورته السياسية.

أصبح كيلة جزءًا من الحركة الوطنية الفلسطينية في أوائل السبعينيات، بعد أن نالَ منحةً أتاحت له الانتقالَ إلى العراق بهدف دراسة العلوم السياسية في جامعة بغداد. وأما الجامعة، فيقول كيلة «كانت مكتباتها زاخرة بكل أنواع الكتب، وكنتُ معنيًّا بالقراءة في مختلف مجالات التاريخ والسياسة والفكر، كنت معنيًّا ببلورة بديل مختلف عن الأحزاب القائمة»[٩]. وبعد وصوله بفترة وجيزة، انضمّ الى كتيبة الجرمق وهي كتيبة طلابية يسارية مسلّحة مرتبطة بالتيار الماركسي لحركة فتح[١٠]. كان اللواء الطلابي ذا طابع أممي، يعمل في دول عدة ويضمّ أعضاءً من جميع الطوائف والجنسيات العربية وغير العربية ويستمدّ الإلهام السياسي من الحركات الثورية في العالم الثالث الصاعد، وتحديدًا في الصين وفيتنام وكوبا[١١]. قدّمت هذه التجارب السياسية أمثلةً لنماذج بديلة للتنمية والتقدم الثوري الذي أنتجته الخصائص التاريخية لكل بلد. وخلال هذا الوقت، نضجت علاقة كيلة بالماركسية.

بعد انشقاق الكتيبة عن «فتح»، سعت كوادرها إلى بناء حزب شيوعي عربي لكنها حرصت على الحفاظ على الاستقلال الأيديولوجي للتنظيم. وكانت «كتيبة الجرمق» تعارض بشدة تأثير الاتحاد السوفييتي على الالتزامات الأيديولوجية والسياسية للمنظمات اليسارية في العالم العربي. ومع صعود الصين الشيوعية، أعلن أحد مؤسسي اللواء، ناجي علّوش، وهو شاعر فلسطيني ومجنّد مبكّر في «فتح»، وعمّ كيلة: «لم نخرج من تحت مظلّة موسكو لكي نضع أنفسنا تحت مظلّة بكين»[١٢].

بحلول أوائل الثمانينيات، اضطرت كتيبة الطلاب إلى أن تنتقل إلى سورية. وعلى الرغم من أنّ كيلة لم يستمرّ عضوًا فيها، إلا أنه استقرّ هو الآخر في سورية بعد أن أدرجته إسرائيل ضمن القائمة السوداء وحرمته من حقه في العودة بسبب نشاطه العسكري في الحركة الوطنية الفلسطينية[١٣]. وبعد انتقاله إلى دمشق، اصطدم كيلة بحدود الممارسة السياسية في ظل نظام حافظ الأسد، فضلاً عن الفساد الأيديولوجي للأحزاب الشيوعية الرسمية المتحالفة مع «حزب البعث» الحاكم. وعلى الرغم من المناخ السياسي الكئيب في سورية، إلا أنه سرعان ما أقام روابط مع «حزب العمل الشيوعي السوري» والذي قدّم بديلاً سياسيًّا للقوى الشيوعية الموجودة في البلاد.

في السجن السوري

سعى «حزب العمل الشيوعي» (المعروف سابقًا باسم «رابطة العمل الشيوعي») إلى بناء «قطب ثالث من القوى السياسية الوطنية في إطار جبهة شعبية موحدة يمكن أن تطيح بنظام [البعث] وتقطع طريق القوى الدينية المتطرفة» وكذلك مواجهة القوى الإمبريالية العالمية[١٤]. هذا الحزب «انخرط منذ نشأته في نهج أممي دولي يربط مصير الطبقات الشعبية في جميع أنحاء المنطقة والعالم»، وكان يهدف إلى إقامة حكومة ديموقراطية وثورية في سورية مكان نظام البعث[١٥]. فضلاً عن أنه كان يتألف من تيارات سياسية متباينة وكان ديناميكيًّا في ممارسته السياسية ونظرياته، مشجعًا للنقد والسجالات السياسية والنقاش حول برنامج الحزب وتحليلات السياق التاريخي والسياسي[١٦]. وجد كيلة في ذلك الحزب مساحةً للفكر السياسي الحقيقي والمشاركة التي تتخطى دوغمائية الأحزاب الشيوعية الرسمية. وعلى الرغم من أنه لم يكن عضوًا رسميًّا في «حزب العمل»، إلا أنه كان مشاركًا نشطًا في الإجراءات والمناقشات السياسية للمنظمة، حتى أنه فتح منزله لاستضافة اجتماعات الحزب.



إلا أن النظام السوري لم يتوانَ عن شنّ عدد من الحملات القمعية التي أسفرت عن سجن العشرات من عناصر التنظيم بمن فيهم الكوادر والقادة. وبسبب مشاركته الواسعة، سُجن كيلة في عام ١٩٩٢ إلى جانب قادة وأعضاء الحزب الباقين، ممّا أدى إلى شلّ حركة المنظمة بشكل فعّال. ولمدة ثماني سنوات، أمضى المثقف الفلسطيني وقتًا بين سجنين وحشيّين، عدرا وتدمر[١٧]. وعندما عرضت الحكومة، في ذكرى الحركة التصحيحية عام ١٩٩٥، عفوًا يُفترض أنه يمنح السجناء السياسيين الشيوعيين الحرية مقابل «ترك العمل السياسي والانسحاب من الحزب والتعاون مع أمن الدولة»، رفض عدد من السجناء بمن فيهم كيلة[١٨]. وعلى الرغم من تعرّضهم للتعذيب الشديد، لم يتراجعوا عن قرارهم. بقي كيلة مسجونًا لمدة خمس سنوات إضافية حتى عام ٢٠٠٠، فيما طال بقاءُ بعض رفاقه لفترة ما.

رفض كيلة عفوَ الحكومة الذي يمنح السجناء السياسيين الشيوعيين الحرية مقابل ترك العمل السياسي والتعاون مع أمن الدولة

رفضت منظمات مثل «حزب العمل الشيوعي» سياسة خضوع الأحزاب الشيوعية الرسمية للقوى القومية، وعملت على تفكيك قبضة الأحزاب القومية على الدولة وبناء جبهة موحدة ضد القوى الرأسمالية والإمبريالية. ومع أنّ التجربة السياسية لـ«حزب العمل» لم تدُم طويلاً، إلا أن زوالها وزوال القوى اليسارية المستقلّة الأخرى يجسّد العواقب الحقيقية لدعم الاتحاد السوفييتي لما يسمّى الأنظمةَ العربية التقدمية ويؤكّد نقد كيلة للدوغمائية الماركسية المترسّخة في الأحزاب الشيوعية الرسمية.

إعادة صياغة الماركسية

رأى كيلة أنّ انحطاط الفكر يؤدي إلى تدهور التنظيم. بناءً عليه، جادل بأن الدوغمائية التي تحيط بالأحزاب الشيوعية الرسمية في المنطقة أدّت إلى ركود أيديولوجي ونقص سياسي. وهكذا، فإنّ صياغة بديل للأحزاب الشيوعية التقليدية وتطوير مشاريع سياسية مستقلّة ودائمة يعني أولاً امتلاك الشجاعة للانحراف عن الماركسية السائدة، كما تُقدّم نفسها.

اعتبر كيلة الماركسيةَ منهجًا ونمط تفكير، لكنه وجد أنّ الأحزاب الشيوعية الرسمية في المنطقة استندت إلى الماركسية باعتبارها «نصًّا مقدسًا» يفرض فهمًا نظريًّا مسبقًا للعملية التاريخية التي تتكشّف بدلاً من تطوير النظرية وفقًا لها[١٩]. أشار كيلة وآخرون إلى هذا النمط من الماركسية بمسمّى «الماركسية السوفييتية» التي ارتبطت بتأبيد ستالين للماركسية في عقيدة جامدة وكاملة. وكما يقول المفكر الفلسطيني، كانت هذه الماركسية هي التي وصلت إلى العالم العربي، بهذا الشكل الموروث فتحوّلت إلى مجموعة طقوس بالية.

وفي العالم العربي، كان «الحزب الشيوعي السوفييتي» «مسؤولاً إلى حدّ كبير عن المبادئ التوجيهية العامة لاستراتيجية وتكتيك الأحزاب الشيوعية العربية، حتى في الأمور التي تتعلق مباشرةً بالشؤون العربية» مثل تقسيم فلسطين[٢٠]. وعلى الرغم من أن الأحزاب الشيوعية العربية الرسمية أصبحت في ما بعد أكثر استعدادًا «لتوجيه النقد النظري للمواقف الحزبية السابقة وللتجربة المبتكرة من منظور عربي حقيقي»، فقد استمرّت هذه الأحزاب في اتباع العقائد التي تمّ تطويرها في الخمسينيات والستينيات[٢١]. انتقد كيلة على وجه الخصوص الأحزابَ الشيوعية الرسمية في العالم العربي بسبب تمسّكها بغائيّة وخطية تنمية المجتمع البشري التي تستند إلى حدّ كبير إلى مفهوم ستالين للحتمية التاريخية[٢٢][٢٣]. ولأنّ الستالينية، التي وصفها كيلة بأنها تكثيف لظاهرة الماركسية السوفييتية، قد تعاملت مع مقترحات ماركس وإنغلز ولينين على أنها قوانين عابرة للتاريخ وثابتة وليست مجموعة من الافتراضات القابلة للنقد والانتقاد، فقد فشلت الأحزاب الشيوعية العربية إلى حدّ كبير في تطوير وتعميم الفهم المناسب لمسار الرأسمالية وطابعها المميز في العالم العربي[٢٤].

كان لهذه العيوب النظرية أهمية عملية قصوى. جادل كيلة بأنه من خلال قياس العالم الحقيقي مقابل النص، فإن الأحزاب الشيوعية الرسمية أجابت وحلّلت كلّ شيء حتى قبل حدوثه، وبالتالي أصرّت على تكتيكات تتعارض مع الواقع في لحظات حاسمة من التاريخ[٢٥]. وبدلاً من التساؤل عن الفهم الموروث الصارم لمراحل أنماط الإنتاج في ضوء التطورات في العالم العربي، استسلمت الأحزاب الشيوعية الرسمية نفسها لقوة الحتمية المطلقة. وبحسب تقدير كيلة، فإنّ التمسك بمثل هذا المفهوم الحتمي للتنمية الاجتماعية قد أدّى بالأحزاب الشيوعية إلى التنازل عن قيادتها للقوى الوطنية خلال حركات التحرر الوطني ضد القوى الاستعمارية، والتي استمرّت تداعياتها حتى يومنا هذا. وعلى هذا النحو، فشلت

الأحزاب الشيوعية العربية في قيادة الطريق نحو التقدم الثوري أو في أن تصبح عوامل تغيير حقيقية وفاعلة.

وعلى الرغم من سياساتها التقدمية ومواقفها المعادية للغرب ولإسرائيل، فإن الأنظمة القومية «عملت بشكل أساسي على تقوية الرأسمالية والطبقة الرأسمالية الناشئة المرتبطة بالدولة»[٢٦]. وفي الواقع، أهملت القوى القومية العربية مسألة الطبقة، وقلّلت من أهميتها أو رفضتها بشكل قاطع باعتبارها تقسّم الوحدة العربية[٢٧]. كانت هذه الأنظمة «تهدف إلى تحييد واضطهاد أي قوى يسارية تحاول تعزيز التعبئة المستقلة للعمّال والقوى الاجتماعية الأخرى»[٢٨]. ونتيجةً لذلك، تمّ تجميد القوى الشيوعية المستقلة أو سجنها أو نفيها، في حين أن الأحزاب الشيوعية الرسمية «كانت مهادنة، ومكتفية بالحدود التي تقرّها الرأسمالية... وقابلة بالأمر الواقع»[٢٩].

أهملت القوى القومية العربية مسألة الطبقة، وقلّلت من أهميتها أو رفضتها بشكل قاطع باعتبارها تقسّم الوحدة العربية

الانحدار العالمي

مع التحوّل النيوليبرالي، حَوّل القوميون العرب الإمبريالية إلى تهديد وجودي وخارجي بينما تبنّوا سياسات اللبرلة أو البرامج التي وضعها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بكاملها وفقًا لمصالحهم الطبقية العابرة للحدود. وفي هذه الأثناء، تخلّت الأحزاب الشيوعية الرسمية (والتي دعمت إلى حدّ كبير القوى القومية على أساس مناهضتها للإمبريالية) عن تخيّلاتها السياسية عن المستقبل الاشتراكي، وتحوّلت بدلاً من ذلك إلى الحنين إلى ماضي «رأسمالية الدولة». وجد كيلة أنه في حين كان للتضامن الأممي مع الأنظمة التي تتحدى الإمبراطورية الأميركية أهميةٌ سياسية، فإن التعتيم على مسألة التطور الطبقي الرأسمالي جعل أي بادرة مناهِضة للإمبريالية مجرّد كلام بلاغي.

في رؤية كيلة، يتطلّب النضال ضد الإمبريالية رؤية للمنطقة بأكملها كوحدة سياسية واقتصادية واحدة تستلزم بدورها جبهة يسارية على مستواها يمكن أن تحقق التحرر الاقتصادي والاجتماعي الكامل. وجبهة كهذه ستوحّد وتنظّم وتوجّه القدرات الإنتاجية والموارد الطبيعية والأسواق في المنطقة نحو التنمية المتساوية العابرة للحدود الوطنية للشرق الأوسط بأكمله وشمال أفريقيا. فالنضال لتحسين أوضاع الجماهير والنضال ضد الفئات الحاكمة والإمبريالية المسيطرة يقتضي «توحيد الوطن العربي، لأنّ النمو الاقتصادي (بمعنى إزالة التبعية وتجاوز التخلف) مستحيل من دون الوحدة بسبب النقص الأساسي الذي تعانيه كل دولة من الدول القائمة (الأيدي العاملة، الأرض الزراعية، رأس المال، الخبرات، إلخ.)، كما بسبب الحاجة إلى السوق الواسعة القادرة على استيعاب نهضة صناعية كبيرة»[٣٠]. وأكد أنه فقط من خلال الوحدة يمكن أن تتحرر المنطقة بأكملها فعلاً.

إن القبضة الإمبريالية على المسار الاقتصادي للمنطقة بأكملها، فضلاً عن دورها في تشكيل التسلسلات الهرمية الإقليمية، عزّزت دعوة كيلة إلى جبهة موحّدة عبر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. أدرك كيلة الخصوصيات الفريدة لكلّ بلد، لكنه رأى في الاحتجاجات الجماهيرية ضد تدابير التقشف في تونس ومصر والمغرب والجزائر والأردن بين أواخر السبعينيات وأوائل التسعينيات والانتفاضات الجديدة التي انتشرت عبر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في فترة ٢٠١٠-٢٠١١ أعراض محنة مشتركة. ففي جميع أنحاء المنطقة، شهدت البلدان تدمير قدراتها الإنتاجية وإفقار الناس ونهب الموارد الطبيعية، ما عزّز دور الطبقات الحاكمة الوطنية كقنوات لمصالح القوى الخارجية، ذلك أنّ الإمبريالية الأميركية «غدت ليست قوة احتلال خارجي فقط، بل وقوة استغلال داخلي، توظف قدراتها السياسية والمعنوية، وقواها العسكرية، كما توظّف أدواتها في الوطن العربي (الكيان الصهيوني والأنظمة الرجعية العربية) لكي تنهب خيرات الوطن، وتزيد من فقر الجماهير، لتزيد من تراكم رأسمالها»[٣١].

أمّا في حالة سورية، فقد أدّى تحوّلُ السياسة الاقتصادية للحكومة من تدخّل الدولة في السوق إلى اقتصادٍ موجّه نحو السوق إلى تدمير القطاع العامّ وإخضاع البلاد لقوى السوق الدولية. تسارعت وتيرة اللبرلة الاقتصادية مع صعود بشار الأسد إلى الرئاسة، إذ ظهرت لأول مرة على أنها اتّجاه لا رجعةَ فيه. ومع ازدياد ثراء النظام والطبقات المرتبطة به، غرقت الجماهير أكثر في الغمر. «بدأ بريق هذه الإصلاحات يتجلّى في مظاهر التفاخر بالثروة من قبل الطبقات العليا في المجتمع» بينما خفّضت الدولة في الوقت نفسه إنفاقها على الصحة والتعليم ورفعت تدريجيًا الدعم عن السلع الأساسية وحرّرت قوانين التجارة والاستثمار، وعزّزت الشراكات بين القطاعين العامّ والخاص وخفّضت الضرائب على الشركات[٣٢]. وفي سعيها للتحرير الاقتصادي الجامح، فشلت الدولة في حماية

السوريين العاديين ودعم قطاعاتها الإنتاجية والحفاظ على دورها الاقتصادي والاجتماعي المركزي[٣٣].

في مقاومة النيوليبرالية

بُعيد إطلاق سراح كيلة من السجن عام ٢٠٠٠، انخرط على الفور في الحركة المناهضة للعولمة، وهي حركة دولية مناهضة للرأسمالية رفضت «السياسات الليبرالية الجديدة والحروب التي تقودها الرأسمالية، سواءً في الوطن العربي أو في مجمل العالم»[٣٤]. نشر المفكر الفلسطيني ورفاقه «البديل» وهو منشور ركّز على مواضيع مختلفة مثل السياسات الاقتصادية المحددة التي تنتهجها الحكومة السوريّة، والحروب الإمبريالية التي يقودها منطق رأس المال والديون وما يسمى بـ«التنمية» في العالم الثالث، كما اهتمّ بالمسار النيوليبرالي لبلدان أخرى في العالم العربي مثل مصر والمغرب. وزّع النشطاء منشوراتهم على نطاق واسع ونظّموا منتديات ونقاشات عمومية لتشجيع الحوار على مستوى الأمة حول الاتجاه الاقتصادي للبلاد. وعلى الرغم من أن النظام غضّ الطرف عن الحركة المناهضة للعولمة، إلا أنّ الهامش الذي منحته الدولة لهؤلاء الناشطين كان ضيّقًا. بحلول عام ٢٠٠٦، وفي الوقت الذي اعتنق فيه النظام عقيدة الانفتاح الكامل للسوق، قام بتكثيف حملاته القمعية ضد المتورطين في الحركة واعتقل العشرات من النشطاء، وكانت أغلبيتهم من الطلاب.

ومع اندلاع الانتفاضة السورية في آذار/ مارس ٢٠١١، وجد كيلة وعددٌ من اليساريين والشيوعيين من مختلف الطوائف والأعمار والخلفيات السياسية أن من الضروري تشكيل جبهة يسارية واسعة من أجل توحيد القوى اليسارية التقدّمية في البلاد. سعى «ائتلاف اليسار السوري»، وهو مظلّة من الكوادر الشيوعية واليسارية الشابة، إلى التعبير عن المُثل التحررية الناشئة من داخل الانتفاضة نفسها وطرح برنامج يعكس المُثُل التحررية والمساواة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وطالب التنظيم في برنامجه السياسي بإسقاط النظام وإعادة صياغة الدستور السوري وتعزيز القطاع الإنتاجي وزيادة الدعم الاجتماعي وردم الانقسام الحضري-الريفي وبناء قوى ثورية ضد إسرائيل من أجل تحرير فلسطين ومرتفعات الجولان من بين أمور أخرى. كما جادل تحالفُ اليسار بأنّ استقلال سورية الوطني وأمنها يتوقفان على إعادة تأهيل وتطوير الصناعات الإنتاجية الوطنية والقطاع الزراعي في البلاد وكذلك على التراجع عن السياسات الاقتصادية النيوليبرالية للنظام، إذ «لا يوجد استقلال ضمن حدود التبعية الاقتصادية التي تولدها السياسات النيوليبرالية»[٣٥].





من تظاهرة ضد الأسد، في داريّا السورية، ٢٠١٢.



نشر «تحالف اليسار السوري» صحيفة «اليساري» وتمّت مناقشتها وكتابتها وطباعتها سرًّا في منزل كيلة. وتمّ توزيع المنشور، الذي ركّز على المسائل النظرية السياسية التي تواجه الحراك الجماهيري، بشكل سرّي على الجماعات اليسارية والأفراد المنتظمين في الحركة، ونُشر على الإنترنت لمن هم داخل سورية وخارجها[٣٦].

كان «تحالف ائتلاف اليسار السوري» وتنظيمُه الجماهيري أيّ «شباب الثورة السورية»، واحدًا من المنظمات اليسارية القليلة التي انضمّت بجدية إلى الحركة الثورية[٣٧]. أما القوى الشيوعية التقليدية «فبدلاً من ممارسة نقد ذاتي لتقصيرها في الانخراط في الثورة وترشيدها وحمايتها من الاختراق، وجدناها تجلد الشعوب المنتفضة وتجرّح بأقسى العبارات وأقذعها كلّ من انخرط في صفوفها»، حسب توصيف كيلة[٣٨].

لم يتجاهل كيلة تهديدَ الإمبريالية التي تقودها الولايات المتحدة ولا دورَها المحدّد في نتائج الحركات السياسية التي تهدد هيمنتها. ومع ذلك، فقد جادل بأن الذين وقفوا ضد الانتفاضة على أساس «معاداة الإمبريالية» حرموا الشعبَ السوري من دوره كفاعل سياسي وتاريخي واستسلموا للقوى العالمية على اعتبارها قوى التغيير النهائية. يشبّه كيلة هذا التوجه في التفكير بالمعسكر الليبرالي في سورية الذي اعتبر بالمثل الولايات المتحدة والقوى الغربية بمثابة الوكلاء الأساسيين في العملية الثورية نظرًا لقدرتها على فرض التحوّل السياسي. وجد كيلة بالتالي أن الشعب السوري بالنسبة لمن يُسمّون «معادي الإمبريالية» والليبراليين ليس أكثر من مادّة تحكم عليها القوى العالميةُ قبضتها وتتصرّف بها كما تشاء. وزعم أنه برغم «اختلال ميزان القوى، (فإنّ) كلّ سعي للتغيير ينطلق من ميزان قوى مختلّ، وما يغيّر هو قدرة الحزب على تنظيم الطبقة التي يسعى إلى أن يعبّر عنها، وتطوير الصراع بما يسمح بتغيير ميزان القوى»[٣٩].

من وقف ضد الانتفاضـــــــــة على أساس «معاداة الإمبرياليـــــــــة» حرم الشعبَ السوري من دوره كفاعل ســـــــياسي وتاريخي واستسلم للقوى العالميـــــــــة

لقد تعرّض «ائتلاف اليسار السوري»، مثل العديد من التنظيمات التقدمية في الانتفاضة السورية، للقمع العنيف من قبل النظام وكان أضعفَ من أن يوجّه الحراكَ الشعبي أو يقف في وجه القوى الرجعية، وكان الموتُ أو الاعتقال أو النفي مصيرَ العديد من أعضائه. وفي شهر نيسان/ أبريل ٢٠١٢، تمّت مداهمة منزل كيلة من رجال أمن يرتدون ملابس مدنية وعثروا على نسخ من «اليساري»، وهو اكتشاف كان أكثر من كافٍ لإدانة المفكر. عقب هذه الحادثة، سُجن قرابة شهرين تمّ خلالها استجوابه وتعذيبه وحرمانه من علاجه اليومي الذي كان مداومًا عليه منذ تعافيه من مرض السرطان عام ٢٠٠٤. وعند إطلاق سراحه، نُفي مرة أخرى، لكنه استمر في الكتابة والتفكير في القضايا التي تواجه سورية والمنطقة الأوسع.

وعلى الرغم من الطبيعة العفوية، والمتناقضة في بعض الأحيان للانتفاضة السورية، أو ربما بسببها، أكد كيلة أن واجب الماركسيين واليساريين داخل الحركة هو تطوير التجربة الثورية للناس حتى يتمكنوا من تحقيق النصر في ثورة أخرى[٤٠]. وفي الواقع، وجد كيلة اللحظة مناسبةً لتنمية الأفكار والممارسات ضمن التكشّف العملي والثوري للحدث.

خُلاصة

أثناء الأيام الأولى لانتفاضات ٢٠١١، حاجج بيري أندرسون بأنه على الرّغم من إفلاس الأيديولوجية القومية العربية، إلّا أنه يجب إنقاذ البعد الجماعي الذي رفعته إذا ما أردنا تحقيق تحوّل في المنطقة. أدى تبلور القومية العربية، كما يقول أندرسون:

> «إلى صعود وفساد وفشل الناصرية والبعثية. لن يتم إحياؤها اليوم لكن يتعيّن استعادة الدافع وراءها على امتداد العالم العربي، إذا أريد للتمرّد أن يتحوّل إلى ثورة. الحرية والمساواة بحاجة إلى الاندماج مجددًا، لكن من دون الأخوّة، في منطقة متداخلة ومترابطة بشكل واسع، فإنهما عرضة للتلف والتخريب... المطلوب هو أممية عربية سخيّة، قادرة على أن تتصوّر (في المستقبل البعيد، عندما تتمّ الإطاحة بآخر شيخ) التوزيعَ العادل للثروة النفطية بالتناسب للسكان في جميع أنحاء العالم العربي، وليس البذخ الرهيب للقلّة التعسفية وعوز الكثيرين البائسين»[٤١].

أدرك كيلة أنّه لا يمكن تحديد ملامح رؤية جديدة ستوجّه العمل الثوري في مرحلته التالية إلا من خلال التدمير البنّاء للأشكال القديمة[٤٢]. لا شكّ أن رؤية كيلة السياسية تظهر يوتوبيّة، لكنها يوتوبيّة دالّة، أو قلْ عرَضيّة: عندما تفشل الواقعية المتّزنة - أي ذات النزعة النقدية - في تمييز نفسها عن الكلبية (cynicism) الجامحة، تتّخذ اليوتوبيا محتوًى سياسيًّا وطابعًا عقلانيًّا. ما دامت السياسة متجذّرة في التاريخ، فإن الطابع الساذج لهذا القول يغدو جدليًّا: تنشيطُ الخيال بهدف فضح ظاهرية الفهم المُكتمل والنهائي.

الهوامش

١ Perry Anderson, "On the Concatenation in the Arab World", *New Left Review* Volume 68, March-April 2011.

٢ Manfred Sing, "Arab Self-Criticism after 1967 Revisited: The Normative Turn in Marxist Thought and its Heuristic Fallacies", *Arab Studies Journal* Volume 25, No. 2 (Fall 2017): 148.

٣ Rashid Khalidi, *Hundred Years' War on Palestine: A History of Settler Colonialism and Resistance*, 1917-2017 (S.L.: Picador, 2021), 69-128.

٤ فاطمة حوحو، فيسبوك، ٢٠١٨، «رحيل الفلسطيني السوري المغربي: سلامة كيلة، مناضل لم يثنه التعذيب عن إطلاق شراراتٍ فكريّة ولم تحبطه هزيمة عن زراعة الأمل»، https://www.facebook.com/329091257148445/photos/a.884023368321895/1965823556808532/.

٥ بي بي سي عربية، مقطع إخباري، ١٢ شباط/ فبراير ٢٠١٦، يوتيوب، «سلامة كيلة في المشهد»: www.youtube.com/watch?v=W9nse09YJsk.

٦ Ahmad Samih Khalidi, "The Ripples of The 1967 War: Arab Defeat Changed the Course of Palestinian History, but the Final Chapter Remains Unwritten", *Cairo Review* no. 25 (Spring 2017): 28-29.

٧ اختلف موضوع النقد، إذ واجه بعض المثقفين الإمبريالية باعتبارها السبب الحاسم للهزيمة فيما حاسب آخرون الأنظمة القومية العربية التي فشلت في تحقيق مشاريعها الأيديولوجية، حتى لو كانت لأسباب ليست تحت سيطرتها بالكامل. وغيرهم من صوب إلى المجتمع، منتقداً الممارسات والقيم والتقاليد الثقافية والدينية المحافظة التي ابتليت بها ولم ينجُ منها حتى الثوار الشباب في ذلك الوقت، مما أعاق عملية التحرر الاجتماعي والسياسي. انظر:
Fadi A. Bardawil, "The Inward Turn and Its Vicissitudes: Culture, Society, and Politics in Post-1967 Arab Leftist Critiques," in *Local Politics and Contemporary Transformations in the Arab World: Governance beyond the Center*, ed. Malika Bouziane, Cilja Harders, and Anja Hoffmann (Houndmills, Basingstoke, Hampshire; New York, NY: Palgrave Macmillan, 2013), 91–109; Tareq Y. Ismael, *The Arab Left* (Syracuse, New York: Syracuse University, 1976); Sing, "*Arab Self-Criticism after 1967 Revisited: The Normative Turn in Marxist Thought and its Heuristic Fallacies*".

٨ Tareq Y. Ismael, *The Communist Movement in the Arab World* (New York: RoutledgeCurzon, 2005), 36-42.

٩ حوحو، «رحيل الفلسطيني السوري المغربي: سلامة كيلة».

١٠ وفقاً لطارق يوسف إسماعيل، زعمت فتح أنّها جسّدت اليسار الجديد. إذ اعتبر أبو إياد، وهو أحد أهم أعضاء اللجنة المركزية لـ«فتح» أنّ تنظيمه «على صلة بالفكر التقدمي، أكثر من أولئك الذين يعلنون بالإسم دعمهم للفكر [الماركسي اللينيني]»، أي الأحزاب الشيوعية الرسمية. انظر: إسماعيل اليسار العربي، ص. ١٠٨؛ للحصول على مخطط تاريخي غني للحركة الوطنية الفلسطينية، انظر:
الخالدي : Hundred Years War On Palestine، ص. ٦٩-١٢٨.

١١ أبو سعدة، عطيّة، ٥ أبريل/ نيسان ٢٠١٣، بدوي، غزّة، «تاريخ أبطال لواء الجرمق»، https://bit.ly/38UNTkZ.

١٢ سلامة كيلة، ٦ اغسطس ٢٠١٨، «الكتيبة الطلابية وتجربة ناجي علوش ويسار «فتح»»، العربي الجديد https://bit.ly/3flgBPE.

١٣ بي بي سي عربية، «سلامة كيلة في المشهد».

١٤ محمود عيسى، وثيقة غير منشورة تمّت مشاركتها مع الكاتبة، «رحلة المناضل سلامة كيلة في السّجن من عام ١٩٩٢ إلى عام ٢٠٠٠».

١٥ ضاهر، جوزيف، ١٦ أكتوبر/ تشرين الأوّل ٢٠٢٠، (Syria's Labor Communist Party, A Rich Political Hitsory), *Syria Untold* https://syriauntold.com/2020/10/16/syrias-labor-communist-party-a-rich-السياسة-التاريخ / .

١٦ المرجع نفسه.

١٧ عيسى، «رحلة المناضل سلامة كيلة في السجن من عام ١٩٩٢ إلى عام ٢٠٠٠».

١٨ المرجع السابق.

١٩ كيلة، سلامة، «**ما هي الماركسيّة؟ تفكيك العقل الأحادي**»، دار الينابيع، ٢٠٠٦، دمشق، ص. ٧

٢٠ Ismael, The Communist Movement in the Arab World, 22.

٢١ المرجع نفسه، ص. ٣٠.

٢٢ كيلة، سلامة، «**ما هي الماركسيّة؟ تفكيك العقل الأحادي**»، ص. ١٥.

٢٣ كيلة، سلامة (باسم مستعار: سعيد المغربي)، «**نقد التجربة التنظيميّة الراهنة**»، منشورات الوعي، ١٩٨٨.

٢٤ بالتأكيد، هذا تعميم، بل تبسيط، لحقيقة الأمر بالفعل. في هذا المخطط التقريبي، يبدو جليًّا خطر اختزال الماركسيين العرب إلى مجرد ملاحقٍ للاتحاد السوفييتي، وتصوّرهم إلّا طفوليين غير قادرين على إنتاج أبحاثهم الفكرية الخاصة أو انتقاد التفسيرات الماركسية السائدة في سياق العالم العربي. تشخيص الدوغمائية الشيوعية هو تشخيص سياسي محض. وهذا يعني أنه يجب فهم الاتجاه السائد انطلاقًا من الفضاء الاجتماعي والسياسي المعقد الذي وجد الشيوعيون العرب أنفسهم فيه والذي كانوا منشغلين به. تشخيص الشيوعيين العرب على أنهم أخفقوا في ترسيخ أنفسهم في مجتمعاتهم انطلق من زوايا مختلفة. في نقد هذه التوصيفات المسطحة (لأنها شمولية)، والتي يتم فيها استبعاد السياسة نفسها، راجع:
Samer Frangie's "Theorizing from the Periphery: The Intellectual Project of Mahdi Amil," *International Journal of Middle East Studies* 44 (2012): 465-482. doi:10.1017/S0020743812000426.
يجادل فرنجية في هذه الورقة البحثية في الادعاءات بأنّ المثقفين والشيوعيين العرب لم يقدموا مساهمات ذات شأن في الفكر العربي المعاصر، من خلال عرض نقدي للمساهمات النظريّة للماركسي اللبناني وعضو الحزب الشيوعي اللبناني مهدي عامل.

٢٥ كيلة، سلامة، «**ما هي الماركسيّة؟ تفكيك العقل الأحادي**»، ص. ١٨

٢٦ (Hanieh, Lineages of Revolt, 71-78)

٢٧ المرجع نفسه.

٢٨ (Hanieh, Lineages of Revolt, 71-78)

٢٩ كيلة، سلامة، «**ما المركزيّة: تفكيك العقل الأحادي**»، ص. ٩٨-٩٩.

٣٠ كيلة، سلامة، «**طريق الانتفاضة: لماذا تثور الطبقات الشعبيّة؟**»، منشورات دار المتوسط، ٢٠٠٧، ص.٥٩

٣١ كيلة، سلامة، «**طريق الانتفاضة: لماذا تثور الطبقات الشعبية؟**»، دار المتوسط، ٢٠٠٧، ص. ١٩.

٣٢ Linda Matar, *The Political Economy of Investment in Syria* (Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2020), 109-12; Ali Kadri, *Unmaking of Arab Socialism* (London, New York: Anthem Press, 2016), 136.

٣٣ Linda Matar, "Macroeconomic Framework in Pre-conflict Syria," in *Syria: From National Independence to Proxy War* (Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019), 106.

٣٤ لاريسا بندر، «حوار مع سلامة كيلة: مخاطر العولمة من منظور عربي»، قنطرة، ٢٠٠٦. https://ar.qantara.de/content/hwr-m-slm-kylh-mkhtr-lwlm-mn-mnzwr-rby

٣٥ جريدتنا، ١٣ نيسان/ أبريل، ٢٠١٣، «الشعب السوري الثائر»، ص ١٠-١١.

٣٦ لسوء الحظ ، لم تعد النسخ الورقية والإلكترونية للصحيفة موجودة.

٣٧ كان «شباب الثورة السورية» منظمة يسارية واسعة نشطت بشكل كبير في الانتفاضة. للحصول على وصف تفصيلي عن «الشباب الثوري السوري»، انظر:
Yasmeen Mobayed, "The Antinomies of Kassioun: The History of a Communist Organization in Syria, 1999-2015," Rosa Luxemburg Stiftung (2022): 23.

٣٨ نصّار، عديد، ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٩، مجلة الحوار المتمّدن، «سلامة كيلة: المناضل والمُفكّر والإنسان»، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=625355.

٣٩ سلامة، كيلة، «حول تقسيم فلسطين والتبعيّة لموسكو»، ١٢ تموز/ يوليو ٢٠١٨، مركز الدراسات والبحوث العلمانيّة. https://www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?t=2&aid=605103.

٤٠ Salameh Kaileh, "*On the Role of the Syrian Left in the Syrian Revolution*", Rosa Luxemburg Stiftung, www.rosalux.de/fileadmin/rls_uploads/pdfs/sonst_publikationen/The_Left_and_the_Arab_Revolutions_english.pdf, 53-73.

٤١ Anderson, "On the Concatenation in the Arab World".

٤٢ كيلة، سلامة، نقد التجربة التنظيميّة الراهنة.

الطبقات الوسطى العالمية (٢/٢)
أحلام أفريقيا وحذر أميركا اللاتينية وكوابيس بلدان الشمال

غوران ثيربورن

أستاذ علم اجتماع سويدي، يدرّس في جامعة كمبردج، إنكلترا. له عدة مؤلفات عن البنية الطبقية للمجتمع ووظائف أجهزة الدولة والأيديولوجيا وبعد الماركسية. حائز على «جائزة لينين» للعام

ترجمة فيفيان عقيقي

آمال أفريقيّة

تبع «بنك التنمية الأفريقي» نظيرَه الآسيوي في عام ٢٠١١ بإصدار تقرير متفائل عن ديناميّات الطبقة الوسطى في أفريقيا، مشيرًا إلى أن «الطبقة الوسطى معروفة على نطاق واسع بأنها مستقبل أفريقيا». ونظرًا إلى ربطها بـ«الحوكمة والنمو الاقتصادي وتخفيض معدّلات الفقر»، يُفترض أن يستحوذ تعزيز تنميتها على أهمّية أساسية من صانعي السياسات[١]. عبر استخدام التعريف الذي يُحدِّد الطبقة الوسطى بمن يعيشون بدولارين إلى عشرة دولارات أميركية في اليوم، ادّعى التقرير أن نسبة الطبقة الوسطى الأفريقية (بما فيها شمال أفريقيا) زادت إلى ٣٤ في المئة من سكّان القارة في عام ٢٠١٠، بعد قبوعها على مستوى ٢٨ في المئة بين عامَي ١٩٨٠ و٢٠٠٠. إلى ذلك، يصل حجم الطبقة الوسطى في الهند أو الصين إلى ٣٢٧ مليون نسمة حاليًّا، (علمًا أن «بنك التنمية الآسيوي» يشير إلى بلوغ الطبقة الوسطى في الصين نحو ٨٤٥ مليونًا، أي أكثر من ٨٠ في المئة من مجمل سكّان أفريقيا في عام ٢٠١٠).

نمَت البرجوازية الأفريقية الجديدة، على حدّ تعبير مجلّة «إيكونوميست»، بنحو ١٢٢ مليون فردًا منذ عام ٢٠٠٠، من ضمنهم ٩٣ مليون شخص يعيشون على دولارين إلى أربعة دولارات في اليوم، وقد أطلق عليهم «بنك التنمية الأفريقي» مصطلح «الطبقة العائمة» المُعرّضة للانزلاق مرّة أخرى إلى براثن الفقر، ويضاف إليها ٢٣ مليون شخص آخرين يعيشون بأربعة إلى عشرة دولارات في اليوم وهم أعضاء «الطبقة الوسطى الدنيا». وأخيرًا، هناك «الشريحة العليا من الطبقة الوسطى» التي تعيش بنحو عشرة إلى عشرين دولارًا في اليوم، (تحتلّ الدرجة الأدنى وفق تعريف هومي خاراس للطبقة الوسطى العالمية) وقد انخفضت نسبتها من ١٥ إلى ١٣ في المئة من مجمل عدد السكّان بين عامي ١٩٨٠ و٢٠١٠.

كانت الدراسات الأخرى حول الطبقة الوسطى الأفريقية أكثر رصانة. يلاحظ هينينغ ميلبر، مُحرِّر إحدى أفضل هذه الدراسات، التأثير المُحيِّر للنهج الاستهلاكي الموضّح أعلاه على الدراسات الأفريقية، والذي أطلقته «حفنة من الاقتصاديين»، لكنّه يعترف في المقابل بالجاذبية الشعبية لهوية الطبقة الوسطى مستندًا إلى دراسة عن بلدة سويتو في جوهانسبرغ حيث اعتَبر ثلثا المستجيبين المقيمين أنفسهم من الطبقة المتوسطة، في حين أن ٧ في المئة فقط من سكّانها يعملون في وظائف الطبقة الوسطى، فيما ٢٥ في المئة منهم عمّالٌ بأجر، و٢٣ في المئة عاطلون من العمل، و٢١ في المئة عمّال مؤقّتون وموسميون، والباقي متقاعدون أو طلاب[٢]. بحلول عام ٢٠١٥، خَفَتَ الصخب المحيط بوجود بطبقة وسطى أفريقيّة جديدة. من لندن، ذكرت صحيفة «فاينانشال تايمز» أن الشركات الأجنبية تعمل على تقليص حجمها في القارة بسبب نقص المستهلكين من الطبقة الوسطى، فيما وصفت مجلّة «إيكونوميست» الطبقةَ الوسطى الأفريقية بأنها «قليلة العدد ومتفرّقة»، وقدّمت الوسيلتان تقديراتٍ مُنخفضة للغاية عن حجم هذه الشريحة السكّانية. ذكرت «فاينانشال تايمز» بالاستناد إلى مسح أجراه «بنك ستاندرد» أن عدد الطبقة الوسطى في ١١ بلدًا من الاقتصادات الكبرى في القارة يصل إلى ١٥ مليون شخص، فيما نقلت «إيكونوميست» عن مركز «بيو» أنها تشكّل ٦ في المئة فقط من السكّان[٣].

حذر أميركا اللاتينية

ازداد اهتمام أميركا اللاتينية بالطبقة الوسطى أيضاً في عام ٢٠١٠، لكنه اتخذ شكلًا مختلفًا تمامًا. غاب الضجيج وبرزت المنظورات الاقتصادية-الاجتماعية والسوسيولوجية بدلًا من التركيز على تصنيفات الاستهلاك اليومي الذي يتجاوز الدولارين للفرد الواحد. برز الجانب الأقل إثارة في نموّ الطبقة

الوسطى في نصف الكرة الأرضية، حيث سُجِّل ارتفاعٌ بنسبة ٣ في المئة فقط بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٥ وفقًا لرافاليون. منذ عام ٢٠١٠، ظهرت ثلاثة تقارير رئيسية؛ أولها «الطبقة الوسطى في أميركا اللاتينية» وهو تحليل اجتماعي يعتمد في مقاربته على الجمع بين الطبقة المهنية وتوزيع الدخل، نشرته «مفوضية الأمم المتحدة الاقتصادية لأميركا اللاتينية وجزر الكاريبي» (CEPAL) التي توازي «بنك التنمية الآسيوي» من حيث الأهمّية وتُعدُّ فاعلًا مهمًّا في المناقشات التحليلية والسياسات في المنطقة. في الوقت نفسه، صدر التقييم الاجتماعي والاقتصادي عن مركز التنمية التابع لمنظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية في تقريره السنوي حول التوقّعات الاقتصادية لأميركا اللاتينية ٢٠١١، وحمل عنوان «ما هو حجم الطبقة الوسطى في أميركا اللاتينية؟». بعد ثلاث سنوات، قدّم البنك الدولي مساهمة مهمّة بإصداره تقريرًا بعنوان «الحراك الاقتصادي وصعود الطبقة الوسطى في أميركا اللاتينية». استخدَمت هذه الاستجابات المؤسّسية تعريفات مختلفة للطبقة الوسطى ورسمت ثلاث صور مختلفة لأميركا اللاتينية.

انطلقت دراسة CEPAL من السؤال الآتي: «ما الذي نقصده عندما نتحدّث عن الطبقة الوسطى؟»، ورسمت خريطة التقسيم الطبقي الاجتماعي حيث يمكن تحديد «الشريحة المتوسطة» - وهو المُصطلح المُفضّل استخدامه «للطبقة الوسطى» - وفق المهنة (عمّال الياقات البيضاء أي الذين يقومون بعمل ذهني) والدخل (ما يوازي أربعة أضعاف خط الفقر الحضري). وفيما رصدت هذه الدراسة نموًّا كبيرًا في حجم هذه الشرائح الاجتماعية، والذي يعود بشكل رئيسي إلى نموّ الطبقة الوسطى الدنيا، فقد أكّدت استنتاجاتها عدمَ التجانس الاجتماعي والتنوّع بين البلدان وهو ما يبرز في خمس دراسات ختامية عن البلدان المتباينة[٤].

توجّهت مساهمة مركز التنمية التابع لـ«منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية» نحو السياسات وهدفت إلى تحديد شروط دعم الطبقة الوسطى. انطلق الافتراض التوجيهي لهذه الدراسة من أن امتلاك هذه الشرائح «وظائف مستقرّة ودخلًا متينًا»، سيوفر «أساسًا صلبًا للتقدّم الاقتصادي»، لكن إذا كان «دخلها ووظائفها غير مستقرّين»، عندئذ «قد تنحرف تفضيلاتها السياسية نحو منصّات شعبوية لن تفضي بالضرورة إلى إدارة اقتصادية جيّدة»[٥]. عُرِّفت هذه «القطاعات الوسطى» من خلال وسطيتها: أي الأُسر التي يتراوح دخلها بين ٥٠ و١٥٠ في المئة من متوسّط الدخل، وهو توسّع بلا مبرر للمعدّل الأكثر شيوعًا وهو ٧٥-١٢٥ في المئة الذي اقترحه الخبير الاقتصادي المرموق ليستر ثورو. كان التأثير تضخّميًّا، فقد ضمّت «القطاعات الوسطى» في تقرير «منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية» عدداً أكبر من العمّال «غير النظاميين» الذين لا يملكون عقودَ عمل بالمقارنة مع الموظّفين النظاميين[٦]. كذلك قدّم التقرير مقارنة مع الاتجاهات في إيطاليا وأميركا اللاتينية. ففي حين ضمّت «القطاعات الوسطى» أكثر من ٦٠ في المئة من سكّان إيطاليا، فقد شكّلت نحو ٥٠ في المئة في أوروغواي والمكسيك، و٤٥ في المئة في تشيلي والبرازيل، و٤٠ في المئة في الأرجنتين، ونحو الثلث في كولومبيا وبوليفيا. وفيما يتعلّق بآفاق السياسة، ينتهي تقرير «منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية» بملاحظة متفائلة، إنّما حذرة، بشأن القطاعات الوسطى وإمكانيّة حدوث تغيّرات إيجابية في توزيع الدخل والحماية الاجتماعية وخلق فرص العمل.

إلى ذلك، عُدَّ تقرير البنك الدولي عن أميركا اللاتينية بمثابة تحقيق مُفصّل في موضوعين رئيسيين؛ حراك الدخل والحجم المُتزايد للطبقة الوسطى. انطلق بإثارة زوبعة في فنجان مُصنّفًا القارة «كمنطقة دخل متوسّط في طريقها لأن تصبح منطقة للطبقة الوسطى». لكن سرعان ما خمدت هذه التوقّعات الطموحة بالإشارة إلى أنّ المنطقة لم تصبح بعد «مجتمعًا للطبقة الوسطى يكسب فيه معظمُ الناس دخلًا مرتفعاً كافيًا لتعزيز الاستهلاك والعيش والتصرّف مثل مواطني الطبقة الوسطى». في الواقع، «لا تزال إمكانية الوقوع في براثن الفقر مصدر قلق خطير بالنسبة لغالبية السكّان، وستستمرّ السياسات الاجتماعية في لعب دور مهمّ في المستقبل المنظور». مع ذلك، يتوقّع البنك الدولي مستقبلًا عظيمًا للطبقة الوسطى في أميركا اللاتينية، إذ ستنمو من ٣٠ في المئة من سكّان القارة إلى ٤٠ في المئة بحلول عام ٢٠٣٠[٧].

بالاستناد إلى «مقاربة الهشاشة» التي اقتُرِحت في تقريرين سابقين صادرين عن البنك الدولي[٨]، أطلق التقرير تعريفًا آخر لـ«الطبقة الوسطى» يعتمد على الأمن الاقتصادي مُتجاهلًا مرّة أخرى الدلالات التاريخية للمصطلح. على هذا الأساس، تضمّ الطبقة الوسطى الأشخاص الذين تقلّ احتمالية وقوعهم في براثن الفقر في غضون خمس سنوات عن ١٠ في المئة من السكان، وهو ما يُترجم في بعض بلدان أميركا اللاتينية بمعدّل ١٠ دولارات يومياً لكلّ فرد في الأسرة الواحدة، وهو ليس الحال في بلدان أخرى. استقرّ المؤلفون بشكل عملي على ١٠ دولارات في اليوم كحدّ أدنى، وأضافوا حدًّا أعلى بقيمة ٥٠ دولارًا في اليوم من دون تقديم أي مبرّر منطقي. وبناءً عليه، أعلنوا أن الطبقة الوسطى في أميركا اللاتينية تضاعفت بين عامي ١٩٩٢ و٢٠٠٩، وارتفعت نسبتها من ١٥٫٥ في المئة من مجمل السكّان إلى نحو ٣٠ في المئة[٩].



في الخلاصة، كانت الطبقة الوسطى الآسيوية الأكثر تحليقًا بين أحلام الطبقة الوسطى في الجنوب العالمي، وهي المتمركزة في الصين والهند، على الرغم من أن الدراسة شملت كل «آسيا النامية» باستثناء المناطق الغربية التي شهدت حروبًا. في مخيّلة القرن الحادي والعشرين، يركب الجنوب العالمي موجة صعود الطبقة الوسطى التي تُعتبر أهمّ تغيير اجتماعي في هذا العصر. إلّا أن حلم الطبقة الوسطى ارتبط في حدوده القصوى بتحوّل مركز الثقل في الاقتصاد العالمي من أميركا الشمالية وأوروبا إلى آسيا. وعلى الرغم من عدم الاتفاق على شكل هذه الفئة ومضمونها ووتيرة نموها، إلّا أن هناك إجماعًا واسعًا بأنها تعني امتلاك هؤلاء الأفراد المزيد من المال الذي يسمح لهم بمزيد من الاستهلاك. يبدو المستقبل أكثر تواضعًا إذا نُظِر إليه من أبيدجان أو سانتياغو حيث يقع مقرّا «بنك التنمية الأفريقي» وCEPAL. لقد اتصل حلم الطبقة الوسطى في كثير من الأحيان بحقائق البنية الاجتماعية في كلّ من أفريقيا وأميركا اللاتينية. مع ذلك، لا يزال الحلم الجنوبي قائمًا، إذ تشير أحدث توقّعات هومي خاراس إلى أنه بحلول عام ٢٠٣٠ ستهيمن «الطبقة الوسطى» وستشكّل ٦٣ في المئة من سكّان العالم[١٠].

لا يزال الحلم الجنوبي قائمًا، إذ تشير أحدث توقّعات هومي خاراس إلى أنه بحلول عام ٢٠٣٠ ستهيمن «الطبقة الوسطى» وستشكّل ٦٣ في المئة من سكّان العالم

الكوابيس الشمالية

فيما وُصِفت الطبقات الوسطى بالصعود والتوسع والتفجّر في الجنوب، تبيّن أنها تتقلّص في الشمال. لاحظ الباحثان الرائدان في مجال عدم المساواة أنتوني أتكينسون وأندريا براندوليني تقلّص حجم الطبقة الوسطى منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي وصولًا إلى منتصف العقد الأول من الألفية الثالثة. تُبيّن دراسة أجريت على خمسة عشر بلدًا من دول منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية، خسارة شريحة الـ٦٠ في المئة المتوسّطة حصصًا من دخلها لصالح شريحة الخُمس الأغنى في جميع البلدان باستثناء الدنمارك، وتقلّص الطبقة الوسطى فعليًّا في عشرة بلدان أخرى[١١]. في عام ٢٠١١، تساءل فرانسيس فوكوياما: «ماذا لو أدّى المزيد من التطوّر التكنولوجي والعولمة إلى تقويض الطبقة الوسطى، وجَعَلَ الوصول إلى المكانة الاجتماعية للطبقة الوسطى مستحيلًا بالنسبة لغالبية المواطنين في المجتمعات المتقدّمة؟ وفي الواقع، هناك إشارات جمّة إلى بدء هذه المرحلة من التطوّر بالفعل». ثمّ أثار فوكوياما مخاوف أكبر ترتبط بمدى قدرة «الديموقراطية الليبرالية على النجاة من انهيار الطبقة الوسطى»[١٢].

ارتابت «منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية» من زيادة انعدام المساواة في البلدان الغنيّة منذ إصدارها تقريرًا بعنوان «نموّ غير متكافئ؟» في عام ٢٠٠٨، لكن استغرق الأمر أكثر من عقد قبل أن تركّز على الصعوبات التي تواجهها الطبقة الوسطى. ففي عام ٢٠١٨، قدّمت لمحة عامّة عن وجهات نظر الطبقة الوسطى القاتمة حول الحراك الاجتماعي والموقع الاجتماعي والاقتصادي مقارنةً بآراء آبائهم وآفاقهم المستقبلية[١٣]، وتبع ذلك إصدارُ دراسة موسّعة في عام ٢٠١٩ بعنوان «تحت الضغط: الطبقة الوسطى المأزومة» - ومن دون إضافة علامة استفهام حتّى - وقد استخدمت نطاق ٧٥-٢٠٠ في المئة من متوسّط الدخل المتاح كتعريف للطبقة الوسطى، بحيث تبيّن على أثرها تقلّص حصّة الطبقة الوسطى من مجمل عدد السكّان في بلدان منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية، أي العالم الغني - من ٦٤ إلى ٦١ في المئة بالمتوسّط بين منتصف ثمانينيات القرن الماضي ومنتصف العقد الثاني من الألفية الثالثة. بالتوازي، اتسعت الفجوة التي تفصل الطبقة الوسطى عن الأغنياء، وزاد دخل أغنى ١٠ في المئة من السكّان بأكثر من ثلث زيادة دخل الطبقة الوسطى. بالإضافة إلى ذلك، انخفضت حصّة دخل الطبقة الوسطى بنحو ٥ نقاط مئوية وبأكثر من حصّتها من مجمل السكّان. تمثّلت النتيجة بارتفاع الديون، وبات ٢٠ في المئة من أسر الطبقة المتوسطة ينفق أكثر ممّا يكسب. تُعدُّ السويد الأبرز من حيث الضغط على الطبقة الوسطى، فقد انخفضت حصّتها من مجمل السكّان بنحو ٧ نقاط مئوية، وحصّتها من الدخل بنحو ١١ نقطة، في حين سجّلت الولايات المتحدة انخفاضًا بنحو ٤ و٩ نقاط على التوالي، فيما بقيت حصّة الطبقة الوسطى البريطانية من مجمل السكّان مستقرّة وخسرت ٥ نقاط من حصّتها من الدخل[١٤].

يُعدُّ التطوّر الإيجابي الوحيد المُسجّل في بلدان الشمال هو زيادة نسبة انضمام الأفراد ما فوق سنّ الخامسة والستين من العمر إلى صفوف الطبقة متوسّطة الدخل، باستثناء الولايات المتحدة. بالنسبة لباقي السكّان، يرسم تقرير «تحت الضغط» صورة قاتمة ويخلص إلى أن «العديد من أسر الطبقة الوسطى تعتبر أن نظامنا الاجتماعي والاقتصادي غير عادل»، لأنهم لم يستفيدوا منه مثل فئات الدخل المرتفع. فضلًا عن أن «أسلوب حياة الطبقة الوسطى أصبح مكلفًا بشكل متزايد،

لا سيّما نفقات السكن والتعليم الجيّد والرعاية الصحّية». إلى ذلك، تُعدُّ آفاق سوق العمل غير مؤكّدة بالنسبة إلى كثيرين في الطبقة الوسطى: فواحد من كلّ ستة عمّال متوسّطي الدخل يشغل وظيفة «مُهدّدة بالاستبدال بالمَكننة». لا يبشّر تقرير «تحت الضغط» بانتهاء العالم، ولا هو مروّع، على عكس تيّار «الرثاء الوطني» الذي سنلقي نظرة عليه أدناه، بل يعلّق بإيجاز على أنّ «حلم الطبقة الوسطى بالنسبة للكثيرين لم يعد سوى مجرّد حلم»[١٥]. فما الخطأ الذي حدث؟

التطوّر الإيجابي الوحيد في بلدان الشمال هو زيادة نسبة انضمام الأفراد ما فوق سنّ الخامسة والستين إلى الطبقة المتوسّطة، باستثناء الولايات المتحدة

بدأ تراجع الطبقة الوسطى في بلدان الشمال ابتداءً من الولايات المتحدة في أواخر سبعينيات القرن الماضي. وظهر هذه التطوّر للعموم من خلال عمل عدد قليل من المراقبين المتمرّسين في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، على الرغم من أن النتائج التي توصّلوا إليها رفضها قادةُ الرأي السائدون في حينها. في عام ١٩٨٦، نشرت الخبيرة الاقتصادية في الاحتياطي الفيدرالي، كاثرين برادبيري، ورقة بحثية بعنوان «الطبقة الوسطى المتقلّصة»، بيّنت انخفاضًا بنحو ٥ نقاط مئوية في نسبة الأسر التي يتراوح دخلها السنوي بين ٢٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ دولار أميركي بين عامي ١٩٧٣ و١٩٨٤، علمًا أن الحراك الاجتماعي العكسي تسبّب بأربع نقاط منها[١٦]. إلى ذلك، وضع بينيت هاريسون وباري بلوستون في كتابهما الرائع «المنعطف العظيم» هذا الهبوط في سياق التطوّرات التاريخية داخل الرأسمالية الأميركية، أي انخفاض الأرباح بسبب المنافسة الأجنبية التي أدّت إلى تراجع التصنيع، وإعادة هيكلة الشركات وتمويلها، وتفريغ سوق العمل في الولايات المتّحدة واستقطابه. وتساءل المؤلفان: «هل تنذر هذه العوامل بنهاية الطبقة الوسطى في أميركا؟». كان ذلك في فترات سبقت الأوضاع الكارثية الشبيهة بنهاية العالم، فأجابا عندها بالنفي قائلَين: «الطبقة الوسطى في أميركا مرنة. يكافح العمّال للحفاظ على أجورهم ضدّ قوة التراجع عن التصنيع»[١٧].

استخدم فريق عملٍ في البيت الأبيض، شكّلته إدارة باراك أوباما لدراسة المشكلة، لغةً لطيفةً وحذرة، وعرّف «الطبقة الوسطى» مع التركيز الأيديولوجي على «التطلّعات» لتملّك منزل وتعليم الأطفال في الجامعات والحصول على ضمان صحّي ومعاش تقاعدي وإجازات عائلية. وبيّنت النتيجة الرئيسية أنه مع ارتفاع تكلفة الرعاية الصحّية والتعليم الجامعي والإسكان بوتيرة أسرع من الدخل، أصبح «الوصول إلى المكانة الاجتماعية للطبقة الوسطى أكثر صعوبة» بالنسبة للعديد من الأميركيين. وبعد سنوات، أصبحت هذه النغمة أكثر كارثية[١٨]. ففي عام ٢٠١٧، حشد الخبير الاقتصادي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بيتر تيمن الأدلة الكافية لإظهار أن الطبقة الوسطى الأميركية – التي تُعرَّف على أنها تضمّ الذين يتقاضون بين ٦٧ و٢٠٠ في المئة من متوسّط الدخل في الولايات المتحدة – آخذةً في التلاشي؛ إذ انخفضت حصّتها من الدخل من ٦٣ إلى ٤٣ في المئة بين عامي ١٩٧٠ و٢٠١٤. تركت هذه الفجوة الوسطى الاقتصاد الأميركي في ازدواجية، بالمعنى الذي قصده آرثر لويس في تحليله لرأسمالية العالم الثالث، أي بوجود قطاع مالي وإلكتروني يضمّ نحو ٢٠ في المئة من السكّان ويتحكّم بقواعد الاقتصاد، في حين يؤوي قطاع الأجور المنخفضة الـ٨٠ في المئة المتبقية من السكان[١٩].

اكتُشِفت الآثار المترتّبة عن التحوّل الجديد للرأسمالية بالنسبة للطبقات الوسطى الأوروبية في وقت متأخّر نسبيًّا[٢٠]. لم تطارِد كوابيس الطبقة الوسطى الكتّاب الأوروبيين قبل العقد الماضي، فهي لم تظهر إلّا بعد الانهيار المالي عام ٢٠٠٨. في المملكة المتحدة، فُجِع مدير مركز تفكير راديكالي بتقريرٍ عنوانه: «إفلاس: من قتل الطبقات الوسطى؟» يتحدّث عن «إفقار» هذه الطبقات و«تآكلها»، ويحذّر من أن «الدمار الذي لحق بالطبقات العاملة أصبح الآن في انتظار الطبقة الوسطى»، وتساءل عما إذا كان هذا الواقع سيثبت صوابية أفكار ماركس أخيرًا. وأكثر من ذلك، ربّما تبلغ الرأسمالية ذروتها بتحويلها الطبقات الوسطى إلى بروليتاريا. في ألمانيا، أعلن الصحافي دانيال غوفار عن «نهاية الطبقة الوسطى» – التي تعرَّف هناك بالّذين يتقاضون بين ٧٠ و١٥٠ في المئة من متوسّط الدخل – إذ انخفضت من ٤٨ إلى ٤١ في المئة من مجمل عدد السكّان بين عامي ١٩٩١ و٢٠١٥، ومن المتوقّع أن تتأثّر أكثر بنتيجة تهديد الرقمنة الذي يلوح بالأفق على التوظيف. في فرنسا، أعلن عالم الجغرافيا الاجتماعية كريستوف غيلوي عن «نهاية الطبقة الوسطى الغربية»، التي يعتبرها بالأساس مفهومًا «ثقافيًّا»، ويقاس اختفاؤها «بفقدان المكانة الاجتماعية» التي تجسّد نمط الحياة الأوروبي أو الأميركي؛ وقد جرى تخفيض تصنيف «الفئات الشعبية التي تضمّ العاملين والموظّفين» من «فئة المرغوبين إلى فئة المنبوذين»[٢١].



الطبقات الوسطى تحت المجهر

صادفنا في هذا الاستعراض الموجز للأدبيات تعريفات مُحيّرة لما يُسمّى «الطبقة الوسطى»، إذ يبدو واضحًا أنه ليس بالتعريف السهل بحسب فيريرا وزملائه في البنك الدولي في دراستهم عن أميركا اللاتينية[٢٢]. ومع أنّ التعريفات من هذا النوع ليست صحيحة أو خاطئة، إلّا أنها قد تكون منيرة أو مشوّشة بحسب استخدامها التاريخي أو الاستنسابي، وقد تحمل معاني منحازة عند استخدامها باللغة المحكية. بعبارة أخرى، تحتاج المفاهيم الكامنة وراء هذه الأحلام والكوابيس إلى وضعها تحت المجهر.

يستند عالم أحلام الطبقة الوسطى في الجنوب العالمي إلى علاقة تفاضلية بين الطبقة الوسطى والفقر حيث يكون صعود الأولى الوجهَ الآخر لانخفاض الثاني، والعكس صحيح. لكن كما ذكرنا سابقًا، هذه هي النظرة الحرفية للمصرفيين ولمستشاري الشركات – أمثال غولدمان ساكس وماكينزي وبنوك تنمية الشركات والبنك الدولي – الذين يؤطّرون العالم بطريقة غريبة، وقد يتوسّعون في بعض الأحيان، لكنهم لا يرون سوى عوالم التجارة والاستهلاك، ويغيب عن نظرهم المنتجون والطبقة العاملة والعلاقات الاجتماعية.

يتضمّن تعريف القطاعات الوسطى في الجنوب الباعةَ المتجوّلين والمياومين والعمّال من دون عقود عمل أو حقوق ويعيشون بنحو ٢ إلى ٤ دولارات يوميًّا

في منظور المصرفيين، يُعرَّف كلّ من «الطبقة الوسطى» و«الفقر» بالمال حصرًا، بحيث يتحوّل العلائقي والنسبي إلى مطلق وينقلب رأسًا على عقب. يُعدّ مفهوم الطبقة الوسطى مفهومًا نسبيًّا من حيث الجوهر وهو يدلّ على شريحة تقع بين شريحتين على الأقل، فيما يعني الفقر امتلاك موارد أقل مقارنةً مع آخرين، وهذا ما تبيّنه حقيقة اختلاف خطوط الفقر بين الدول الغنية والفقيرة. وبهذا المعنى، الفقر نسبيّ أيضًا. يحمل هذا الخطاب دوافع سياسية واقتصادية لتفريغ هذه المصطلحات من معناها السوسيولوجي بتضخيم واحدهما وتقليص الآخر. إلّا أنّ استخدام المفاهيم الرائجة مثل «الطبقة الوسطى» مع تعريفاتٍ تقنية متخصّصة قد يكون مضلّلًا، ما يجعل التعامل مع هذا المفهوم، ذي النشأة التاريخية والصبغة السياسية، بهذه الطريقة أمرًا أرعن أو مخادعًا. يتضمّن التعريف الشائع «للطبقة الوسطى» في الجنوب العالمي – أو «القطاعات الوسطى» لنكون أكثر حذرًا في التسمية – الباعة المتجوّلين والمياومين والعمّال الذين لا يملكون عقود عمل أو حقوقًا ويعيشون بنحو ٢ إلى ٤ دولارات يوميًّا. في دول أميركا اللاتينية المندرجة في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، يعمل ٦٠ في المئة من «القطاعات الوسطى» في الاقتصاد غير الرسمي[٢٣]. من الواضح أنّ تمييز العمّال في فلك الطبقة الوسطى في عالم الأحلام الجنوبي يتطلّب قدرة عقلية استثنائية.

سأل أجيت بانيرجي وإيستر دوفالو في دراستهما عام ٢٠٠٨: «ما هي الطبقة الوسطى قياسًا إلى الطبقات الوسطى العالمية؟» وبعد البحث عن الأسر التي ينفق أفرادها ٢ إلى ١٠ دولارات يوميًّا، والاعتماد على أبحاث مستفيضة عن العالم الثالث، وجدا أنّه على الرغم من وجود العديد من روّاد الأعمال في الطبقة الوسطى، إلا أنّ معظمهم ليسوا مرشّحين لأن يكونوا رأسماليين. صحيح أنهم يديرون شركات وأعمالًا، لكنّ معظمهم لا يزال فقيرًا. فما أهمية ذلك؟ يقودنا هذا الواقع إلى فكرة «الوظيفة الجيّدة»، التي لطالما عارضها الاقتصاديون. ويخلص بانيرجي ودوفالو إلى أنّ «ما من شيء أدلّ على الطبقة الوسطى أكثر من امتلاك وظيفة مجزية»[٢٤].

يشير منطق عالم الأحلام الجنوبي إلى أنّ توسّع «الطبقات الوسطى» يعني الاقتراب من نهاية الفقر، على غرار ما يُزعم حصولُه في مناطق عدة في الشمال. ينفي البنك الدولي وجود الفقر في أوروبا – والذي يقاس عبر العيش بأقل من ٣٫٢ دولارات في اليوم – إذ تبلغ نسبة الفقر في كلّ من فرنسا وألمانيا وبريطانيا صفرًا في المئة، في حين لا تتجاوز ١ في المئة في السويد. في المقابل، عند النظر إلى مؤشّرات أوسع، يرى اقتصاديو يوروستات أنّ ٢٢ في المئة من سكّان الاتحاد الأوروبي «مهدّدون بالفقر والتهميش الاجتماعي»[٢٥]. فالفقر مفهوم اجتماعي، لا هو بيولوجي ولا هو مبلغ من المال تحت خطّ معيّن يعيش عليه المرء، إنه علائقي في جوهره ويشير إلى الموارد المتاحة، بمعزل عن تعريفه بطريقة «مطلقة»، أي بناءً على مستوى نقدي محدّد، أو بطريقة «نسبية»، أي تحت نسبة معيّنة من السكان.

في حال بدا صعود الطبقة الوسطى في الجنوب أقل تفاؤلًا، فإنّ نهايتها المرعبة في الشمال تبدو أقل فجائعيّة. انخفضت الطبقات الوسطى في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية – والتي تُعرّف بمَن يتراوح دخله بين ٧٥ و٢٠٠ في المئة من متوسط الدخل – منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي من ٦٤ إلى ٦١ في المئة من السكّان، في حين انخفضت حصتها من الدخل القومي بنحو ٥ في المئة. كانت السويد والولايات المتحدة مركز ذلك الانحدار، حيث انخفضت حصة الطبقة الوسطى من الدخل فيهما بنحو ١١ و٩ في المئة على التوالي، مع ذلك لم تشهد السويد



متسوّقون في تكساس، يوم «الجمعة السوداء»، ١١/٢٧/٢٠٠٩.



بعد الخطاب عن «كابوس الطبقة الوسطى». في المقابل، ازدادت الطبقة الوسطى (قليلًا) خلال الفترة نفسها في فرنسا وأيرلندا والدنمارك[٣٦]. في الواقع، يواجه الشباب والمراهقون في الشمال عوائق أمام متابعة التعليم العالي والعثور على سكن بسبب ارتفاع الرسوم الجامعية وتسليع السكن. لكنّ أدبيات الطبقة الوسطى تعجز عن رؤية ما تنتجه الرأسمالية ما بعد الصناعية من لا مساواة منهجية، وما خطابها إلّا كابوسًا لطبقةٍ تحاول عزل نفسها عن هذه الديناميات. لكن إلى أيّ الجهات سوف تميل هذه الديناميات؟

تَلاقي الطرق إلى اللامساواة

إذ أعدنا صياغة عبارة أوسكار وايلد عن إنكلترا وأميركا يمكننا القول إن هناك طبقة مشتركة تقسم عالم الشمال عن عالم الجنوب.

تشير الدلائل إلى أنّ هذه «الطبقات الوسطى» تتلاقى على الطريق السريع للّامساواة الرأسمالية في القرن الحادي والعشرين. الطبقات الجنوبية قادمة من الفقر، والطبقات الشمالية من الراحة النسبية، لكن يبدو أنّ كلتيهما ستتلاقيان، وستكافحان وتواصلان السعي- وقد تخلّت عنهما برجوازية تزداد ثراءً- وتقيمان علاقات غير مستقرة مع الطبقات الشعبية من العمّال والفئات المتقلقلة والعاطلين من العمل. وعلى الرغم من أنّ هذه الطبقات منقسمة على الصعيد الوطني، إلا أنّها تعيش في مناخ القلق نفسه (وتواجه الأخطار المنتشرة نفسها). تبرز بعض الاتجاهات بوضوح وإنْ اقتصر بحثنا على الحصة من الدخل.

على الرغم من أنّ دراسة رافاليون الصادرة عن البنك الدولي اعتمدت خطّ الفقر الأميركي حدًّا أعلى للطبقة الوسطى في الجنوب، إلا أنّ المسار الحالي للفقر في الولايات المتحدة وآفاقه الاجتماعية يُنبئان بشيءٍ ما عن مستقبل الطبقات الوسطى «الصاعدة» في الجنوب. إن الفئة الأفقر في الولايات المتحدة، التي تشكّل ٢٠ في المئة من الشعب الأميركي، تعادل «الطبقات الوسطى» في الجنوب[٣٧]. وكما يبيّن الجدول (١)، فإنّ هؤلاء كانوا منذ عام ١٩٨٠ في حالة تراجع حادّ. وما يسمّيه فريق طوما بيكتي في «المختبر العالمي لدعم المساواة»، «الـ٤٠ في المئة الوسطى»- وهي المراتب الوسطى والعليا من الطبقة الوسطى الأميركية- قد خسرت بعضًا من دخلها لصالح الأثرياء أو بالمعنى الأدق لصالح البرجوازية. في الواقع، تُعدّ التغيرات الأميركية متطرّفة لكنها ليست فريدة. بين عامي ١٩٨٥ و٢٠١٧، خسرت شريحة «الـ٤٠ في المئة الوسطى» في بريطانيا أربع نقاط مئوية من حصتها في الدخل في حين ازدادت حصة شريحة الـ١٠ في المئة الأعلى بنحو ٥ نقاط. وفي ألمانيا، استولت شريحة الـ١٠ في المئة الأعلى على ٨ نقاط مئوية إضافية من الدخل القومي، في حين خسرت شريحة الـ٤٠ في المئة الوسطى نقطة واحدة. وفي فرنسا، خسرت هذه الشريحة نقطتين، واكتسبت شريحة الـ١٠ في المئة الأعلى ٣ نقاط[٣٨].

جدول(١)- نمو الدخل في الولايات المتحدة بين ١٩٨٠ و٢١٠٤ (٪)

نسبة البالغين من السكان	٤١
الـ٢٠٪ الأدنى	٤
الـ٣٠٪ التالية	٢٦
الـ٥٠٪ الأدنى	٢١
الـ٤٠٪ الوسطى	٤٩
الـ١٠٪ الأعلى	١١٣
الـ١٪ الأعلى	١٩٤

المصدر: الأرقام محسوبة بعد حسم الضريبة والتحويلات. دراسة فاكوندو ألفاريدو وآخرين، تقرير اللامساواة العالمية لعام ٢٠١٨ (المختبر العالمي للّامساواة: ٢٠١٧)، الجدول (٢-٤-٢).

إذًا، تشير التجربة الشمالية إلى أنّ المرحلة التالية للفقر هي زيادة اللامساواة التي تمثّل للطرف الخاسر نوعًا آخرَ من الفقر- أي الإحساس بعدم امتلاك سوى موارد شحيحة لعيش الحياة بأقلّ الإمكانات- وهو ما تعترف به ضمنًا السلطات الحاكمة في الشمال. فهل ينتظر الطبقات الوسطى في الجنوب مصيرٌ مماثل؟ الجدير ذكره أنّ عالم الشمال شهد فترة «نموّ شامل» (أي نموّ مع تقلّص في اللامساواة) منذ منتصف أربعينيات القرن الماضي وحتى ثمانينياته خلال الفترة الذهبية للحركة العمّالية. وفي حين يتعمّد حالمو الطبقات الوسطى في الجنوب محو ذكرى ذاك الزمن، يبقى السؤال الواجب طرحه: هل هناك مساواة تلوح في أفق الجنوب؟ تتطلّب الإجابة المعمّقة عن هذا السؤال ورقةً بحثيةً أخرى، لكنّ الاتجاهات التوزيعية الراهنة في الصين والهند، والمبيّنة في الجدول (٢)، تشير إلى تلاقٍ متزامن على طريق اللامساواة المتزايدة. بعبارة أخرى، يبدو أنّ أحلام الأمس في الجنوب قد تتحوّل إلى كوابيس شبيهة بكوابيس الشمال.

في الصين والهند، مَعاقل «الطبقة الوسطى الصاعدة»، تتراجع شريحة الـ٤٠ في المئة الوسطى: ويقلّ معدل نموّ دخل شريحة الـ٥٠ في المئة الأدنى من السكّان عن نصف المعدّل القومي العام. وفي الهند، كان معدل نموّ شريحة الـ٤٠ في المئة الوسطى مساويًا لنصف المتوسّط القومي، بحيث باتت الهند النيوليبرالية بمثابة الولايات المتحدة للجنوب الدولي، حيث تسجّل منحًى تاريخيًا من اللامساواة، فيما تعود حصة شريحة الـ١ في المئة الأعلى من الدخل إلى مستواها أيام الاستعمار في الثلاثينيات[٢٩]. ثم إنّ استبعاد شريحة الـ٥٠ في المئة الأدنى في الولايات المتحدة من تقاسم مكاسب النمو الاقتصادي على مدار الثلاثين عامًا الماضية، يشير إلى أمر مهمّ عن الديموقراطية الرأسمالية.

جدول(٢)- نموّ الدخل قبل حسم الضريبة كنسبة من النمو القومي ١٩٨٠-٢٠١٥ (٪)

	الصين	الهند	الولايات المتحدة	فرنسا
الـ٥٠٪ الأدنى	٤٧	٤٨	٢	٧١
الـ٤٠٪ الوسطى	٩٣	٥٠	٦٩	٩١
الـ١٠٪ الأعلى	١٦٣	٢١١	١٩٨	١٣٤
الـ١٪ الأعلى	٢٣٣	٤٠١	٣٣٤	٢٥١

المصدر: حسابات ألفريدو وآخرين، تقرير اللامساواة العالمية لعام ٢٠١٨، الجدول (٢-٩-١).

يوضح الجدول (٣) المستقبل المحتمل للطبقات الوسطى في الجنوب في ظلّ النظام العالمي القائم[٣٠]. لا بدّ من مراعاة أنّ الأرقام الخاصة بدول الشمال تعكس الدخل المُتاح بعد حسم الضرائب والتحويلات: بعبارة أخرى، تتضمّن هذه الأرقام الآثار المتبقية لفترة المساواة بين ١٩٤٥ و١٩٨٠، التي لم يشهدها الجنوب يومًا، ولن يشهدها في ظل هذه الظروف.

التطورات في الصين والهند بالغة الأهمّية، لكن لا يمكن الافتراض بأنها تنسحب على الجنوب بكامله. لا تزال البيانات التجريبية لدول كبيرة عدة في آسيا وأفريقيا ناقصة، لكن الأرقام المتاحة تشي بالتنوّع إلى حدّ ما. في البرازيل، زاد دخل النصف الأدنى من السكّان، في ظل حكومة حزب الشغيلة، بوتيرة أسرع من الدخل القومي، لكن شريحة الـ١٠ في المئة الأعلى استحوذت على ٥٨ في المئة من مجمل نموّ الدخل فيما حصلت شريحة الـ٥٠ في المئة الأدنى على ١٦ في المئة فقط منه[٣١]. وفي جنوب أفريقيا، استفحلت اللامساواة بعد زوال نظام الفصل العنصري، بحيث خسر النصفُ الأدنى والطبقةُ الوسطى العليا (أي الـ٥٠ في المئة إلى الـ٩٠ في المئة من السكان) نحو ١٠ نقاط مئوية من حصتيهما في الدخل القومي لصالح شريحة الـ١٠ في المئة الأعلى. وكذلك في نيجيريا، تكبّدت شريحة الـ٩٠ في المئة الأدنى خسارة كبيرة لصالح الـ١٠ في المئة الأغنى. في المقابل، شهدت تركيا وتايلاند وماليزيا بعض المساواة الاقتصادية. أمّا توزّع الدخل في مصر فلم يشهد سوى تغيّرات طفيفة خلال العقود الثلاثة الماضية مع تركّز متزايد في دخل الشريحة العليا بحسب قاعدة بيانات «مختبر اللامساواة العالمية»[٣٢].



جدول(٣)- الطبقة العليا في الشمال: معدّلات دخل شريحة الـ١٪ الأعلى إلى المتوسطة

ألمانيا (بعد الضريبة)	١٩٩٠	٧,٢	٢٠١٦	١١,٥
السويد (الدخل المتاح)	١٩٩١	٣,٥	٢٠١٦	١٠,٧
بريطانيا (صافي دخل الأسرة)	١٩٨٠	٣,٣	٢٠١٨	٩,٩
الولايات المتحدة الأميركية (الدخل بعد الضريبة)	١٩٨٠	١١,٢	٢٠١٤	٢٥,٨

تمثّل فرنسا حالة استثنائية، فقد انخفضت نسبتها من ١٠,٥٪ إلى ٩,٦٪ بين ١٩٩٠ و٢٠١٤.

المصدر: إحصاءات السويد، ومعهد الدراسات المالية (لندن)، وقاعدة بيانات اللامساواة العالمية.

الأهم في ما يتعلّق بالاتجاهات المستقبلية أنّه لا وجود لأي دليل على توجّه مساواتي مستدام في الجنوب. وهو ما ظهر في أميركا اللاتينية خلال العقد الأول من هذا القرن، ومن ثم كُبِح بالسياسات اليمينية بداية، ولاحقًا نتيجة تفشّي وباء كوفيد-١٩ في المكسيك[٣٣]. وفي حين تنتظر الأرجنتين وتشيلي جولات جديدة من المعارك بين المساواة والامتيازات، يبقى تزايد اللامساواة النتيجة الأكثر ترجيحًا في الوقت الحالي.

التــــــــــطورات في الصين والهند بالغة الأهمّيــــــــــة، لكن لا يــــــــمكن الافتراض بأنها تنسحب على الجنوب بكاملـــــــه

آفاق سياسية

الذين يأمَلون أنّ صعود الطبقات الوسطى سيأتي بمجتمع خيّر- انطلاقًا ممّا تسمّيه «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية»، «عدم تسامحها مع الفساد وثقتها في الآخرين»- يجب أن يضعوا في حسبانهم أنصار رئيس وزراء الهند نارنيدرا مودي من الشباب الطامح الذين وصفتهم سنيغدة بونام في كتابها «الحالمون»: وهم الطامحون من أبناء الطبقة الوسطى ممن يديرون عمليات نصب معقّدة عبر الإنترنت ومراكز الاتصال المجتمعي انطلاقًا من البلدات الهندية الصغيرة، أو ينشرون الروابط الملغومة أو يبيعون شهادات مزيّفة ووظائف مزيّفة أو يبتزّون المال من العجائز الأميركيين عبر تهديدهم بإفشاء مداخيلهم إلى «دائرة الإيرادات الداخلية»[٣٤].

يجب بالأحرى قراءة خطابات الطبقة الوسطى بطريقة تشخيصية بوصفها تعبيرًا عن سيرورات تطوّر أوسع. في الشمال، تتمثّل النقطة الرئيسة في أنّ أدبيات الطبقة الوسطى السائدة هي أدبيات نقدية في الأساس، مع أنها تنتقد التزايد الجاري في معدلات اللامساواة بطريقة مواربة. إنها سردية طبقةٍ مهمَلة هجرها نموذج قيادة اقتصادية وأسلوب حياة كانا في السابق محطّ إعجاب، وليست سردية طبقةٍ وسطى تُهدّدها النقابات العمّالية من أسفل أو مساعدات حكومية إلى الفقراء. بعبارة أخرى، إننا بصدد خطاب تقدّمي على الرغم ممّا يطرأ عليه أحيانًا من رثاء ذاتيّ أبوكاليبسي، ولعلّه يدلّل على قاعدة عريضة محتملة تؤيد الضرائب التصاعدية. وكما يُبيّن منشور «تحت الضغط: الطبقة الوسطى المأزومة» الصادر عن «منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية»، فإنّ «الضغط» على الطبقة الوسطى في الشمال يؤثّر بالأساس في جيل الشباب ومواليد ما بعد ١٩٧٥- ١٩٨٠[٣٥]، وهو الجيل نفسه الذي اصطفّ خلف الحملات الانتخابية لكوربين وساندرز التي لاقت نجاحًا لم يكن متوقعًا.

يشكّل مجال العمل أرضيةَ لقاء أخرى لليسار والحركة العمّالية وموظّفي الطبقة الوسطى. يبرز تناقض متنامٍ بين مفهوم الطبقة الوسطى المهنية من المعلّمين وموظّفي القطاع الصحّي والقطاع العام والخدمة المدنية، من جهة، وبين المفهوم الرأسمالي الإداري، الآخذ في

الانتشار، عن العمل من أجل الربح، من جهة أخرى. يمثِّل المفهوم الثاني، ويجب أن يمثِّل، إهانةً لكل صاحب مهنة حقيقي يفخر باكتسابه خبرة جديدة ويُسعَد بقيمة عمله. من المرجّح أن تضرب الثورة الرقمية الوليدة أصحاب المهن بشدّة وكذلك أصحاب الياقات البيضاء. كما بدأت حركة بيئية واسعة من الطبقة الوسطى تصطدم بنزعة التراكم لدى شركات التطوير العقاري وشركات الصناعات الاستخراجية ومنتجي التلوث. ينتمي نمو «الطبقة الوسطى» في الجنوب، بصرف النظر عن تعريفها، إلى تغير اجتماعي سريع وواسع النطاق لن يخلق مجتمعًا متمحورًا حول الصناعة يشبه ما ظهر في الشمال، أي مجتمعًا متمحورًا في سياسته واقتصاده حول الطبقة العاملة الصناعية. لقد أخذت أعداد العمالة في الصناعة والتصنيع تتناقص في آسيا وأميركا الجنوبية، ومن المستبعد أن تتجاوز معدّلاتها الحالية في آسيا وأفريقيا[٣٦]. لهذا، ستكون التركيبة الاجتماعية للقوى المطالبة بالمساواة والعدالة الاجتماعية مختلفة هذه المرة.

يبرز تناقض بين مفهوم الطبقة الوسطى المهنية، والمفهوم الرأسمالي الإداري، الآخذ في الانتشار، عن العمل من أجل الربح

من الواضح أنّ فيروس كوفيد-١٩ بات مولِّدًا كبيرًا للّامساواة، يتجلى في التمييز الصارخ داخل الطبقات وفي ما بينها، وبين الرجال والنساء، والأجيال والجماعات العرقية. ما يعنيه هذا للأحلام والكوابيس هو أنّ تلاقي الطبقات الوسطى في الشمال والجنوب على طريق اللامساواة القاتم سيتسارع. إن تخلّي رأس المال الرقمي عن هذه وتلك، الذي تقوده «أمازون» و«مايكروسوفت»، تضخّم مرارًا وتكرارًا. لقد تعرّض معظم أبناء الطبقة الوسطى في الشمال وأصحاب الأعمال الصغيرة وروّاد الأعمال المستقلون للخسارة أثناء أزمة كوفيد-١٩. وأكثر من ذلك، من المرجّح أن يسقط في براثن الفقر المُدقع مجدّدًا عمّال القطاعات غير النظامية في الجنوب، ممن يتقاضون بين ٢ و٦ دولارات يوميًّا، والذين يفتَرَض احتسابهم ضمن الطبقة الوسطى. في المقابل، لم يتأثّر المديرون والبيروقراطيون والمهنيون من الطبقة الوسطى العليا بأزمة كوفيد إلى حدّ ما، في الشمال والجنوب على حدّ سواء، بل احتفظوا برواتبهم والعمل الآمن من المنزل.

قسمت الجائحة الطبقة الوسطى، في حين تزداد الفجوة بين شريحتها العليا والبرجوازية الحقيقية بسبب سطوة الأخيرة على مليارات الدولارات التي نثرت للتحفيز الاقتصادي خلال تفشي الجائحة[٣٧]. يتمّ إحباط تطلّعات الطبقة الوسطى في كلّ من الشمال والجنوب نتيجة ارتفاع معدّلات البطالة بين الشباب. لقد توقّفت «مسيرة» الطبقة الوسطى الجنوبية، أيًّا كان تعريفها. ومن ناحية أخرى، من المرجّح استمرار الكوابيس الشمالية. قد يبدو الانشغال المحموم بالاستهلاك في خطاب الطبقة الوسطى السائد تافهًا في ظلّ تفشي وباء كوفيد-١٩ ومخاوف تغيّر المناخ.

تخرج عن نطاق هذه الورقة عدة أسئلة هامة تدور حول كيفية تشكُّل الطبقة الوسطى المعاصرة وتطورها الاجتماعي وإمكاناتها السياسية. لكن في الوقت الراهن، ما الذي يمكن استنتاجه؟ أولًا، لا يمكننا فهم العالم إلّا من خلال اختلافاته وتفاوتاته ومن منظور شامل. وفي حال فشلنا، سيبدو العالم مختلفًا بحسب زاوية النظر، وهكذا قد يبدو مشهدٌ ما في الشمال مقلوبًا في الجنوب، والعكس بالعكس. ثانيًا، تمتّعت الطبقة الوسطى بمركزية خطابية في بداية القرن الحادي والعشرين شأنها في هذا شأن الطبقة العاملة قبل قرن. يجب قراءة هذا من زاوية تشخيصية بوصفه مؤشرًا على تغيّر اجتماعي عميق، وزاوية نقدية، بوصفه إيديولوجية رأسمالية المستهلك. ثالثًا، يتّسم خطاب الطبقة الوسطى المنتشر بكونه إيديولوجيًّا بعمق، إنْ لم يكن عن عمد، إذْ يفرط في تضخيمه لكيان غامض يحمل دلالات سياسية قوية – الطبقة الوسطى – ويصوّر عالمًا من المستهلكين بلا منتجين. رابعًا، هذا الخطاب مخادع أيضًا في تحويله الطبقة الوسطى والفقر إلى أشياء مطلقة. فالفقر نسبي دائمًا ويمثّل الطرف الخاسر في ظل التوزيع غير المتكافئ للموارد، أما توصيف الوسطى فيجب أن يكون منتصف شيء ما. أخيرًا، تتّجه الطبقات الوسطى الصاعدة في الجنوب إلى دوّامة اللامساواة الرأسمالية، ويبدو أنّها مستعدّة للتلاقي مع الطبقات الوسطى الأكثر تضرّرًا في الشمال. تمضي جائحة كورونا اليوم في تحطيم حلم الطبقة الوسطى في الجنوب وتسريع اتجاهات اللامساواة المعروضة أعلاه. أمّا إلى أين يقودنا كل هذا فلا يزال سؤالًا مفتوحًا.



الهوامش

١ "The Middle of the Pyramid: Dynamics of the Middle Class in Africa", AfDB Market Brief, 20 April 2011.

٢ Henning Melber, '"Somewhere above Poor but below Rich": Explorations into the Species of the African Middle Class(es)', in Melber, ed., *The Rise of Africa's Middle Class*, London 2016, p. 3.
وهناك مساهمة أخرى تستحق نظرة عامة وهي:
James Thurlow, Danielle Resnick and Dumebi Ubogu, 'Matching Concepts with Measurement: Who Belongs to Africa's Middle Class?', *Journal of International Development*, vol. 27, no. 5, July 2015.

٣ 'Nestlé Cuts Africa Workforce as Middle-Class Growth Disappoints', Financial Times, 17 June 2015; 'Few and Far Between', *The Economist*, 24 October 2015.

٤ Arturo León, et al., 'Clases medias en América Latina: Una visión de sus cambios en las últimas dos décadas', in Rolando Franco, Martín Hopenhayn and Arturo León, eds, *La clase media en América Latina*, Mexico City and Buenos Aires 2010, pp. 95FF.

٥ OECD, Latin American Economic Outlook 2011. *How Middle-Class Is Latin America?*, 3 December 2010, p. 15.

٦ OECD, Latin American Economic Outlook 2011, p. 62.

٧ Francisco H. G. Ferreira, et al., Economic Mobility and the Rise of the Latin American Middle Class, World Bank, 2013, pp. 136, 144ff.

٨ Luis F. López-Calva and Eduardo Ortiz-Juarez, 'A Vulnerability Approach to the Definition of the Middle Class', World Bank Working Paper 5902, December 2011.

٩ Ferreira et al., Economic Mobility and the Rise of the Latin American Middle Class, pp. 32–6, 147.

١٠ Kharas, 'Global Tipping Point'.
لم أرَ أي كتابات له عن الطبقة الوسطى منذ بداية الجائحة.

١١ Anthony Atkinson and Andrea Brandolini, 'On the Identification of the Middle Class', in Janet Gornick and Markus Jäntti, eds, *Income Inequality: Economic Disparities and the Middle Class in Affluent Countries*, Stanford CA 2013, p. 95.
في سياق هذا الانكماش، تُعرَّف الطبقة الوسطى بمن يعيشون ضمن هوامش محدّدة من متوسّط الدخل القومي (بين ٧٥ و١٢٥ في المئة من متوسط الدخل)، وتُعرَّف أيضًا من خلال فترات أو هوامش أخرى أوسع. ص.٨٥.

١٢ Francis Fukuyama, 'The Future of History: Can Liberal Democracy Survive the Decline of the Middle Class?', *Foreign Affairs*, Jan–Feb 2012, p. 7.

١٣ OECD, *A Broken Social Elevator? How to Promote Social Mobility*, 15 June 2018.

١٤ OECD, Under Pressure: The Squeezed Middle Class, 1 May 2019, pp. 13, 50.

١٥ OECD, Under Pressure, pp. 32, 16, Table 2.2.

١٦ Katherine Bradbury, 'The Shrinking Middle Class', *New England Economic Review*, Sept–Oct 1986.

١٧ Bennett Harrison and Barry Bluestone, *The Great U-Turn*, New York 1988, p. 137.
تجدر الإشارة إلى أنه في المصطلح الأميركي المعاصر تتضمّن الطبقة الوسطى غالبًا العمّال الصناعيين. راجع:
William Kreml, America's Middle Class: From Subsidy to Abandonment, Durham NC 1997.

١٨ Office of the Vice President, Middle Class Task Force, '*Middle Class in America*', January 2010.

١٩ Temin, The Vanishing Middle Class. يسلّط دانيال ماركوفيتس، الباحث في القانون بجامعة ييل، الضوء على مراكمة النخب الثرية للتعليم العالي المكلف بشكل متزايد، من مرحلة ما قبل المدرسة إلى الجامعة، وكيف أدّى هذا النوع من الكفاءة «إلى إقصاء غالبية المواطنين إلى هامش مجتمعاتهم، وإرسال أطفال الطبقة المتوسطة إلى مدارس عادية وغير إبداعية ووظائف من دون أفق»: The *Meritocracy Trap*, London 2019, pp. xiii–xiv.

٢٠ في عام ٢٠٠٢، ركّزت دراسة أوروبية شاملة ورئيسية عن «الطبقات الوسطى في أميركا وأوروبا واليابان» على «الضغط» الذي فرضته العولمة الاقتصادية على العقود الاجتماعية بعد الحرب لا على الأزمة أو حالة الانحدار التي تعاني منها هذه الطبقات؛ لم تذكر نتائج بحوث هاريسون وبلوستون على الإطلاق. وعلى الرغم من إشارة أحد المحرّرين إلى «قلق الطبقة الوسطى» في أواخر التسعينيات، ورد ذكرُ اليابان وحدها بأنها تعاني من أزمة، في ورقةِ نعيٍ كتبها المتخصّص في شؤون اليابان بجامعة هارفارد أندرو غوردون بعنوان «الحياة القصيرة السعيدة للطبقة الوسطى اليابانية» في فترة ما بعد الحرب. انظر:
Olivier Zunz, Leonard Schoppa and Nohubiro Hiwatari, eds, *Social Contracts under Stress*, New York, 2002.

٢١ على التوالي:
David Boyle, Broke: Who Killed the Middle Classes?, London 2013, pp. 315, 273; Daniel Goffart, *Das Ende der Mittelschicht*, Munich 2019, p. 36; Christophe Guilluy, *No society: La fin de la classe moyenne occidentale*, Paris 2018, pp. 77–9.

٢٢ Ferreira et al., *Economic Mobility and the Rise of the Latin American Middle* Class, p. 1.

٢٣ '*Latin American Economic Outlook 2011*', p. 89.

٢٤ Abhijit Banerjee and Esther Duflo, 'What is Middle Class about the Middle Classes around the World?', *Journal of Economic Perspectives*, vol. 22, no. 2, 2008.

٢٥ Eurostat, '*Europe 2020 Indicators—Poverty and Social Exclusion*', August 2019.

٢٦ OECD, *Under Pressure*, p. 19 and Figure 2.5.

٢٧ يشكّل الأميركيون الذين يصل دخلهم إلى ١٢٥ في المئة من خط الفقر الوطني (حاليًا نحو ٢٦,٢٠٠ دولار أميركي سنويًا للأسرة المكوّنة من أربعة أفراد) نحو ٢٠ في المئة من سكان الولايات المتحد..

٢٨ World Inequality Database, national tables.

٢٩ Facundo Alvaredo, et al., *World Inequality Report 2018*, World Inequality Lab, 2017, pp. 127FF.

٣٠ متوسطات الدخل في الجنوب غير مدرجة في قاعدة بيانات اللامساواة العالمية.

٣١ Alvaredo, et al., World Inequality Report 2018, Table 2.11.3.

٣٢ World Inequality Database.

٣٣ أصدرت CEPAL تقريرًا بعنوان [The Hour of Equality]، سانتياغو، ٢٠١٠. أنظر أيضاً محاولتي الخاصة للتحليل:
'Moments of Equality: Today's Latin America in a Global Context', in Barbara Fritz and Lena Lavinas, eds, *A Moment of Equality for Latin America*, Farnham 2015.

٣٤ Snigdha Poonam, *Dreamers*, Cambridge MA, 2018;
انظر أيضًا:
OECD, *Under Pressure*, p. 13.

٣٥ OECD, *Under Pressure*, pp. 55, 57.
على الرغم من مناحة غيلوي وآخرين، إلّا أنّ الطبقة الوسطى الفرنسية حافظت على مكانتها الاقتصادية أفضل من الطبقات الوسطى في البلدان الغنية الأخرى، لكن آفاق الأجيال التي ولدت بعد عام ١٩٧٥ تبعت الاتجاه الانحداري السائد في «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية»: Louis Chauvel, *Les Classes Moyennes à la dérive*, Paris, 2006.

٣٦ Trade and Development Report 2016, United Nations Conference on Trade and Development, 21 September 2016; Dani Rodrik, 'Premature Deindustrialisation', NBER Working Paper 20935, February 2015; 'Employment in Industry', ILOSTAT, 2019.

٣٧ انظر: Robert Brenner, 'Escalating Plunder', NLR 123, May–June 2020.
انظر أيضًا: 'Prospering in the Pandemic', *Financial Times*, 18 June 2020.
حقّق جيف بيزوس شخصيًّا ٣٤,٥ مليار دولار بحلول ٤ حزيران/ يونيو



ذاكرة



قصفوا بيتنا في هذا اليوم...

مزنة المصري

باحثة أنثروبولوجيّة ومستشارة مستقلة تعمل مع العديد من المنظمات المحلية والدولية ومنظمات الأمم المتحدة. تشمل كتاباتها واهتماماتها البحثيّة الممارسة السياسيّة اليوميّة والزبائنيّة، وتقاطُع النزاع والسياسة مع المساعدات الإنسانيّة والطاقة

٢٧ تموز/يوليو ١٩٨٢

كنت أجلس أمام نافذة عريضة في مكتب أبي، في الطابق الأول من المبنى الذي فيه بيتنا أيضًا، أحاول التدرب على الطباعة:

كمنتا شسيبل
كمنتا شسيبل
تا تا بل بل
تت بب تت بب

إلى أن سمعت صراخ أحد أصدقاء أبي من الغرفة المجاورة: «طيران... طيران» قفزت نحوهم قبل أن أسمع دوي الانفجار، وقبل انهمار الزجاج خلفي مغطيًا المقعد الذي كنت أجلس عليه منذ ثوان. هذه هي القذيفة الأولى. أبي وأخي هنا بخير، أسارع لصعود الدرج إلى بيتنا بحثًا عن أمي لأجدها في طريقها إلينا. أين غسان؟ كان في الشارع، يلعب مع رفاقه. أبي هرع ليبحث عنه.

ثم قذيفة ثانية. أبي وأخي ما زالا في الشارع. غبار كثيف يلفّني بعتمة كاملة. أسمع صراخ أختي والذعر في صوتها: «بابا... غسان... بابا وغسان برّا...».

القذيفة الأولى سقطت بين المباني المقابلة، وقتلت عاملة أجنبية كانت على الشرفة المطلة على المنْور وربما شخصًا آخر. الثانية، دمرت المبنى المقابل لبيتنا وأصابت أبي وأخي وقتلت آخرين لا أذكر عددهم. أبي وأخي كانا يصعدان الدرج للاختباء حين هاجمتهما الشظايا. احتضن أبي رأس أخي ليحميه، فأصيبت أصابعه وخصره وبعض من رأس أخي.

كنت في التاسعة يومها، لكني لا أذكر أني خائفة، عدا عن شعوري أن تلك اللحظة التهمتني تمامًا... بغبارها، وعتمها ودويٍّ لشدّته يشبه الصمت. أذكر تساؤلي إن كان قائد الطائرة الذي ألقى القنبلة في تلك اللحظة، يدرك أن في هذه المباني أطفالًا مثلي، ومثل أختي التي تقف بجانبي وتكبرني بسنتين، وأخي الذي يصغرني بسنتين. وإن كان قائد الطائرة يدرك ذلك، كيف تسنى له أن يلقي تلك القنبلة؟

بعد ذلك القصف، أذكر التفاصيل. أمي تنظف وتضمّد جراح أخي. تطلب مني إحضار المقصّ فلا أراه تحت الغبار. أبي يرفض الإسعاف بداية لأن جرحه طفيف وهناك من هم أكثر حاجة، فيعيش مع نتائج التهاب جرحه وصعوبة الحركة في بعض أصابعه لباقي حياته. بيتنا في الطابق الثالث أصبح بلا شبابيك أو أبواب. حوض السمك تدمر، وفقدنا كل سمك الزينة الذي كان يربيه أبي لسنوات. ذلك اليوم لم أصعد من الطابق الأول للثالث لأرى دمار البيت. بقيت في الطابق الأول وانتظرت أن تُحضر أمي لعبتي من البيت وطبخة الملوخية التي كنت أتوق لها في أيام الجوع. اخترت ربما بحكمة التسع سنوات من عمري حينها ألا أرى بيتي مدمرًا، وانتظرت حتى تنظيف البيت في اليوم الثاني. قال أهلي حينها إن باب البراد من قسوة الضربة كان على الشرفة وإن السجاد بما عليه رُمي في النفايات. لكن مكتبة أهلي صمدت، كما وطنجرة الملوخية والعربة الزجاجية مع زجاجات الكحول عليها. تلك الليلة نمنا عند مارة استضافونا. بعدها نمنا ليلةً أو بضع ليالٍ في مكتب أبي، إلى أن غادرنا بيروت.

*****

بيروت - حزيران/يونيو وتموز/يوليو ١٩٨٢

ذاك النهار في تموز/يوليو عام ١٩٨٢ - والأسابيع الطوال من الحصار الإسرائيلي لبيروت قبله وبعده - مازال محوريًا في حياتي ومؤسسًا لوعيي العام، سياسيًا وأخلاقيًا. أذكر تفاصيله وتواريخه، تموجات الضوء في أيامه ولياليه وروائحه، كما القلق في معدتي وفي وجوه الكبار من حولي.

ذلك الصيف، كما السنة التي قبلها، انتهى العام الدراسي فجأة في شهر حزيران/يونيو. بدأ القصف، فنزلنا إلى ملجأ

المدرسة وانتظرنا أهالينا. لم نجْرِ امتحانات آخر العام، لم نودع أصدقاءنا، فقط غادرنا على عجل، ولم نعد إلا بعد أن تدمرت مدينتنا بعد أربعة أشهر. في البداية كانت الحرب بعيدة نسبيًا. المدينة ساكنة تراقب تقدمًا إسرائيليًا في الجنوب. شارع بيتنا تحوّل إلى ملعب حين زرع الفدائيون حاجزًا في آخره وأوقفوا حركة السيارات عليه.

ثم الحصار. أيام تمر بطيئة أمضيتها برفقة غسان كنفاني وحنا مينا بعد أن انتهيت من مغامرات لوزة وتختخ وأصدقائهم[1]. أسمع عما يحدث في مدينتي من أحاديث البالغين حولي، عمّن تدمرت بيوتهم، وعن أنواع جديدة من القنابل. يشرح أحدهم عن القنبلة الفراغية، عمن ماتوا في ملجأ بناية لأنها تداعت إلى الداخل عند قصفها وأخذت معها زجاج البيوت المجاورة. أسمع عن قنابل يصورها الجيش الإسرائيلي لغايات «بحثية» توثق تقنيات القتل لا الموت الذي سبّبته.

مع الملل هناك الجوع. مع الحصار حول المدينة، سريعًا تفرغ رفوف غرفة المونة في بيتنا. غداء اليوم سردين، والعشاء أيضًا. فول معلّب على الفطور والغداء. صندوق كبير من بسكوت الزبدة بالسكر اشتراه أبي من بائع جوال نأكل منه عند الجوع. لا خضار أو فواكه طازجة في بيروت المحاصرة. أبي يزرع القمح النابت الذي يقول إنه مغذٍّ جدًا في سبعة خطوط في قوارير. نأكل خطًا كل يوم، ونزرع خطًا جديدًا للأسبوع المقبل. أمي تضع قوارير زجاج مليئة بالماء على حافة الشباك لمدة ١٥ يومًا لتعقّمها الشمس كما تقترح زاوية في جريدة السفير.

إلى أن تدركنا القذائف، ويصاب أخي وأبي ويدمر بيتنا.

*****

عين سعادة وبحمدون – آب/أغسطس ١٩٨٢

بعد قصف بيتنا، لا أدري كم من الأيام مرّت قبل أن توصلنا أمي إلى الجبل. أذكر أننا نعبر مشيًا على الأقدام خطوط التماس على المتحف، وأمي تشدّني لتمنعني من تباطؤي وإمعان النظر فيما ارتمى على المعابر. نمر على بيت أصدقاء في برج حمود، حيث تعرض علينا «أم بشارة» سندويشات مرتديلا. جبنة أو لبنة وخيار تقول أمي، «أكيد مش معلّبات» – التي أكلناها دون غيرها لأكثر من شهر. ثم نكمل طريقنا إلى قرية عين سعادة. هناك تتركنا أمي مع أصدقاء أولادهم بعمرنا وتعود للبقاء في بيروت، ربما حملت رعب بعض الفلسطينيين من أن يمنعوا من العودة لبيوتهم إن غادروها. ربما لم تتمكن من أن تكون شاهدة من خارج المدينة على دمار مدينة احتضنتها.

حيث نقيم في عين سعادة مربّيات صناعة منزلية لذيذة لكن لا مياه جارية في المنزل الجبلي العتيق، ننزل إلى العين لنعبئ غالونات وقوارير وننظف وجوهنا وأسناننا صباحًا. لا نلعب مع أولاد الجيران كي لا تفضح لهجتنا أصلنا في القرية التي أصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية، فاقضي وقتي في قراءة ما أجده في البيت، قصص عاطفية مصورة[2] لا تتناسب مع عمري، أبطالها شقر مع شعر ناعم يتناوبون على الشجار وتبادل القبل.

في الليل يمكننا الإطلال على عتمة بيروت تضيئها القذائف مثل الألعاب النارية. هناك أمي وأبي. أذكر تلك اللحظات مع بعض الخدر العاطفي.

ثم يقرر مستضيفونا المغادرة إلى شبعا ولا يمكننا مرافقتهم لأنها تحت الاحتلال ونحن لا نمتلك التصاريح اللازمة. ننتظر هدوء القصف كي يغادر أهلي بيروت.

من هناك إلى سوق الغرب (التي أصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية أيضًا) حيث نقضي الصيف عادةً في بيت واسع تحيط به أشجار الصنوبر، فمنعنا عنه شجع صاحبه الذي يستولي على أثاثنا في المنزل ويمنعنا عن استخدامه مستقويًا علينا كفلسطينيين: كما تقول أمي بالحاجز الإسرائيلي في أول الشارع، وحاجز الكتائب في آخره. فنعود إلى بيت أصدقاء آخرين في كيفون. هناك، في الغرفة حيث ننام تتشكل وحوش في الزجاج المحجّر تسرق مني النوم. يشترى لنا أبي أحجية بازل بألفي قطعة نتجمع حولها فتهدئنا. هناك نشاهد على التلفاز «انتخاب» بشير الجميل بحماية إسرائيلية رئيسًا للبنان.

*****

بيروت من جديد – أيلول/سبتمبر ١٩٨٢

نعود إلى بيروت لنشهد مغادرة الفدائيين. سيارات عسكرية بداخلها شباب بثياب عسكرية وشعر مجعّد يلوّحون تلويحة الوداع. في بيتنا البلاستيك يغطي الشبابيك. مشهد تعوّدنا عليه في سنين الحرب وما بعدها. أذكر أبي يصلح فجوة قطرها متران أحدثها القصف في إحدى غرف المنزل، وأذكر حديثه بفخر عن الطريقة التي استطاع بها إنهاء الجدار على الطابق الثالث دون الاستعانة بسقالة خارجية.

بعدها تتالى أحداث دامغة في ذاكرتي، بتفاصيل مشهدية وحسّية:

يوم أجد أمي متسمّرة أمام التلفاز. «قتلوا بشير الجميل» تقول. أسمع الخبر فأجيب بأن المذيعة تقول عكس ذلك، فتؤكد لي أنه لو كان حيًا لكانوا بثّوا صورًا تثبت ذلك. أتذكر تلك اللحظة عند اغتيال رفيق الحريري بعدها بأكثر من عشرين عامًا، فأوكد لزملائي في العمل مقتله قبل بث الخبر.

يوم دخول الجيش الإسرائيلي بيروت. أقف مع عائلتي على الدرجات أمام مكتب أبي – هناك حيث أصيب أبي وأخي قبل



أقلّ من شهرين بشظايا قذيفة إسرائيلية – لنشاهد الدبابات تعبر كورنيش الروشة فتهزّ ألفتي مع هذا الرصيف الممتد بجانب البحر وملعبي في طفولتي. أمي تبكي وتتشاجر مع جارنا الذي يقترح تعليق الأعلام البيضاء. دقائق تزرع غصّة في حلقي ما زالت ترافقني. أيام فيداهم الجنود بيوتًا حولنا. الجيران يرمون خوفًا كتبًا قد تدينهم من الشرفات، فيوظّفنا أبي وأطفال الحي، ويعطينا ربع ليرة عن كل كتاب نجمعه، فالكتب لا ترمى من الشرفات. على مدخل المبنى يوقفنا الجنود الإسرائيليون أنا وأمي، يسألون عن أحد الجيران وعن وجهتنا، «لشراء البندورة» تقول أمي، قبل أن تهرع إلى سيارة جار آخر طالبة منه تنبيه ذاك الجار المطلوب أن الجنود الإسرائيليين يبحثون عنه.

أيام صبرا وشاتيلا. المقتلة على مقربة منّا. لا نسمع أنها حدثت، بل أنها تحدث الآن، بداية مع بعض عدم التصديق، المجزرة ما تزال مستمرة، ونحن نمضي نهارات (غير) عادية في مدينة مدمرة. أختي تخاف أن يصل الإسرائيلي إلينا، هنا في بيتنا في الروشة فنحن أيضًا فلسطينيون وإن كانت الجرائد التي تحمل صور القتلى تُمنع عنا نحن الأطفال وتُقيم فوق الثلاجة كي لا نراها. حتى الدكنجي «معلم سليم» يخبئها ليحمي الأطفال المارين، وربما البالغين أيضًا، من قسوة الصور. ابنة الكهربجي في حيّنا كانت في مستشفى عكا تتلقى العلاج. تركتها أمها أقل من ساعة لتحضر الثياب وتقضي ليلتها بجانبها ولم تتمكن من العودة والآن المستشفى خالٍ إلا من القتلى. يداوم الأب على رحلات يومية يبحث عنها بين الجثث فلا يجدها. ربما هربتها الممرضات، ربما ما زالت حية في مكان ما. تتحدث أمي عن وجع من لا يعرف مصير الأحبة الأشد قسوة من القتل، ربما سيبقى يبحث عنها في وجوه كل الفتيات في عمرها لعقود. بقي في حينا لسنوات، وكلما رأيته وما زالت حتى يومي هذا أتساءل عما حدث له ولعائلته. جروح مفتوحة تستمر مع اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين في شرقنا المتوسط حتى الآن.

عدت للمدرسة بعد ذلك الصيف. عام دراسي لا أذكر الكثير من بدايته، لكن أذكر قناعاتي وبعض رفيقات لي أن هناك أشلاء من بقايا المجزرة، تحديدًا رجل وقدم، ما تزال معلقة على عمود الكهرباء بجانب المدرسة. سراب صنعه خوفنا، وتوافقنا بداية على ألا نخبر أحدًا لكن أخذنا على عاتقنا حماية إخوتنا الأصغر كي لا يروه، فجهدت كل يوم لضمان أن يجلس أخي في الجهة من حافلة المدرسة التي لا يرى فيها العمود، واذ لم أفلح، جهدت لإلهائه عند مرورنا بجانبه. اختفت تلك الرجل المعلقة عندما أخبرنا المعلمة عنها ورافقتنا للتحقق من وجودها، ورويدًا ربما اختفى ذعرنا، لكن لم تختفِ ذاكرته.

*****

هذه بعض من ذاكرتي كطفلة في عمر التاسعة، كتبت بعضها حينها في روزنامة بنّية صغيرة، أشاركها اليوم بدون الرجوع للأرشيف أو لأهلي للتأكد من صحتها، مع علمي أن الأربعين عامًا التي مرّت عليها حتمًا قد حرّفتها. أكتب لتشارك بعض مما تبقى معي من انطباعات طفلة عن أحداث جسام تمرّ بها بلادها وتفاعلها مع تلك الأحداث، فربما تتيح لنا فهم ما يمر به أطفالنا اليوم الذين يعيشون الحروب والعنف والانهيار. أكتب لأفهم بعضًا من طبيعة الحروب التي درستها أكاديميًا، لكن عايشتها معظم حياتي. ما معنى أن تكون هذه اللحظة بالذات لحظة مؤسسة في وعي؟

على الرغم من قناعتي أن مسؤولية البالغين حماية الأطفال خلال الحروب، ما يلفتني حين أستعيد تلك الذكريات هو أني لا أذكر أني خائفة ولا ألوم أهلي على قرارهم البقاء في بيروت. بل أذكر إعجابي بأبي وأمي وقدراتهما التي رأيتها خارقة للعادة يومها. كأنهما كانا يخفيان مهارات وحكمة لم يتسنَ لي اكتشافها إلا حين اضطرا لاستعمالها: أبي يستطيع بناء حائط، واصطياد قوتنا من البحر القريب، أمي تعرف تضميد الجراح وسريعة البديهة مع الجندي الإسرائيلي وجريئة في اجتياز المعابر. ربما إحساسي بالأمان مصدره انطباعي أنهما قادران على التعاطي مع هذه التحديات الجديدة، ولذا ربما حين خفت، خفت وأنا في أمان في الجبل من خطر فقدانهما. ربما كنت أصغر من أن أفهم الخطر الذي نواجه. لكني حتى خلال معايشة تجارب حروب إسرائيلية عديدة على لبنان بعدها وانخراطي فيها إن في العمل الإغاثي أو الحقوقي، لم يكن الخوف هو الشعور الذي لازمني، بل مشاعر كالأسى على من فقدوا أحبتهم ومنازلهم، الحزن على الدمار في مساحات أحببتها، والشعور بالقهر والغضب لاضطرارنا إلى عيش تلك التجارب مرارًا. ومع مروحة المشاعر تلك هناك الشعور بأننا في وجه أي هجوم إسرائيلي، بدون أي شك سنواجه.

الانطباع الذي يبقى معي من اجتياح ١٩٨٢ هو أننا كنا معًا نحاول تخطي تحدٍّ ما. مثل من يحاولون الوصول إلى بيتهم خلال العاصفة، نجري سريعًا كي لا نبتلّ، أو نحتمي تحت شجرة، قد نبرد قد نجوع، لكننا ندرك أنها قريبًا ستزول وسننام دافئين في منازلنا وفي ثياب ناشفة. أدرك أن في «عاصفة» الاجتياح الإسرائيلي الكثير منا لم يصل، لكن حين عشنا الاجتياح لم نعشه كتجربة مفروضة علينا، بل تشابك انخرطنا فيه، وهذا ما أحسسته وأنا في بداية عقدي الرابع خلال حرب عام ٢٠٠٦. قرأت لاحقًا ما يشبه ذلك في مذكرات جين سعيد مقدسي، إذ تُشبِه مغادرة بيروت خلال


الجيش الإسرائيلي عند برج المرّ، بيروت، ١٩٨٢.

الاجتياح، بأن تكون على الهامش وأن تحرم من شرب كأس التاريخ المرّة، بل أن يسكب سكبًا عليك[٣]. اختار أهلي إذًا عام ١٩٨٢ شرب كأس التاريخ المرّة تلك، فذقتها معهم، ولا ألومهم. بل ربما اخترنا ألا نكون «مفعولًا به»، رغم سقوط القذائف علينا من الجوّ، ورغم عدم تكافؤ القوة، بل كنا فاعلين نحاول الحفاظ لا فقط على حياتنا، بل أيضًا هويتنا وإنسانيتنا.

ربما مردّ ذلك إلى أن الأكثر مرارة مما يبقى معي من الاجتياح هو غصة كزدرة الجندي الإسرائيلي على الكورنيش. هذا الشارع والكورنيش والبحر لي. هذه مساحتي، بدءًا من الدرب الصغير الممتد إلى البحر الذي أراه من شرفة المنزل كل يوم، وحتى امتداد دالية الروشة والتي عليها قضيت الكثير من أيام طفولتي. أذكر أني فكرت حينها أنه لا يحق لذلك الجندي الذي أنزل أطنانًا من القذائف على مدينتي أن يتجوّل في شوارعها. جانب كبير من وعي السياسي تشكل حينها، لا من موقف أهلي والمحيطين بي فقط، بل من محاولاتي فهم هذه التجربة خلال معايشتها. من تساؤلي إنْ كان قائد الطائرة الذي ألقى القنبلة على المباني قربنا يدرك أن في هذه المباني أطفالًا مثلي، وتفاجئي أنه يمكن للآلة العسكرية الإسرائيلية أن تجرّب الأسلحة على مدنيين، بل أن تصوّر تلك التجارب بدون اعتبار لأثرها الإنساني. أذكر أني حكمت أخلاقيًا على تلك الآلة حينها، تلك التي تسهّل قتل آلاف المدنيين في صبرا وشاتيلا تمثّل الشر ولم أرد لذلك الشر أن يسرق مدينتي. هذه الغصة لا أحملها حقدًا كما توقع فواز طرابلسي لأبناء جيلي[٤]، بل وعيًا سياسيًا وأخلاقيًا.

ربما من هذا الوعي تشكلت مشيئة سياسية لي كطفلة، تفاعلت مع ما تمرّ به البلاد. أذكر أيضًا أني حين قرأت قصة «كان يومذاك طفلًا» لغسان كنفاني[٥]، فهمت تمامًا لماذا يختار طفل، بمواجهة أوامر الجندي الإسرائيلي أن يجري بأقصى سرعة قبل أن يتوقف ويضع كفيّه في جيبه ويمشي ببطء متحديًا تلك الأوامر.

الهوامش

١ أبطال سلسلة المغامرون الخمسة، سلسلة مغامرات بوليسية للأطفال والمراهقين من تأليف الكاتب المصري محمود سالم.

٢ انتشرت في تلك الفترة المجلات المصورة والتي تحتوي في الغالب على قصص عاطفية، ومنها مجلات سمر وريما – انظر مقال محمد الحجيري (٢٠١٣) في المدن عن انتشار تلك المجلات في لبنان في السبعينيات والثمانينات
https://www.almodon.com/media/2013/3/23/الإنترنت-تقتل-ريما-ودليلة

٣ المقدسي، جين سعيد، **شتات بيروت - مذكرات حرب ١٩٧٥-١٩٩٠**، الساقي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.

٤ طرابلسي، فواز، **عن أمل لا شفاء منه (يوميات حصار بيروت ١٩٨٢)**، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٤.

٥ كنفاني، غسان، «كان يومذاك طفلًا» في **القميص المسروق**، ١٩٥٨.



أن نرى الوحش!

من ذكريات طفلة في اجتياح بيروت ١٩٨٢

إيلينا ناصيف

باحثة متعددة الاختصاصات في مجال الثقافة. تشغل منصب مديرة مؤسسة المورد الثقافي. حاصلة على درجة الدكتوراة في الدراسات الإعلامية من جامعة وستمنستر

أتيت إلى صور لأكتب عن الاجتياح. المدينة الأقرب إلى فلسطين، البحر المفتوح على فلسطين. في الطريق كان الراديو يلتقط محطات للعدوّ ناطقة بالعبرية والعربية. استمعت قليلًا للمحطة العربية فكان الخبر الأول عن ترسيم الحدود. البحر أمامي مليء بالغاز. والقوارب السياحية تملأ البحر بالأطفال والمراهقين الذين ربما لا يعرفون الكثير عن هذه التجربة التأسيسية التي شكلتني والتي اسمها الاجتياح. أقول لصديقي أن يكتب عن تجربته حينها فيجيبني: لماذا؟ لماذا نحاول أن نروي ماذا تبقى من هذه التجربة ولمن؟

أربعون عامًا مرّت على فتاة الخمسة أعوام التي كنت عند اجتياح بيروت. أربعون عامًا مرّت على ولادة ذاكرتي والجرح الأول فيها. أقرأ أننا نستطيع أن نتذكر منذ سن الثلاث سنوات، فأعود بحثًا عن أقدم صورة من الطفولة. أراني هناك أفترش الأرض في ملجأ البناية المجاورة. لا ذاكرة لديّ قبل هذه الصور البصرية القليلة من تلك الأشهر الأربعة. ورغم مرور الوقت وبهتان الذاكرة، بتّ أدرك أن الاجتياح يحتل جزءًا دفينًا في داخلي ويشكل مفصلًا يؤطّر رؤيتي للعالم. لا أدري لماذا صمتنا طويلًا ولم نكتب رواية؟ لماذا لم نعلن عن أنفسنا كضحايا نرغب بالإفصاح؟ نحن الأطفال الذين لم يقتل جسدنا الاجتياح ولكنه ترك في روحنا ندوبًا، علينا أن نقول شيئًا فكما تقول زولا نيل هرتسون، «لو صمتّ عن آلامك، سيقتلونكِ ويقولون إنك كنت تستمتعين بذلك».

الصورة الأولى - الحصار

نحن في سيارة الفيات الزرقاء الخاصة بالعمّ فريد أو «فرفر». «فرفر» زوج عمة أمي وهي التي أطلقت عليه هذا اللقب. يعبُر بنا بيروت المحاصرة ويوصلنا إلى أحد حواجز الكحالة التي يديرها جنود إسرائيليون. نعبر سيرًا على الأقدام لتقلّنا سيارة أخرى إلى شتورة. ومن هناك تقلنا سيارة ثالثة إلى دمشق. لا أذكر مِن هذه الرحلة سوى الشعور بالقهر الذي انفجر دموعًا في مطعم فندق الشيراتون المليء باللبنانيين الهاربين من الحصار. أذكر الطاولة التي تتسع لأربعة أشخاص عليها جدي وفي مقابله أمي وأنا إلى يسارها أحاول أن أمضغ قطعة لحم مشوية عاندت لدقائق طويلة قبل أن تذوب في فمي وأنا أتردد ببصقها.

كان الضغط قد وصل إلى أوجّه عند وصولنا لملاقاة جدي الواصل من البرازيل ليحاول إقناع أمي بأن نسافر معه. كنا خارجين من أسابيع تحت الحصار حيث لا خضار ولحوم طازجة. وكان الفندق مليئًا بالمحتفلين بفرصة جديدة لهم بالحياة.

أعتقد الآن أني اختزنت غضب أمي أيضًا، أم لطفلة لم تأكل لأسابيع سوى طعام المعلبات وقد استبدلنا خلالها اللحم الطازج بالكورن بيف.

لم تكن أمي تريد أن تغادر بيروت وأن تترك أبي الذي كان لا يزال هناك، لكني أعتقد أن إلحاح جدي نجح في إقناعها بالسفر بعد عام حيث غادرنا لسنتين فقط في العام ١٩٨٣.

أبحث عن استخدام اللحم المعلب كبديل للحم الطازج خلال الحروب. أقرأ أنه استخدم خلال الحرب العالمية الأولى والثانية أيضًا. أسأل أمي عن ماركة العلبة الحمراء التي كنا نأكلها فتجيبني «تارغت» وأبحث عنها فأجدها مصنّعة في البرازيل والأرجنتين.

لم أفكر يومًا بعلاقة هذا الاجتياح بالحروب العالمية وبأننا وسط الحصار حرمنا الماء وأكلنا بسببه منتجات صناعة آتية من البلاد التي ولدتُ فيها وهاجر إليها أهلي.

الصورة الثانية - الملجأ

أغمض عيني لاستحضار الجزء الأخير من ملجأ بناية الحداد والذي كان بحجم ركنة سيارة افترشناها نحن،

مَن تبقى في عمارتنا القريبة من نساء وأطفال، أمي وأنا وطانت إنعام وأولادها وليد وألين. لا أدري لماذا لم تغادر طانت إنعام إلى الشرقية ووالداها هناك في الحدث، ربما لأن عمو طوني لم يرغب بالرحيل. عمو طوني من الناصرة وطانت إنعام مولودة في بيروت لوالدين من الجليل الأعلى. خالها شهيد إحدى المجازر، وعائلة والدتها ما زالت هناك في فلسطين الـ٤٨. ألين ووليد من أصدقاء طفولتي لا أذكر غيرهما من أطفال الملجأ لكني أعلم أننا كنا أكثر من ثلاثة. لأننا كنا نتحلق حول الرجل ذي الكرش الذي ينام خلال النهار حتى لا يزعج شخيره أغلبية السكان، كنّا نصنع سمفونية من شخيره المتصاعد أو المتخافت متأثرًا بقربنا وبعدنا عن صدره ووجهه ورجليه.

سألت وليد عن الاجتياح. هو أيضًا يتذكر الرجل ذا الشخير المرتفع خلال النهار وقصة ركضهم من عمارتنا إلى عمارة الحداد تحت القصف عندما قامت طانت انعام بتغطية رأس وليد بالشرشف لكي لا يصاب بمكروه.

كان معنا أيضًا الرسام الدكتور مفيد أستاذ الرسم في الجامعة اللبنانية، الذي قضى جزءًا من أيام الملجأ يرسمنا نحن الأطفال واحدًا بعد الآخر. كان علينا أن نجلس ثابتين لفترة طويلة. ربما كانت هذه طريقته لإيجاد فسحة من الهدوء في مدينة على وقع صواريخ لا تهدأ. لم ألتق به بعد ذاك اللقاء القاتم وكنت أود أن أتعرّف إليه - في الذكرى الأربعين للحصار - لأشكره على الذكرى الثمينة التي تركها لي ولكي أسأله أن يرسمني مجددًا. لكن الدكتور مفيد توفي قبل أشهر قليلة من حلول الذكرى.

الرسمة الشخصية الموقّعة يوم ٦ آب/أغسطس توثق شَعري القصير حينها وتفاصيل وجهي الصغير البائس الذي يختزل قهر طفولة عالقة في عمق الأرض. ظلت الرسمية معلقة فوق رأسي في غرفة الطفولة ومن ثم في صدر صالون بيتي. أشعر أنني لا أعرف دواخل تلك الفتاة المرسومة بالرصاص فهي تشبهني قليلًا ولكني لا أستطيع الوصول إليها. شفتي العليا ما زالت كما في الرسمة غير بارزة، لكني لا أفهم لماذا كان فمي مغلقًا لا يصرخ.

لسنوات طويلة كنت أخالنا نجحنا في الاختباء. انهار الأمان الوهمي عندما نزلت منذ بضعة أشهر مع أصدقاء إلى مرأب بناية الحداد لأول مرة منذ ذلك الوقت فوجدته قليل العمق إلى أبعد حد فأدركت أننا قد نجونا بمحض الصدفة. أقرأ عن القنبلة الفراغية التي دمرت عمارة على سكانها بجانب حديقة الصنائع. وأتذكر فجأة المخاوف التي كانت لدينا من الألعاب المفخخة و«الملبّس» المسمّم وما رموه لأطفال الجبل. كيف يتعاطى العالم مع أطفال قيل لهم مرارًا لا تقربوا الألعاب والهدايا والحلويات؟

الصورة الثالثة - نازحة صغيرة

أذكر في ذلك المنزل موقع التلفون قرب المدخل على منضدة قليلة الارتفاع بجانب كرسيين خشبيين حيث كان بإمكاني أن أقف وأرفع السماعة السوداء وانتظر، بعيدًا عن أمي وأبي، وحيدة فيما كان يعرف بالمنطقة الشرقية، والأشرفية تحديدًا. أقف خلف سماعة الهاتف وأنتظر الخط لأتصل بأمي في المنطقة الغربية، في المصيطبة تحديدًا.

أنتظر طويلًا، يومًا بعد يوم، لتأتي الحرارة إلى الخط. أسمع صوت أمي، ولا أستطيع أن أتوقف عن البكاء، أطلب منها أن تعيدني إليها. ولا أذكر ولا يذكر أهلي متى ذهبت مع جدتي وعمتي نزولًا عند إلحاح جدتي أنها لن تذهب بدوني؟ هل ذهبت في تموز/يوليو عندما سمحوا للمدنيين بالخروج وعدت قبل ٦ آب لأني كنت عندها في الملجأ؟ أو هل ذهبنا بعد ٦ آب وعدت في أيلول/سبتمبر؟ هل عدت قبل خروج المقاتلين الفلسطينيين ابتداءً من ٢١ آب؟ لا أعتقد ذلك لأني لا أذكر أني وقفت مع أمي نودعهم خلال مرورهم في شارع مار الياس قرب منزلنا. هل عدت قبل المجزرة؟ لكني لا أذكر أني ركضت مع أمي ومع الأهالي الهاربين خوفًا بلباس النوم من شارع سليم سلام مرورًا بشارع بيتنا.

شعور ما، في الذاكرة المفقودة، يقول لي إنني كنت في الأشرفية عند اغتيال بشير الجميل. أتذكر شعورًا دون مشهد يملأه حزن أهل المنزل الذي كنت فيه بعد فرح وأشعر بما لازمني من غربة عميقة.

الصورة الرابعة - العودة

لم أدرك طول المسافة التي قطعتها وحدي على دراجتي الجديدة من حاجز «القوات» على المتحف ومنه إلى حاجز الجهة المقابلة، إلى أن شاهدت فيلم «تل الزعتر» في لندن العام ٢٠١٤. هل يعقل أني سرت وحدي طريقًا بطول شارع المتحف؟ كل ما أذكره أني ودعت عمتي وسرت بجانب الدراجة التي لم أكن أحسن قيادتها بعد، لأجد أمي في آخر الطريق. وجدتها لكني أدرك اليوم أني خسرت جزءًا من طفولتي في ذاك الصيف.

غادرنا بعدها إلى البرازيل وتقول لي خالتي إن زوجها البرازيلي أشفق عليّ لأني رأيت الحشيش الأخضر هناك لأول مرة. ربما فهم أني لست كباقي الصغار هناك أيضًا.



وصغر السن لا يعني أننا لم نفهم ماذا كان يجري بل أننا لم نكن نملك اللغة لنقص حكايتنا.

الصورة الخامسة - أن نرى الوحش

الصورة الأخيرة التي بقيت في مخيلتي هي لرائد ولي. ورائد ابن صديقي أهلي أكبر مني بسنوات عدة، وقفنا نسترق النظر من وراء ستارة صالون بيتنا على دبابة إسرائيلية مركونة في شارع مار الياس. لم يكن بيتنا يطلّ على الشارع سوى من خلال فتحة ضيقة بين العمارات. كانت هذه الفتحة كافية لنشاهد الجنود ونراقبهم. لم أصدق أن شكلهم كالبشر وكنت أعتقد قبل ذلك أنهم أشبه بالوحوش. كان عقلي الصغير لا يفقه كيف لهذه الجحيم أن يصنعها إنسان. فهمت عندها، من دون أن أعي، أن الإنسان وحده قادر على صنع الجحيم. وعندها زُرع فيّ شك عميق بالبشرية ونظامها وسلطاتها وخوفٌ من الموت ومن أن أفقد أهلي. هل هناك أعمق من فقدان الأمان المقرون بخوف طفلة من خسارتها لأهلها؟

«عن أمل لا شفاء منه»

في «دفاتر حصار بيروت» وفي نبذة اليوم الأول ٨ حزيران/ يونيو، اليوم الرابع للغزو، كتب فواز طرابلسي:

لم ينتج جيلي خطاباً يعطي معنى لما عشناه. كل ما ندركه ونتكلم به بشكل حميمي وداخل دوائر مغلقة هو أن المقتلة مازالت تسكن أجسادنا

«مناحيم بيغن يوجه نداء إلى «شعوب العالم» يشرح فيه أحداث عملية «السلامة للجليل». يركّز على حق أطفال إسرائيل في الذهاب إلى المدرسة بأمان أسوة بأطفال لندن وباريس ونيويورك. السلامة لأطفال الجليل! ولأطفالنا، القنابل العنقودية والانشطارية والفوسفورية. المدرسة لأطفال الجليل! واللعب المفخخة والأقلام المسمومة لأطفال لبنان وفلسطين. تلك شريعة بيغن. وهي، حتى إشعار آخر، شريعة لندن وباريس ونيويورك.

ولكن، على الحقد سينمو أطفالنا، من يخرج حيًا من هذه المقتلة. على الحقد سينمون ضد بيغن وأطفاله وأطفال باريس ولندن ونيويورك المرفّهين. على الحقد سينمون، بفضل سياسة التمييز العنصري بين الأطفال. والتمييز العنصري ضد الأطفال أعلى مراحل العنصرية. أي أسفلها وأشدها انحطاطًا!

على الحقد سينمو جيل من النساء والرجال يحمل ندوب بيروت - حزيران ١٩٨٢. ومهما طالت المعركة، سيعرف هذا الجيل كيف يبني حياة جديدة لا أثر فيها للتمييز بين الأطفال».

كان فواز طرابلسي محقًا عندما تكهن أن من سينجو سيكون مسكونًا بالعدالة. وأن عمق المأساة التي على العربي أن يدركها وهو يُقتل: أنه لا من يصدق أن ضحية. وكان ثاقبًا حين وصّف لعبة الاستبدال التاريخي حيث اليهود ينتقمون من النازيين بأجسادنا والغرب يتطهر من عقدة ذنبه تجاههم بدمائنا ويتفق الطرفان على وصمنا بالإجرام لكي يبقى قاتلنا ضحية ونصبح نحن القتلة وإن أطفالًا.

ماذا تبقى من الاجتياح فيّ؟ اكتشفت وأنا في أوروبا عندما سألوني لماذا لا أتقن ركوب الدراجة أن قصة الدراجة التي صدئت قبل أن أتعلم قيادتها هي مختصر قصة طفولتي. وكان عليّ كراشدة أن أقبل حقي بأن تكون تلك الطفلة التي كنت ضحية وعندها فقط أتحرر من خطاب الضحية. لم ينتج جيلي المولود بين منتصف سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن الماضي، أي أطفال الحرب الذين ولدوا في أولها وعاشوا معظمها أي أمضوا الجزء الأكبر من طفولتهم خلال سنوات ممتدة نسميها الحرب، خطابًا يعطي معنى لما عشناه. كل ما ندركه ونتكلم به بشكل حميمي وداخل دوائر مغلقة هو أن المقتلة مازالت تسكن أجسادنا لأربعين حولًا وحول. نحن الذين كنّا الأكثر اعتمادية وبلا مشيئة مستقلة، لم يشكل لنا العنف بابًا لحرية غير متوقعة. نحن كنا ضحايا ذلك العنف فقط.

رغم ذلك لا أدري كيف نجحنا بأن نكون معنيين بالعدالة، ولكن ليس بالانتقام، فلا أجد أثرًا للحقد في ما نحمل. هناك من يعود بالسبب للموروث الحضاري وهناك من يصف كيف تجسد العنف آلامًا وقلقًا. هل حماني بعض من تربيتي المسيحية في المدرسة؟ أم هل هو حس الجماعة التي نشأت بينها؟ لا يقين يشرح كيف لم يصبح أطفال تلك الطفولة السليبة على صورة قاتلهم. ولا أدري لو نجونا بالفعل ووعد الحرب ما زال كامنًا. جلّ ما أدركه هو أن هناك أطفالًا في دواخلنا يريدون أن يرووا قصص الوحش التي رأوا.


في أحد ملاجئ بيروت، تموز/يوليو ١٩٨٢.



«كي لا ننسى»
عن تدمير مخيم عين الحلوة وقصص حارتي

رشا صلاح

مستشارة مستقلة لمشاريع فنية وثقافية. المنسقة والمؤسّسة المشاركة لـ«استديو بيروت كونتمبروري» في بيروت. لها كتاب «العام القادم في طبريا». وشاركت في إخراج الفيلم الوثائقي «نساء فلسطينيات منسيات السلام» مع المخرج الفرنسي فرانسيس بوشيه

في عام ١٩٨٢ كان عمري تسع سنوات. في الـ٨٢، خرجت منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان. ظنوا أن خروج المنظمة سيحمي لبنان من الحرب لكنه لم يحمِ أحد أو شيء.

أخذتنا أمي لنودع الفدائيين. رشسنا الرز والورد وبكينا أطفالًا وكبارًا. رحل الفدائيون وحملوا معهم ما تبقى من أرشيفنا ليضيع بعدها في البحر وصحراء الجزائر وفي كونتينرات على الحدود. أبحروا مع قصصنا وأبحاثنا وصورنا وكتبنا وذكرياتنا.

هذه كانت أصعب هزائمنا وبداية النهاية.

فلسطيننا الصغيرة

خرج الفدائيون ودخلت الدبابات الإسرائيلية لتجتاح لبنان.

دمر الاحتلال مخيم عين الحلوة. فلسطيننا الصغيرة التي لم نعرف فلسطين غيرها. دمّر المكان الوحيد الذي كنا نشعر فيه بأمان. في مخيمنا كنا نصرخ عاليًا باللهجة الفلسطينية من دون خوف. كنا نركض في الأزقّة. ونغسل القبور أيام العيد. وكنا نشم رائحة الخبز، وقلاية الخبيزة والبصل المحروق والقهوة بالهال وزهر الليمون. أعدنا بناء المخيم ولكن خسرنا شيئًا من روحه.

أما في تلك الصور التي أعيشها اليوم وأنا أكتب، فأشم الموت والحزن. أشم اليأس الذي تلا الدمار، وأشم الخيبة التي تلت الصفقات التي تتالت بعدها حتى وصلنا إلى أسوئها، أوسلو.

سأحاول ألا أنسى. أضغط على ذكرياتي كي تبقى هنا. أحاول ألا أنسى. أعيد الأحداث في رأسي. قررت أن أكتب أكثر عن عين الحلوة وقصص حارتي. علّني أنقذ القليل مما تبقى في ذاكرتي.

بناية البوتاجي

عندما بدأ الاجتياح الإسرائيلي كانت أمي تعمل في شاتيلا. كانت أول ضربة على المدينة الرياضية. ركضت أمي فورًا إلى البيت لتطمئن علينا وطبعًا لتعقد اجتماعًا هي وأبي وتجري بعض الاتصالات مع الرفاق للتشاور حول ما العمل؛ وين بدنا نروح وكيف بدنا نتحرك.

لا أستطيع أن أتذكر كيف انتقلنا وما هو تسلسل النقل بين البيوت، لكنني أذكر أننا لم نبق طويلًا في مكان واحد، لربما فقط في شقة صديقة أهلي خالتو سعاد سلوم. كان ذلك في بناية البوتاجي وكانت هذه المرحلة هي الجزء الجميل من تلك السنوات القاسية.

كانت الشقة الوحيدة التي وجدنا أنفسنا فيها مع أعضاء العائلة فقط؛ خالتي انتصار وأولادها وعمتي فوزية وأولادها وأنا وأمي وأخوتي وخالتي عبير التي عاشت معنا ودرست في الجامعة العربية.

كانت الأمهات يتهامسن ويتناوبن على العمل داخل البيت وخارجه لتوزيع المؤن واللقاءات وتوصيل الرسائل للرفاق وتهريب الأزواج لأماكن آمنة، وغيرها من المهامّ التي توزعت بطريقة صامتة ومدهشة، وكأنهن تدربن لسنوات لخوض هذه اللحظة. نحن الأطفال، اخترنا أن نجعل من طاولة السفرة، بالأحرى تحت الطاولة، ملجأ لنا. نقوم وننام ونأكل ونلعب تحت تلك الطاولة!

حينها كانت أول مرة أتعرف بها على قدرة الخيال وكيف يتغلب على الخوف، ذاك الخوف المزمن الذي رافقني كل طفولتي. كنت أخاف من العتمة، ومن العلو، ومن القبو، ومن اللبنانيين الكبار منهم والأطفال في مدارس بيروت، ومن المدرسة نفسها. كنت أخاف من غياب أمي، وأخاف من الصمت، وأخاف أن أفقد أخوتي، وألا يعود أبي. كنت أخاف من عدد الرفاق المختبئين بالتناوب في غرفنا. وأخاف من المكتب الثاني الذي كان يدهم بيتنا في طريق الجديدة. وأخاف من التكلم كي لا تختّي لهجتي الفلسطينية المدبوغة بكلمات بدوية من جدتي وعماتي.

كنت أخاف أن أصبح كافرة، ومن عقلي الذي كان يكفر نكاية بي حتى أفحش بالبكاء وأستغفر ربي مئة مرة دون توقف. كنت أخاف من انعكاس ظل السيارات ليلًا على السقف والجدران، وأخاف من القطط والكلاب والسكارى والأسلحة. كنت أيضًا أخاف ألا أحب فلسطين كما يجب، إذ لم أفهم أي شيء حينها غير أننا كنا لاجئين وعدم وجود أهلي معنا هو لأنهم يناضلون من أجل فلسطين. كنت أخاف من صوت الرعد وصوت الأذان والرصاص والقنابل والطيران وجدار الصوت وصريخ الجرحى ورعب الأطفال الهستيري.

خفت من كل شيء... حتى اكتشفت أنني إذا أغمضت عيني! وتخيلت فأنا أستطيع التغلب على الخوف وأتخيل أن صوت الصفارات والقنابل ما هو إلا مهرجان في ملعب كرة قدم، وأنا جالسة مع المشجعين نصرخ ونطبل ونرقص فرحًا.

كنت أجعل من العتمة ورائحة الشمع كل أعياد الميلاد التي لم أُدع لها. بدأ خيالي يتطور لأصبح راقصة باليه ولاعبة تنس وعازفة بيانو وبطلة الكلل والبليياردو ورئيسة عصابة كلها فتيان وعندي دراجة نارية أتسابق بها مع أخي ربيع. كنت أتكلم لغات كثيرة منها الروسية واليابانية. وكنت تلميذة بروسلي وحتى أنني نظّمت لقاءً معه لأخي الذي كان يعبده مثلي.

لكنني في يوم من الأيام، بعد صوت انفجار مرعب لم يحرك لي جفنًا عند دويّه، خفت بعدها ألا أعود من أحد خيالاتي. فتوقفت.

لقاء الجنود الإسرائيليين

جاءت جدتي أم صلاح لتطمئن علينا في بيروت ولنعود معها إلى عين الحلوة. استأجرنا سيارة كاملة يقودها أبو سمير. كانت جدتي تجلس في المقدمة، وفي الخلف عمتي فوزية وولداها لمى ووسيم، وابنة عمتي أم وائل، بثينة ذات العينين الخضراوين، وأختي رولا، بطلة هذا الوفد (إذ هي الوحيدة التي تطوعت لحمل رسالة إلى أحد الرفاق في صيدا) وأنا التي كنت ملتصقة بأختي ومختبئة خلف كتف عمتي.

وصلنا إلى حاجز إسرائيلي، حذرنا أبو سمير من أن الجنود يتكلمون العربية بطلاقة كي ننتبه لما سنقوله خلال التفتيش.

قلبي بدأ يتنطنط بين ضلعيّ حتى ظننت أنني سأفقد وعيي. أيّ نوع من الوحوش ستكون أشكال هؤلاء الجنود؟ كيف هي أصواتهم؟ هل يصرخون أم يشخرون؟ ما هي اللغة التي يتكلمونها؟ هل هم نصف بشر ونصف وحوش، أم وحوش من رؤوسهم إلى أقدامهم؟ بدأت أتنفس بسرعة رهيبة بالكاد يحتملها قلبي. وبدت عمتي فجأة خائفة أكثر مني، فنشلت رأسي من خلفها وخبّأته خلف ظهر أختي الشجاعة التي لم يتأثر حتى تنفسها الهادئ. توقفت السيارة. فتحت أول عين ونظرت بخشية من خلف رولا، لأرى بشريًا يقف ومعه سلاح يبتسم بتعالٍ ويمضغ علكة في فمه بشكل عصبي ومستفز. بحثت عن زملائه حوله. «كلهم بشر!» صرخت عاليًا من صدمتي. قرصتني عمتي في فخدي لتسكتني. ونظرت أختي إليّ وقالت: شو عم بتقولي؟ «كلهم بشر» أجبتها مصدومة. لم تفهم وقتها لماذا كنت مصدومة. ولم يفهم أحد غيري حينها أنني كنت من كثرة خوفي متأكدة أن الإسرائيليين هم ليسوا بشرًا مثلنا بل وحوش بأجسام غريبة مثل الوحوش التي تظهر لسندباد في كل حلقة. لماذا لم يخبرني أحد بهذا التفصيل المهم؟

أعطى السائق هويات عمتي وجدتي وبثينة للجنود. تمعن الجندي في كل واحدة ودقق في كل وجه من الوجوه الموجودة في السيارة. لن أنسى بحياتي عندما جاء دور وجهي للتدقيق ونظرت بعينيه كيف في هذه اللحظة لم أخف. بل وكأن اكتشافي الصادم أغضبني لدرجة أن خوفي أخذ مكانه الغضب والرغبة في اقتلاع عينَي هذا الجندي البشري! لماذا لم يخبرني أحد بهذا التفصيل المهم؟ تخيل لو لم ألتق بهؤلاء الجنود لظننت حتى عمر كبير أنهم ليسوا بشرًا! غضبت من أهلي لعدم إخبارنا أنهم فقط بشر وممكن هزمهم لو قررنا ذلك.

صحوت من أفكاري عندما صرخ الجندي بوجه ابنة عمتي بثينة. «انزلي من السياغة!» أمرها بغضب. نزلت بثينة من السيارة بخوف ولكن رغم خوفها سألته بعناد: «ليش؟ شو بدّك؟». أصرّ أن عليها أن تنزل لأنه يريدها أن تتذوق عنبًا من إسغائيل، على حسب لفظه.

أصرّت بثينة على رفض عنقود العنب. بعد محاولات عديدة من الجندي، منها أنه قال إن عليها تذوق عنب بلادها، وبرضو رفضت. فقَد بعدها الجندي أعصابه فبدأ بدفع حبة العنب في فمها. أصرت على عدم إدخالها، بصقتْها، فصفعها، ثم أمر سائق السيارة بالذهاب دونها.

بدأت عمتي تهمس بالفاتحة، وخفنا نحن من فقدان بثينة فبكينا. ولكن جدتي قررت أننا لن نتحرك من دون حفيدتها. فطلع الشرش [الأصل] البدوي وأخرجت جدتي رأسها من شباك السيارة لتقول وبصوت عال وحازم «مش متحرتشين [لن نتحرك] من هين غير والبنت معنا!» وشدت على يد أبو سمير آمرة إياه ألا يتحرك. بقينا على هذا الحال حتى استسلم الجندي لجدتي وعناد بثينة وتحركنا أخيرًا نحو عين الحلوة منتصرات.

عين الحلوة

وصلنا إلى عين الحلوة، من دون أن ندرك أو نتعرف إلى عين الحلوة. لم يعد هناك فرق بين الزاروب والأرض والسطح



والحارة والبيت والحاكورة أو الدكان. كان كل شيء مبسوطًا على الأرض كجرّة فخّار مكسورة «ميّت شقفة» على حسب تعبير جدتي أم صلاح.

توقفنا أكثر من أربع مرات نسأل عن حارة عرب الغوير، التي نأتي منها. حارتنا، زواريبنا، شجر الليمون وبائعة الحليب حليمة، السكة التي كانت العاشقات تتمشين على طولها مع الحبيب السري، سطح بيت جدي والحاكورة وشجرة التين ودجاجات جدي وحتى الملجأ العتن لم يعد لها أي أثر.

كان المنظر صادمًا، وكان الصمت في السيارة مرعبًا. وجه جدتي كان يقسو ويشتد أسى مع كل مارٍّ لم تتعرف إليه أو إليها. ثم ظهرت إحدى جاراتنا فصرخت جدتي «إقَف إقَف هين! هاي أم يوسف!».

تنفسنا الصعداء جميعًا وتوقفت السيارة عند دمار لا وجه له ولا مَعلم ولكن حسب الحاجة أم يوسف فهذه النقطة هي ما كان مدخل بيت جدي حيث الحاكورة الصغيرة وبيت جدي إلى الشمال وبيت عمي أبو وائل إلى يمينها.

نزلنا من السيارة. وبعد التدقيق بدأنا نتعرف إلى بعض الحيطان المهدّمة والأشياء المختبئة تحت هذا الدمار والغبار. تأكدنا أننا في البيت الصح.

لست قادرة اليوم على استرجاع أي تفصيل ممّا حدث بعد ذلك، رغم كل محاولاتي. ولكن ما يأتي إلى ذاكرتي هو سلسلة من الأحداث وكأنني أتفرج داخل رأسي على ألبوم صور وأتحزر أي صورة في أي تاريخ وأي تسلسل.

هنا صورة لمخيم بلا رجال... كلهم في معتقل أنصار. وهنا صورة لجثة منفوخة على الطريق لم يجرؤ أحد على انتشالها. وهناك نساء وأطفال، وأنا منهم، يعملون كالنحل لإعادة بناء ما هدمه الطيران والقصف الإسرائيلي. وهنا عمتي أم وائل وجاراتها يخبزن ويوزّعن الأرغفة والمناقيش على كل من يعمل في حارتنا. وهنا صورة لملجأ عتم ومقرف لدرجة أنني أستطيع أن أشم رائحة العفن بمجرد تخيّل المكان. وهنا أنا وأولاد عماتي نطارد أسلاك النحاس الرفيعة التي تسقط مع كل قذيفة لنبيعها أو نداكشها [نقايضها] بسكاكر أو بمشاهدة أفلام بوليوود وبروسلي.

تذكرت الآن أن بوستر بروسلي الوحيد الذي اشتراه لي ابن عمتي قد اختفى في الدمار أيضًا.

العودة إلى بيتنا

لا أدري كم من الوقت مضى قبل أن أكون أنا وإخوتي في بيروت مع أمي وأحيانا أبي عندما لا يكون فارًا أو متنكرًا.

عدنا أخيرًا إلى بيتنا في طريق الجديدة. بمساعدة شاب اسمه وسام، توفي بعدها، استطعنا ترميم ما يمكن ترميمه في الشقة، والتخلص من كل العفش المحطم بالصاروخ الذي استهدف الشقة وبالتحديد شقّة أبي.

لم يعد هناك إلا خزانة واحدة وهي خزانة أهلي، فكنا سعداء أن شيئًا واحدًا على الأقل قاوم الصاروخ. وكانت هناك رصاصة قد اخترقت هذه الخزانة وجاكيت علّق داخلها حيث دخلت الرصاصة من جهة وخرجت من الجهة الأخرى.

لم يبق أي سرير في غرفتنا، فتخلصنا من الخشب المكسور واحتفظنا بالفرشات التي وضعناها فرحين على الأرض.

لم نأبه لأي من الخسارات، لا العفش ولا الثياب ولا حتى الألعاب. كانت سعادتنا بالعودة إلى البيت والخصوصية بعد أن عشنا مع عوائل مختلفة وتنقلنا من بيت إلى آخر حتى نسينا أين نمنا وأين استيقظنا.

البيت كان فيه ضوء جميل. وخالتو أم سعيد جارتنا البيروتية الحبيبة كانت أيضًا سعيدة بعودتنا أحياءً رغم خوفها من الاستهداف الدائم للمبنى بسبب أبي.

طبعاً ذكريات هذه المرحلة لا تقف هنا، وهناك الكثير من القصص والأحداث التي لم أستطع أن أجد لها تاريخًا أو عنوانًا أو حتى في بعض الأحيان أن أتأكد إذا ما كانت حقيقية أو من نسج خيالي. ولكن هذا بحد ذاته مأساة. ليس لنا روايات شخصية مدوّنة. نعيش بذاكرة جماعية ننسى حتى التأكد من مصادرها وحقائقها فنصبح مقيدين بما هو مكتوب هنا وهناك.

عندما بدأت الكتابة عن الـ٨٢، اتصلت بأمي وأختي وزرت عماتي في عين الحلوة. سألت بثينة أن تؤكد لي حادثة الجندي، ضحكت وقالت لي «لا أذكر أي شيء عن هذه القصة. أعرف أنني عايشتها ولكن لا أذكر أي تفصيل». استغربت. كيف لأحد عاش حادثة كهذه أن ينسى؟ اضطررت أن ألجأ لعمتي فوزية لتخبرني التفاصيل.

وحين سألت أمي وأختي عن تسلسل النقل والبيوت في بيروت، أيضاً وجدت أننا نسينا. أمور اشتبكت ببعضها. أي مصيبة أتت قبل أي مجزرة في أي مخيم أو حي، وفي أي بيت؟ كيف للعقل أن يتذكر؟ متى تتوقف الأحداث لتعطي الناس الوقت للملمة أشلائها وذكرياتها والبكاء والعزاء على ما فقدته؟ متى نفهم بأن السيرة الشخصية لا تهدد السِيَر الجماعية ولا تشكل خطرًا على الرواية الملزمين بها كمجموعات، بل هي تضيف وتوثّق أحداثًا عشناها جماعيًا ولكنْ كل منا بخصوصية وسردية مختلفتين.

كيف نروي لأولادنا ما عشناه بحميمية ولكن أيضًا بدقة؟

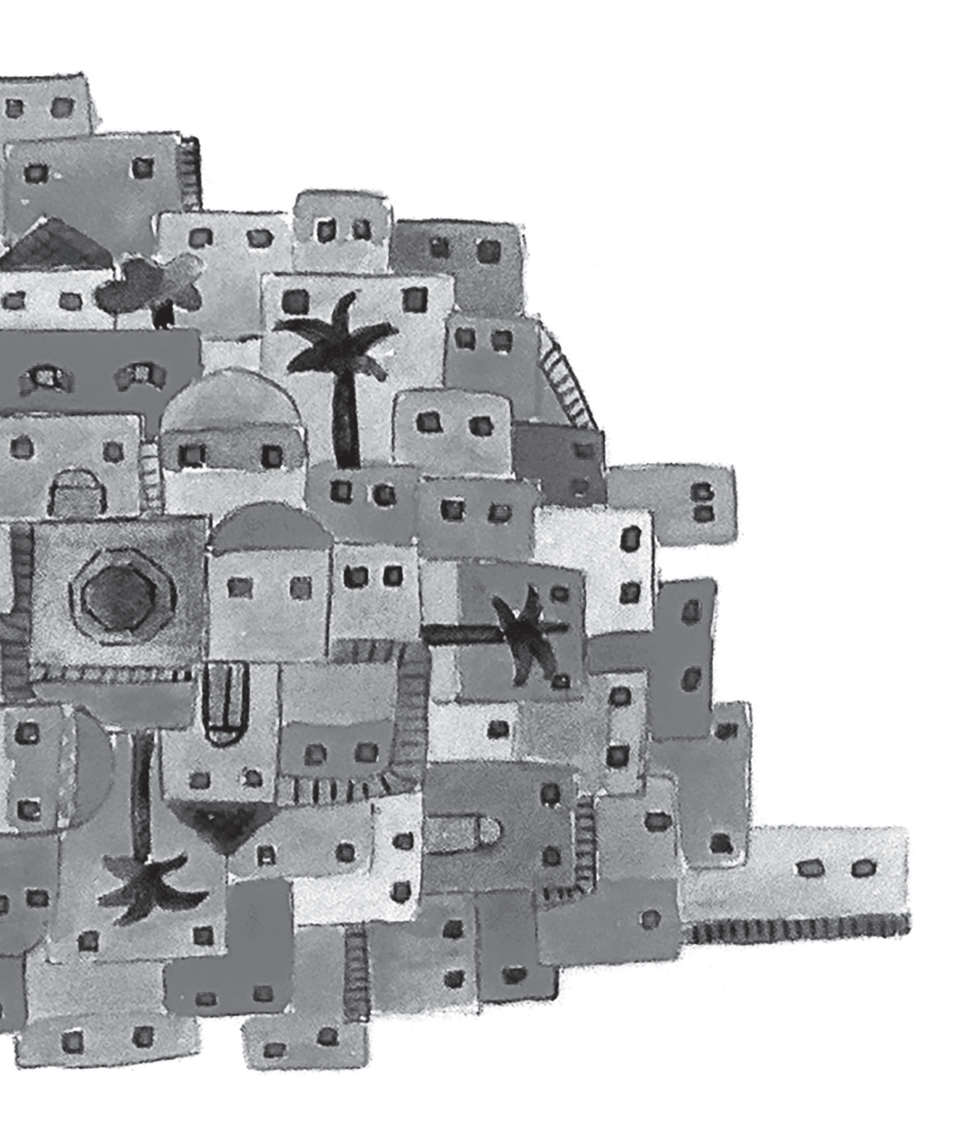
كيف نطبق شعار «كي لا ننسى» ونحن أصلًا ننسى. تناسينا فنسينا. ظننا أننا لن ننسى ولكننا نسينا. أحيانًا عن قصد وأحيانًا أخرى بغدر من الذاكرة والتاريخ واليوميات الممتلئة بقصص كثيرة جديدة علينا ألا ننساها.



امرأة فلسطينية في مخيّم عين الحلوة
للاجئين الفلسطينيين، ١٩٨٢.

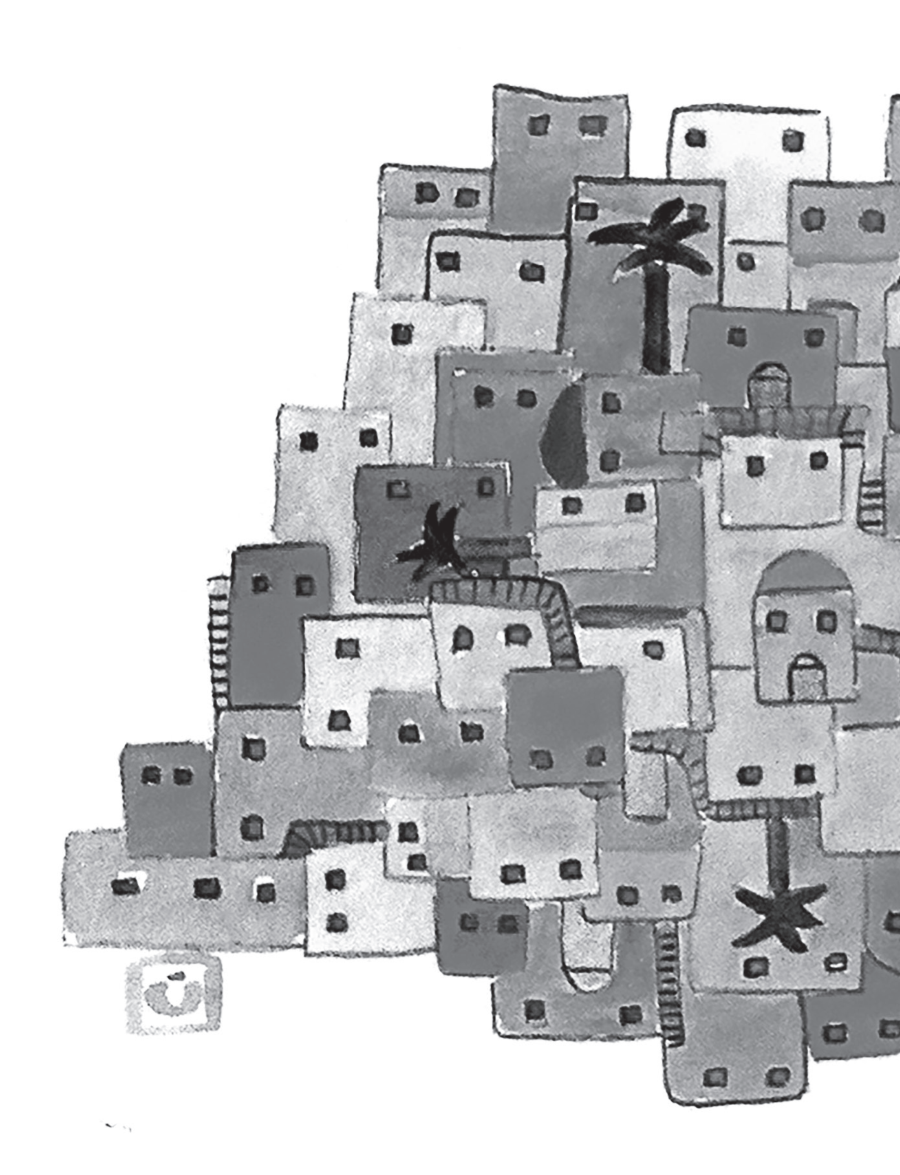

ذاكرة
كي لا ننسى
بيروت ١٩٨٢













الجزائر ١٩٦٢
الاستقلال من وجهة نظر الشعب

ملكة رحّال

مؤرّخة وباحثة، الجزائر - فرنسا. متخصصة بتاريخ الجزائر

ننشر هنا تقديمها لكتابها «الجزائر ١٩٦٢، تاريخ شعبي» الصادر بمناسبة الذكرى الستين لاستقلال الجزائر

سنة ١٩٦٢ في الجزائر هي سنة نهاية الحرب والانتقال العسير نحو السلام في آن معًا. تضع نقطة النهاية للاستعمار الفرنسي الذي استمر ١٣٢ سنة، موسومًا بمزيج نادر من العنف والتثاقف، وتشهد السنة أيضًا على ولادة دولة جزائرية كانت مهمتها الأولى تأمين استقرارها الذاتي وبقاء السكان في أرضهم وإعادة تعريف ماذا يعني أن يكون المرء جزائريًا.

الأفضل هو النظر إلى ١٩٦٢ من الخارج. تكتسب تلك السنة أهمية دولية لأنها ترمز، في بلدان الجنوب، إلى استقلال الشعوب المستعمَرة. ومن جهة أخرى، باتت حرب التحرير الجزائرية نموذجًا ومرجعًا بفضل طبيعتها واستمراريتها، وبفضل قوة رموزها (فيلم «جميلة الجزائرية» ليوسف شاهين ذو الرواج الكبير في العالم الثالث، أو الجميلتان جميلة بوحيرد وجميلة بوباشا). وجرى الاعتراف بـ«جبهة التحرير الوطني الجزائرية» بفضل كتّابها، بمن فيهم فرانز فانون، والدعم الذي قدمته إلى حركات التحرر الوطني في العالم. هكذا شكل استقلال الجزائر تاريخًا يتجاوز حدود البلد الجديد.

«الأقدام السوداء» و«الحركيون»

في فرنسا، عرف ١٩٦٢ من خلال التجارب المميزة لـ«ذوي الأقدام السوداء» [المستوطنين الأوروبيين] و«الحركيين».

من أصل سكان فرنسيين يبلغ عددهم مليون نسمة (أي ١٠٪ من السكان) غادر ٦٥٠ ألفًا الجزائر سنة ١٩٦٢، بينهم مجموع اليهود تقريبًا. إنّ سرديات ما سُمّي باكرًا «الهجرة» هي المعروفة أكثر من سواها: هي الأكثر عرضة للدراسة في أعمال تاريخية كثيفة، احتلت موقعًا مركزيًا في وسائل الإعلام وعالم النشر. وفي الوقت ذاته، بدأ العالم يتعرّف إلى تجارب «الحركيين»، التسمية العامة التي تشير إلى الذين خدموا سابقًا في الجيش الفرنسي وقد غادرت أعداد منهم الجزائر إلى فرنسا سنة ١٩٦٢. إن ظروف مغادرة هاتين الفئتين المختلفتين وأيضًا مسألة اندماج هذه وتلك في فرنسا وأخيرًا بناء ذاكرتها الجمعية، لا تزال موضع نقاش في فرنسا. وتشترك تلك التواريخ المختلفة في أنها صيغٌ مأساوية للحدث الذي وقع سنة ١٩٦٢.

المفارقة هنا أنه فيما الاستعمار يلفظ أنفاسه، إذا بتاريخ التابعين السابقين، أولئك الذي خضعوا للسيطرة الاستعمارية، يبدأ في الاختفاء. لا تزال معارفنا ناقصة جدًا عن تجربة أكثرية السكان الذين بقوا في البلاد سنة ١٩٦٢. معظمهم من المستَعمرين السابقين، أي «السكان المحليين» أو «الفرنسيين المسلمين»، حسب التسمية الكولونيالية، ممن كانت الحركة الوطنية تطالب بهويتهم الجزائرية منذ عدة عقود من الزمن. ولكن بقي في الجزائر أيضًا «أوروبيون» سابقون طرح عليهم في الآن نفسه خيار وإمكانية أن يصيروا جزائريين، والأمر نفسه ينطبق على «حركيين» سابقين نادرًا ما يُذكر مصيرهم في البلاد فيما يتعدى أعمال العنف التي تعرضوا لها سنة ١٩٦٢.

١٩٦٢ بواسطة التاريخ الشعبي

الهدف الأول للكتاب إذًا هو إعادة الاعتبار للطريقة التي عاشت بها تلك الأكثرية «المتحولة إلى أقلية» العام ١٩٦٢ بناء على ما نعرفه إلى الآن عن ذلك الحدث.

تنتظم سنة ١٩٦٢ في ثلاث لحظات: وقف إطلاق النار الموقّع في «أفيان» الذي نفذ يوم ١٩ آذار/مارس؛ الاستقلال في تموز/يوليو الذي جرى الاحتفال به في الخامس منه؛ وأخيرًا قيام الدولة الجزائرية مع إعلان الجمهورية يوم ٢٥ أيلول/سبتمبر.

ترسم هذه الأحداث فصولًا هي فصول سياسية قبل أي شيء آخر: يعرف البلد خلالها فترة «انتقالية» ابتداء من إعلان وقف إطلاق النار، ثم يشهد أزمة سياسية داخلية في «جبهة التحرير الوطني». لكن هذا التاريخ السياسي، المعروف على نطاق واسع، يخبّئ تجارب معيشة.

بناء على التعرّف إلى نهايات حروب أخرى (الحروب الأوروبية، الحروب العالمية أو حرب الانفصال الأميركية) يعمل الكتاب على التبحر في التجارب المنسية للنهاية الغريبة للحرب الجزائرية. في غياب وثائق دولة رسمية تسمح بالإحاطة بتجارب مشتركة، كما هو الحال في أوروبا، كان علينا إعادة بناء تلك الوثائق بواسطة تراكم التجارب الفردية: شهادات، سِيَر، مقابلات في الصحافة، صور أو أفلام وكالات أو صور وأفلام شخصية وأيضًا أغانٍ وأشعار، كلها مجندة هنا لتسجيل تاريخ شعبي للعام ١٩٦٢ في الجزائر.

وقد استلهمت في شغلي من التأريخ الشعبي الذي يمارسه هاورد زِنّ أو ميشيل زانكاريني-فورنيل واهتمامهما بإعادة بناء مسارات أشخاص من بيئات متواضعة مع إيلاء أهمية خاصة لسرديات النساء، والابتعاد عن التاريخ السياسي أو الدبلوماسي. كما أنني استعير أيضًا من «دراسات التبعية» لبارثا تشاترجي أو رانجيت غوها الانشغال بكتابة تاريخ الذين أخضِعوا للسيطرة الكولونيالية وبالتالي للمحو، في اللحظة التي شارف بها الاستعمار على نهايته، وإن يكن هذا التاريخ لم ينتهِ تمامًا بين ليلة وضحاها.

ينضوي الكتاب حول أربعة أسئلة موزعة على أقسامه الأربعة. كل قسم معالج بفصول قصيرة، تدور كلها حول تواريخ فردية وروايات حية ترسم صورة تاريخ شعبي.

١٩٦٢. العنف، الأجساد، المكان

كان السؤال الأول هو معرفة ما مثّلته سنة ١٩٦٢ بالنسبة للعنف. قبل أن تسمح باستتباب الهدوء، شكلت ١٩٦٢ ذروة في أعمال العنف صعقت المراقبين الأجانب، إلا أن المفارقة ظاهرية فقط، لأننا شهدنا حالات مماثلة في نزاعات أخرى. حتى أنّ وقف إطلاق النار يفتتح بذاته فترة من تجدّد العنف، إنه العنف الذي مارسته «منظمة الجيش السرّية» وأيضًا بعض أعمال العنف الانتقامية التي طبعت نهاية الحرب، مترافقة مع أعمال عنف بين الجزائريين أنفسهم سوف تطول.

ترتبط أعمال العنف، في الحالة الأولى، بالفجيعة الناجمة عن قرب انتهاء العالم الكولونيالي، وفي الحالة الثانية بالغليان الجماعي عشية الاستقلال. وإنّ الخروج مِن الإطار الجزائري الوحيد للتفكير بالمقارنة مع حالات أخرى من الخروج من الحروب يسمح بإعادة اكتشافها بحالاتها الأصلية.

كان السؤال الثاني هو معرفة ما الذي فعلته ١٩٦٢ بالأجساد، بالجسد الجمعي وبالأجساد الفردية على حد سواء. خلال حرب التحرير، كان شاغل «جبهة التحرير الوطني»، ابتداء من تأسيسها سنة ١٩٥٨، و«الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية» أن تأخذ على عاتقها شعبها. إلا أن عنف «منظمة الجيش السرّية»، والفوضى التي أحدثتها هجرة العديد من الموظفين والكوادر التابعين للمؤسسات الكبرى، أسرع في تولي الجزائريين الإدارة الذاتية، حتى قبل حلول الاستقلال، خصوصًا في مجالات العناية والتموين. ومن جهة ثانية، سمح توقف الأعمال الحربية بإعادة وصل العلاقات التي قطّعها العنف وأن يبحث جزائريون بعضهم عن بعض، وأن يلتقوا ويمارسوا أخيرًا طقوس الحِداد على موتاهم التي تأجلت طويلًا بفعل الحرب. والسؤال هنا هو معرفة كيف يُبنى مجتمع، أو يُعاد بناؤه، من خلال أحداث سنة ١٩٦٢.

مهما يكن من أمر، فإن التلاقي، والخروج من الحرب ومن العمل السرّي، يُمكن أن يثيرا صدمة اللقاء بعد انقطاعات الحرب واكتشاف أجساد مختلفة دمغتها تجارب الحرب، أو إدراك أن البعض لن يعودوا. من هنا فإنّ مغادرة الحرب يمكنها أن تكون تجربة أليمة و«العودة إلى الحميمية» مصدر خيبات للبعض.

السؤال الثالث هو عما فعلته ١٩٦٢ بالمكان. سجّل وقف إطلاق النار يوم ١٩ آذار/مارس ١٨٦٢ انتصـــــارًا لـ«جبهة التحرير الوطني» لاكتسابها سيادة شبه مطلقة على كامل التراب الوطني الجزائري تقريبًا، وهو مطلبها الأول منذ إعلان الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤. هكذا حرر وقف إطلاق النار التراب الجزائري: فتح معسكرات الاعتقال، معسكرات التوقيف والسجون، وسمح بأشكال من التواصل كانت ممنوعة حتى ذلك الوقت. فكانت الجزائر بذلك شبيهة بأوروبا عام ١٩٤٥ كما يصفها موديريس إكستين: بلد مثل مستعمرة نمل ينتقل الناس فيها بكل حدب وصوب. الأحياء والمحلات تغيّر هويتها، أحيانًا بطريقة عنيفة، عندما يغادرها سكانها «الأوروبيون» ليعاد تأهيلها بسرعة.

وبالرغم من الانفتاح، طوال المرحلة الانتقالية، بقي التراب الوطني منقسمًا بين الجيش الفرنسي و«جيش


جزائريون وجزائريات بعد إعلان الاستقلال، تموز/يوليو ١٩٦٢.

التحرير الوطني» وفي المدن حيث كانت «منظمة الجيش السرية» قوية، ظلّت الأحياء الجزائرية في حالة حصار. خلال الصيف، كان التراب الوطني يحتاج إلى إعادة توحيد ولو بدرجة أقل، بسبب النزاعات الداخلية. ومهما يكن، نشأت الحاجة لـ«ترميم» التراب الوطني ذاته لكي يستقبل اللاجئين ومن جمعهم لمّ الشَمل، ويرغبون في العودة إلى ديارهم، ما دام الأمر يتطلب نزع الألغام أو إعادة التحريج.

١٩٦٢: الزمن

أخيرًا، يعالج القسم الأخير من الكتاب أثر سنة ١٩٦٢ على الزمن. هنا كان المطلوب إعادة التفكير في سؤال غالبًا ما يُثار في الحقل السياسي الجزائري وهو عن دور الاستقلال في القطع أو في الاستمرارية، وهو ضروري من أجل التفكّر في تجارب الزمن المعيش. إنّ تقاسم الزمن الجذري الذي حققه الاستقلال هو في الواقع ثمرة شغل بدأ من ١٩٦٢ في ابتكار الماضي ومحاولة دفع الحرب إلى الماضي.

كان المطلوب إعادة التفكير في سؤال غالبًا ما يُثار في الحقل السياسي الجزائري وهو عن دور الاستقلال في القطع أو في الاستمرارية

في الآن ذاته، مثّل الاستقلال تحقيق انتظار طويل أعيد بموجبه تشغيل ذاكرة الأحداث القديمة، بدءًا بالاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٩ وعمليات مصادرة الأراضي في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وقد استتبع ذلك عملٌ دؤوبٌ من التخيّل، نُظِر إليه غالبًا على أنه إعادة إصلاح لمظالم الاستعمار. وقد تواصل هذا التخييل عن الاستقلال وتكثف مع اقتراب النهاية، وأضفى على نهاية الحرب بعدًا خلاصيًّا، تفاقم مع مغادرة الأعداد الكبيرة من فرنسيي الجزائر، ما فتح إمكانات لم تكن متصورة من قبل لإعادة الإسكان، والاستحواذ على الأراضي، أو الحصول على فرص اجتماعية ومهنية: كان بلدًا يتسّع لأحلام نضالية قدر ما يتسّع لإمكانات فردية عينية.

الجزائر سنة ١٩٦٢ بلد المستقبل، حتى لو أن الانتظارات الضخمة حملت معها إمكان خيبات عظيمة.



العرب في «إكسبو شيكاغو» ١٨٩٣
حضور فلكلوري مؤثر وجمهور مبهور بالاختلاف

تيسير خلف

باحث وروائي. فلسطين. سورية. من رواياته: «عصافير داروين» (٢٠١٨)، «مذبحة الفلاسفة» (٢٠١٦)

كان العرب في عصر الإكسبو الذهبي، من لندن ١٨٥١ مرورًا بباريس ١٨٨٩ وصولًا إلى شيكاغو ١٨٩٣، يعيشون في عصر بالغ القتامة، موزّعين بين مجموعة من الدول التي تسيطر عليهم. لكنّ قوة الثقافة العربية، وحضور الرموز العربية في الوجدان العالمي، حتّما على أي مخطط لمعرض «إكسبو» أن يأخذ بعين الاعتبار وجود العرب في الفعاليات الترفيهية الموازية لمعرضه.

كانت البداية الفعلية في باريس ١٨٨٩، حين شارك حرفيون وفنانون، من سورية العثمانية ومصر ودول المغرب العربي، في الفعاليات الموازية للمعرض، فكانت مشاركتهم هذه عنصرَ الجذب الأبرز للجمهور، إذ كانت الرومانسية الأوروبية لا تزال مأخوذة بعوالم «ألف ليلة وليلة» وصورة بغداد المتخيلة، بجواريها الراقصات وقبابها الغريبة. ولذلك امتازت المشاركات الفنية العربية باستعادة تلك العوالم السحرية، وتقديمها للجمهور الأوروبي المتلهف لسبر غور عوالم الشرق الغامضة، كما ترسمها مخيلته.

أما في شيكاغو ١٨٩٣؛ فقد اختلف الأمر كليًّا، إذ لم تكن الولايات المتحدة الأميركية معنيّة بصور «ألف ليلة وليلة» بقدر عنايتها بتعريف نفسها وتحديد موقعها ودورها الجديد، فظهرت في ذلك المعرض فكرةَ أن الولايات المتحدة هي خلاصة التقدم البشري والإمبريالية القادمة مع عصر الكهرباء. ولذلك أراد المخططون، وهم من نخبة المفكرين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا الأميركيين، أن يحضر العالم القديم بكل تفاصيله وألوانه، العرقية والفلكلورية البصرية والموسيقية، لكي «تتضح فرادة الولايات المتحدة في مسيرة تطور البشرية».

١- شوارع القاهرة في شيكاغو

اعترافات جورج بنغالو

كان الجناح المصري المسمّى «شارع القاهرة»، أو «الشوارع في القاهرة»، في منطقة الترفيه «ميدواي بليزانس» هو الأكثر جذبًا لرواد المعرض العالمي، وذلك بسبب هندسته التي أتت نسخة طبق الأصل عن شارع قاهري تقليدي تعجّ فيه مختلف وسائل الترفيه التي شملت الرقص الشرقي والغناء ومسرح الشارع وركوب الجمال والحمير وغير ذلك من تفاصيل الحياة المصرية.

وكان صاحبُ الامتياز مصرفيًّا من إزمير يدعى جورج بنغالو (١٨٥١- ١٩٢٣م)، أمّه إنكليزية وأبوه يوناني، ويعمل مديرًا لبنك الأنغلو المصري. وقد كتب بنغالو مقالًا نشره في مجلة «كوزموبوليتان» الأميركية عام ١٨٩٧، مستذكرًا تفاصيل تلك المشاركة بأسلوب محبّب تشوبه نزعة الاعتراف.

بدأت القصة، بحسب رواية بنغالو، في أحد أيام كانون الأول/ ديسمبر الجميلة المشرقة من عام ١٨٩٠، حين سمع للمرة الأولى بخبر المعرض العالمي في شيكاغو. وفور ذلك، خطرت بباله فكرة المشاركة بجناح مصري، وكانت الخطوة الأولى طلب لقاء الخديوي توفيق (١٨٥٢ - ١٨٩٢) الذي سبق أن اجتمع به في مناسبة سابقة. وبعد محادثة استغرقت نصف ساعة خرج بنغالو راضيًا تمامًا، إذ استطاع الحصول على موافقة مبدئية على مشروعه، بشرط تنفيذه على النحو الذي حدّده له صاحب السيادة في البلاد.

لكن الخديوي توفيق، الذي قدم الكثير من التشجيع للمشروع، فارق الحياة إثر وعكة صحية ألمّت به في ٧ كانون الثاني/ يناير عام ١٨٩١، أثناء تواجد بنغالو في الولايات المتحدة، وكان وريثُ العرش الابن الأكبر عباس حلمي الثاني (١٨٧٤ - ١٩٤٤)، الذي كان على وشك الانتهاء من دراسته في «كلية ثيريسينوم» شبه العسكرية في فيينا.

وفي اللقاء الذي جمعه بالخديوي الجديد، تحدث بنغالو عن العالم الجديد وكلّ ما رآه وسمعه حول المعرض الكولومبي المقبل. وقد لاحظ اهتمامَ عباس حلمي الثاني بالأمر على نحو خاص الذي عبّر له عن أسفه لعدم قدرته على زيارة المعرض، كما كان يخطط، بسبب وفاة والده المفاجئة، وطلب منه رؤية المخططات التي أعدّها المهندس النمساوي ماكس هيرز بك (١٨٥٦- ١٩١٩م)، وتمنّى له كل النجاح والتوفيق.

عاد بنغالو في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٨٩١، مرة أخرى إلى شيكاغو، لتقديم الأوراق المطلوبة إلى اللجان المعنية. وعلى الرغم من موافقة المسؤولين عن هذه اللجان على المخططات، ووضْع إشارة إلى أن كل شيء سيكون «على مسؤوليته الشخصية»؛ حصل تلكؤ في موضوع منح الامتياز من جانب «لجنة السبل والوسائل»، ربما بسبب ظهور عدد من المتقدمين الآخرين. وبعد انتظار استمر نحو سبعة أشهر، مَنحت اللجنةُ بنغالو في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١، وبغالبية الأصوات، الامتيازَ المنشود، متقدمًا على ثلاثة منافسين آخرين. وكان هذا الفوز نتيجة دعم عدد من شخصيات شيكاغو التي اقتنعت بجمالية المشروع، وقدمت النصيحة المناسبة لصاحبه، إذ كان الحصول على الامتياز يحتاج إلى سلسلة من الإجراءات والمتطلبات القانونية، ليس أقلها تأسيس شركة باسم «مصر- شيكاغو: شوارع القاهرة»، برأس مال قدره ٢٢٥ ألف دولار أميركي للعمل نفسه.

وزع بنغالو نصف مليون إعلان يدوي باللغة العربية في جميع الأحياء الشعبية القاهرية، عن عجائب العالم الجديد وعن معرض شيكاغو

كان لا بدّ من الشروع في إقامة المباني، والبدء بالبحث عن المشاركين في فعاليات المعرض، فغادر بنغالو إلى القاهرة في ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١. ومن فوره، استأجر مكاتب لشركته في مكان جذّاب وسط القاهرة، وبدأ بتوزيع نصف مليون إعلان يدوي باللغة العربية في جميع الأحياء الشعبية القاهرية، عن عجائب العالم الجديد وعن معرض شيكاغو، والجناح المصري المقترح. وطاف بصحبة عشرين موظفًا مصريًا في أنحاء المدينة، وتحدّثوا للناس عن المشروع كما قابلوا تجّار التحف الشرقية وحدثوهم عن المعرض الذي سيقام في العام المقبل، ودعَوهم للمشاركة فيه.

ومن حيث لا يحتسب، ظهرت مجموعة من المعترضين بدأت بالعمل ضد المشروع، ووصل الأمر بها إلى نشر مقال في إحدى الصحف المصرية عن أن الأميركيين يريدون استدراج العرب إلى شيكاغو بغرض قتلهم لأنهم مسلمون. يقول بنغالو إنه على الرغم من سخف هذه الادعاءات، إلا أنها كلفته الوقت والمال والفكر للرد عليها ومواجهة تأثيراتها.

نسخة مطابقة للواقع

كان تصميم الحيّ المصري الذي وضعه المهندس هيرز نسخةً مطابقةً للواقع، ولذلك وضع المشربية كأحد العناصر المعمارية التزيينية التي لا مجال للاستغناء عنها. والمشربية، كما يقول بنغالو في شرحه عنها للجمهور الأميركي: شرفات شبكية برع العرب في صناعتها، ولكن، وتحت تأثيرات دخول مظاهر الحضارة الغربية وأنماط العمارة الأوروبية التي غزت القاهرة، بدأت تتناقص بشكل كبير، ولم تعد هناك إمكانية لرؤيتها بشكل جزئي سوى عند تجار الأثاث ومشاغل الأرابيسك.

ويحمّل بنغالو تجّار الآثار المسؤولية عن اختفاء هذا النمط المعماري الرشيق والجميل والمميز، والذي تم سلبه على مدى ثلاثين عامًا لصالح السياح والفنانين والمتاحف. ويقول ساخرًا من نفسه: «والآن جاء دوري للانضمام إلى صفوف «السلّابين المخربين»، فمشروعي في شيكاغو لا يمكن أن يكون أصيلًا وصحيحًا وذا فائدة حقيقية من دون المشربيات». ويضيف: «ومع أنني أحمرّ خجلًا من ذكر ذلك، إلا أنني ذهبت إلى ذلك العمل بهمّة مخرّب محترف».

ويقول بنغالو: «في كثير من الحالات؛ كان لا بد من الموافقة على دفع مبلغ معّين للبائع، حتى يتمكن من تفصيل نوافذ وأبواب خشبية جديدة بدل المشربية القديمة، وفي حالات أخرى تم شراء المبنى كله للحصول على المشربية، ثم بيعه بعد ذلك». وهكذا، وفي حوالي تسعة أشهر، اشترى وكلاء بنغالو أكثر من خمسة عشر مسكنًا تم تجريدها من كامل خشبها القديم، بالإضافة إلى خمسين مسكنًا أخرى ساهمت بنصيبها من الحجارة المنحوتة والأبواب والنوافذ، وما إلى ذلك. وبحلول نهاية كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩٢، اكتمل كل شيء، وكانت جميع هذه المنهوبات معبّأة بعناية في صناديق مرقمة.

وقبل ذلك، تدفّق إلى مكاتبه أناس من مختلف الأوساط والطبقات، حمّارون وجمّالون وبياطرة ونُدُل وسائسو خيل وطهاة وحلاقون ومشعوذون ومصارعون ومهرّجون وقهوجية وموسيقيون وكتبة ومؤذنون، وآخرون كثر من ذوي الحرف



معرض شيكاغو، «شارع القاهرة، ميدواي بليزانس».



المصرية الأصلية التي لم يجد بنغالو لأسمائها ترجمة إلى اللغة الإنكليزية، مثل «صبيان العالمات»، ومؤجّري الخيام، ومقدمي المرطبات.

كان الحمّارون أول من وقّع على الاستمارات، وفي أقل من أسبوع كان لدى بنغالو كتيبة تشمل أكثر من ١٥٠ حمّارًا كان يستطيع أن يختار منهم العدد الذي يريد، وتم شراء أربع خيَم، وعشرين حمارًا، وسبعة جِمال، وكافة مستلزماتها من السروج وغيرها، بالإضافة إلى مستلزمات الأعراس والموالد التي كانت أحد معالم العرض.

الرقص الشرقي

بقي أمام بنغالو تأمين «الراقصات الشهيرات المتخصصات بالرقص الشرقي، والذي تعجز أي ترجمة عن نقل معناه الدقيق»، كما قال حرفيًا، وأضاف: «سرعان ما أدركت أن الصعوبة الرئيسية تأتي من مديري الملاهي السوريين واليونانيين، الذين لا يريدون أن تخلو ملاهيهم من أفضل راقصاتهم. ولكن أكثر ما أقلقني أن يقوموا، استباقًا لمخططاتي، بتوقيع عقود طويلة الأجل مع الراقصات، وهو ما يمنعني من الحصول على خدماتهن».

لكن بنغالو تأكد في تلك الأثناء أن عقود تلك النجمات ستنتهي بعد شهرين أو ثلاثة، فتنفس الصعداء، إذ لم يكن لديه أدنى شك في أنه إذا استطاع إقناع إحدى الفتيات بتوقيع العقد، فإن الأخريات سيتبعنها من باب الحسد والغيرة فقط. وبناء على تلك الفكرة، اعترف بأنه وضع ضميره جانبًا، ونشر شائعة بين زوار الملاهي بأن الآنسة فريدة مظهر، التي يصفها بالراقصة الرائعة، قد وقّعت في الحقيقة عقدًا ملزمًا لمعرض شيكاغو، وأن الآنسات فلانة وفلانة قد رفضن من قبل السيد بنغالو كونهن لسن ذوات خبرة كافية في الرقص.

ولم يمض وقت طويل حتى وصلت الشائعات إلى أسماعهن، وبدأت الغيرة تتمكن من أفئدتهن. لكن إنكار فريدة مظهر لمنافساتها فُهم بشكل طبيعي بأنه تأكيد لالتزامها، وإنكارهن أنهن رُفِضن كان موضع استخفاف فريدة التي شعرت بالزهو، أما الأخريات فشعرن بالإهانة وجرْح كبريائهن، وكان هناك الكثير من القيل والقال في ما بينهن. وبعد فترة قصيرة جدًا وقّعت فريدة مظهر العقد، وكما توقع، تبعتْها منافساتها بالتدريج، واحدة تلو الأخرى ووقّعن العقود.

ويشير بنغالو إلى مأساة وقعت في معرض باريس العالمي عام ١٨٨٩ للعديد من بسطاء المصريين الذين غرّر بهم أثناء مشاركتهم في «رو دو كايرو»، إذ إن المتعهدين لم يعطوهم أجورهم، فتقطعت بهم السبل في مناطق مختلفة من أوروبا.

وقد تم تقديم إشعارات إلى الحكومة المصرية تطالب باتخاذ بعض الخطوات لحماية رعاياها البسطاء، وصدر مرسوم من مجلس الوزراء يقضي بعدم السماح لأي مواطن عربي مصري بمغادرة البلاد من دون إذن من السلطات. وأكثر من ذلك، أن أي شركة أو فرد يريد إشراك العرب في معارض أو مهرجانات الدول الأجنبية، ينبغي عليه إيداع ما يكفي من المال في الخزانة المصرية لضمان عودتهم إلى ديارهم.

ووفقًا لهذا القرار تقدم بنغالو بطلب إلى الحكومة المصرية للحصول على إذن لاصطحاب نحو مائتين وخمسين رجلًا وامرأة وطفلًا. وقال إنه بفضل عطف القنصل البريطاني العام في القاهرة اللورد كرومر إيفلين بارنج (١٨٤١-١٩١٧م) تم منحه الإذن، بعد أن تعهد بتقديم وديعة إلى الخزانة المصرية لتغطية نفقات سفر العرب وعودتهم إلى مصر. وقد تمت تسوية هذه الودائع في وقت لاحق بمبلغ قدره خمسون دولارًا لكل شخص.

وبعد بحث عن سفينة مناسبة، اتفق بنغالو مع إحدى شركات الملاحة على تأجير سفينة اسمها «غويلد هول» ترفع العلم البريطاني، مقابل ١٧٥٠٠ دولار أميركي. وكان موعد الإقلاع في التاسع من آذار/ مارس ١٨٩٣ بحمولة زائدة تتكون من القطن والسكر، لتخفيف تكاليف الشحن، في حين سافر المهندس المعماري هيرز عبر إنكلترا، من ميناء ليفربول إلى نيويورك على متن السفينة «أورانيا» من شركة «كونارد لاين» في ١١ شباط/ فبراير ١٨٩٣ لوضع اللمسات الأخيرة على الحي القاهري.

عند افتتاح المعرض، كان جناح شوارع القاهرة جاهزًا يضم ستةً وعشرين من المباني المصرية المتميزة، من أكثر فنون العمارة العربية أصالة، وكان هناك مسرح يتسع لأكثر من ألف وخمسمئة مشاهد، ومقصورات لبيع جميع المنتجات والمصنوعات التقليدية والمشغولات المصرية، وقد تجاوز عدد المحلات التجارية سبعةً وخمسين محلًا، وعربات الباعة الجوالين أكثر من خمسين عربة.

افتتاح أسطوري

خصصت صحيفة «شيكاغو تريبيون» اليومية في عددها الصادر يوم ٢٨ أيار/ مايو ١٨٩٣ تغطية مميزة لافتتاح جناح «شوارع القاهرة» في اليوم السابق، أي في يوم ٢٧ أيار/ مايو، متأخرًا عن افتتاح المعرض قرابة الشهر. وقالت الصحيفة: «لم يشهد «ميدواي بليزانس» أي حفل بمستوى مراسم افتتاح «شارع القاهرة». في الحقيقة، لا يوجد شيء مماثل لذلك خارج مصر، فقد رتّب السيد جورج بنغالو برنامجًا أكبر بكثير من الذي تم عرضه، ولكنه اضطر لاختصار فكرته الأصلية، بسبب الجسور المنخفضة على شارع «ميدواي بليزانس»

التي منع انخفاضها الموكب الاستعراضي الكبير من التجول في مختلف أنحاء المعرض، وهو ما كان يشكل الجزء الرئيس من العرض الافتتاحي».

ومنذ الأيام الأولى لافتتاح الجناح المصري، أثيرت في الصحافة الأميركية مسألة الرقص الشرقي، ومدى انسجامها مع أخلاق وقيم المجتمع الأميركي، وتحولت إلى قضية رأي عام، صاحبها جدل محتدم بين مؤيد ومعارض. وكانت فاتحة الجدل العام حول قضية الرقص الشرقي قد انطلقت مع اجتماع لمجلس مديرات المبنى النسائي بعد ظهر يوم ٣ آب/ أغسطس ١٨٩٣ حيث انقسمت المجتمعات بين معارِضات يطالبن بإغلاق أماكن الرقص في «ميدواي بليزانس»، ومؤيدات لاستمرار هذه العروض. وفي الثالث عشر من الشهر نفسه، نشرت جريدة «اللورد» مقالة مطولة بقلم مراسلها في شيكاغو يدافع فيها عن الرقص الشرقي، ويتهم جميع المعترضين عليه بالجهل، ويزعم أن جميع الحركات التي تؤديها الراقصات لها رموز في معتقدات الشرق القديمة، مستشهدًا برقص سالومي أمام الملك هيرود الكبير، حين سحرت لبه وأمالت إليها قلبه.

الفئة المتدينة المحافظة في المجتمع الأميركي منعت نساءها من زيارة موضع الرقص، أما الرجال، فكانوا يسرّون به، فيأتون المرسح أفواجًا

وذكرت صحيفة «كوكب أميركا» العربية الصادرة في نيويورك «أن الفئة المتدينة المحافظة في المجتمع الأميركي منعت نساءها من زيارة موضع الرقص، أما الرجال، خصوصًا المنفتحون منهم، فكانوا يسرّون به، فيأتون المرسح أفواجًا، وقد أدى هذا الجدل والتناقض في الآراء إلى زيادة الإقبال على المرسح المصري، فأقبلت جماهير الزائرين على البناء المختص بالراقصات. وقد أدى ذلك إلى اتفاق رجال الدين المسيحي في شيكاغو وغيرها على أن يخطبوا على منابرهم الكنسية مطالبين بمنع الرقص الشرقي، داعين الأهالي وموظفي الحكومة للتحرك من أجل إلغائه تمامًا من معرض الأمة. بعد تزايد الضغوط على مدير الجناح المصري جورج بنغالو لإقفال المرسح المصري، طالب الحكومة المحلية بدفع قيمة الأضرار والخسائر التي تلحق به، محتجًا بنص العقد الموقع بينه وبين إدارة المعرض، وهو ما رفضته الإدارة».

وقد بلغ إجمالي الإيرادات، بحسب بنغالو، ٧٨٨ ألفًا و٦٦٦ دولارًا أميركيًا وأربعة وثلاثين سنتًا، وذلك بعد دفع نفقات التشغيل الهائلة للمعرض العالمي والبالغة ١٥٩ ألف دولار، مؤكدًا أن التوزيعات النقدية المدفوعة للمساهمين، بعد عودة رأس المال المستثمر، تجاوزت خمسة وتسعين في المئة، وذلك في ١٥٦ يومًا، بما في ذلك أيام الآحاد.

٢-السوريون العثمانيون

إشراف حميدي

مرّت مشاركة السوريين العثمانيين في معرض شيكاغو بسلسلة من الإجراءات البيروقراطية المختلفة عن تلك التي مرت بها المشاركة المصرية، حيث ارتبطت بالموافقة الرسمية العثمانية التي كانت تحت أنظار السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م) المهجوس بصورة مملكته في الخارج، لذلك نشط جهاز الاستخبارات (الخفية) قبل المعرض وأثناءه، ومارس رقابة صارمة أدخلت الرعب في قلوب المشاركين.

وصلت الدعوة الرسمية للسلطنة في التاسع من شباط/ فبراير ١٨٩١، ولم يتأخر إصدار فرمان سلطاني بإنشاء لجنة تحضيرية للمشروع، تفرعت عنها ثلاث لجان فرعية. كان الترتيب المعتاد عند المشاركة في مثل هذه المعارض، أن يقوم «الباب العالي» بالتعاقد مع شركة تجارية خاصة لإنجاز المهمة برمّتها. واتصلت اللجنة الأولى مع سعد الله أفندي الذي كان يمتلك شركة خاصة للتصدير في إسطنبول تدعى شركة «إيليا سهامي وسعدالله». وفي يوم ٢٤ أيار/ مايو ١٨٩٢، أحالت وزارة الأشغال العامة والتجارة إلى الباب العالي نسخة من عقد أبرم مع سعد الله وشركاه، وعلى رأسهم سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥م)، ينص على بناء الجناح العثماني الرسمي على شكل مبنى «سبيل السلطان أحمد» القائم عند مدخل «طوب قابي سراي»، على أن يُنجز قبل يوم ٢٨ نيسان/ أبريل ١٨٩٣، أي قبيل حفل الافتتاح الرسمي للمعرض بأربعة أيام.

ونص العقد أيضًا على بناء مسجد، يكون مفتوحًا للصلاة أمام جميع المسلمين في المعرض، مع تأكيد الالتزام بالآداب الإسلامية الصحيحة التي ينبغي مراعاتها في جميع الأوقات. واشترط العقد ألا يسمح لزوار المسجد من غير المسلمين بالدخول، إلا بعد السماح لهم من ممثلي السلطنة العثمانية، المؤتمنين على المسجد. وخصص جزء من المعرض ليكون مسرحًا، وهنا أيضًا تم وضع شروط صارمة في متن العقد مفادها أن «لا يكون التشخيص، الذي يتعين الالتزام به،

مسيئًا لشرف وحياء النساء المسلمات، أو يلحق الضرر بالهيبة والكرامة الوطنية كما حدث في الجناح المصري في باريس (عام ١٨٨٩)».

بالإضافة إلى ذلك؛ تقررت المشاركة في المؤتمر النسائي العالمي الذي أقيم على هامش المعرض، بإرسال مؤلفات الكاتبة والناشطة النسائية التركية فاطمة علياء هانم، لعرضها في مكتبة مبنى النساء في المعرض. وتمت الموافقة على مقترح راجي بيك من مدينة عكا على الساحل السوري، بالمشاركة في ميدان للخيول العربية الأصيلة، في حين رُفض مقترح من نوري بيك، من مدينة جمليك على بحر إيجة، بإقامة معرض لأزياء القوات الإنكشارية، بسبب «ما قد تثيره هذه الأزياء من ذكريات غير سارة بين المسيحيين».

تقررت المشاركة في المؤتمر النسائي العالمي الذي أقيم على هامش المعرض، بإرسال مؤلفات الكاتبة والناشطة النسائية التركية فاطمة علياء هانم

عند توقيع العقود مع العارضين، تبين أن الغالبية الساحقة من الأشخاص الذين تقدموا ليشغلوا مساحات القرية العثمانية كانوا من السوريين، باستثناء محل وحيد ليهودي من إسطنبول يدعى إيليا سهامي وسعدالله وشركاهم، بل وصل السوريون إلى جميع الأجنحة الشرقية مثل القرية التونسية والسوق المصري، وكان صاحب امتياز الجناح الفارسي سوريًّا أيضًا هو جرجس دباس، حضر إلى نيويورك في الثامن من نيسان/ أبريل ١٨٩٣، مصطحبًا معه ٢٢ شخصًا من السوريين الذين «سيقومون بتمثيل عوائد المعيشة في بلاد فارس».

وقد كتبت جريدة «كوكب أميركا» مرتين عن مشاركات السوريين في المعرض، مرة بالصفحة الإنكليزية، وأخرى بالصفحات العربية، حيث قالت: «أقبل السوريون على العمل بهذا المعرض إقبال الجياع على القصاع، أشغل تجارهم القسمَ العثماني والمصري والفارسي أيضًا، وهذا يبرهن ميلهم للإتجار دون باقي سكان الولايات، فإذا طرحت السوري بأقصى الأرض رأيت معه سلعة يتّجر بها ولو إبرة وخيطًا، ولا تعب من ذلك فإن السوري سليل فينيقيا ملكة التجارة القديمة. فلا غرو إن أشغل فريق منهم المحلات الثلاثة التي ذكرناها أشغل آخرون مواضع أخرى في مدينة شيكاغو خارج المعرض في مدته، ومما نلاحظ أن سورية ستكون في الاستقبال ولاية غنية مأهولة من ولايات الدولة العثمانية».

قرية سورية عثمانية

كان اهتمام «الباب العالي» و«قصر يلدز» منصبًّا على الجناح العثماني الرسمي الواقع في «جاكسون بارك»، أما القرية العثمانية، فقد ترك أمرها لمتعهديها، ولم تحظ بأدنى اهتمام يذكر في مراسلات حقي بيك، رئيس الوفد الرسمي العثماني، مع العاصمة. وكذلك الأمر لم تكن فعالياتها حاضرة بقوة في جريدة «مصور معرض شيكاغو» العثمانية التي كان يملكها ويرأس تحريرها السوري- اللبناني سليمان البستاني، وبدأت تصدر أعدادها اعتبارًا من حزيران/ يونيو ١٨٩٣، ربما بسبب الموقف المتحفّظ للمشرف على تحريرها محمد عبيد الله أفندي (١٨٥٨- ١٩٣٧م)، وهو أحد أهم رموز حركة «تركيا الفتاة» الداعية إلى إصلاحات عميقة في السلطنة، حيث كان أعضاؤها يتميزون بنزعة قومية تركية متطرفة، لا تكنّ الودّ للعرب. وقد كتب عبيد الله أفندي في مذكراته واصفًا القرية العثمانية باقتضاب. وشدد على أن من كان يشغّلها هم المسيحيون السوريون: «تضم القرية العثمانية مسجدًا جميلًا شيّد وفق الطراز المعماري العثماني، وسوقًا مسقوفًا فيه بين ٤٠ إلى ٥٠ من المحلات التجارية يشبه البازار المصري في اسطنبول، وهناك مطعم من طابقين (تحتاني وفوقاني)، ومسرح بسعة ألف مقعد، وشارع فيه عشرة إلى خمسة عشر منزلًا تستخدم كمكاتب، وهناك بعض الأكشاك الصغيرة على زوايا الشوارع تبيع الحلوى. البازار، والمطعم، والمسرح كلها مملوكة للمسيحيين السوريين».

وثمة حادثة مزعجة واكبت حفل افتتاح القرية العثمانية؛ تحدّث عنها القنصل العام العثماني ألكسندر مفرويني في رسالة إلى اسطنبول مؤرخة بيوم ٢٨ نيسان/ أبريل ١٨٩٣، أبطالها بعض «النساطرة» الذين بنوا مسجدًا خارج محيط المعرض لكي يتقاضوا المال مقابل عرض «الممارسات التعبدية للمسلمين». وقد أكد مفرويني في رسالته تدخّله لدى سلطات مدينة شيكاغو لإغلاق ذلك المسجد المزيف. ولم تخل الرسالة من تقييمه الواقعي لحفل الافتتاح الذي رأى أنه «حقق النجاح المطلوب، على الرغم من عدم قدرة السلطنة العثمانية على منافسة الدول التي تنفق آلاف الفرنكات على معارضها».

مسرح أبو خليل القباني

ومن أبرز المشاركات السورية، وأكثرها شعبية لدى زوار المعرض «مسرح العادات الشرقية» الذي كان يديره فنيًّا

الرائد المسرحي الدمشقي أبو خليل القباني. وكما هو مخطط، وصلت الفرقة في الموعد المحدد، فكتبت «كوكب أميركا» على صدر صفحتها الأولى: «وصلت من مدينة بيروت في ١٦ الشهر الجاري شركة ممثلي العوائد الشرقية تحت رئاسة عمدتها الفضلاء، جناب الخواجات بطرس أنطونيوس وشركاه، ومدير ممثليها جناب الشيخ محمد [أحمد] أبي خليل القباني الممثل الشهير والمطرب المعجب. أما جوق التمثيل فمؤلف من خمسين شخصًا ما بين مطربين ومطربات وممثلين وممثلات، وكلهم حائزون على قصب السبق في مضمار هذه الصناعة. وصحب رئيس هذه الشركة بعض أعضائها وهم الأفندية إسكندر ضعون، ونقولا صهيون، وإسكندر الحجار، وفضول مغبغب، وجناب الدكتور حبيب الطبجي تصحبه والدته الفاضلة. وستظهر أعمال هذه الشركة في القسم العثماني من المعرض الكولمبي، وهي تمثيل عوائد أهل الشرق من بدو وحضر في أعراسهم وولائمهم وأيام أفراحهم وأتراحهم وملابسهم، مع اختلاف بيئاتهم، وتمثيل بعض حوادث تاريخية وروايات تتضمن الأخبار عن رجالهم العظام الأقدمين، كهارون الرشيد، وعنترة العبسي وغيرهما من المشاهير. ويتخلل كل ما تقدم محاورات وفكاهات أدبية وأنغام موسيقية يُطرب الآذان سمعها. وقد انتخب بعض من العارفين بأنواع الملاعب، كالسيف والترس وعصا الشوم، الحكم، والضاربين بالآلات الشرقية القديمة والحديثة، كالربابة والنقيرات والدائرة إلخ، ليمثلوا في دورهم كل ذلك. وورقة الدخول تباع بريال للمحل الأول، وبنصف ريال للمحل الثاني، وسيقدمون من المرطبات على اختلاف أجناسها، مع قهوة وما يلزم للزائرين من المآكل اللذيذة الطعم، والحلويات المختلفة، فنسأل الله لهذه الشركة نجاحًا وتوفيقًا تامَّين».

وفور وصول الفرقة إلى شيكاغو واستقرارها في محل إقامتها الجديد، باشرت التدريبات في مبنى «المسرح التركي» وفق الصيغة المعتمدة في المخططات الأميركية، و«مرسح العادات الشرقية» وفق الصيغة العربية، والذي اكتملت تفاصيله الجمالية، فأتى تحفة فنية فريدة أوضحتها صورة نشرت في صدر دليل العروض موقّعة من بطرس أنطونيوس (صاحب الامتياز) باللغة الإنكليزية، مبيّنةً الفرقة التمثيلية والجوق الموسيقي، وهم جميعًا يصطفّون على خشبة المسرح. وبدت الستارة والكواليس وخلفية المنظر التي تصوّر أقواس البهو بحجارة البلقاء المتناوبة في خان أسعد باشا الدمشقي.

وفي سجلات الواصلين إلى نيويورك يوم ١٧ نيسان/ أبريل ١٨٩٣ على متن السفينة «إس إس ويرّا» نقرأ أسماء أعضاء الفرقة الـ٥٨، وأن غالبتهم كانوا من السوريين.

ومن المشاركات اللافتة أيضًا «القصر الدمشقي». لكنه لم يحظ باهتمام مؤرخي معرض شيكاغو مثل هوبرت باكروفت أو جون جوزيف فلين وغيرهما، على الرغم من إشادة صحيفة «شيكاغو تريبيون» به، وتخصيصها مقالًا عنه. والمقالة على ما يبدو تلخيص لمقابلة مع مدير هذا المبنى نعمان أبو شعر، وهو كما عرّفته الجريدة مستشار لمحكمة التميز في سورية، ومراسل في جريدة «الفلاح» القاهرية.

ومن المشاركات أيضًا «قهوة الفن»، بإدارة شديد كوراني، إذ كانت تقدم أغاني وعروضًا فلكلورية. ونشبت بين صاحب امتيازها وصاحب امتياز المسرح التركي مشكلة قانونية وصلت إلى المحاكم، وتم حلها بالتراضي بسعي من سليمان البستاني.

مأساة الخيول العربية

من أكثر المشاركات العربية في معرض شيكاغو إثارة «مرمح الخيول العربية الأصيلة»، الذي حظي باهتمام غير عادي من جانب مربّي الخيول الأميركيين، وجمهور المشاهدين المولعين بالفروسية. فقد تمخض عن هذه المشاركة بعد سنوات تأسيس «نادي الحصان العربي في أميركا» عام ١٩٠٨، حيث استحوذ مربو الخيول الأميركيون على جميع خيول «المرمح»، وكانت الفرس «نجمة» والحصان «عبيران» هما صاحبا الرقم واحد واثنين في السجل الرسمي للسلالة العربية في الولايات المتحدة. وقد تم تسجيل نسل هؤلاء أيضًا، ولا يزال نسلهم يسجّل حتى اليوم، وقلّما يوجد مربّ للخيول لم يحصل على واحد أو اثنين من هذا النسل من الخيول العربية. هذه السلالة ذات الدم الأصيل تُعدّ جزءًا مهمًا من الخيول العربية في الولايات المتحدة الأميركية التي يزيد عددها على نصف مليون رأس حاليًا.

كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو زمن الضابط الأميركي بوفالو بل كودي «Buffalo Bill» (١٨٤٦- ١٩١٧م)، مبتكر عروض الغرب الأميركي المتوحش، وكان يطوف بها في الولايات المتحدة والعالم، حيث يمثل معارك حيّة مع الهنود الحمر. وكانت أخبار وصول فريق عربي إلى معرض شيكاغو، يمثل بطولات فرسان الملاحم الشعبية الشرقية كعنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي على متن خيول أصيلة، حدثًا منتظرًا ليس على مستوى شيكاغو فقط، بل على مستوى أميركا كلها.

صاحب فكرة «المرمح الحميدي» بحسب الاسم الرسمي للشركة، وجيهٌ من مدينة عكا يدعى راجي صيقلي (١٨٥١-١٩١٠م)، تقدم بمشروعه إلى السلطان عبد الحميد الثاني وطلب الموافقة عليه، فأعجبت الفكرةُ السلطان



معرض شيكاغو، «البيت الدمشقي».



أيما إعجاب، وأهدى «المرمح» رأسين من الخيول العربية الأصيلة من إصطبله الخاص، وأصدر فرمانًا بتسهيل الأمور أمام هذا المشروع، الذي رأى فيه السلطان دعاية كبيرة للسلطنة. لكنه اشترط في صيغة الفرمان أن تكون الخيول من سلالات عربية أصيلة ذات أنساب موثّقة، وأن تعاد كل الخيول المأخوذة إلى الصحراء بعد انتهاء المعرض، وأن يكون الفرسان المرافقون لهذه الخيول من خيرة العشائر البدوية، وأن يرافق الفريق ضابطان من الحرس السلطاني للتأكد من تنفيذ الشروط كافة.

كان المشروع مكلفاً للغاية، فبالإضافة إلى شراء الخيول بأسعار مرتفعة جدًّا، هناك أجور الفرسان والساسة والراقصين والعازفين، إذ كان برنامج المرمح حافلًا بالفنون الشعبية، وتمثيل ملاحم العرب بشكل حي، وكان لا بد من هؤلاء جميعًا مع الخيول والجمال على متن سفينة خاصة مجهزة. وتم تقدير المبلغ الإجمالي لكل ذلك بخمسة وعشرين ألف ليرة ذهبية عثمانية، تعادل ١١٢ ألف دولار أميركي، وهو مبلغ خيالي في حسابات ذلك الزمن.

وطرح بعض رجال الأعمال من الولاية السورية على راجي أن يشكلوا شركة مساهمة لتمويل المشروع، فوافق على أن يبقى هو مدير المرمح. وتم تشكيل مجلس إدارة من ثمانية أعضاء برئاسة الصحافي خليل سركيس (١٨٤٢ - ١٩١٥م) صاحب جريدة «لسان الحال». وبالفعل، تم استئجار سفينة الشحن البريطانية المسمّاة «سنثيانا» من طراز «كونراد»، وتم تجهيزها لنقل الفريق ومعدّاته وخيوله ومؤنه. وأبحرت السفينة من ميناء جونية في ٢٩ آذار/مارس ١٨٩٣، ورست في ميناء نيويورك في ٢٥ نيسان/ أبريل ١٨٩٣، بعد أن توقفت عدة أيام في ميناء جبل طارق.

وقد تكوّن الفريق من ١٢٠ رجلًا وامرأةً وولدًا، و٤٥ حصانًا، و١٢ جملًا وكلاب معهم عدد من أغنام العواس، وبرغل وزيت وزبدة وجبن ودقيق وكمية كبيرة من الشعير، ونصف طن من حذوات الخيول، وصناديق تحتوي على مليون ونصف المليون من تذاكر الدخول بقيمة دولار واحد للتذكرة، وبدأوا رحلتهم إلى أميركا. كان من بين الرجال كلّ مالكي الأسهم، وكلّ واحد معه خادم أو أكثر، وفرسان، ورعاة حمير، وركاب جمال، وسبعة طباخين وخمسة بياطرة، وخمسة عشر كاتبًا وبائع تذاكر.

ولعدم خبرة الطاقم الإداري بالقوانين الأميركية وتعاملات شيكاغو في ذلك الوقت، دبّت المشاكل بين الفريق، وخضعوا لنصائح سيئة من بعض المحامين الأميركيين، أدت في نهاية المطاف إلى خسارة الشركة لجميع خيولها لصالح أصحاب الرهونات في شيكاغو.

٣-القرية الجزائرية التونسية

متعهد أميركي

وخلافًا للمشارَكتين المصرية والسورية- اللبنانية، كانت المشاركة المغاربية مرهونة بمتعّهد أميركي لم يحصل على أي موافقة أو مباركة من أي سلطة سياسية، لا من سلطات الاحتلال الفرنسية، ولا من الباي التونسي، فقد عقد المتعهد، وعضو مجلس النواب الأميركي في ما بعد، سول بلوم (١٨٧٠-١٩٤٩م) الاتفاق مع الفرق التونسية والجزائرية في العام ١٨٨٩ أثناء معرض «إكسبو باريس» العالمي.

كان برنامج ذلك المعرض يعج بالعروض الشعبية الأجنبية، حيث عرضت محلات للفلاحين الأوروبيين الذين ينتجون أنواع الأجبان المختلفة وغيرها من الأغذية والمشروبات التقليدية، إضافة إلى نوع جديد من الترفيه قادم من المستعمرات الفرنسية آنذاك. وكانت أبرز هذه المشاركات وأكثرها غرابة للجمهور الغربي «القرية الجزائرية» التي ضمت أكثر من خمسين فنانًا من الجزائر وتونس، يقدمون بعض الفنون الشعبية من هذين البلدين العربيين، بما في ذلك الغناء والرقص والفقرات البهلوانية، كالتهام الزجاج وألعاب الأفاعي والعقارب، والرقصات المثيرة للدهشة، التي كان الفرنسيون يسمونها «دانس دو فينتر»، أي رقصة البطن.

استحوذت فكرة «القرية الجزائرية - التونسية» على خيال واهتمام بلوم الذي كتب في مذكراته أنه اتفق مع المونسنيور غوينون، المشرف الفرنسي على القرية الجزائرية في معرض باريس العالمي، على دفع مبلغ خمسة آلاف فرنك فرنسي، أي ما يعادل ألف دولار أميركي، مقابل وكالة حصرية لمدة عامين، هدفها إبرام عقود لتنظيم عروض في أميركا الشمالية والجنوبية.

باشر بلوم أعمال بناء «القرية الجزائرية - التونسية» في «ميدواي بليزانس» في شتاء ١٨٩١. وما إن حل ربيع عام ١٨٩٢، حتى غرق في أعمال الدعاية والتخطيط للفرق القادمة من أنحاء العالم، فقد تم تعيينه مديرًا فنيًا لـ«ميدواي بليزانس»، وهو شارع الترفيه الموازي لمعرض شيكاغو.

حضور مبكر

أرسل سول بلوم عقدًا إلى الفرقة الجزائرية في باريس، وطلب منها أن تأتي في نيسان/ أبريل ١٨٩٣، قبل وقت قصير من افتتاح المعرض. وذكر بلوم في مذكراته أن سوء فهم أدى إلى أن يبحر الفريق الجزائري - التونسي قبل الموعد المحدد بعام تقريبًا، وحين رست سفينتهم على رصيف نيويورك، بدأ يشتم ويصيح معبرًا عن تذمّره. وكانت الفرقة قد استأجرت مترجمًا جزائريًّا

يدعى «القبايلي العملاق»، يعيش في لندن، فردّ على شتائم بلوم ولامه بشدة على موقفه، فبدأ بلوم بالاعتذار، ودعا القبائلي العملاق إلى أن يكون مترجمًا ومساعدًا وحارسًا شخصيًّا له.

وقد وجد بلوم للفريق الجزائري أعمالًا في أرض المعرض، فمعظم الرجال عملوا في مجال البناء، ووظف امرأتين تتكلمان الإنكليزية في مكتبه. وحين انتهى بناء المسرح الجزائري الذي يتسع لأكثر من ألف مقعد في صيف عام ١٨٩٢، كانت الفرقة قادرة على تقديم العروض حتى قبل افتتاح المعرض العالمي. وتحوّل سوء الفهم هذا إلى ربح خالص، إذ بدأ بتقديم عروض تجريبية للزوار الفضوليين الذين كانوا يأتون يوميًّا إلى «جاكسون بارك». وبحلول أيلول/ سبتمبر ١٨٩٢، أي قبل ثمانية أشهر من الافتتاح الرسمي للمعرض، كان سول بلوم قد غطى تكاليف القرية الجزائرية - التونسية، وبدأ يجني أرباحًا سخية.

مع حلول الشتاء، تباطأ العمل في «ميدواي بليزانس»، فانضمّ سول بلوم إلى حملة المرشح الديموقراطي كارتر هاريسون، وساعده في الفوز بمنصب رئيس بلدية شيكاغو، هذا الفوز الذي ترافق مع افتتاح المعرض الكولومبي في الأول من أيار/ مايو ١٨٩٣.

قبل ثمانيـــــــــــة أشهر من الافتتاح الرســــمي للمعرض، كان سول بلوم قد غطى تكاليف القريـــــــــــة الجزائرية – التونسية، وبدأ يجني أرباحًا سخيـــــة

احتلت القرية الجزائرية التونسية الجناح رقم ٣١ في «ميدواي بليزانس». وجاء في الدليل الرسمي للمعرض أن أصحاب الامتياز هم إيلا جانون، وأ. سيفليكو، وسليمان بلوم، الذي وُصف بأنه مدير هذا الجناح.

وبحسب هذا الدليل: «كانت القرية الجزائرية - التونسية تتكون من مسرح واحد يتسع لجلوس ١٢٠٠ شخص، ويضم ٥٠ محلًّا لبيع المشغولات، وعشرة أكشاك ومقاه، وقاعة للحفلات الموسيقية وبازارًا كبيرًا. وأيضًا خيمة قبائلية جزائرية. أما ما يقدم على المسرح، فهو رقصات وأغان تونسية وجزائرية منها تراث قبائلي، بما في ذلك رقصة السياف، المعروفة باسم رقص التعذيب. في المحلات التجارية والبازار، كان يمكن العثور على البضائع الجزائرية والمشغولات التونسية، بما في ذلك المجوهرات، وما إلى ذلك. وفي مقصورات منفصلة هنالك حرفيون لصناعة الملابس الفلكلورية والمطرّزات والمشغولات المرصّعة بالجواهر.

وثمة أكشاك فيها أسلحة تقليدية وخناجر وسيوف ودروع وغيرها، وهي معروضة للبيع. ويضم البازار السجاد والمفروشات، والمشغولات النحاسية، وجميع البضائع الغريبة من الجزائر؛ وأيضا ثمة كشك أنيق من مشغولات الموزاييك التي تم تصنيعها بشكل خاص للمعرض. وفي بعض الأكشاك يتم عرض تشكيلة واسعة جدًّا من السكاكين التقليدية، والمجوهرات والسلع الفاخرة. أما المقهى التونسي فالخدمة فيه تونسية، والطبخ تونسي. والقرية كلها مزيّنة بالبلاط المجلوب مباشرة من الجزائر العاصمة. وثمة خيمة للأسرة القبائلية، تعرض النسج والأقمشة الأصلية، وفي بعض الأكشاك، يصنع المواطنون من تونس والجزائر الحلويات والحلوى الشرقية الغريبة».

وفي مؤلفه «كتاب المعرض»، كتب هوبرت بانكروفت حول القرية: «على الجانب الآخر من «ميدواي بليزانس» تقع القرية الجزائرية - التونسية، وهي نسخ مصغرة من الشوارع والبازارات، تتخللها النوافير وحدائق الزينة. هناك قاعة حفلات موسيقية، ومقهى مغاربي، وخيمة قبائلية، ومنازل وخيام للعرب. ويغطي معظم المباني البلاط المزجج الغني بالألوان، المستورد من شمال أفريقيا. هناك الكثير من الستائر المطرزة والديكورات الداخلية الأخرى. وعدد الموسيقيين قليل، يعزفون موسيقى محلية على آلات قديمة من بلد المنشأ. أصحاب الامتياز اثنان، أحدهما هو الفائز على جميع المعارض الأخرى بجائزة معرض باريس في عام ١٨٨٩، وهي أعلى جائزة لهذا النوع من الفعاليات التي تقام منذ عام ١٨٦٥».

غرائب

ويستعرض بانكروفت غرائب هذه القرية بقوله: «في الأسواق العديدُ من الغرائب التي تباع جنبًا إلى جنب مع معظم السلع المعروفة في عالم التجارة، من الأحجار الكريمة والمجوهرات إلى البنادق ذات السبطانات الطويلة، والمسدسات من طراز قفل الصوان. وهناك السيوف الدمشقية المطعّمة بالذهب والآيات القرآنية، ذات المقابض المرصعة بالأحجار الكريمة والأنصال المرهفة. بالإضافة إلى مجموعة رائعة من الخناجر، من كل نمط يمكن تصوّره، من تلك التي يتم ارتداؤها للزينة، إلى تلك المخصصة لأشد الأعمال فتكًا، إلى الخناجر المسمومة التي يحتفظ بها على حدة. وهناك الأقمشة المطرزة بالفضّة والذهب المخصصة للوسائد الأنيقة وأغطية الطاولات المذهّبة برسومات الأرابيسك. وهناك لفائف أقمشة التاسيليين (الطوارق) المزركشة بكل الألوان المبهجة. وفي إحدى الخيام نرى الأقمشة القطنية التي تحوكها النساء المحليات، وهنّ جالسات على الأرض، وفي خيمة أخرى نرى ترصيع المجوهرات على



معرض شيكاغو، «القرية الجزائرية التونسية»، ١٨٩٣.



الخواتم والأساور. وصناعة العطور، وقطع الحلوى المعطرة بماء الورد، والمباخر التي تقدمها فتيات جميلات سمراوات البشرة ذوات أعين سوداء. وهذه السلع وسلع أخرى غيرها تمتع البصر وتستنزف الجيب».

ولم تقتصر المشاركة التونسية على قسم الترفيه فقط، بل كان هناك مبنى في «المدينة البيضاء» يرفع العلم التونسي، يقع ضمن قسم المستعمرات الفرنسية، بين المبنى الزراعي والمعرض المالي، وهو «قصر بني على النمط المغاربي الخلاب جدًّا، ذو أربع قباب. فيه معرض للأثاث، وفي وسطه قاعة كبيرة مربّعة مقدّمة من باي تونس، هي نسخة عن قصره».

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك قصر مراكشي يديره متعهد ألماني، يضم ديكورات وأزياء ومجسمات من المغرب الأقصى والتراث الأندلسي.

هَنا كوراني الاستثناء

ذهب العرب إلى شيكاغو تحت عناوين ويافطات مختلفة، لكنهم جميعًا لم يبارحوا مربع الفلكلور الذي وُضعوا فيه، باستثناء هَنا كوراني التي شاركت في المؤتمر النسائي العالمي المقام على هامش المعرض في مبنى النساء. وإنْ تميزت المشاركة بالفنون الشعبية التونسية - الجزائرية باستغلالها من جانب المتعهد الأميركي إلى أقصى الحدود، فإن عروض «شوارع القاهرة»، ومسرح أبي خليل القباني الدمشقي، حفرت عميقًا في وجدان الجمهور الأميركي الذي بقي لسنوات طويلة تحت تأثير مشاهدهما المبهرة. ومع أن فرقة «المرمح الحميدي» للخيول العربية الأصيلة كان يعول عليها كثيرًا، على صعيد المردود والمادي المعنوي، إلا أن ضيق أفق مجلس إدارتها، ووقوع الخلافات والتباغض بينهم، أفشلا هذه التجربة وألحقا بها الخسائر الصافية.

ومع ذلك، شكلت هذه التجربة الفرصة الأولى للتفاعل الثقافي العربي- الأميركي، والذي صحح بعض المفاهيم المغلوطة عن الشرق.

المراجع

مراجع عربية:

- خلف، تيسير، **من دمشق إلى شيكاغو، رحلة أبو خليل القباني إلى شيكاغو**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠١٧.

صحف:

- لسان الحال
- كوكب أميركا
- ثمرات الفنون
- شيكاغو تريبون
- واشنطن بوست
- نيويورك تايمز

مراجع إنكليزية:

- Ben Hur, *Arabs at Chicago*, 1893, Western Horseman May 1950.
- *The Exhibits of the Ottoman Empire at the World's Columbian Exposition*, 1893, Chicago, 1893.
- "Passenger lists of vessels arriving at New York 1820-1897", *National archives microfilm publications*, microcopy No. 237, 1897.
- John Joseph Flinn, "The Best Things to Be Seen at the World's Fair Chicago", *The Columbian Guide Company*, 1893.
- Hubert Howe Bancroft, *The book of the Fair*, Chicago, San Francisco: The Bancroft Company, 1893.
- Benjamin Cummings Truman, *History of the World's Fair*, Philadelphia, 1893.
- Sol Bloom, *The Autobiography of Sol Bloom*, New York: Putnam House, 1948.
- *The Cosmopolitan* / A Monthly Illustrated Magazine / Vol. XXIII. / May 1897 - October 1897.

وثائق عثمانية:

- BEO.99/7981. BEO.140/10426-1.
- BEO.140/10426-2. DH.MKT.204/90-1.
- BEO.153/11423. Y.A.HUS.267/60-1.
- Y.A.HUS.267/60-2. İ.HUS.4/136.
- İ.HUS.4/136-2. İ.TAL.9/63-2.

كشكول في سنّ الـ٦٩

عاطف علي

جامعيّ وخبير اقتصاديّ وكاتب. له مؤلّفات في المنهجيّة والاقتصاد الزراعي والتغذية والثروة الحيوانية. من أعماله «الحضارة العربيّة الإسلاميّة ودورها في تكوين الحضارة الأوروبيّة»، ٢٠٠٠ و«فسيفساء ماركسية» (٢٠٢٠)

كلمة كشكول هي اسم وجمعُها كشاكِل؛ وهو دفتر التلميذ (رحم الله الوالد، خرّيج «مكتب عنبر»، فقد كان يسمّيه سفينة) أو مجموعة الأوراق البيضاء، سادة أو مسطّرة، مغلّفة بورق مقوّى، أو في ملف «كلاسور»؛ ما يشكل كشكولَ المحاضرات لمختلف المواد الدراسية. وعلى هامش الكلام، هناك أيضًا «كشكولُ المتسوّل»، وهو وعاءٌ يُجمع فيه ما يُتصدَّق به عليه.

في أول مرةٍ صادفتُ هذه الكلمة، كنتُ يافعًا وفي السنوات التكميلية من الدراسة. كانت مذكورةً في كتابٍ داخل مكتبة جدي لأمي، أحمد علبي، ومكتوبةً بهذا الشكل: «الكشكول» بأحرف مرتبطة ببعضها البعض بزوايا قائمة. وكان في الكتاب خطٌّ أفقي وعلى جوانبه خطٌّ مائلٌ وهو، على ما يبدو، تعليقٌ على مضمون الخط الأفقي. كشكولُنا إذًا الذي نحن بصدد الحديث عنه، مجموعة كتابات متنوعة، أو كما يُقال «من كل وادٍ عصا».

متنوع رقم ١: «فراشات التهنئة»

وهي «فراشات التهنئة» الموسكوبيات، الآنسات اللواتي نجحن نجاحًا باهرًا في الدفاع عن أطروحتي في الدكتوراه، أي كامل أصوات اللجنة المولجة بالإشراف على المناقشة؛ وهذا دليل على الإيجابية. كان في يد كلّ واحدةٍ من «الفراشات الموسكوبيّات» وردةٌ أو وردتان وربما ثلاث، وكنّ يتزاحمن على تهنئتي بالعناق والتقبيل.

الغريب في الأمر أنّي لم أعرف سوى واحدةٍ منهنّ أو اثنتين وربما ثلاث (كنّ حوالي ثماني آنسات). أما الباقيات فهل هنّ من كرسي التخطيط؟ لا أظنّ. أو ربما من كلية الاقتصاد السياسي؟ لا أعلم. لكن ما أعلمه أنّ الأمر كان مفرحًا للغاية بالنسبة لي.

الواقع، أنه قدَرُ المميزين، فبعضُ الأساتذة وبعض من في الإدارة، لم يصدّقوا أنّ طالبًا في السابعة والثلاثين من العمر توجّه إلى روسيا لتعلّم لغتها الصعبة ودراسة المواد المقررة للدراسات العليا وكتابة أطروحة دكتوراه ، وكانوا أحيانًا، لعدم تصديقهم، يطلبون رؤية جواز سفري. وهنا أعتذر للحديث عن نفسي، لكنها حادثة مثيرة للانتباه ليس إلّا، كما أنها مكافَأةُ النجاح، وفي الوقت نفسه دليلٌ على طيبة هذا الشعب الذي هل يمكن يا ترى أن يعود إلى ما كان عليه سابقًا؟!

متنوع رقم ٢: بين الفودكا والمرأة

الواقع أنّ الروسي لا يقبل الاختيار بين زجاجة الفودكا والمرأة. يقول: «كلاهما معًا، فهما يتمّمان بعضهما البعض». ما هذا العشق للفودكا حتى لا يتخلّى الروسيّ عنها ويختار المرأة؟ لا بدّ أنّ للأمر سببًا تاريخيًا- اقتصاديًا- اجتماعيًا هامًّا. وهو في رأينا المتواضع قد يكون عدمَ البحبوحة وربما حتى القلّةَ في الحياة، أو ربما هو سببٌ مرتبط بالتربية وربما أمرٌ آخر. لا أعلم.

يبدو أننا نحتاج إلى فرويد جديد لتفسير هذه الظاهرة.

متنوع رقم ٣: بكيتُ من البرد على قمة صنين!

كنتُ حينها أبلغ حوالي الثلاثين من العمر، وقد درجتُ على الذهاب آخر كلّ أسبوع للتعرّف على مختلف أنحاء الوطن، لبنان. عند الساعة الثالثة فجرًا، صعدتُ إلى قمة جبل صنين رفقةَ شفيق منيمة، يرحمه الله، والذي أصبح لاحقًا أمين عام مجلس الوزراء؛ وابن صاحب الفندق الذي نزلنا فيه، والذي أعتذر لنسيان اسمه، وربما رافقَنا أيضًا عدنان فرشوخ. كان ذلك خلال فصل الصيف، في شهر تموز/ يوليو أو آب/ أغسطس. لم أعد أذكر بالضبط. وكان دليلنا ابنُ صاحب الفندق. قبل الوصول إلى القمة، ألقى أحدُ الطفّار علينا تحية الصباح فرددنا بالمثل. ثم سألَنا إنْ كان معنا سلاح فأجبت بالنفي، أما ابن صاحب الفندق فقال: «نعم» واستلّ مسدسًا معلّقًا على خصره وأخرج الرصاصات منه ثم قدّمه

للطفّار تلبيةً لطلبه. عندما سألت: «لماذا أفرغتَه»؟ فردّ الطفّار «لأنه ابن جرد».

لمّا وصلنا إلى القمة، كانت هناك ريحٌ عاتية والبردُ يقصّ المسمار، كما يقال. بدأتُ أرتجف وأخذتُ أبكي. اضطررت إلى نزول القمّة حوالي ٥٠ مترًا ريثما أشرقت الشمس وأدفأت الجو، وعاودتُ الصعود ثانيةً، فإذا بي أمام منظرٍ لا مثيل له يعجز الكلام عن وصفه باستثناء ربما كلام ريشة فنانٍ تشكيلي بارع. ولا قدرة لي أيضًا على وصف الشعور الذي انتابني حينها، والذي من دون شكّ تعبّر عنه الموسيقى بأفضل من الكلام.

متنوع رقم ٤: أمان أيام زمان!

كانت الشوارع والزواريب مرائب للسيارات. في الزاروب الذي صار يُدعى «زاروب العُلَبي»، على ما يبدو بسبب وجود ثلاثة عقارات تعود ملكيّتها للعائلة- والذي نأمل أن يصبح شارعًا- كان أحدُهم يسند إلى حائط بناء دراجةً ناريةً ضخمةً وفخمةً ولا يخشى سرقتها.

كان عاملُ التنظيفات الذي يجمع القمامة من المنازل يُفرغ تنكةَ النفايات في كيسٍ سميكٍ يحمله على ظهره. لم تكن قد ظهرت بعد أكياس النايلون، لا سيما الكبيرة. وعندما يبدأ عمله في الصباح الباكر، كنّا، تفاديًا للإزعاج، نترك له باب البيت مفتوحًا، ولم نكن نخشى السرقة .

وفي إحدى المرات ذهبتُ مع والدي إلى مقهًى قريب كي نملأ إبريق الفخار بالماء. تركنا باب دكّاننا مشرّعًا وقد وضع والدي فقط كرسيًّا في وسطه. ذهبنا وعدنا غير خائفين من السرقة.

بعض العائلات كانت تترك مفاتيح البيوت فوق حاجب الباب أو أسفل الفرشاة- الدعسة أمام عتبة الباب. بيت عمّتي أم سامي من تلك العائلات. ابنة أم سامي الوحيدة تزوّجت وبقي معها في البيت لفترة من الزمن أولادها الشبّان الخمسة. كان واحدهم إذا أراد دخول المنزل المقفل، يرفع يده لالتقاط مفتاح الغال الصغير للباب من فوق حاجب الباب الخشبي، والمزيّن وسطع الأعلى بالحديد بزينة دائرية وزجّاج محجّر؛ أو يقلب الدعسة كي يستلّ المفتاح من تحتها.

يا هل ترى تعود هذه الأيام؟!

متنوع رقم ٥: من خبايا السيرة الذاتية

Maladroit:

هو من لا يحسن التصرف، وربما يسيء التصرف. هذا أنا في علاقتي مع الجنس اللطيف وفي التعامل مع الناس.(*)

في بيروت، قبل الذهاب إلى موسكو، وكنتُ قد تركتُ التجارة وعدتُ إلى الدرس والتدريس مع القليل من التجارة، وبينما أنا متوجهٌ صباحًا إلى «الليسيه»، كنتُ ألتقي بفتاةٍ رصينة وأنيقة، ولم يبدُ أنها كانت تنظر إليّ وهي تدخل الثانوية الرسمية قرب بيتنا.

خلال دراسة الإجازة في التاريخ، فاتحني شابٌ في منتهى اللطف هناك، أنّ تلك الفتاة تودّ التعرف إليّ. وبالفعل، حضرتُ معه في اليوم التالي، وبلباسٍ مختلف عن ذاك الذي كانت ترتديه للثانوية. قالت لي إنها تذهب إلى مسبح الحمّام العسكري، فأجبتها «وأنا أيضًا، لكني الآن لا أستطيع الذهاب بسبب الامتحانات التي لا تنتهي قبل أسبوعين»، مع أني قليلًا ما أذهب إلى هناك، ولمدة ساعةٍ على الأكثر. وبما أني أسيء التصرف مع الجنس اللطيف، لم أدعها إلى مكانٍ ما للاحتفال بالتعارف، وقد كان الوقت حينها مناسبًا. قالت: «أنا سأذهب»، فأجبت «طيب» معقول هذا الغباء! لم يخطر ببالي أن نتبادل أرقام الهاتف مثلًا. أنا أتلبّك! في النهاية، لم أنزل إلى الحمّام العسكري، ونسيتُها، ومن دون شكّ نسيَتني، لا سيما أني كنتُ أتحضر للسفر إلى موسكو.

لم أتعلّم من تلك التجربة ولم أتقدّم في الطريق الصحيح. في موسكو، حصلت معي حادثة ثانية. بينما كان الأوتوبيس يتقدّم كالسلحفاة، قلتُ على الملأ قاصدًا أن تسمعني فتاةٌ أمامي: «الأفضل أن يتمشّى الإنسان». وبالفعل، نزلتُ من الأوتوبيس ونزلت هي أيضًا. عندها اقترحتُ عليها الذهاب إلى «بارك غوركي» للتنزّه ثم طلبتُ منها أن ندخل إلى المقهى القريب منّا، لاسيما أني كنتُ قد قبضت يومها المنحةَ الدراسية الشهرية.

كنت قد حضّرت نفسي كي أعترف لها بإعجابي، لكني لم أفعل. ماذا كانت النتيجة؟ لا سيّما أنها كررت السؤال عن سبب دعوتي لها. وبرغم ذلك، لم أفهم مقصدها ولم أنطق بما حضّرتُه. أخذَت رقمَ هاتفي لكنّها لم تعطِني رقم هاتفها، وقالت إنها ستّتصل بي ولم تفعل، والحق معها. أين تبخّرت الكلمةُ اللطيفة «أعجبتِني» أو أيُّ إشارة إلى ذلك؟ مجددًا، غباء وسوء تصرّف، بحيث تذكرت ما يقال عن جان جاك روسّو بأنه «دبّ اجتماعي»، مع بُعد التشبيه طبعًا به، لما فيه من علوّ كعب فكري- أدبي- ثوري.

أثناء العمل في التجارة، كنا مجموعة شبابٍ ننظم بعد ظهر كل أحد، من الثالثة حتى العاشرة مساءً، حفلات رقص، لكن ليس بانتظامٍ دائم. قال لي أحدُ أفراد المجموعة بلطف «يا عاطف، لولا أنك تجيد الرقص لما بقيت معك فتاة. يقولون إنك لا تعرف أن تسلّيهنّ وتلاعبهن». والواقع، أنّ أحدًا لم يكن يعرف ما كان يجري في داخلي من صراع لأجل ترك التجارة والعودة إلى الدرس والتدريس.


موسكو، ١٩٥٤.

وفي إحدى تلك الحفلات، دعوتُ فتاةً للرقص، وكانت قد شاهدتني أرقص مع غيرها. استأذنَتْ لدقيقة كي تخلع حذاءها ذا الكعب العالي. أردتُ أن أفعل مثلها فقالت أنْ لا لزوم لذلك. ورقصَتْ معي حافية القدمين ولكن بجوربَين لأنّ الطقس كان باردًا في فصل الشتاء. وفي إحدى المرات، حاولتُ مغازلة فتاة كنت أرقص معها وكانت تضع نظارتين شمسية على عينيها، فقلت لها: «عندما يكون للإنسان عينان جميلتان لا يضع نظارات سوداء». فأجابتني «يا ويلي» وخلعت نظّارتيها وإذ بعينيها متورّمتان وحولهما بقعتان سوداوان. ألم يكن السكوت أفضل وأسلم عاقبة ممّا حصل؟!

وبما أنّ الشيء بالشيء يذكَر، عندما كنتُ في حوالي الثمانين من العمر، وبعد سهرة عشاءٍ مع رقص، طلبت مني زوجتا صديقين عزيزين أن أعلّمهما الرقص. وبالنسبة لي، الرقص من زينة الحياة الدنيا لأنه يكون مصحوبًا بالموسيقى، التي هي أرفع الفنون ولا يعلو عليها فنّ، وتُعتبر اللغة العالمية قبل اللغة العالمية المقترحة «اسبرانتو». لكن، لسوء حظي أو حظهما لا أدري، أصبتُ بـ«ديسك» أثّر على رجْلي اليسرى حيث يوجد ورك اصطناعي، وقد أصبحت أستعمل عكازًا خاصًّا للمشي.

قبل ذلك بعقود كان الأمر مختلفًا. خلال سنتي الأولى في جامعة موسكو الحكومية، جامعة «لومونوسوڤ»، واختصارها MGU، رقصتُ في بهو الجامعة الفسيح مع إحدى الصبايا على أنغام موسيقى صاخبة. عندما انتهت الرقصة، تقدّم مني أستاذ اللغة الروسية وطلب مني أن أراقص زوجته. انحنيتُ أمامها وطلبت يدها للرقص. وعندما أنهينا، شكرتْني فقبّلتُ يدها.

وطالما يتعلق الأمر بالخبايا، لا بدّ من ذكر أني بالنسبة للبعض متشاوف، لكن بالنسبة لي هي تهمة في غير محلّها وأمر يسيء إليّ وإلى عائلتي في تربيتها لأولادها المفعمة بالتواضع والعرفان بالجميل.

قال لي أحدُهم «ربما يعود الاتهام بالتشاوف إلى أنّ جسمك لبّيس، أي أنّ كل ما ترتديه يليق بك، وأنك دائمًا في منتهى الأناقة؛ الأمر الذي يضفي عليك جوًّا من الجخّ، كما يقولون بالمحكية، شيئًا من الهيبة، أو بالأحرى «شِيكْ» Chic، لكن ليس التشاوف».

الواقع أنّ تهمة التشاوف أُطلقت عليّ أولًا في صف البكالوريا من قبل شخصٍ فارق الحياة، وثانيًا أثناء العمل في التجارة، وأيضًا من قِبل إحدى السيدات عندما سكنتُ في بنايةٍ بشارع محمد الحوت؛ ومن النقاط التي أسهمت في لصق الصفة بي أني كنتُ أضع نظارات طبية سوداء اللون خلال الصيف وأيام الصحو. يُضاف إلى ذلك ربما ما كانت تقوله أمي للجميع: أني جميل واسمٌ على مسمى «عاطف عطوف» (عذرًا، فالقرد بعين أمه غزال). والدليل على ذلك أنني عندما كنتُ في موسكو برفقة إحدى الصديقات، طلبت منها آنسة تعرفها، ولمرّتين، أن تقبّلني. كما أنّ إحداهنّ، وكنا قد أمضينا سهرة رأس السنة في الجامعة بموسكو، عندما اصطحبتها إلى منزلها في اليوم التالي دعت اثنتين من جيرانها الصديقات للتعرف إليّ.

صدقًا، هذا ما حصل من دون مبالغة. وعذرًا عمّا أقول، لأنّ مادحَ نفسِه يذمّه الناس، أما أنا فناقلُ وقائع ليس إلا. وقد ذكرتُ ما ذكرت لأنه إيجابي بحق نفسي للتعويض ربما عن سوء التصرف. فهل تمّ هذا التعويض؟ لا أدري، وأترك للقارئ الكريم الحكم على ذلك. وهنا، يحضرني الأديب والكاتب المسرحي الروسي الكبير أنطون تشيخوف الذي يقول ما معناه إنّ على الإنسان أن يكون نظيفًا في داخله وكذلك في مظهره الخارجي. وهل يتجسد ذلك بغير النظافة والملبس الأنيق المغلّفَين بالثقافة العامة رفيعة المستوى؟

وممّا تساءلتُ أيضًا: هل يطرد الغناء الخوف من الظلمة؟

كان ذلك خلال فصل الصيف في منطقة الباروك، حيث اصطفنا مرّة، أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان طرف الجبل، وبرغم ضوء القمر، يرمي بظلّه على الطريق فتُظلم. فكنتُ في طريق العودة بمفردي ليلًا أغنّي بصوتٍ جهوري، كي أطرد الوحشة من الظلمة. فهل صحيح أن الغناء يطرد الخوف من الظلمة؟

متنوع رقم ٦: من خبايا السيرة الأُسرية

١. قالت لي الوالدة مرةً إن الهاتف يرنّ ليلًا ويبدأ شابّ بمغازلتها. قلتُ لها إن هذا من دون شك موظف الهاتف، فأجابت إنها أفهمته غير مرة أنها لست شابّة وأنّها مثل أمه، وحتى أكبر منها سنًّا، حتى ارتدع في النهاية وتوقف عن فعلته: مغازلة الوالدة!

٢. كانت حفيدتي رشا خلال مرحلة الثانوية تدرس على أنغام الموسيقى الإيقاعية الصاخبة مع الغناء وهي ترقص. هل يمكن فهم ذلك؟ سابقًا على أيامنا كان هذا الأمر مستحيلًا، على ما يبدو لي، أما اليوم فلم يعد هناك من مستحيل. لقد حُذفت هذه الكلمة من القاموس، بعد البركان العاصف من تكنولوجيا العصر الذي نعيش، وتغيرت أمزجةُ الناس جرّاء ذلك أيضًا.

أصبحت رشا في سنتها الجامعية الثانية، وهي تدرس الهندسة المعمارية. سألتُ أباها سهيل، ابني أبو عاطف، عن استمرارها حتى اليوم في هذه العادة فقال «أحيانًا لأن الأمر

يتوقف على نوعية المادة في منهاج الدراسة الجامعية». أما هي فلمّا سألتها كررت أقوال والدها. بالمناسبة، الحديث مع ابني وابنته يجري مكالمةً عبر الهاتف عبر «واتساب» مع مدينة كيبيك في كندا، حيث هما مع الوالدة أماني وشقيقتها روان وشقيقها عاطف. أدام الله الجميع في صحة ووئام وعافية وسلام.

اليوم لم يعد هناك من مستحيل. لقد حُذفت هذه الكلمة من القاموس، بعد البركان العاصف من تكنولوجيا العصر الذي نعيش، وتغيرت أمزجةُ الناس جرّاء ذلك أيضًا

متنوع رقم ٧: متنوعات لبنانية

١. عصر العنب بالأرجل مع الغناء لصنع الدبس العنبي

منظر رائع رأيته مرةً واحدةً في حياتي، وكان لديّ شعور، ولا يزال، بأنه لن يتكرر، لأنه لم يعد موجودًا، حسبما أظنّ. في قريةٍ غير بعيدةٍ عن رويسات صوفر، لم أعد أذكر اسمها، خمسة أو ستة رجالٍ أشداء ممسكين بحبلٍ وظهورهم إلى حائطٍ وهم حفاة يعصرون العنب بأقدامهم في جرنٍ مستطيلٍ لا يتجاوز عرضه نصف المتر. وهذا الجرن المستطيل مثقوبٌ إلى جرنٍ آخر، أدنى منه، يُجمع فيه العصير العنبي، الذي يُغلى ويعطي الدبس العنبي ذا اللون الأشقر الغامق، والذي لا ألذّ من طعمه، لاسيما عندما يُخلط بالسمن الحموي (المفقود اليوم مع الأسف الشديد؛) أو يُمدّد طبقةً غير سميكة على الحليب بالرز غير المحلّى.

بيتُ القصيد هو الغناءُ الذي يصاحب عصير العنب بالأقدام الحافية، والصولو بينهم رجلٌ رقبتُه ممدودةٌ وحمراء وصوتُه جهوريّ يصدح بالأغاني الجبلية التي تجلب الراحة والهدوء والمحبة إلى الناس. كان منظر الصولو مع الكورس وهم يغنّون ويعصرون العنب بأقدامهم الحافية جديرًا بالتصوير الفوتوغرافي، لكن للأسف، لم تكن معي آلة تصوير. بل هذا المشهد الذي لا مثيل له، كان يُفترض أن يُصوَّر سينمائيًّا، ولو بالتصوير السينمائي الصامت آنذاك (منذ حوالي ٨٥ عامًا) ومن ثمّ يتمّ التعليق عليه لاحقًا، وذلك بهدف حفظ التراث الفلكلوري الآخذ بالانقراض على ما يبدو.

٢. قاهر الإعاقة بالشعر والإنشاد

ولكن من هو هذا الصولو؟ إنه شاعرٌ شعبي، ذراعه اليسرى مقطوعة من أسفل الكتف بقليل، وتحت إبط الذراع المقطوعة مجموعةٌ مرصوصةٌ من كراريس صغيرة من الأشعار الشعبية التي ينشدها. وكان ثمن الكراس ٥ أو ١٠ قروش لا أكثر على ما أذكر.

هو قاهر الإعاقة بشِعره وإنشادِه بحنجرة تبين شرايينها من قوة الصوت. وهذا المشهد حصل في سوق سرسق الشعبي على ما أذكر.

وفي ما يلي بضعة أبيات شعرية بقيت في الذاكرة ممّا كان ينشد:

حوّا هي أصل السبب — والواسطة كانت تفاحة
لو ما تطعميها لآدم — كانت العالم مرتاحة
وكنا عايشين بالجنة — أحسن ما يكون أحسن ما يكون

٣. الحاوي المصري

إنه بالع السيوف ومخرج شفرات حلاقة في خيط طويل من فمه وضارب شيش بين خدّيه وفي بطنه ومصعّد المعزاة على بكرات كبيرة، وغير ذلك من الأمور. وهو يقدّم عرضه هذا أمام ساحة جامع ليس كبيرًا، لم أعد أذكر اسمه، بالقرب من مبنى بلدية بيروت الممتازة؛ ومعه بالطبع سعدان يرقّصه على الدفّ. عند انتهاء العرض كان يقول: «البخيل هو الذي يهرب» بينما يدور على الجمع الملتفّ حوله على شكل دائرة، ليجمع في الدفّ القروش.

هذا المنظر كان أيضًا يستحقّ التصوير الفوتوغرافي وحتى السينمائي؛ لكن أيضًا لم يكن معي أداةٌ لتوثيقه. هي مشاهد تستحق التخليد في الذاكرة الشعبية للبنان، خصوصًا المشهدين الأوّلين كونهما لبنانيين في الصميم.

متنوع رقم ٨: مناظر غريبة عجيبة؟!

١. خلال مؤتمر عُقد في إحدى قاعات جامعة موسكو للدولة، كان هناك شابٌ بكامل لباسه: طقم كامل وربطة عنق ومع ذلك، كان يمشي حافي القدمين على الرخام في فصل الشتاء. ما الحكمة من ذلك؟ قال البعض من أجل امتصاص الكهرباء من الأرض!

٢. في لبنان شخصٌ أعرفه لا يقص أظافر أصابع قدميه منذ سنين. ما فائدة ذلك؟ هناك هراء عن القوة الجنسية التي يكتسبها من ذلك. يرحمه الله فقد أصبح في العالم الآخر.

٣. أكياس خيش مليئة بالكتب مرمية قرب مكب نفايات! يا للعجب العجاب! أهكذا ينتهي حال الكتب عندنا في لبنان؟ شخصيًّا، أخذتُ من كرتونة كتب مرمية قرب مطعم بيتزا في شارع الاستقلال ثلاثةَ كتب، وكان هناك كتبٌ أخرى جيدة غير أني لم أقدر على حملها.

٤.فتاة تعمل بأصابع قدميها لأنها مقطوعة الكفّين. تضّم الإبرة وتشغّل ماكينة الخياطة وتخيط وتطرّز وتحيك الصوف بصنارة واحدة وصنّارتين، وتحقن «بابور» الكاز وتشعله. لقد قهرت الإعاقة وتفوقت عليها بالإرادة الصلبة.

٥.في ساحة الدبّاس دائرةٌ خشبيةٌ مرتفعة (برج خشبي) وثلاثة إخوة أتراك من راكبي الدراجات النارية الماهرين يدورون بدراجاتهم بشكل منفرد ومع بعضهم البعض حيث يتقاطعون، على الحائط الخشبي الداخلي للبرج. وفي آخر العرض، يسير أحدهم والعلمُ التركي على وجهه ويداه في الهواء.

أما المتفرجون، فكانوا لقاء عشرة قروش لا غير يصعدون سلّمًا خشبيًا حول البرج من الداخل إلى أعلى الدائرة (البرج) للمشاهدة، والتي تدوم حوالي ربع ساعة وربما عشر دقائق. إنه بالفعل مشهدٌ يأخذ الألباب ويثير العجب العجاب!

متنوع رقم ٩: مناظر موسكوبية

١. الاندلاق الشمالي: الثلج يندف وفيه شحطات ليست صغيرة من الفوسفور وهي تلمع بلون أقرب إلى الفستقي. إنه منظرٌ في منتهى الروعة ويثير الإعجاب صادفته مرةً واحدةً لم تتكرر، وذلك في الصباح الباكر أثناء عودتي من إحدى ضواحي موسكو.

٢.موسكو في الليالي البيضاء: في أواخر فصل الربيع وبدء فصل الصيف، تظهر الليالي البيضاء في موسكو، فتغدو الليالي غير مظلمة وشبه منيرة وتستنفر الطبيعةُ لاستقبال المتنزهين، لاسيما الطلاب منهم، حول حدائق الجامعة. يبدو الجميع في تلك الليالي كأنه مضربٌ عن الدراسة.

٣.شيءٌ رائعٌ لمسته في الاتحاد السوفييتي. أهل الشمال- موسكو، لينينغراد، كالينينغراد وغيرها من المدن، يتبادلون الشقَق مع أهل الجنوب على البحر الأسود . بالطبع، هي شققٌ صغيرة لا يُخشى عليها من السرقة، إذ لا يوجد فيها مقتنيات فضية أو كريستالية أو ما شابه. هذا كما أنّ مجموعة الثياب Garderobe، سواءً للرجال أو النساء، فكانت محدودة الكمية والنوعية.

هكذا هو الأمر أيضًا بالنسبة للشعب عمومًا، حسبما علمت، حتى في البلدان الرأسمالية (لاسيما أوروبا وأميركا الشمالية). بالطبع، هناك البرجوازية التي تسكن الشقق الفخمة في ناطحات السحاب وكذلك القصور في الغابات وغير ذلك. لكنّ هؤلاء قلّة، ومع ذلك فهم يحوزون على القسم الأكبر من الدخل الوطني في البلاد. أما في الدول الاشتراكية، فقصور الإقطاعيين القدامى غدت منتجعات ودورًا لأطفال كلّ أبناء الشعب السوفياتي.

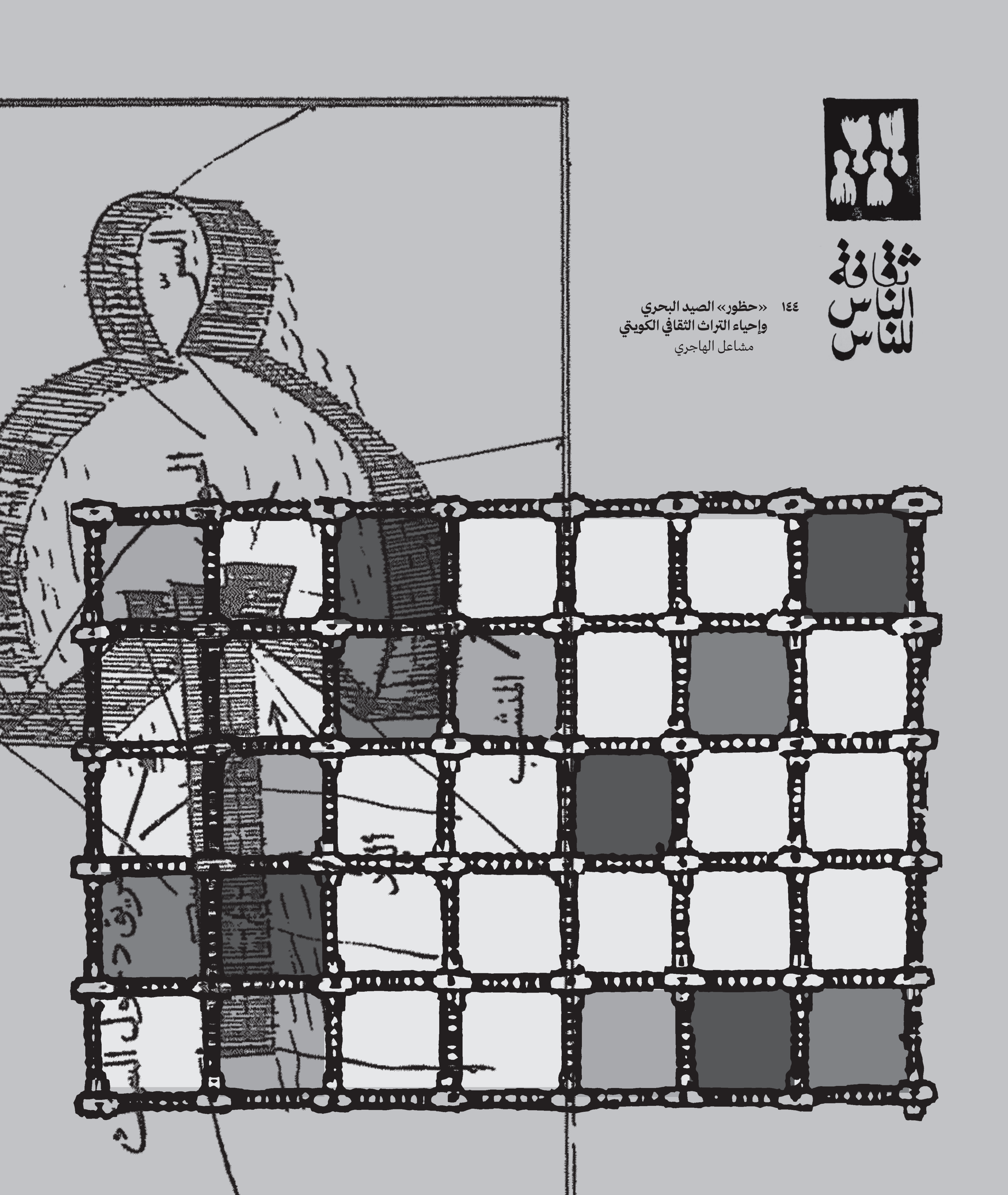
هذا ما ورد على الخاطر من متنوعات ننهيها بتمنٍّ حارّ بعودة ما يشبه الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، وحتى الأحوال السابقة للبلدان العربية والعالم، ولو بأشكال جديدة ومختلفة. وذلك إنقاذًا للبشرية من مرارة العيش في الصراع الدائم والمكلف للأرواح والعمران وغير ذلك مع الرأسمالية النيوليبرالية الأخطبوطية، التي تمدّدت على الكرة الأرضية. ومع ذلك، بإمكان البروليتاريا، التي وُصف أفرادُها في ما مضى بالصعاليك (يا صعاليك العالم اتحِدوا)؛ الانتصار على تلك النيوليبرالية وذلك عبر حُسن التوعية والتربية والتثقيف والإعداد السليم وغيرها من الطرق، السلمية والثورية، وذلك حسب الظروف.

استدراك

ذكرتُ في النص أنّي إلى جانب الدراسة والتدريس عملتُ في التجارة بعض الشيء. لقد تأتّى، نتيجة الصراع المذكور، عن آخر عمل تجاري قمت به الآتي: عقدتُ مع قريبٍ لي وشريكه صفقةً قامت على أن أضع ٢٠٠٠ ل.ل، وأن يضعا هما ٤٠٠٠ ل.ل. وقد كوّن المجموع رأس المال الذي بلغ ٦٠٠٠ ل.ل. تولّيتُ أنا المراسلة لشراء ثريّات و«غلوبات» سقف على الكتالوغ. عندما وصلت البضاعة وبدأ قريبي وشريكه بتركيب بعض الثريات؛ تقدّم مني شريك قريبي عارضًا عليّ ١٠٪ على ثمن البضاعة- الثريات والغلوبات للسقف- وانسحب من الاتّفاق الذي كان شفويًّا. وبما أني كنت مزمعًا على الزواج فقد قبلت.

جوهر الموضوع أنّي نتيجة الصراع في داخلي لترك التجارة بشكل كلّي (طلاقًا بالثلاثة)، قبلت العرض المذكور، ونسيت حتى أمر مبلغ الألفَي ليرة الذي دفعته معهما لرأس المال، وهو حق لي.

أكتب هذا الهامش بعد الانتهاء من تبييض النّص، وأنا في أواخر الـ٩٥ من العمر وعلى مشارف الـ٩٦! وقد صدر لي في شباط/ فبراير ٢٠٢٠ آخر كتاب عن «دار الفارابي» بعنوان «فسيفساء ماركسية» (الكتاب الواحد والعشرون من مجموعة كتبي). وهنا أتساءل: ألا يَشفع لي ما رويتُ في هذا الهامش قصوريَ في التعاطي مع الجنس اللطيف آنذاك وأنا في التجارة أو حتى يخفف من سوء الحكم السيئ عليّ؟!



ثقافة الناس للناس



«حظور» الصيد البحري وإحياء التراث الثقافي الكويتي

مشاعل الهاجري

أستاذة مشاركة في كلّية الحقوق بجامعة الكويت، ورئيسة تحرير سابقة لـ«مجلة الحقوق». لها عدة أبحاث وكتب منشورة باللغتين العربية والإنكليزية في القانون ومهنة المحاماة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وقوانين العمل والبيئة وقضايا التعليم والتراث الثقافي

«جِيس قبل تغيص. ما ينفع الجِيس من بعد الغَرَق»[١].
(مَثل كويتي بحري قديم)

عن الحظرة وكائناتها

في طفولتي في الكويت، عندما كان البحر أشد زرقةً وأكثر كرمًا، مارست أنا وأقراني صورًا عديدة من الصيد البحري، من «الميدار» و«السنارة» السهلَين إلى «السالية» الصعبة فـ«الطاروف» المُتعِب ثم «القنبار» المثير، وهي جميعها طرق تقليدية كويتية لصيد السمك. وعلى الرغم من شغفي بالصيد بجميع صوره، لم يعلق بذاكرتي منه شيء مثلما علق صيدنا بداخل «الحظور» التي عشت بداخلها مغامرات حقيقيّة، كثيرًا ما رفعتْ من معدّل الأدرينالين في رأسي وأسالت الدماء من قدمي.

و«الحظور» جمع «حظرة». والحظرة - لمن لا يعرفها - تقنية شعبيّة قديمة لصيد السمك معروفة في دول الخليج العربي ومنها الكويت، تتمثل في أخذ العيدان (المصنوعة من القصب سابقًا والمعدن لاحقًا) ونَصْبها بشكل شبه دائم في وسط البحر، ثم إحاطتها بأسلاك حديدية تعمل بمثابة شِباك ذات مداخل ضيقة تسمح بدخول الأسماك فيها في حالة المدّ وتمنع خروجها منه عند الجزر. وتُنصب الحظرة بالقرب من الشاطئ أو في المناطق التي ينحسر عنها الماء، على أن تكون فتحتها باتجاه الساحل. ويكون صيد السمك بالدخول إلى الحظرة مشيًا، حيث يبلغ مستوى الماء فيها عند انحساره حتى الركبة أو يزيد أو ينقص. ولك أن تتخيّل ما يحمل الدخول فيها - وسط أسرابٍ من الكائنات البحرية الحائرة والمرتبكة - من مفاجآتٍ وإثارة، بل وخطورة أحيانًا (ما زال مرأى منظر «اللخمة» المهيب وألم ضربة «الفريالة» القاسي عالقين في ذاكرتي).

ولكن ما لنا وللضرب في شؤون التعريف والوصف في حين أن الباحث الألمعي المرحوم حمد السعيدان - الذي مرّ في تاريخ الكويت مثل شهابٍ خاطفٍ فغادرنا سريعًا وهو شاب - كفانا مؤونة التعريف حين أدرج في موسوعته الكويتية المختصرة تعريفًا للحظرة ورسمًا توضيحيًّا لها، أوردهما فيما يلي:

> «حَظْرَة: حظيرة تُنصب من أعواد القصب لصيد الأسماك بالقرب من الساحل، تدخل فيها الأسماك وتتيه بين حواجزها ويصعب خروجها، وعندما ينحسر الماء يأتي الصياد ويلتقطها بيده. الجمع حظرات. والحظرة بموقعها تُمتلك كقطعة الأرض، وعند صاحبها سند ملكيةٍ، ومن امتدّت يده إلى أسماك الحظيرة لقي الجزاء»[٢].

استحضرت كلّ ذلك وأنا أقرأ ما طالعتنا الصحف به بتاريخ ٢٧ آذار/مارس ٢٠١٨، إذ أوردت محضر اجتماع مجلس الوزراء الكويتي، الذي ورد فيه أنه تداول في جلسته لهذا الأسبوع توصية التقرير النهائي الشامل لفريق عمل تطوير جزيرة فيلكا والإجراءات التي اتُّخذت في هذا الخصوص، وأنه قد وجّه الجهات المعنيّة بالعمل على إزالة كافة المعوّقات التي تعترض مسار تنفيذ مشروع التطوير. وقد كان من جملة التدابير التي أوصى بها المجلس، في محضر جلسته تلك، «اتخاذ كافة الإجراءات القانونية والعملية اللازمة لإزالة الحظور المقامة في جزيرة فيلكا».

في خضمّ الحديث عن مشروعٍ ضخم مثل مشروع تطوير جزيرة فيلكا، قد يبدو الحديث في موضوع إزالة الحظور أمرًا ثانويًّا لا يستدعي التوقف. لكن المشكلة تكمن دائمًا في التبسيط: فنعم؛ كل نقاش يجب أن يُطرح في أبسط أشكاله، ولكن لا؛ لا ينبغي أن يُعرض الأمر دائمًا وكأنه أبسط مما هو عليه في الواقع. فللأمر أبعادٌ كبرى تتعلّق باتفاقياتٍ دوليةٍ لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ارتبطت بها دولة الكويت، وبقوانين وطنيةٍ ملزمةٍ أصدرها المجلس التشريعي للبلاد.

والأهم، أن الأمر يتعلق بجزيرتنا الوحيدة المأهولة - أو على الأقل التي كانت كذلك إلى عهدٍ قريب - فالجزر تقع وسط البحر، والبحر يفصل ويصل، على عكس الصحراء التي تفصل بين الحضارات.

سأبيّن المقصود في ما يلي، وأنا أحذّر مسبقًا: من الناس من يحبّذ الخيالي، والميتافيزيقي، وألعاب المرايا. أما أنا، فلا أستطيع المساهمة إلا في كل ما كان موضوعه عقلانيًا وقابلًا للاستدلال.

لأشرح.

«اليونيسكو» والفهم المادي للتراث الثقافي

تُعنى أدبيات «اليونيسكو» بحماية التراث الثقافي، وتدور حوله العديد من الاتفاقيات الدولية. تاريخيًا، بدأ الحديث عن الملكية الثقافية التي تمثل فرعًا من التراث بمعناه العام. وفي هذا النطاق، تشير «الملكية الثقافية» (Cultural property) إلى نوعٍ محدّدٍ من الملكية التي تعزّز الهوية، والتفهّم، وتقدير الثقافة التي أنتجت هذه الملكية بالتحديد.

وقد كان تعبير «الملكية الثقافية» أكثر المصطلحات شيوعًا في الأدبيات القانونية، إذ كان يستخدم في معرض رد الفعل الدفاعي على تدمير الأشياء والمباني الواقعة في مناطق النزاعات المسلحة، كما كانت الحال عليه إبّان الحرب العالمية الأولى. إلا أن هذا المصطلح سرعان ما أصبح قاصرًا عن التعبير عن نطاق الحماية المطلوب، لأنه فشل في احتواء القيمة غير الماديّة للثقافة من حيث إنه كان ينصبّ على الحيازة الماديّة وحدها.

> في عام ١٩٩٥ صدر عن اللجنة العالمية للثقافة والتنمية (World Commission on Culture and Development - WCCD) تقريرٌ بعنوان «تنوعّنا الخلّاق» (Our Creative Diversity)[٣]، أشار إلى هذا الجانب من عدم التوازن عندما أورد أن الأشياء المادية- أي المباني الأثرية الكبرى والأعمال الفنية والحرفية - كانت المستفيد الأول من مفهوم المحافظة على التراث. كما جاء في هذا التقرير أن نشاطات «اليونيسكو» لتحديد المقاييس المعيارية قد ظلت تركز على حماية التراث الملموس على مدى أربعة عقود تقريبًا[٤].

وبذلك، أصبح هناك إدراكٌ بأن النظام القانوني الدولي لحماية التراث الثقافي العالمي لا يرى إلا التراث الملموس، ويسبغ الحماية عليه وحده، حارمًا عداه من الصور الأخرى للتراث من مظلة الحماية.

اتساع عدسة «اليونيسكو»

بانتصاف القرن العشرين، تغيّر الأمر من قصر الثقافة على الفنون والآداب وما يتصل بهما، ليتجاوزها إلى التوسعة من نسقها واعتبارها أسلوبًا متكاملًا في العيش ومنظورًا إلى الوجود. لقد أصبحت الإشارات العامة الدولية لموضوعات الثقافة تشمل الأدب والفنون الموسيقى والرقص والمسرح والتشكيل والشِعر والآثار والتاريخ والدراسات المجتمعية وعداها. دخل إلى الحياة الفكرية والثقافية مفهومٌ جديدٌ للثقافة، أوسع أفقًا وأكثر شمولًا. إن نظرةً إلى تنوّع أوجه هذا المفهوم الجديد وخصوبته تكشف عن منظور متطوّر، يرى أن الثقافة لا تتعلّق بالقراءة والكتابة فتنحصر في أوساط الدارسين من النخبة الاجتماعية، إنما تتجاوزهما إلى كل مَن له علاقةٌ باكتناز التجارب والوعي بنتائجها، الأمر الذي يعني أنّ الثقافة لغير الدارسين من شرائح كالمزارعين والحرفيين والعمّال وعداهم من الأميّين الواعين لثقافاتهم التي يبدعون بها ويمارسون فنونهم من خلالها وينقلونها إلى أجيالهم الجديدة، فهي بذلك جديرةٌ بالاحترام والحماية أيضًا[٥].

وهكذا، فالثقافة - وفق هذا المنظور الإنساني - هي «منظومة من السمات التي تسم جماعاتٍ من الجماعات البشرية، تتجلى فيها طريقة هذه الجماعة في الحياة، وتتحدّد أنساقها القيَمية والمعتقدية والمعرفية والجمالية، التي تُعبّر عن نظرتها للوجود الاجتماعي والطبيعي»[٦]. بذلك، فهذا يشمل الطيف الواسع من الممارسات والمعارف والعادات والقيم والأساليب الاقتصادية للعمل والإنتاج، بالإضافة إلى كل ما قد يُزاد على ذلك من قدراتٍ مكتسبةٍ ينقلها المجتمع إلى أفراده.

من هنا، فخلال السنوات الأخيرة أصبح مصطلح التراث الثقافي (cultural heritage) أكثر ذيوعًا، برغم أنه لم يكن خاليًا من المشكلات أيضًا[٧]. وتتضمن اتفاقية «اليونيسكو» لحماية التراث الثقافي والطبيعي ١٩٧٢ (UNESCO Convention Concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage)[٨] أول إشارةٍ يتم فيها إيراد تعريفٍ للتراث الثقافي، إذ ورد فيها أنه يتمثل في الصروح والمباني والمواقع «التي لها قيمةٌ عالميةٌ استثنائيةٌ من وجهة النظر التاريخية أو الجمالية، أو الإثنولوجية، أو الأنثروبولوجية»[٩]. الأمر الذي يعني أنه على الرغم من أن الاتفاقية قد قصرت حمايتها على ما هو ماديّ فقط، إلا أنها ربطت قيمته المادية بالتصورات غير الماديّة عنه.

وتدريجيًا، بدأ الاعتداد بالجوانب غير المادية للثقافة، إلى أن أخذت «اليونيسكو» موقفًا واضحًا في أدبياتها وممارساتها الحمائية، فبادرت إلى إطلاق منظومة «الكنوز الإنسانية الحية»



(World Treasures) عام ١٩٩٣[١٠]، وأتبعت ذلك بـ«إعلان روائع تراث الإنسانية الشفهي وغير المادي» (Proclamation of the Masterpieces of the Oral and Intangible Heritage of Humanity) الصادر عام ١٩٩٨، ثم توّجت هذه الجهود بإصدار «اتفاقية بشأن حماية التراث الثقافي غير المادي» عام ٢٠٠٣ (Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage)، التي مثلت قفزة حقيقية في مجال الاعتراف بالتراث الثقافي غير المادّي وحمايته، واعتبار عناصره - بما هي تقاليد ثقافية حيّة ومستمرة - جديرة بالتقدير والاعتبار[١١].

بين التراث الثقافي المادّي وغير المادّي

على الرغم من التطور الذي لحق بمفهوم «التراث الثقافي» كما تَقدم، إلا أن اعتبارات العولمة والتداخل الحضاري الواسع والمعقّد الذي وضع بصمته على القرن العشرين ومنه إلى الواحد والعشرين (نظم استعمار، حركات تحرّر، تعاون دولي، وسائل مواصلات واتصالات، حركة نشر، إعلام وعداها)، أدت جميعها إلى تثاقفٍ واضح، سرّع - في جانبيه السلبي والإيجابي معًا - في المضيّ بفكرة التراث إلى مدًى أبعد من التعريف السابق، فأصبح للتراث معنًى عالميّ الآن، كما صار يُسبغ قيمةً خاصةً على جماعاتٍ ثقافيةٍ معيّنة.

لقد صار تعبير «التراث» يشير - بشكلٍ أوسع - ليس فقط إلى المواقع والأشياء، وإنما يتجاوزه إلى القيمة المُدمَجة في هذه الأشياء والتي تضفي عليها جملةٌ من الاعتقادات المعاصرة والممارسات الحيّة، من تلك المقرّر لها أن تنتقل إلى الأجيال المستقبلية. وهكذا، صار مفهوم «التراث الثقافي» يتألف الآن من المواقع والمواد وعناصر القيمة التي أُسبغت عليها، وإن كان ذلك من خلال أهميتها لجماعاتٍ معيّنةٍ من البشر[١٢].

وهنا، تجدر الإشارة إلى الطبيعة المزدوجة للتراث الثقافي كما صار يُنظر إليه الآن، فعلماء الاجتماع كثيرًا ما يصنّفون هذا التراث بأنه إما «ثراث مادّي» (tangible) أو «تراث غير مادّي» (intangible):

لقد صار مصطلح «التراث الثقافي المادّي» (tangible cultural heritage) يشير إلى الملكية الثقافيّة المشار إليها في ما تقدّم، والتي تتكون من الأموال العقارية والمنقولة من التراث الثقافيّ، أي الأشياء التي تتمثل بهيئة مواقع ونُصُب ومعالم وعداها ممّا يمكن التعاطي معه من خلال حاسَّتي النظر أو/ واللمس (أي رؤيتها بصريًّا أو لمسها يدويًّا).

وعلى خلاف ذلك، فإن التراث الثقافي غير المادّي (intangible cultural heritage) هو مجموعة العادات

حظرة بورباع، جنوب فيلكا.





والمعتقدات والطقوس والممارسات والتصورات والقيم ذات الارتباط بجماعة بشريّة معيّنة، بما يعني أنه ينصبّ على الموضوعات ذات الطبيعة الذهنية أو الوجدانية. وبذلك، فإن التراث الثقافي غير المادي هو أمرٌ يمكن مشاهدته أو ممارسته، ولكن لا يمكن لمسه باليد، ومن هنا جاء وصفه بأنه «غير مادّي» أو «غير ملموس» أو «معنوي».

في الحقيقة، إن هذين أمران لا يمكن الفصل بينهما، «فالتراث لا يكون تراثًا إلا إذا صار يمكن التعرّف إليه من خلال منظومة من القيم الثقافيّة أو الاجتماعيّة، هي بحد ذاتها لها طبيعةٌ غير مادية»[١٣]. وبذلك، فإن ثنائية جانبي التراث الثقافي - أي الجانب الماديّ والجانب غير المادّي - هي سِمةٌ مدمجة في التراث لا تسمح بالعزل بين الاثنين، فهما يغذّيان بعضها البعض.

إن ثنائية جانبي التراث الثقافي، المادّي وغير المادّي، سِمةٌ مدمجة في التراث لا تسمح بالعزل بين الاثنين

لقد كان الأركيولوجي الشهير Folorunso يؤكد أن التراث المادّي لا يعني شيئًا من دون اعتبارٍ إلى ما يرتبط به من قيم ثقافيّة، فالمادّي لا يستمد قيمته إلا من غير المادّي، فيعمل الأوّل كوسيطٍ ملموسٍ يكشف الثاني عن نفسه من خلاله[١٤].

أيًا كان الأمر، فإن عناصر التراث الثقافي غير المادي - كما استقرّت عليها صكوك «اليونيسكو» وأدبياتها حاليًا - تتمثّل في التقاليد واللغات وعداها من أشكال التعبير الشفاهي، فنون أداء العروض وتقاليدها، الممارسات الاجتماعية والاحتفالات والطقوس، المعارف والممارسات ذات العلاقة بالطبيعة وبالكون، والمهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

ما علاقة كلّ ذلك بحظور فيلكا؟

بصفتها عضوًا في منظمة الأمم المتحدة، ومن ثم عضوًا في الأجهزة التابعة لها ومن ضمنها «اليونيسكو»، صدّقت الكويت على العديد من اتفاقيات هذه المنظمة[١٥]. وتبسط هذه الاتفاقيات - في مجموعها - مظلةً واسعةً من الحماية تكاد تشمل كل ما في الآن في جزيرة فيلكا من التراث المادّي وغير المادّي:

أولًا، إن جزيرة فيلكا مليئة بعناصر التراث الثقافي المادّي التي تغطيها «اتفاقية اليونيسكو لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي» ١٩٧٢ (Convention concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage)، والتي، في الفقرة الثالثة من المادة ١ منها، تناولت بالحماية «أعمال الإنسان، أو الأعمال المشتركة بين الإنسان والطبيعة، وكذلك المناطق بما فيها المواقع الأثرية، التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة النظر التاريخية أو الجمالية، أو الإثنولوجية[١٦]، أو الأنثروبولوجية»[١٧]. وهكذا، فإن طيف الحماية واسع[١٨]، ولا شك أن ما في الجزيرة من مواقعٍ وهياكلٍ وقطعٍ أثريةٍ يندرج تحت هذه الاتفاقية، وتوجد في متحف الكويت الوطني الكثير من الشواهد الأثرية على ذلك.

ثانيًا، في فيلكا ممتلكاتٌ ثقافيةٌ ماديّةٌ مغمورة بالمياه، تعود لعصور ما قبل الإسلام، على شكل مصائد حجريّة للأسماك (وقد سبق أن وثّقت البعثة الآركيولوجية البولندية هذه المصائد في الجزيرة[١٩]؛ التي ربما مثلت النموذج البدائيّ الأول للحظرة)، وهي مما تنطبق عليها الحماية المقرّرة في اتفاقية «اليونيسكو» بشأن الممتلكات الثقافية المغمورة بالمياه لعام ٢٠٠١ باعتبارها جزءًا من التاريخ الإنسانيّ لا شكّ فيه، إذ عرّفت المادة ١ من الاتفاقية «التراث الثقافي المغمور بالمياه» بأنه «جميع آثار الوجود الإنساني التي تتسم بطابع ثقافي وتاريخي أو أثري، والتي ظلت مغمورة بالمياه جزئيًا أو كليًا، بصورة دورية أو متواصلة، لمدة مئة عام على الأقل...». ولا شك أن الحكومية الكويتية قد أبدت اهتمامًا خاصًا بالموضوع، ففي اجتماع لجنة الشؤون الخارجية المنعقد لمناقشة مشروع القانون بالموافقة على هذه الاتفاقية، أبدت الحكومة الرأي التالي:

> «إن الاتفاقية - وقد تمّت إحالتها إلى المجلس بالمرسوم المشار إليه - تكون قد جاءت بعد دراساتٍ أكّدت أهمية التوقيع عليها من دولة الكويت كعضوٍ فاعلٍ في الأمم المتحدة، خاصةً وأن دولة الكويت تعد إحدى الدول التي تذخر بمساحات كبيرة من البحر الإقليمي المتمثل في الخليج، الأمر الذي يتطلّب المحافظة على تراثها البحري المغمور بالمياه، مع مشاركة الدول الأخرى ذات العلاقة في هذا الخصوص، بما يحقق المصالح العليا لدولة الكويت عن المستويين الإقليمي والدولي»[٢٠].

ثالثًا، في الجزيرة حظور خشبية تقليدية لصيد السمك (وهي ليست كثيرة، عددها حوالي ست أو سبع في ما أظن)، وبعضها له من العمر ما يجاوز المئة عامٍ بكثير (إذ تُجدّد الحظرة باستمرار لأن المياه المالحة تؤدي إلى تآكلها بمرور الزمن). فصيد الأسماك وما يدور في فلكه من حرفٍ موازيةٍ ممارساتٌ قديمةٌ في فيلكا - فغالبية الأهالي «كانوا يعملون في صيد الأسماك»[٢١] - إلا أن

مهارة تشييد الحظور ما زالت تُمارس، بما يعني أنها تصنَّف كتراث ثقافي حيّ. نتيجة لذلك، فإن هذه الحظور - بما يرتبط بها من معارف وممارسات حيّة - تصلح محلًّا للحماية التي تسبغها اتفاقية «اليونيسكو» بموجب حماية التراث الثقافي غير المادّي للعام ٢٠٠٣، حيث ورد في المادة ٢ من الاتفاقية أن عبارة «التراث الثقافي غير المادي» تعني «الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات - وما يرتبط بها من آلاتٍ وقطعٍ ومصنوعاتٍ وأماكن ثقافية - التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزءًا من تراثها الثقافي»[٢٢].

تهجير أهالي الجزيرة

بل إن قرار إزالة الحظور هو مما ينبغي دراسته أيضًا ضمن نطاق اتفاقية الـ«يونيسكو» لحماية وتعزيز تنوّع أشكال التعبير الثقافي لعام ٢٠٠٥، التي تقرر المادة ٨ منها أنه «يجوز لأيّ طرفٍ تحديد ما إذا كانت هناك أوضاعٌ خاصةٌ تكون فيها أشكال التعبير الثقافي الموجودة على أراضيه معرّضة لخطر الاندثار أو لتهديدٍ خطيرٍ أو تتطلّب بصورةٍ ما صونًا عاجلًا»، إذ عندها «يجوز للأطراف أن تتخذ جميع التدابير الملائمة لحماية وصون أشكال التعبير الثقافي في الأوضاع المشار إليها في الفقرة ١ طبقًا لأحكام هذه الاتفاقية».

فقدت فيلكا تراثها الثقافي غير المادّي برمّته، لأن مجتمع الجزيرة قد هُجّر بالكامل

وبطبيعة الحال، فإن «التنوع الثقافي» قد تم تعريفه في هذه الاتفاقية بأنه يعني «تعدّد الأشكال التي تعبّر بها الجماعات والمجتمعات عن ثقافاتها...»[٢٣]. كما عرّفت الاتفاقية «أشكال التعبير الثقافي» بأنها «أشكال التعبير الناشئة عن إبداع الأفراد والجماعات والمجتمعات والحاملة لمضمون ثقافي»[٢٤]، وهذه تتعلق بـ«الأنشطة والسلع والخدمات التي يتبيّن، لدى النظر في صفتها أو أوجه استعمالها أو غايتها المحددة، أنها تجسّد أو تنقل أشكالًا للتعبير الثقافي، بصرف النظر عن قيمتها التجارية»[٢٥].

وفي الحقيقة، فإن فنون صناعة الحظور الخشبية، وإلى جانبها صناعة القراقير وأدوات صيد السمك وطرق تجفيفها، ووسائل تخزينها والحلويات التقليدية والخبز والعادات والتقاليد في مناسبات الزواج والمولد والوفاة والأعياد والمعتقدات المرتبطة بالطبيعة والشعر والأهازيج ومفردات اللهجة المحلية لأهالي فيلكا هي جميعها مما يندرج ضمن إطار اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي ٢٠٠٣[٢٦].

ومن أسفٍ أنه نظرًا للقرارات الحكومية السابقة والقاضية بإجلاء أهالي فيلكا وتوطينهم في الكويت، والتي أدّت إلى إخلاء الجزيرة من أهلها، فقد فقدت فيلكا تراثها الثقافي غير المادّي - المكوّن من هذه العناصر وعداها - برمّته، لأن مجتمع الجزيرة قد هُجّر بالكامل، فلم يبقَ أحدٌ من الأهالي موجودًا فيها لممارسة هذه العناصر المذكورة.

ما المطلوب؟

من جميع ما تقدّم، يقع على الحكومة واجبٌ مختلفٌ تمامًا عمّا هي بصدد عمله، بل ومضادٌّ له: إن الالتزام الحقيقي للحكومة يتمثّل في حماية حظور جزيرة فيلكا، لا في إزالتها. يُقال إن هذه الحظور لا ترخيص لها فهي بالتالي مخالفة، وإن هناك قرارًا حكوميًّا قديمًا بإزالتها. وأنا، برغم بحثي، لم أرَ هذا القرار فلا أعرف مضمونه، ولا أعلم لماذا لم تتم الإزالة في السابق، ولكن إن كان ما نسمعه من وجوده صحيحًا فالأَولى الآن هو إصدار قرارٍ جديدٍ بحماية هذه الحظور[٢٧]، وتعهّدها بالصون والرعاية اللذين تشير إليهما الاتفاقيات موضوع المقال، باعتبار أنها اتفاقياتٌ ملزمةٌ للكويت.

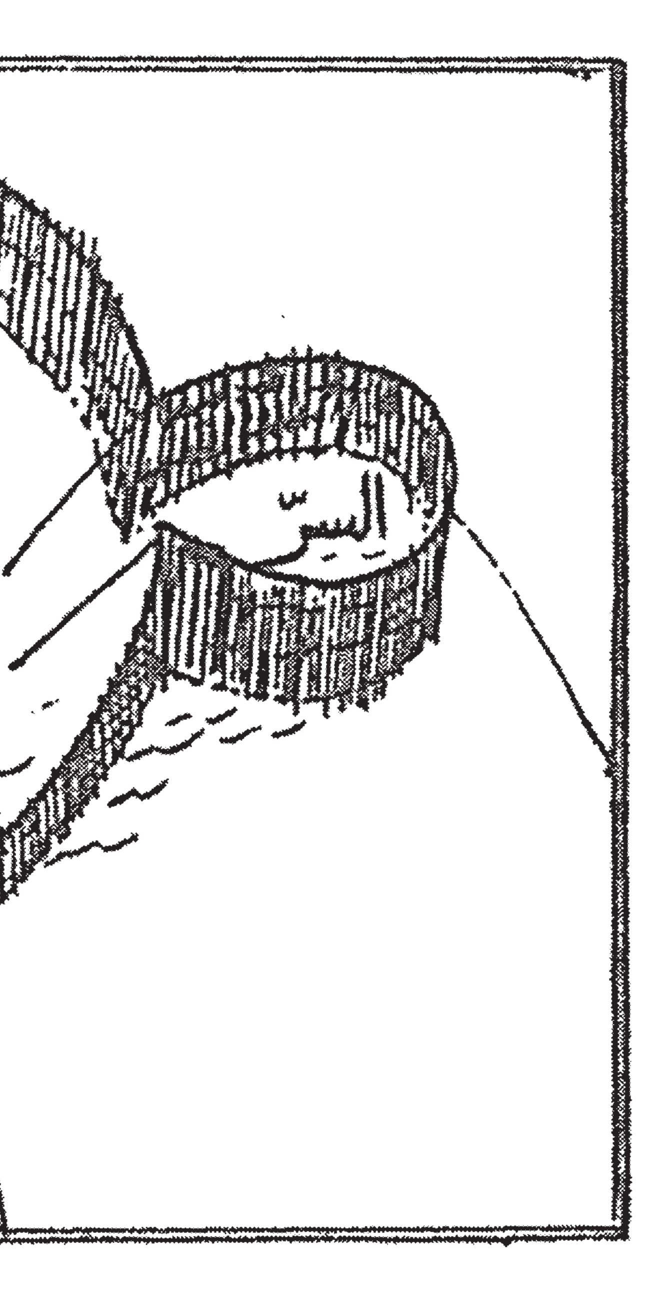
إن المادة ٧٠ من الدستور الكويتي تعطي السلطة التنفيذية سلطة إبرام المعاهدات شريطة عرضها على مجلس الأمّة لاحقًا بحيث يقوم بالموافقة عليها، باعتباره السلطة التشريعية، وإصدارها كقانون. وفي ما يتعلق باتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي للعام ٢٠٠٣ المشار إليها أعلاه، فقد كان في موقف الحكومة المتمثل في التوقيع على هذه الاتفاقية ثم سعيها إلى استصدار قانونٍ داعمٍ لذلك من مجلس الأمّة حرصٌ واضح على اعتبارات الالتزام[٢٨].

أما الجدل حول مدى انطباق هذه النصوص على الحظور تحديدًا فهو مسألة يمكن النقاش فيها لا شك، بل ربما كان ذلك مُحبّذًا لأغراض التداول الصحّي للأمر، لكنّ عقدة النقاش هنا هي أن هذه زاويةٌ هامةٌ تصلح مدخلًا للفت النظر إلى خطورة مثل هذه الخطوات المستعجلة ولرفع آفاق النقاش حول أبعاد نظرتنا القيمية لهذه الجزيرة.

ومع ذلك، فإن كل هذا لا جدوى حقيقيّة تُرتجى منه ما لم يُعهد بالأمر فيه إلى الجهة الإدارية المعنيّة ابتداءً، فينعقد الاختصاص لها دون سواها. إذ من اللافت حقًّا أن قرار مجلس الوزراء قد خاطب في هذا الشأن كلًّا من الهيئة العامة



لشؤون الزراعة والثروة السمكية والهيئة العامّة للبيئة وبلدية الكويت ووزارة المالية، ولكنه أغفل الطرف الأصيل المناط به تحديد الشروط الفنيّة لما يُعتبر من الآثار محلّ الحماية وما لا يُعتبر منها، وهذا الطرف هنا هو دائرة المعارف في البلاد - بموجب المادّة ٢ من المرسوم الأميري رقم ١١ لسنة ١٩٦٠ بقانون الآثار - التي تم تغييرها فيه إلى المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، حيث تناط بهذا الأخير وحده مهمة تقدير الصفة الأثريّة والتاريخيّة للأشياء والمواقع والمباني، ثم تقرير مدى الحاجة إلى تسجيلها وصيانتها[٢٩]، باعتبار أن العمل «على صيانة التراث» هو واحدٌ من أهم المهامّ التي عهد بها إليه مرسوم إنشائه[٣٠].



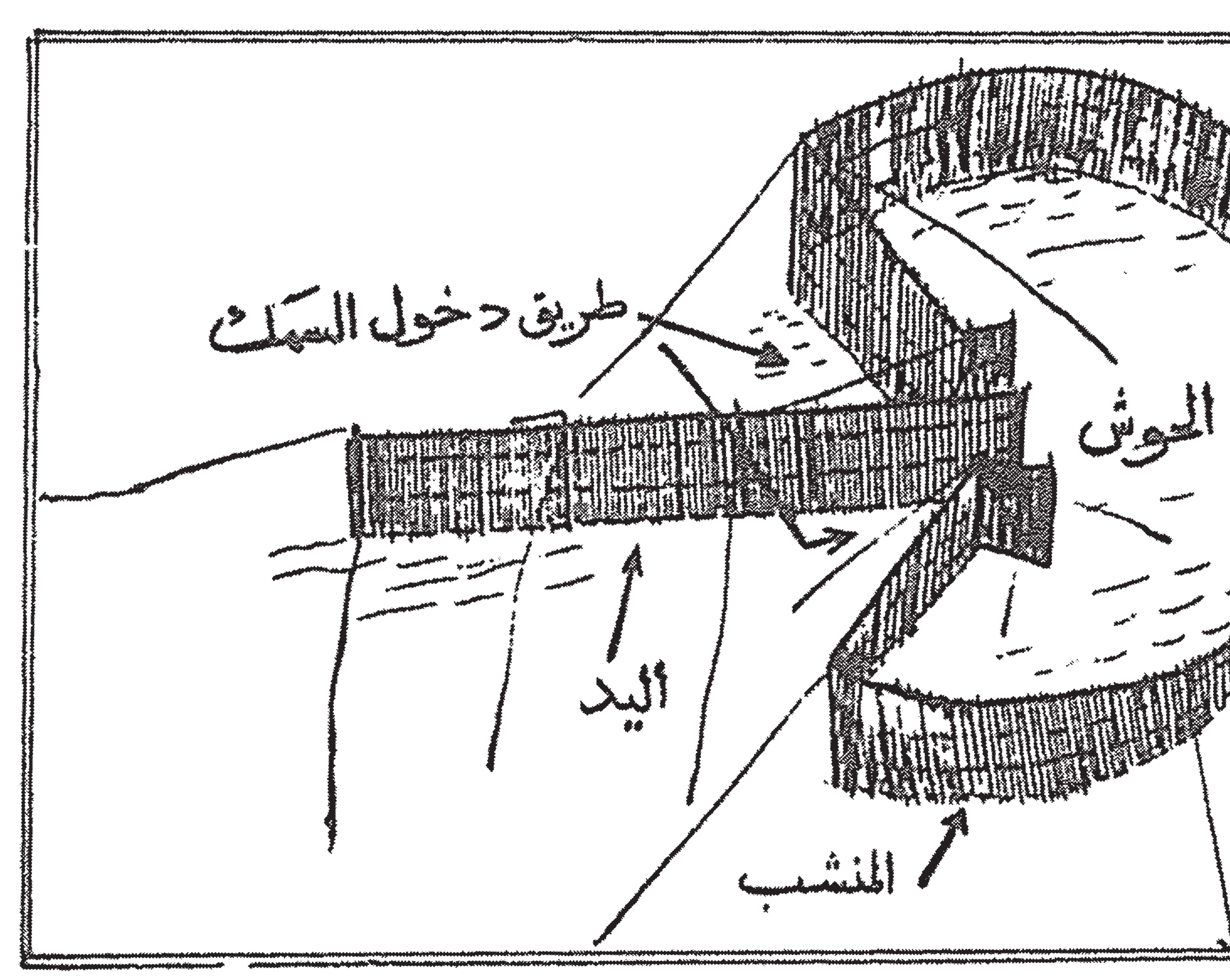
«عقيدة الخرسانة»

في الحقيقة، وبرغم شبكة الالتزامات هذه خارجيًّا (اتفاقيات) وداخليًّا (قوانين)، أتساءل: هل يتطلّب الأمر فعلًا الدخول في معاهداتٍ دوليةٍ وإصدار تشريعاتٍ وطنيةٍ كي نعي أهمية الحفاظ على (القليل جدًّا) ممّا تبقّى من شواهد تاريخنا الكويتي؟

إن حقبة الخمسينيات التي أتت على كل ما هو تاريخي وأثريّ ليست بعيدة عنا، وهي ما زالت تشغل في الذاكرة الكويتية خانةً استثنائية خاصة، تملؤها فترة الطفرة التي تمّ فيها الانتقال الحادّ من مرحلة اقتصاد الكفاف (التي ما زلت أعتقد أنه لم يُؤرّخ لها كما ينبغي) إلى مرحلة اقتصاد البترول، بثمنٍ فادحٍ حُسم من تاريخنا، تمثّل في شراء الحاضر بالماضي بعملة باهظة القيمة، هي مسح المشهد العمراني الكويتي القديم بأكمله وتسويته بالأرض تمامًا. أما القليل مما نراه حولنا من آثارٍ معماريةٍ تعود إلى الكويت القديمة، فإن الفضل في الإبقاء عليه ربما كان لا يُنسب إلى رؤىً سياساتيةٍ أو استشرافاتٍ حكوميةٍ بقدْر ما يعود إلى مساعٍ فرديةٍ قصدت، لحسن حظنا التاريخي، إلى الإبقاء على بعض المعالم - لدوافع لا نعرف (ولا يهمّ) ما إذا كانت متجرّدة أو مصلحيّة - بقدر ما ينبغي أن نسجّل أنها، برغم امتناننا، متناثرة وخاليةٌ من المنهجية: ديوانٌ عائلي هنا و«عَمارةٌ»[٣١] بحريةٌ هناك.

ولعلّ في شهادات المعماريين - العرب منهم والأجانب - الذين عملوا في الكويت آنذاك، فعاصروا فترة التحوّل تلك، منظورًا لافتًا لهذا الميل الكويتي غير المفهوم إلى الهدم والإحلال العَجِلَيْن. ففي عام ١٩٦٣، كتب المعماري جورج سابا شبر:

> «إذا ما راقب المرء عن كثب أعمال التنظيم في الكويت فإنه سيدهش فعلًا - إن لم يذهل - للسرعة التي يتم بها البناء هنا. فما أن يتم إعداد المخططات المعنية حتى تكون أعمال الهدم والإنشاء قد



رسم توضيحي للحظرة.



بدأت فورًا، إذ يرسم المهندس شكلًا على الورق ولا يمضي أكثر من أسبوعين حتى يرى، وهو في طائرة هليكوبتر، الخطوط التي رسمها وقد تحوّلت إلى أساسات للبناء أو ساحات وميادين ويرى البنايات في ارتفاع. إن مدينة الكويت تتطور باستمرار وتجري فيها عملية تحوّل سريع»[٣٢].

إلا أنني أجد أن واحدةً من أكثر تلك الشهادات إثارةً للاهتمام هي شهادة المهندس السويسري جون هنري ميلر (John Henri Miller) الذي جاء إلى الكويت عام ١٩٥٨ ليعمل في شركة «بومروي» الأميركية التي عهد إليها ببناء ميناء الشويخ. في ما يلي تعليق ميلر الذي أدهشه ما شهده خلال مرحلة التحديث العمراني المحموم التي مرّت بها الكويت آنذاك:

«هات الجرافة! اهدم! انسف الأسوار! أفسح المكان لمدينة جديدة... للتقدّم... طرقٌ مزدوجة الاتجاه لا بدّ من أن تُشق هنا... مواقف سيارات... أما أماكن تجمّع القوافل، البيوت الأرستقراطية، مساجد، مدارس قرآنية، فبُعدًا لكل ذلك، بُعدًا لتلك الخرائب! نريد حديدًا وإسمنتًا! أبوابًا ونوافذَ معدنية. نريد طابوقًا! اخلط خرسانة... المزيد من الخرسانة ... خرسانة»[٣٣].

لا أملك إلا الشعور بأن عقيدة الخرسانة ما زالت مستقرّة في عقلنا الجمعي بعنادٍ أسطوري

أخيرًا، ها قد وضعنا أيدينا على تلك النقطة الحزينة من الزمن التي اعتنق فيها الكويتيون تلك العقيدة المعمارية البائسة: عقيدة الخرسانة.

ولكن يبدو أن الأمر لم يكن محض سمةٍ مميزةٍ لتلك المرحلة فقط. كنت في زيارةٍ إلى جزيرة فيلكا منذ بضعة أسابيع، وعندما تمرّ في ذهني صور الخراب الحزينة التي رأيتها هناك، ثم أضيف لهذه الصور المؤلمة تلك المنهجيّة الحكوميّة القاسية في التعاطي مع بيوت تلك الجزيرة ومعالمها القديمة، وقبلها العديد من المباني التاريخيّة داخل الكويت العاصمة (كان آخرها مسجد الشملان الذي تم هدمه أخيرًا برغم المناشدات، وبيت لوذان الذي دُرِست آثاره فمُحيت تمامًا بإغفالٍ تامّ للاحتجاجات، وما تتهامس به بعض الدوائر الحكومية الآن من وجود خطةٍ لا يعرف عنها الناس بعد من اعتزام هدم المدرسة القبليّة للبنات - هذا المبنى الجميل الذي درست فيه والدتي ضمن أجيالٍ رائدةٍ من فضليات الكويت - والذي كان الصرح الأول للتعليم النظامي الحديث في البلاد)، عندما أستجمع كل ذلك، فأنا لا أملك إلا الشعور بأن عقيدة الخرسانة هذه ما زالت مستقرّة في عقلنا الجمعيّ بعنادٍ أسطوري.

وأنا، مهما حاولت، يستغلق عليّ دائمًا فهمُ ما يشوب سلوكنا من تناقض:

كل هذا الاستحضار للماضي في خطابنا العام، مقابل كل هذا العداء لشواهِده في سلوكنا العمليّ؟ أجد في الأوّل تطرفًا وفي الثاني تطرفًا نظيرًا، والاثنان مدعاة للأسى.

أستحضر كل ذلك، وألتفت إلى مفارقةٍ أخرى، لكنها حديثةٌ هذه المرة، تتمثّل في كون الكويت قد فازت عام ٢٠١٥ بمقعدٍ في لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة الـ«يونيسكو» لمدة أربع سنوات، ما يعني أن عضويتها في هذه اللجنة مستمرّة حتى عام ٢٠١٩ (بل إن الكويت هي نائب رئيس اللجنة حاليًّا)[٣٤].

ألا يضاعف هذا من وجوب إظهار شكلٍ مسؤول من الالتزام الجادّ في هذا الصدد؟

الذاكرة الكويتية

بين أوراقي المتناثرة، أذكر أنني نقلت بخطّ اليد - منذ سنين وبالقلم الرصاص - ما كتبه إدوارد سعيد مرة، لا أعرف أين، عن الذاكرة المتشظّية للعالم العربي. أورده هنا لأنني أجد أنه ينطبق على نهجنا الكويتي في التعاطي الفوضوي مع التاريخ:

«... ذلك الجزء الكبير من حياتنا في تلك البقعة من العالم الذي ينقضي من دون تسجيل أو حفظ... ولا يقتصر هذا النقص على حياة وإعمال الأفراد، لأن كل البلاد العربية التي أعرف لا تملك دوائر حقيقية للمحفوظات أو مكاتب للسجلات العامة أو مكتبات رسمية، كما ليست لها سيطرة كافية على معالمها وآثارها وتواريخ مدنها والأعمال الفنية المعمارية فيها مثل الجوامع والقصور والمدارس... نشعر أن تاريخًا متدفقًا غنيًا يبقى خارج الصفحة، بعيدًا عن الأعين والمسامع، بعيداً عن التناول، حيث يتعرض أكثره للضياع ... ذلك أن معظم تاريخنا من كتابة الأجانب والباحثين الزائرين وعملاء الاستخبارات، فيما نكتفي بالعيش معتمدين في تقدّمنا نحو المستقبل على ذاكرةٍ شخصيةٍ وعامةٍ يعتريهما الغموض والاضطراب».

صحيحٌ ما كتب سعيد، لكنه ناقص. فعندما يتعلق الأمر بالحالة الكويتية، فالفداحة أكبر لأنها متعمّدة. أنا، مثلًا، مواطنة كويتية في الأربعينيات من عمري. ورغم أنني أنتمي إلى الكويت، هذا البلد الصغير الذي لا تزيد مساحته على ١٧ ألف كيلومتر مربّع، إلا أنني لم أزر أيًا من جزره من قبل، إلا فيلكا، لمرةٍ واحدة، ولنصف يوم، عندما كنت في المرحلة الابتدائية (ما زلت أذكر حماسي لزيارة هذه الجزيرة التي ما كنت أعرف عنها إلا صورها على طوابع البريد). كان ينبغي أن يكون ذلك الاطمئنان المتراخي جزءًا من حقوق المواطَنة خاصتي، «ففيلكا ستكون دائمًا هناك»، كما كانوا يقولون لي، وفقًا لمنطق الديمومة الإقليمي. ولكن الآن، مع كل هذه الخطط المحمومة التي تجري على قدمٍ وساق، والرامية إلى مسح الجزيرة ومساواة كلّ ما عليها بالأرض - بما في ذلك حتى حظورها الوادعة - فأغلب الظن أن فيلكا «لن تكون هناك» بعد اليوم. وهكذا، فالأمر ما عاد يتعلّق بذاكرةٍ متشظِية - فالذاكرة الموجودة يمكن دائمًا استرجاعها وتركيبها، وإن تشظّت - وإنما إلغاء هذه الذاكرة فقدان تام لها.

يبدو أننا بصدد الدخول المتأخّر في السباقات المحمومة بين دول الخليج المتنافسة على بناء أعلى الأبراج، أكبر البحيرات، وأفخم الفنادق. أن تبني مرفقاتٍ (كان ينبغي أن تبنيها منذ عقود) فلا بأس؛ عافاك. ولكن أن يأخذك الحماس العَجِل في معرض ذلك، فتمسح كل ما هو أمامك من معمارٍ وذاكرةٍ وتاريخٍ، فهو أمرٌ يبعث على الحزن.

عندما تنحدر المواقف العامة حسنة النيّة وغير المتبصّرة إلى درك الخطأ الفاحش، يحضرني دائماً الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة إذ قال «كنا نحن الأعداء/ كنا غزاة مدينتنا».

الدور الحقيقي للحكومة

في كتابه الهام والممتع «الكويت وجاراتها»، كتب هارولد ديكسون، الوكيل السياسي لبريطانيا العظمى في الكويت في الفترة الممتدة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٦، عن جزيرة «فيلجه» كما سمّاها:[٣٥]

> «وأغلبية سكان الجزيرة يؤمنون بوجود شيطان شرير يدعى بودريا، الذي يُقال إنه يجوب البحر حول الجزيرة، وخاصة بينها وبين مسجان، فيستدرج من لا حمى لهم إلى الأعماق ويُغرقهم»[٣٦].

كان المسؤولون «يقطّبون جباههم» انزعاجًا من هذه الخرافات، كما يستدرك الكاتب. أما أنا، فلا أدري ما إذا كانت هذه محض أسطورة، إذ أجد أن هذا الشيطان الذي أشار له ديكسون ما زال يجوب البحر - بهَوَس - حول هذه الجزيرة الجميلة، المسكينة؛ كل ما في الأمر أنه صار يأخذ الآن أشكالًا أخرى مُخاتلة، ولكنها تظهر للمتأمّل - بوضوح - على صورة نزعاتٍ استثماريةٍ محمومة، مأخوذة بالربح وحده، فلا ترى في ما يُحيط بنا إلا فرصًا ماليةً وعوائد تجاريّة، ثم تعمى عن كل ما عداها.

ليس في ما تقدّم دعوة إلى وقف تطوير الجزيرة. الأمر على العكس من ذلك تمامًا. فالتطوير مطلبٌ قديمٌ ومستمرٌ، بل هو تأخّر كثيرًا. لكنها بالتأكيد دعوة للاضّطلاع الجاد بالمسؤوليات التي ترتبط بذلك، كما يليق بدولةٍ ذات وعيٍ حضاريٍ بتاريخها. فقد تكون جزيرة فيلكا أكثر بقعةٍ مثقلةٍ بالتاريخ في كامل جغرافيّة بلادنا. هذا يعني أن كل ما في هذه الجزيرة، وما عليها، وما حولها يتطلب عنايةً خاصة، تتضافر فيها اعتبارات رسم السياسات العامة وصيانة الآثار والحفاظ على الهوية الوطنية ودعم الاقتصاد والحفاظ على الأمن. المهمة ليست سهلة، لكن الحكومات ما وُجِدَت إلا لمثل هذه التحديات.

بعد عقودٍ طويلةٍ من الإهمال، من المُعيب حقًّا ألّا يكون الالتفات إلى الجزيرة إلا بمنظور المال وحده. بل إنّ منظور المال ذاته يتطلب شيئًا من الخيال وسعة الأفق. تعي الدول الآن أهمية الالتفات إلى الآثار وحمايتها باهتمام، لا لاقتناع سياسييها بالاعتبارات التاريخية والحضارية بالضرورة، إنما لإدراكٍ واعٍ منهم بأن مثل هذه المواقع هي عاملٌ استثماريٌّ حرج ومُدرٌّ للأموال إذا ما استُثمِر بحصافة.

هناك الآن ما يعرف بـ«الاقتصاد الخلّاق» (creative economy)، وهو علمٌ استُغلت فنونه أخيرًا - بذكاء - من قبل دولٍ صاعدةٍ عديدة، مثل أذربيجان وكرواتيا وجنوب أفريقيا والبحرين وقطر، للاستفادة من التراث الثقافي والاستثمار المالي فيه - مع حمايته في الوقت نفسه- بما يدرّ العوائد الوفيرة، والأمثلة كثيرة.

وبعد، فهذه الحظور تمثّل مدخلًا هامًّا للنقاش حول رؤيتنا لتطوير هذه الجزيرة التي تمثل ذاكرتنا الأبعد: ربما صار ينبغي أن نتعاطى مع حظور فيلكا باعتبارها سياجًا حاميًا لتاريخنا.

الأمر لا يتطلب حكومةً بميزانياتٍ بتروليّة ومؤسّساتٍ بأحجام ماموثية للنجاح في جني الأموال من مشروعاتٍ ذات جوهرٍ ساذجٍ - وإن تعقّدت آليات إدارتها - كالمطاعم والمنتجعات والفنادق ومراكز التسوّق، فحتى شبابنا الصغار من رياديّي الأعمال ينجحون في ذلك هنا يوميًّا.

التحدي الحقيقي هو إدراك أن دور الحكومات أعمق من مجرد تحصيل الأموال.

أو هكذا ينبغي أن يكون.



الهوامش

١ جيس = قيس، أي: قِسْ (من قياس).

٢ حمد محمد السعيدان، **الموسوعة الكويتية المختصرة - الجزء الأول** (الكويت: وكالة المطبوعات للنشر، ١٩٨١)، ص. ٤٤٧-٤٤٨.

٣ 'Our Creative Diversity', Report of the World Commission on Culture and Development – WCCD, 1995.

٤ عبد الحميد حواس، «التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي من منظور عربي»، **المجلة العربية للثقافة** (تونس)، العدد ٥٢، المجلد ٢٦، ص. ١٢١.

٥ عبد الحميد حواس، «التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي من منظور عربي»، **المجلة العربية للثقافة** (تونس)، العدد ٥٢، المجلد ٢٦، ص. ١٢٢.

٦ المرجع نفسه.

٧ كلمة «تراث» هي المصطلح الذي تواضعت الترجمات العربية لصكوك «يونيسكو» على اعتمادها كمقابلٍ لكلمة (Heritage) حيثما وردت في تلك الصكوك.

٨ دخلت هذه الاتفاقية حيّز النفاذ في ١٧ ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٥، وصدّقت عليها دولة الكويت في ٦ يونيو/حزيران ٢٠٠٢.

٩ Art. 1 para. 3 of the Convention concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage (adopted by the General Conference of UNESCO in 1972): "sites: works of man or the combined works of nature and man, and areas including archaeological sites which are of outstanding universal value from the historical, aesthetic, ethnological or anthropological point of view".

١٠ لبعض الدول سجلّ ممتاز في هذا الصدد من حيث إبداء الحماس لتطبيقه وخلق البنية اللازمة لإنجاحه من تسجيلٍ ونظمٍ وتشريع، لعل منها اليابان وكوريا الجنوبية وفرنسا ورومانيا ومالي.

١١ على الرغم من كونها قد قصرت فهمها في ما يبدو ضمن الحدود الضيقة للتراث الشعبي (الفولكلور)، إلا أن الأوساط المعنيّة في البلاد العربية قد استقبلت اتفاقية عام ٢٠٠٣ بترحابٍ طيّب، و بادر كثيرٌ منها في تنفيذ الإجراءات اللازمة لتنفيذها (الجرد، التقييد، الدورات التثقيفية، إصدار التشريعات الحمائية، وعداها). وتلعب «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم»- أليكسو (ALECSO) دورًا معتبرًا في ذلك، وهو دورٌ قديمٌ في الحقيقة، ربما يعود إلى بدايات تكونها كإدارة للثقافة ضمن الهيكل الإداري للجامعة العربية، والذي تطورت منه إلى منظمة عربية.

١٢ في عام ٢٠٠٥ أطلق الاتحاد الأوروبي The Council of Europe اسمًا محددًا على هذه الجماعات، فقد سمّاها «مجتمعات التراث» (heritage communities). انظر: Brittany Neihardt, 'The Intentional Destruction of Cultural Heritage as a Tool for Ethnocide: The Case of Kuwait', Georgetown University, Spring 2017, p. 5.

١٣ Laurajane Smith & Natsuko Akagawa, 'Introduction', in *Intangible Heritage*, edited by Laurajane Smith and Natsuko Akagawa (New York: Rutledge, 2009), p. 6.

١٤ Caleb Folorunso, 'Heritage Resources and Armed Conflicts: An African Perspective', in *Cultural Heritage, Ethics, and the Military*, edited by Peter G. Stone (Woodbridge: The Boydell Press, 2011), p. 169.

١٥ كان انضمام الكويت إلى منظمة «اليونيسكو» في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٠. وتباعًا، صدّقت الكويت على العديد من اتفاقيات هذه المنظمة، وهي في مجملها تهدف إلى صون التراث وحمايته. وهذه الاتفاقيات هي: اتفاقية التراث العالمي الثقافي والطبيعي ١٩٧٢، اتفاقية حماية أنواع التعبير والتشكيل الثقافي (التنوع الثقافي) ٢٠٠٥، اتفاقية حماية الممتلكات الثقافية خلال النزاع المسلح ١٩٥٤، اتفاقية منع التصدير والاستيراد غير المشروع للممتلكات الثقافية (منع التهريب) ١٩٧٠، اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي ٢٠٠٣، اتفاقية حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه ٢٠٠١. انظر: وليد حمد السيف، «التشريعات الكويتية لصون التراث الثقافي غير المادي»، ورقة عمل مقدمة للدورة الثالثة لبناء القدرات في مجال التراث الثقافي غير المادي، مسقط، سلطنة عمان، ٨-١٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤.

١٦ الإثنولوجيا (Ethnology) هي الدراسة المقارنة لأوجه الاختلاف والاتفاق بين الحضارات، لاستنباط تعميماتٍ حول أصولها وتطورها وتنوعها. وفي السنوات الأخيرة، أضحى أغلب الموضوعات التي كانت تعالجها الإثنولوجيا تقع ضمن اختصاص علومٍ أخرى، مثل الأنثروبولوجيا. انظر: شاكر مصطفى سليم، **قاموس الأنثروبولوجيا** (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨١)، ص. ٣٠٤-٣٠٥.

١٧ الأنثروبولوجيا (Anthropology) هي علم دراسة الانسان طبيعيًا واجتماعيًا وحضاريًا. والمصطلح منحوت من كلمتين يونانيتين هما Anthropos (إنسان) وLagos (علم)، وتعنيان معًا «علم الانسان». انظر: شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨١)، ص. ٥٦.

١٨ Art. 1 para. 3 of the Convention concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage (adopted by the General Conference of UNESCO in 1972): "sites: works of man or the combined works of nature and man, and areas including archaeological sites which are of outstanding universal value from the historical, aesthetic, ethnological or anthropological point of view".

١٩ الآركيولوجيا (Archaeology) هو علم الآثار القديمة، وهو يهدف إلى إعادة بناء تاريخ الحضارات السالفة لدراسة تطور الحضارات البشرية. انظر: شاكر مصطفى سليم، **قاموس الأنثروبولوجيا** (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨١)، ص. ٦٢.

٢٠ مجلس الأمة، «التقرير رقم ٢١ للجنة الشؤون الخارجية عن مشروع قانون بالموافقة على اتفاقية بشأن حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه»، ص. ٣ (نظرته اللجنة باجتماعها المنعقد بتاريخ ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٦).

٢١ هـ. ر. ب. ديكسون، الكويت وجاراتها، ط. ٢ (الكويت: صحارى للطباعة والنشر، ١٩٩٠)، ص. ٣٨.

٢٢ Art. 1: "For the purposes of this Convention, 1. The "intangible cultural heritage" means the practices, representations, expressions, knowledge, skills – as well as the instruments, objects, artefacts and cultural spaces associated therewith – that communities, groups and, in some cases, individuals recognize as part of their cultural heritage".

٢٣ المادة ٣ من اتفاقية اليونيسكو لحماية وتعزيز تنوّع أشكال التعبير الثقافي ٢٠٠٥.

٢٤ المصدر نفسه.

٢٥ المصدر نفسه.

٢٦ د. وليد السيف، اتصال شخصي، ٢٨ آذار/ مارس، ٢٠١٨.

٢٧ ولا شك أن هذا متاحٌ دائمًا، وذلك بموجب المرسوم بالقانون رقم ٤٦ لسنة ١٩٨٠ في شأن حماية الثروة السمكية، التي تعطي جهة الإدارة سلطة إصدار هذه التراخيص، فقد ورد في المادة ٥ من هذا القانون: «لا يجوز إقامة المصايد البحرية كالحظور والقراقير وغيرها إلا بعد الحصول على ترخيص من الجهة الإدارية المختصة بالثروة السمكية. ويعين في الترخيص موقع المصيدة ومقاساتها وفتحاتها».

٢٨ المرسوم رقم ١٧٦ لسنة ٢٠١٤.

٢٩ المادة ٢ من المرسوم الأميري رقم ١١ لسنة ١٩٦٠ بقانون الآثار: «تناط مهمة المحافظة على الآثار بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ويعود إلى هذه الوزارة وحدها مسؤولية تقدير الصفة الأثرية والتاريخية للأشياء والمواقع والمباني، والحكم بأهمية كل أثر وتقرير الآثار والواجب تسجيلها وصيانتها ودراستها والانتفاع بها».

٣٠ المادة ٢ من المرسوم الأميري بإنشاء المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، كما نشر في الجريدة الرسمية «الكويت اليوم»، العدد ١٤١، ٢٢ يوليو/تموز ١٩٧٣.

٣١ «العْمارة»، بفتح العين، وجمعها «عماير»، هي مخازن كانت تُبنى على ساحل البحر (السيف) في الكويت القديمة، تُباع فيها لوازم السفن الشراعية، كالأخشاب والمسامير والحبال والزيوت (دهن الصِلْ)، وقد تباع فيها أيضًا أدوات البناء والمعمار كالجندل والباسجيل والحديد وعداها. وقد أزيلت جميع العماير من ساحل البحر في حركة التنظيم المعماري التي مرت فيها الكويت الحديثة حتى لم يبقَ منها الآن إلا واحدة أو اثنتان على حدّ علمي، مثل عمارة الخالد الكائنة في منطقة القبلة، على شارع الخليج مقابل قصر السيف، والتي يعود تاريخ بنائها إلى ما قبل لعام ١٩١٥، أي قبيل عهد الشيخ مبارك الصباح (مبارك الكبير).

٣٢ سابا جورج شبر، «علم التنظيم وتطوّر الكويت» (الكويت: بلدية الكويت، ١٩٦٣).

٣٣ جون هنري ميلر، كاديلاك كوكاكولا، ترجمة محمد بن عصام السبيعي (الكويت: هكسوس للإعلام والنشر، ٢٠٠٩)، ص. ٦١.

٣٤ تم انتخاب الكويت بالإجماع لمقعد نائب رئيس الدورة السادسة للجمعية العامة للدول الأطراف في حماية وصون التراث الثقافي غير المادي. انظر: **جريدة النهار**، ١ حزيران/ يونيو ٢٠١٦.

٣٥ إثر تقاعده، عُيِّن ديكسون بمنصبٍ رفيعٍ في شركة نفط الكويت، وتوفي في الكويت عام ١٩٥٩.

٣٦ هـ. ر. ب. ديكسون، الكويت وجاراتها، ط. ٢ (الكويت: صحارى للطباعة والنشر، ١٩٩٠)، ص. ٤٢.


ن
النقم والعلم



طعم الحديد في فمي

رامي صبّاغ

صانع ومؤلّف أعمال فيلميّة وفيديو، موسيقي، لبنان. من أعماله: «٢ ملغ من الدم الفاسد على ثلج طاهر أبيض» (٢٠٠٦)، «البطل الأخير» (٢٠١١)، «ركعتان في العشق» (٢٠١٩)، كما شارك في إخراج «طوبولوجيا لصفة الغائب» (٢٠٢٠) مع شريف صحناوي

لم أعد أذكر المكان أو في أيّ عامٍ بالتحديد كان ذلك، لكنّي أذكر الصوت المدوّي جيّدًا.

دخل صديقنا طارق في الثانوية علينا وصفق الطاولة بدفتر أسود.

نظرنا أنا وعلي إلى الدفتر، ثم نظرنا إليه بانتظار استفهام محتواه. ربما تكون هذه الحادثة قد وقعت بعد عام ١٩٩٥ حين منعت السلطة اللبنانية أيّ تداول بموسيقى «الميتال»، إثر ادّعائها أنّ تلك الموسيقى تدعو شباب لبنان إلى عبادة الشيطان والانتحار.

بعدما قرأ لنا طارق ما يحتويه الدفتر الأسود، قرّرنا السفر من بيروت، عاصمة الحرّية والانفتاح، إلى دمشق، مدينة الأسد الأب، المدينة حيث لا مفرّ من عينيه المعلّقتين فوق كلّ حائط.

ماذا تعني المراهقة بعد سنوات الحرب؟

«كروم» دمشق

في أيّام الثانويّة وبعد طفولة قضت بالحرب، كنّا، من دون أن ندري، قد انخرطنا في بحثٍ عن مفرداتٍ تناسب توصيف حالنا.

من أين لنا كلّ هذا الموت؟

كان ثمّة شيءٌ في موسيقى «الميتال» يفي بالإجابة عمّا لم يكن بإمكاننا أن نبوح به.

كانت أعمال إعادة تحطيم بيروت بالديناميت بدل القذائف ومسْح مخلّفات الحرب قد انتهت. أطلق رفيق الحريري وصحبُه أعمالَ إعادة الإعمار، لتبدأ المدينة إطلاق أصوات جديدة. اعتقدنا أنّ هدير آلات الحَفر وصرير صاروخ التلحيم أصواتٌ راهنة، لكنها سرعان ما أصبحت من مفرداتنا اليومية حتى يومنا هذا. في تلك الأيّام الزرقاء، كان خطرًا على النظام أن يتلفّظ جيلٌ صاعدٌ بكلمات تختلف عمّا يريده رجال الدولة الصاعدة: الإعمار، ثم صار كل شيء على ما يرام، ثم الإعمار.

أدخل رجالُ الحرب أجسامهم في بزّات العمل داخل البرلمان والوزارات واستملكوا المدينة، ثم قرّروا امتلاك كلّ ما نحمله في أجسادنا المراهقة من وشوم وكلمات ونوبات ذعر. جمعوا كلّ أنواع موسيقى الروك المشاغبة - «ميتال»، «پانك»، «غرانج» وحتّى «جون أيري بون جوفي» - في العلبة نفسها (أحيانًا، أتخيّل «بون جوفي» يتوسّل بوزير الداخلية اللبناني في وقتها لإخراجه من العلبة لأنّ أوزي أوزبرن يصرّ على تسميته «براين أدامز»). جمعوا الكلّ في هذه العلبة ودمغوها بمصطلحات مثل «تعاويذ شيطانية» فأصبحت جميعها موسيقى خطرة وشاذّة. كيف يمكن لأيّ مراهق مثلنا ألّا يرى في هذا انتصارًا له؟

لا أذكر شيئًا من الرحلة إلى سورية سوى مكان شراء الكاسيتات والقلق على الحدود اللبنانية- السورية ذهابًا وإيابًا. في طريقنا نحو دمشق، كان القلق يزيد بقدر حجم صورة الأب التي بدأت تكبر شيئًا فشيئًا طوال الرحلة؛ من بورتريه صغير معلّق أمام سائق التاكسي مثل أيقونة دينية، إلى صور ملصقة على زجاج سيارات متجهة معنا نحو سورية، ثم جداريات على حيطان معابر الحدود، وأخيرًا تماثيل ضخمة في ساحات دمشق.

نزلنا درجًا طويلاً ثم دخلنا مستودعًا واسعًا يحوي آلاف الكاسيتات. لم نعرف ما الذي كنا سنفعله أمام هذا العدد الكبير من الأغنيات، وما لبث أن خفّف الموظّفُ من حيرتنا وقال إنّ في المتجر صنفٌ من الكاسيتات اسمه «كروم» هو بجودةٍ أعلى من الكاسيت العادي، ثمّ أشار إلى عدد من الرفوف. أذكر كم كان الانصياع لإصبعه مريحًا. خرجنا من المتجر بعدما أخذنا ما طاب لنا ولمحتُ على زجاج المتجر ملصقًا كُتب عليه «يا أخي، ليس لدينا هاني شاكر».

إيابًا، كان الخوف كالعرق البارد لأنّ بحوزتنا عددًا لا يستهان به من المواد الخطرة والممنوعة. كاسيتات تحمل على

ظهرها صورًا لشياطين وملائكة متحوّرة من كلّ شكل ودين. ولكي تزداد الأمور سوءًا، كان طارق ما زال يحمل معه الدفتر الأسود، وهو الدفتر الرسمي للمتجر الذي زرناه وفيه أسماء كلّ المخزون الموسيقي المتوفّر فيه، ومنها أسماء كلّ الفرق المغضوب عليها كما عدد كبير من الفرق غير المعروفة لدى وزارة الداخلية اللبنانية.

كنّا محظوظين عندما قررت الدولة أنّنا نحمل الشيطان كلّ يوم داخل كاسيتات الموسيقى التي نتناقلها بين صفوف المدرسة. كان لذلك أثر عميق في تعيين ما قد تحمله أغنيةٌ من خطورة. منْع موسيقى «الميتال» وأخواتها كان انتصارًا لنا وهزيمةً في آن؛ انتصار في إعلان الدولة أنّنا نحمل في ذوقنا ما هو أخطر من الدِّين والقانون، لكن هزيمة أيضًا لأنّ ذاك المنع كان بدايةً طحن أيّ قدرة حقيقية على النطق لدى جيلٍ أمضى سنواته الأولى يستمع إلى انفجار قذيفة أو صراخ. حينها، أصبحت الأغنية سلاحنا فيما كان صوت المدينة سلاحهم.

شتوكهاوزن الضائع وكريستيان الصامت

كان غاضبًا من كلّ شيء. يحرّك فكّه الأسفل يمنةً ويسرة بينما يراقب حركة السيارات التي تمرّ بجانب المقهى في آخر النهار. في كلّ فيلم أصنعه، أضع صوت سيارات مشابهًا لتلك التي كانت تمرّ بجانب كرسيّه، ربّما لأنها من الأصوات الدافئة القليلة التي أعطتني إياها المدينة، أو ربّما لأنني أريد الجلوس بجانبه، بطريقةٍ ما. جلس في المقهى محاطًا بالشبّان يحدّثني كيف التقى بكريس ماركر وجوريس إيفانس في باريس وكيف ضرب مؤلّفي كتاب «دفاتر باريس» خلال شجار حول ماو تسي تونغ. حين حاولت معرفة سبب تخلّيه عن تروتسكي قال: أتعلم ما هي الثورة الدائمة؟ إنها الشمس!

من وقتٍ إلى آخر، كان كريستيان يحرّك فكّه الأسفل يمينًا ثم يسارًا لكي يعيد وجبة أسنانه إلى مكانها. يتنقّل لسانُه ببطء في فمه وتُمسك يدُه بجمجمته. لكنّ شيئًا ما في عينيه كان يتحرّى عن أمورٍ أكثر خطورة، كما لو أنّ انفلات الوجبة من فكّه كان يذكّره بانفلات الزمن من حياته: بعد حصار بيروت عام ١٩٨٢، قرّر التوقف عن صنع الأفلام ثم التوقف عن العمل والجلوس في المقهى بعدما حرق شبّانٌ مرتزقة كلّ أفلامه وكتبه عام ١٩٨٦.

عام ٢٠٠٢، قرّر الوزير الياس المرّ الذي ورث وزارة الداخلية من أبيه الوزير ميشال، شنّ حملة ثانية على «الميتال» في لبنان. توجهتُ مرّة أخرى إلى سورية التي ورث رئاستها بشار الأسد من والده حافظ. لم أبحث هذه المرّة عن الملائكة والشياطين، بل ذهبتُ مع صديقي رائد من أجل كريستيان. بعد انتظار ستة أشهر، هاتفَنا صديقُنا باسل من سورية لينبئنا أنه وجد نسخةً قد تكون الوحيدة المتبقية من فيلم كريستيان غازي «مئة وجه ليوم واحد» ترقد في أرشيف المؤسسة العامة للسينما في سورية. عُرض الفيلم في دمشق ضمن مهرجان السينما البديلة عام ١٩٧٢ ثمّ أصدرت السلطة السورية قرارًا بمصادرته ومنع عرضه وتوزيعه ليختفي بعدها. فيلم شيوعي خطر، هكذا، وببساطة انتهت حياة ما قد يكون أهمّ عمل طليعي سياسي في السينما العربيّة. وقفنا في استوديو «المؤسسة العامة للسينما» أمام آلة نقل الأفلام لنشهد على عمليّة نقل فيلم كريستيان غازي الوحيد من النسخة السينمائية إلى شريط فيديو.

بدأت الأسماء تظهر على الشاشة ونحن في انتظار اسم واحد: شتوكهاوزن. لقد أخبرنا كريستيان أنّه كان صديقه وقد طلب منه استخدام قطعة «همنن». لكن حين ظهر اسم شتوكهاوزن تنبّهنا أن لا إمكانيّة لسماع صوت الفيلم وأنّ كلّ ما باستطاعتنا فعله هو التحديق بإبرة ماكينة الصوت للتأكّد من حُسن عملية نقل الصوت.

صورة الأب وابنه فوقنا ونحن نشاهد أهمّ تجربة صوت في السينما العربيّة بصمت. لم يكن باستطاعتنا المطالبة بشيء، فنحن بالكاد كنّا نصدّق أنّنا نحصل على نسخةٍ من الفيلم المحجوز الذي وُجد مقبورًا بين الغبار أسفلَ قاعة الأرشيف. هكذا كان حالنا دائمًا مع تاريخٍ يبعد عنّا بضعة عقود لكن مغيّبٌ كأنّه من العصور الغابرة. نبحث عن موسيقانا وأفلامنا كمنقّبي الآثار وننقلها مثل اللصوص. نسرق تأريخَ سرقةِ التاريخ.

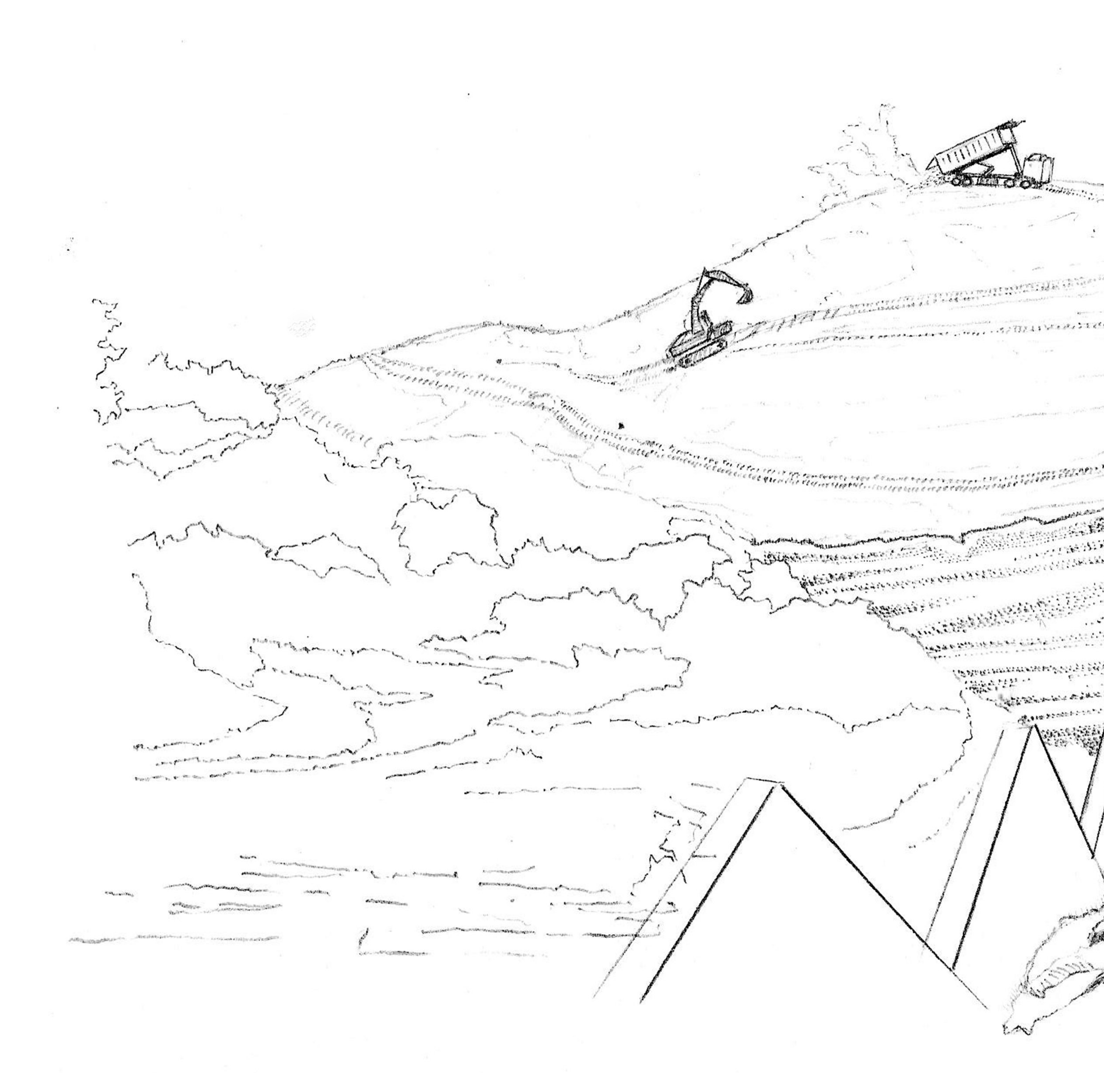
عندما أحضرنا الفيلم معنا إلى بيروت جلس كريستيان يشاهده للمرة الأولى منذ ١٩٧٢، ويحرّك فكّه يمنةً ويسرة. ترى ماذا تَذكّر عندما نظر إلى تلك الصور بعد ثلاثين عامًا؟ انتهى العرض ولم يقل شيئًا. يحرّك فكّه الأسفل يمنةً ويسرة بإيقاعٍ يشبه حركة السيارات التي تمرّ بجانب المقهى في آخر النهار. ربّما لهذا السبب لا يمكنني إلّا أن أضع صوت تلك السيارات في كل فيلم أصنعه، ربما أحاول دائمًا العودة إلى فكّيه.

رائحة الحديد الصدئ

في ليلةٍ من ليالي تمّوز/يوليو ٢٠٠٦، شققتُ النافذة قليلاً ووضعتُ على زجاجها ظفرَ أصبعي الذي لم أقصّ منذ أشهر. قوّصت ظهري قليلاً كي تقترب أذني من شقّ النافذة ومن ظفري. تحسّستُ الزجاج لأقارن بين صوت سقوط الصواريخ الإسرائيلية على ضاحية المدينة والذي يتسلّل من شقّ النافذة وصوت ارتجاج الزجاج على ظفري الفامبيريّ.

أصل كلمة صاروخ بالعربيّة هو صراخ، والعامّة كانت تسمّي مزمار القصب العالي الصوت «الصاروخة»،


ن والقلم

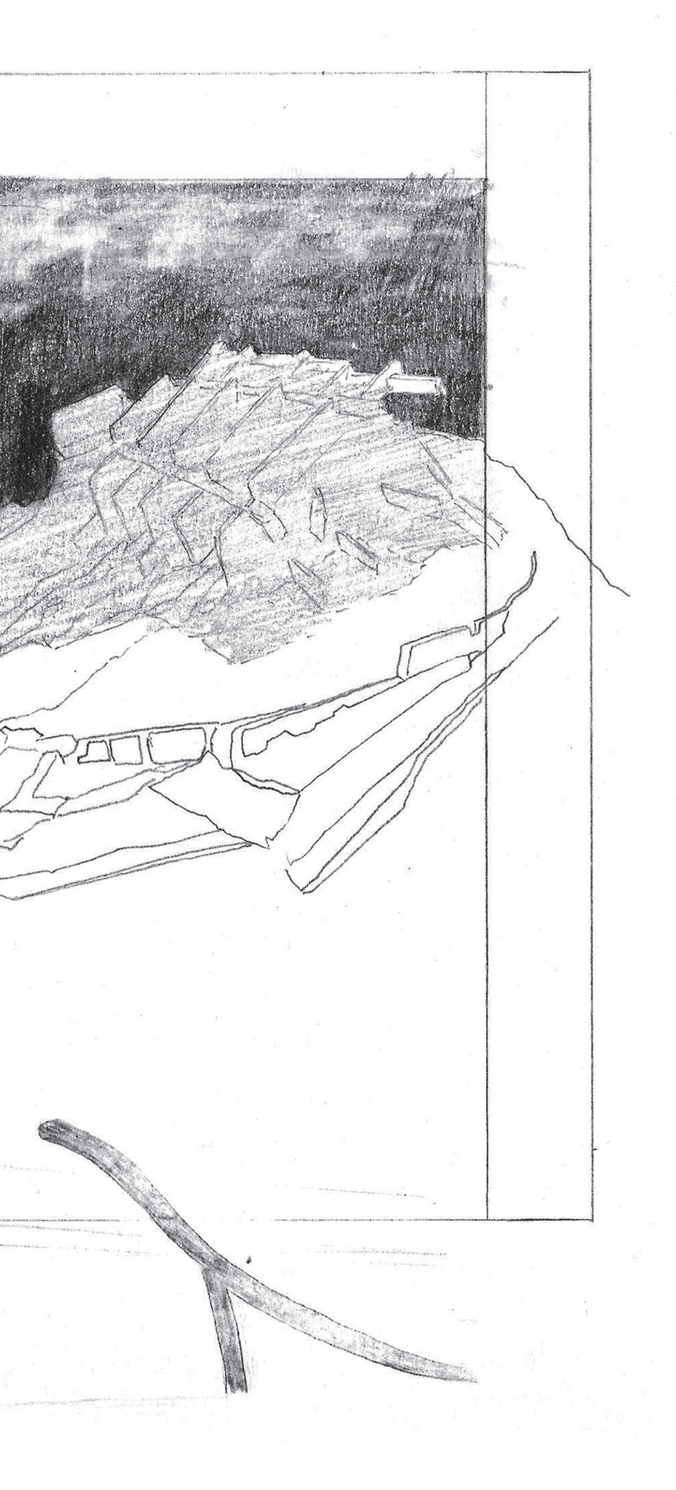




والصاروخ يحمل صراخًا قبل سقوطه وصراخًا آخرَ بعده. آلة تلحيم الحديد التي احتلّ صريرُها المدينة بعد كلّ حرب تسمّى صاروخًا أيضًا. هكذا نحن في هذه المدينة، نتنقّل من صاروخ إلى آخر ونحمل صراخنا معنا.

جررتُ بيدي الأخرى النافذة الزجاجيّة بأكملها، ووقفتُ أمام النافذة المفتوحة عاري الصدر أشتمّ رائحة الأصوات الهدّامة. في لحظات كهذه، عندما تشتدّ ليلاً أصوات القذائف، أو المفرقعات أو الموسيقى في حفل سفلي شاذ، يشتدّ عمى الألوان في عيوني. في تلك الليلة، أصبحت بيروت تلالاً رمادية والصواريخ صارت ثلجًا يهبط من دون هدوئه المعتاد ويلمع على الأرض.

بعد ليلة تمّوز تلك، صارت بيروت مدينة نظامية تستيقظ على نعيق صواريخ الحديد يعلو صوتها طوال النهار مطاردًا سكّانها من كلّ شارع نحو البحر أو المطار. لم يكن باستطاعتي الترجّل فيها من دون بعض السموم في عروقي. وحين تصمت المدينة قليلاً ارتيابًا من لحظات قلق سياسي، تنفجر فيها سيّارةٌ من شدّة الضجر.



في الليل تظهر مدينة أخرى. يسكنها الذين سرق العمل نومهم. يعودون إلى منازلهم محمّلين بالتعب والشتائم، يتلمّسون طريقهم بنور اللوحات الإعلانية الوهّاج إذ يسقط على زفت الطريق.

في كلّ هذا الرمـــــــــــاد، قررتُ بناء حديقتي. هنا أضع الكاميرا بجانب الطريق، أسجّل تحركات الأجسام و ظلالها.

كيف يمكن للكاميرا أن ترى ما أراه؟ أحوّر ميكانيكيّة التسجيل نحو تقنيّة الـslow shutter speed فتبدو حركةُ الأجسام متقطّعة كما لو أنّ صدعًا يخلق بين اللحظة والأخرى. بين كلّ صورة وأخرى صدع disjoints يفكّك الزمن في مدينة الأطياف الرماديّة.

كيف يمكن للسينما محاربة الوقت؟ هل لهذا الوسيط الممتلئ بالزمان القدرة على مقاومة ثقل كل لحظة؟ بصدعٍ يليه صدع. بعد أيّام من التسجيل، تراكمت الصدوع وصارت جسمًا أفقيًّا من الغياب. مساحة مفتوحة من الظلام تصلح أن تكون حديقة ليليّة كتلك الحدائق العامّة التي كنّا نزورها أنا وصديقي رائد في آخر الليل. دعوتُ ريّا إلى التصوير وطلبتُ منها الغناء خلف الكاميرا بينما يدور التسجيل، كان عليها أن تكون حاضرة في لحظة خلف الحديقة لمنحها رائحةً تليق بها. تسجّل الكاميرا كلّ هذا الغياب، ريّا تسقينا البوب والبوست بانك وأنا أتذوّق الدمَ الفاسد في ثلاثة أفلامٍ وسخة أمام كلّ هذا الضجيج.




ن والقلم





ماذا أضع في فمي؟

أليس جميلاً حين يقوم موظّف بيروقراطي بتمتمة أغنيةٍ ما بينما يمارس عمله المقيت؟ ينشل نفسه من الموت اليومي بالقليل من جورج وسّوف؟ ينتظم الكثيرُ ممّا قيل عن الفن كفعل مقاومة في حركة الشفاه تلك. في لهو الموظّف كرغبة انتقاميّة من الدولة.

عندما تنظر ممثّلة إلى الكاميرا وتبدأ بالغناء، تخلع السينما عنها رداء الحكواتي لتعود راقصة تعرّ. يتحرّر الممثّل من عمله كوسيط للرغبات ليصبح هو الرغبة بالمعنى الأيروسي والسياسي.

عليَّ أن أكون أكثر دقّةً في تشخيص هذا التلامس.

في فيلم «أرض مجهولة» (٢٠٠٥) للمخرج غسّان سلهب، يلعب الكاتب والفنّان اللبناني وليد صادق دور المهندس نديم الذي يُعيد بناء المدينة التي يعيش فيها بشكل افتراضي على شاشة الحاسوب. في معظم الفيلم، نشاهد شبح وليد صادق يتصنّع أنّه نديم الغافل عنه وجودُنا كجمهور، إلّا أنه في مشهدٍ وحيد يجلس داخل بارٍ بجانب صديق، ينظر إلى الكاميرا ويغنّي وصلة هزليّة ساخرة من أغنية وطنيّة. يمكن في هذه اللحظة رؤية شبح وليد يتحدّى سلطويّة السرد ليخرق بنظرته الشاشة من دون نديم الغافل ويحدّق في عيوننا، جاعلاً منّا أشباحًا. في هذا التحدّي العفريتيّ للسرد الفيلمي وللوطنية، يفضح المخرج غسان سلهب والمؤدّي وليد صادق السمات المخفية للوجه في السينما كمساحة سياسيّة يحتكّ فيها النص الفيلميّ مع التمرّد الطيفي.

بعد ثلاثة أفلام رماديّة رمليّة متّسخة ضدّ كلّ هذا الضجيج، قرّرتُ الابتعاد عن التجريب غير القصصي لصناعة أفلام غنائيّة سرديّة بدءًا بفيلم من بطولة زياد شكرون وساندي شمعون يجتمع فيه الاثنان ضمن مشاهد غنائيّة شبه عجائبيّة. أردتُ للغناء أن يكون لحظةَ إعلان حبّ تبدو كسقوطٍ للأبديّة في الزمن، كما يصنّفها ألان باديو في كتابه «في مديح الحب»، بشكل مشابه للحظات النشوة عند المشاركة في فعل سياسي ثوري. تتغلّب الشخصيات على مؤامرات يُحيكها واقعهما ضدّ حياتهما من خلال الغناء والحبّ كشذرات معجزات سياسية.

مشيتُ في أنحاء المدينــــــــــة ليلاً نهارًا أختلس المشــــــاهد في كلّ مكان، وصرتُ أرى زياد وساندي في كلّ بارٍ أدخله، أسمع صوتهما في كلّ أغنية حبّ- حتى في الأغاني المسيحية الرديئة التي أحبّ سماعها حين أقود ليلاً- وأرى جسمَيهما يتعانقان داخل كلّ سيّارة تمرّ في التغييرات الضوئية لأنفاق بيروت.

في ظهر يوم صيفي حارّ، وبينما كنت أنتظر مرور سيارة أجرة على زاوية الطريق، نظرتُ عاليًا نحو لوحة إعلانية عن مبيد حشرات وصراصير. من شدّة الحرّ، تصبّب العرق على جبيني وبدأ ينزل إلى عيوني فأحسستُ بغشاوةٍ أفقدتني القليل من البصر. حينها، ظهر وجه زياد على اللوحة بابتسامته الملائكيّة، وفتح فمه مغنّيًا «حلف القمر» لجورج وسّوف. بدأتُ بدوري أتمّم الأغنية بنفسٍ لاهث، فمرّت شاحنة بيضاء ضخمة من أمامي وأطلقت بوقًا حادًّا مزّق أذني اليسرى كالزجاج مثلما مزّق ضوءُ مصابيحها عينيّ. من شدة الألم، وضعتُ يدي على أذني واليدَ الأخرى على الأرض وركعتُ باكيًا خوفًا من فقدان السمع بسبب حدّة الصوت.

ظلّت أذني تئنّ لأسبوعٍ كامل. وحين هدأت، وكي يزول عنّي الخوف، قرّرتُ ألّا أخرج من البيت خلال النهار من دون وضع سدّادات أذن. اكتشفتُ حينها أنّ صمّ الآذان يسبّب انخفاض شدّة حرّ الصيف، وأنّ الغلاف في أذني لا يحميني فقط من صوت المدينة بل من عنفها الأمني أيضًا. منذ ذلك اليوم، لم تنفجر أيّ سيارة في بيروت.

بدأتُ أيضًا أسمع دعسات قدمي على الطرقات وهي تمرّ في جسدي من الحذاء صعودًا إلى السدّادات حتى في أكثر الأحياء ضجيجًا، ممّا جعل تخيّل موسيقى فيلمي الجديد مسليًا مع نبضات إلكترونيّة متكرّرة كالتي أصنعها مع كلّ دعسة، ومازحت نفسي وصرتُ أفكّر أنّ المدينة توافقني على قرار تأليف نسخ «سينث بوب» للفيلم من موسيقى جورج وسّوف ومنى مرعشلي.

اكتملت النسخة الأولى من سيناريو الفيلم، وما إن كاد العمل يبدأ مع الموسيقيين على تأليف الموسيقى حتى توالت الأحداث بين ٢٠١٩ و٢٠٢٠ وتوقّف العمل، إلّا أنّ الهتافات التي غلّفت التظاهرات أظهرت أنّ شيئًا في الغناء لا بدّ منه، واستمررت في رؤية زياد وساندي يغنّيان ويقعان في الغرام في كلّ مكان.

في ٤ آب/ أغسطس ٢٠٢٠، سقط لوح زجاج على جسد زياد فمزّق ظهره، ودخل صوت إلى كلّ بيت من بيوت بيروت أخرس الجميع. منذ ذلك المغيب، وكلّما ظهر في مخيّلتي مشهدٌ من الفيلم، أرى زياد وساندي يقفان أمامي جنبًا إلى جنب من دون حركة. تفتح ساندي فمها من دون أن يخرج منه صوت، ثم تمدّ يدها لتمسك يد زياد الذي يفتح فمه من دون لسان داخله. يقفان على أسفلت أسود أحرقته أشعّة الشمس مع ثقبين أسودين في وجهيهما بدل الفمّ. يبدو الثقبان مثل عينين والزفتُ يرسم فمًا أفقيًا محروقًا، ينظر إليّ هذا الوجه الجديد منتظرًا أغنية.

وينتظر.

محاورة فادي العبد الله وعلي شمس الدين
عن شعرٍ في كنف المستقبل المستحيل

علي شمس الدين
فادي العبد الله

علي شمس الدين، لبنان. كاتب وشاعر مقيم في لندن، صدر له حديثًا «نزول الألفة» عن دار النهضة

فادي العبد الله، لبنان. كاتب وشاعر وناقد موسيقي مقيم في لاهاي، صدر له حديثًا «البياض الباقي» (شعر) و«الهشاشة أساسًا» (مقالات نقدية) عن دار الجديد

فادي العبد اللّه وعلي شمس الدين شاعران مقيمان في بريطانيا وهولندا ينشران، في لبنان، خلال النصف الثاني من عام ٢٠٢٢، مجموعتين شعريّتين. هنا محاورة عن بُعد بينهما، عن إمكانية الكتابة الشعرية، بين الخارج والداخل، وعن مغزاها، في ظلّ انهيارات كبرى لما كان اجتماعًا ولغةً وما كان يقبل التصوّر، وفي ظلّ مستقبلٍ لا تلوح منه إلا استحالتُه.

«الألفة» والغربة

ف. ع: أودّ أن أبدأ معك من عنوان المجموعة «نزول الألفة»، وقد كانت لي مجموعة شعرية بعنوان «يد الألفة». أليست الألفة من مفردات بسام حجار الذي تذكره أيضًا في مقالك الأخير عن الشعر واستحالاته؟ هل يمكن القول بأنني أبحث عن الألفة في حين أنّك تنعاها وبالتالي وبرغم اشتراكنا في تجربة الغربة، يبدو لي أنك أكثر تعلّقًا بالمكان (سورية، لبنان، هما قسما كتابك) مني؟

بكلامٍ آخر، أفترضُ أننا في عالمٍ تتسارع هجنته وتغريبه لنا، ولكن في حين قررتُ منذ زمن أنني مواطن العالم الذي لا يحتمل نجاته من بلادنا وقررتُ أن أحمل معي ما أحبّ ومن أحبّ إلى حاضرٍ متطاول، بحسب قراءتك لي، في حين أنك قرّرت مساءلة انعدام المستقبل في تلك البلاد ومواجهة ذلك الانعدام في حين أنك، كملاك بول كلي، تطير مبتعدًا عنه محمولًا بعاصفة التاريخ؟

ع. ش: بسام حجار كان يبحث عن الألفة في العزلات، وأحسب أن هذا الاسم هو ما نبحث عنه كبشر، هو جزء من طبيعتنا. كيفما كنا ومن أية مشارب جئنا وأين نقيم وأقمنا. نحن ميمكائنات نبحث عن حرارة هذا الاسم الدال على تقاطعات من الأحاسيس الإيجابية كالحب، الأمان، الوداعة، الانسجام، الوئام، المودّة، المؤانسة، المعاشرة وغيرها. «نزول الألفة» كتب في فترتين زمنيتين مختلفتين ويحمل اسم قصيدة في القسم الثاني من الكتاب، وهذا القسم كتب في خضم المقتلة السورية والقصائد فيه هي نوع من مرافقة آنية للموتى مرافقة مستعجلة لدخولهم في الجوف العضوي، عودتهم إلى الطبيعة الخام، إلى أصل الأصول. مرافقة تصحبهم قليلًا عبر كلام فيه نوع من اشتباك مع اللغة التي أظهرت عجزها الكلي في أن تنصفهم او ترافقهم.

بدا لي الأمر كأنه موت التراجيديا، موت إمكانية هذا السند اللغوي التاريخي الذي نحيل إليه عجزنا ونفصّل منه قيمًا عظمى نوظّفها في استلهام رفعة في المعنى أكان هذا أملًا واستشرافًا أم سِيَرًا وأساطير نرفعها مثالًا على رفعة رمزيتها لتساعدنا على تحمل الانكسار. النصوص هذه أرادت أن تصنع لهؤلاء زمنًا لإعطائهم بعض الوقت قبل أن يبدأوا تحولهم، هذا الوقت القليل الذي حرموا منه حتى عند مقتلهم، ولشدة سرعة موتهم وغزارته وانتفاء القدرة على تأبينهم والحداد عليهم ووضعهم في أكفان أو قبور لائقة، ولتيقني أيضًا أنهم سيصبحون فرائس النسيان، ستنساهم الذاكرة وستكون صعبة استعادتهم في ذاكرة المستقبل بكليتهم. لم يكن باديًا على موتهم أنه سيتمكن من تأسيس أسطورة لهم. لذلك أحسست آنذاك أن الجوف العضوي الخام هو أكثر مكان يمكنني أن أقدمه في اللغة لمن يرحلون هكذا وأكثر مكان آمن يمكنه أن يحميهم من توحش الإخوة وموت التراجيديا واستحالة الأسطورة. وإعطاء اسم الكتاب عنوان تلك القصيدة هو إحالة إلى أننا ما زلنا نعيش هذا الموت، نحن نعيش في اتساعه وتمدّده ولم نعد نعرف، نحن الناجين، كيف نعيش من بعده، إذ



يبدو أن هذا المكان قد أسس سرير احتضار وبات صعبًا علينا نحن الناجين المغتربين أن نتذكر ماذا نأخذ معنا إلى حياة النجاة هذه. يدهمني دائمًا هذا العجز في جوهرة التذكر، ماذا أتذكر؟ من نحن؟ من كنّا؟ ماذا فعلنا؟ ماذا أنجزنا وخسرناه؟ مُضنٍ هذا المسار في التذكّر، حتى لو كان ما أستطيع تذكّره يصلُح ليكون سرًا. القصائد في القسم الأول تنطلق من هذه النظرة إلى الموت المستمر وإلى الاستحالات التي ولدنا فيها وفي المكان الذي تركناه وفيه تساؤل عن معنى المغادرات في هذا المقام.

علي شمس الدين: يدهمني دائمًا هذا العجز في جوهرة التذكر، ماذا أتذكر؟ من نحن؟ من كنّا؟ ماذا فعلنا؟ ماذا أنجزنا وخسرناه؟

لم أفكر في ملاك بول كلي التاريخي وعلاقته بما كتبتُ ولكن يستوقفني تعريف فالتر بنيامين لسياقه، خاصة أن العاصفة التي دهمته هي عاصفة التطور آتية من الجنة. القسم الأول من الكتاب هو كتابة في الحاضر الذي لا يبدو لي أبدًا أنه جنّة بل مشقة وهي مفردة أخرى من مفردات بسام. فنحن في الشتات مواطنون «in transit» في البلاد التي هاجرنا إليها في حالاتنا المتعددة. أي أننا مواطنون غير مكتملي المراسم، مواطنون بسِمة رسمية فقط، مواطنون لأننا ندفع الضرائب، ونمتثل للقانون، ولكننا خزائن اجتماعية مقفلة، تعيش المشقّات. نحن أنفس خالٍ وفاض ما كانت عليه. وهنا أودّ أن أسألك، ماذا حملت معكَ لتبقيه وما الذي تركته خلفك وخسرته. ماذا تتذكر وعلى ماذا تتحسر؟ كيف تستعمل ما احتفظت به وبماذا توظّفه في هويتك الجديدة، كيف يمكنك أن تكون مواطن العالم؟

وظيفة اللغة والكتابة

ف. ع: هل على اللغة أن تُنصف ضحايا مقتلة أو عليها أن تؤسطر القضايا كما فعل محمود درويش بقضيته؟ لست أرى في ذلك ضرورة للغة، بل كما ذكرت أنت يمكنها ربما أن تكون استحالة، فأسطرة القضايا تحوّلها إلى مستحيل، بينما استحالة الكلام ربما تفتح مجالات أخرى للتفكّر، لتحويل الركام إلى طلل بحسب فكرة وليد صادق المشروطة بعمل حداد طويل وصامت. مثل هذه الكتابة عليها أن تصمت.

هل يمكن اللجوء إلى كتابة أخرى؟ أحسب أن ردي (وهو ديوان البياض الباقي المنشور حديثًا) هو بنعم. أعني كتابة تسعى ربما إلى البحث عن أثر المقتلة والصمت والعنف وأمور أخرى كثيرة داخل نسيج الحب والصداقات والفن، بهذا فإن القصائد ليست مجموعة على غير نظام، بل متداخلة، كما هو العيش، كما هو أن تتجول في برلين مشمسةً وهانئة وفي يدك الهاتف الذي ينقل إليك آخر أخبار المجازر المحلية في البلاد التي قدمت منها. البياض يتخلل اللوحة، والملح حاضر في الحب، والعنف في السياحة والدم يطاردنا.

نحن ناجون محظوظون، لم نجتز بحرًا في قارب متهالك ولا نسعى إلى بيع مظلوميتنا أو اضطهادنا رغم أن زملاء لنا قُتلوا وأقرانًا قضوا نحبهم في سجون أوسع من الفضاء. ناجون تمنعنا نزاهتنا الأخلاقية أولًا من الاحتفاء بالنجاة، ويمنعنا الخوف من العنف المتمادي على عائلاتنا ومدننا وأحبابنا من أن نسقط في هوة النسيان كشرط كي ينفتح لنا المستقبل.

أحسب أنّ كتابتك مواكبة كما قلت لعودة الجثمان إلى التراب العضوي، هدهدة أخيرة تقول امتناع الغناء. لكني أحسب أن لا مفر من الغناء ما دام المرء يتنفس، فاحتباسه مؤقت لكن الشعر في رأيي يستطيع أن يقول حضور الاحتباس في الصوت المنطلق. هذه ربما إحدى وظائف الشعر على ما أرى، التقاط الاختلاط الذي ينسرب في حياتنا ويجعلنا نحيا في أزمنة وأمكنة وأمزجة مختلفة في آن واحد، بالضبط بسبب قدرة الشعر على التكثيف والتركيز.

هل تكتب الكتابة تجربة المواطن العابر كهواء المطارات هذه؟ ربما. لكني أجد من الأولى مساءلة المواطنة نفسها كهوية. في جذر الإشكال هو اعتباري الهوية وهمًا، مريحًا أحيانًا لكنه يظل وهمًا، والمواطنة القانونية، أي الانتماء بالأوراق إلى بلد ما، لا تختلف عن ذلك: ضرورة عملانية للوجود في مكان ما لأن الحظ لم يخدمنا بأن نكون من الغجر. لدي تفضيلات شخصية بالطبع، للمطبخ اللبناني على سبيل المثال، لكن حبي للموسيقى كمثال آخر يمتزج فيه أثر لبناني مع آثار مصرية وعراقية وشامية مع علاقة خاصة بالباروك وسترافنسكي...إلخ، فأين هي الهوية إن لم تكن مجرد اسم آخر للتفضيلات الشخصية؟ حتى اللغة التي أكتب بها، في الأغلب، أي العربية، هي عربيتي التي أتجاوزها أحيانًا إلى نصوص تكتب بالفرنسية (رواية غير منشورة) أو الإنكليزية (نادرًا) وهي في كل الأحوال لا تشابه الكتابة المصرية ولا السورية. هي أيضًا عربية، كما بسام حجار،

تسعى إلى الدفاع عن المعاجم كخزنة تجارب تاريخية، وليس عن العربية تحديدًا.

هل أخسر إذن إن قلت إني مواطن من العالم؟ لا أظن ذلك، فباستثناء تجربة البقاء مع الأصدقاء الذين يعيشون في يومهم وساعاتهم انهيار وظائف وأجهزة البلد اللبناني، فإني أحمل معي هاتيك البلاد لا كلعنةٍ بل كجزء من تجربتي في العالم. هو موقف فرداني متشدد ربما، لكن من زاوية أخرى فإن الإقامة – في – العالم تعني أيضًا التخلي عن أوهام انفصال القضايا: لا إمكانية لحل أي شيء على مستوى الدولة أو حتى الدولة – الأمة بأيٍ من مظاهرها. أحمل نجاتي وأنتمي إلى العالم الذي فيه أوكسجين وماء وأشعر أن من حق أي إنسان أن ينتمي إلى العالم، وأعلم أنه امتياز نادر: مشاكل البشر اليوم عالمية ولا حل لها إلا بشعور بانتماء عالمي سيتأخر بالضرورة عن موعده، لذا فالمستقبل قاتم ومهول.

ما هي قدرة الكتابة في مواجهة الاستحالة التي لا مفر من أن البشر بقوة الحياة فحسب سيستمرون برغمها؟ وما هي وظيفة الكتابة في مثل هذا التوقيت؟ أسأل نفسي وأسألك.

فادي العبد الله: مشاكل البشر اليوم عالمية ولا حل لها إلا بشعور بانتماء عالمي سيتأخر بالضرورة عن موعده، لذا فالمستقبل قاتم ومهول

اللغة في حضرة الموت والنجاة

ع. ش: أنا ما زلت لا أعرف كيف أكون مواطن العالم لأنني مُطالب كل يوم بأن أقدم سيرتي لهذا العالم. ليس لأن ذلك مهم عمليًا بل لأن سياسات الهوية ما زالت تسيطر على منطلقات التصنيف والفهم. العالم يتفحصك ليصنّفك. تقسيم الهوية إلى أحياز ووجوه كالهِوايات، وأنواع المهن، والجندرة والموضة، والمطبخ وما إلى ذلك لا يلغي أنه يقع على كاهلنا أن نبرز اعترافًا ما عن ماضينا، أن يكون لك قصة نجاة تسردها على مسمع مُحاورك. التفكير في هذا السؤال هو ما أظن أنه بقي منّا. ماذا باستطاعتنا أن نقدم عن أنفسنا بصفتنا لبنانيين، ماذا نتذكر في هذا التقديم وماذا ننسى، سؤالي انطلق من هذه النقطة. غير أنه كما تقول أنت، لا يمكننا أن نواظب على إنتاج صورنا بوصفنا ضحايا أو احتفاءً بالنجاة، ولكن أيضًا أرى أنه لا يمكننا أن نعيد إنتاج صورنا كعرض لغوي أو عبر المعاجم.

الناجون يقيمون في «الما بين» دائمًا، غير أنه في حالتنا هذه فإن الشطر المتأخر من هويتنا قد ذهب إلى غير رجعة «كجزيرة غبها المحيط». وهذا الاختفاء هو انتفاء قدرة هذا المكان أن يصنع قصة ما تصمد، أو أن يضيف معنى ما إن كان في ماضيه أو مستقبله. فموت السوريين بهذه الطريقة وما جاء بعد هذا الموت كان بالنسبة لي إشارة إلى موتنا جميعًا واختفاءنا عن الخرائط. والعضوي و«الأولي» في القسم الثاني من القصائد كما ذكرت سابقًا يقيم في هذا الانتفاء، انتفاء ما كنا عليه وكيف كنا ننظر إلى أنفسنا ونقدمها واستحالة تعريف أنفسنا في الراهن. الموت بـ«السارين» وصوره وكيف تناولته الألسن والأقلام وكاميرات الموتى يصورون موتهم كان لحظة عجزت فيها اللغة ومعها الموسيقى والفنون والصحافة أن تصنع قولًا، وهي لحظة ممتدة إلى راهننا. بدا لي آنذاك أن العنف قد حوّل اللغة، التي تحاول الاعتراض على الموت، إلى لغة أصولية ظلّت تحمل إشاراتٍ ومعاني وإحالاتٍ من زمن ما قبل هذا الموت، أي من زمن الورثة الثقافية العاجز أصلًا. فكان لا بد من إيقاف هذه اللغة في تلك اللحظة وإعطاء الموتى لغة يفهمونها في نزولهم، لغةٍ تأتي من خارج سلالم الأسطرة. العضوي هنا هو رفض حتى للحداد والإقامة فيه لانعدام جدواه.

أما في النجاة، فأجد أن الراهن طاحن ومتطلب جدًا، ولا يتيح صناعة زمن فسيح للغة لنبني صورًا ونحتفظ بها، أي لنطيل لحظة التقاطها ونعطيها وقتًا شعريًا وانطباعيًا ونتغنى بها – أوليس هذا نوعًا من إخضاع هذه اللحظات للأسطرة؟

الأماكن في عالم النجاة بالنسبة لي هي أماكن متطلبة ومنهِكة. وأثاث هذا العالم ومعالمه لا تصلح كنقطة وساطة مع الفقد. هذا الواقع الجديد له اقتصاده اللغوي الخاص. فالعيش في المدن الحديثة الطاحنة لا يتيح بناء أحياز شعرية تصمد طويلًا، فالنصوص الأولى في «نزول الألفة» هي تحول من العضوي والخام والنهائي إلى نوع من الإقامة في حضرة الوقت أي في النسيان وسطوته. ففي هذا العالم أجد صعوبة في إقامة مراسم تامة للحظة الشعرية، نهر التايمز ليس متنزه العشاق، وحانات لندن يرتادها المنهكون الذين يشربون لينسوا عسف النهار، والوقت فيها ليس وقتًا يتيح بناء الألفة، والحميمية فيها لا تؤخذ إلا تلصصًا واستراقًا من نهم المشاغل والمهن وسطوة النظام. الحب فيها لا يأتي معطرًا وأنيقًا. وفي هذا بدا لي أن الجسم والحب والأماكن لا يحتمل أي نوع من الأسطرة، لا يحتمل التغني به واستذكار خفته وإطالة اللحظ عليه لأنه يذوب سريعًا في عسف الوقت



ووهج الحركة. نحن تقيم في اللغط وأجسامنا ضعيفة لا تقوى على التوقف والتنعم بالانطباع. ألا ترى أنه في هذه الحال يكون الشعر قد استثمر الأحاسيس في المتخيل والرمزي اللذين في حالة عالمنا الحالي لا يستطيعان مقاومة همجية الواقع؟ كيف نكتب شعرًا في هذا الواقع؟

عن مغزى الشعر وإمكانياته

ف. ع: أعتقد أنك تمس قلب المشكلة، عن مغزى الشعر نفسه، عندما تسأل (في استفهام إنكاري؟) كيف نكتب، فأنت لا تقصد بالطبع تقنية الكتابة، بل كيف يمكن لها أن تظل متاحة في هذه الشروط. لكن قبل ذلك، أريد أن أتوقف عند نقطة أنك مُطالب بتقديم سيرتك لهذا العالم، في ظل هيمنة سياسات الهوية. هل هذا محصور بك أو بنا؟ أليس بنات وأبناء الدول التي نحن فيها أيضاً مطالبين بذلك (نساء، وملونون، ومثليون وعابرون بأطياف التنوع الجندري)، إلا إذا كانوا من هم بلا صيرورة بحسب وصف دولوز، أي الرجال البيض الغيريين المسيحيين، ولكن حتى هؤلاء بات مطلوبًا منهم تقديم سيرة، وإنْ سيرة استنكارية على الأقل: هل نددت كفاية بهذه الاعتداءات أو تلك الجرائم أو اعتذرت عن هذه الإبادة أو ذلك التاريخ المشين؟ أقصد أننا لا ننفرد عنهم في البحث عن قصة أو سيرة نرويها، والمطالِب علينا جزء من سياسات أوسع تستحق نقاشًا أطول ليس هذا مجاله.

فادي العبدالله: على الكتابة بعد الجرائم أن تحمل آثارها، لا أن تنهار وهو ما أرى انه نتيجة حتمية بعد إعلان الاستحالات

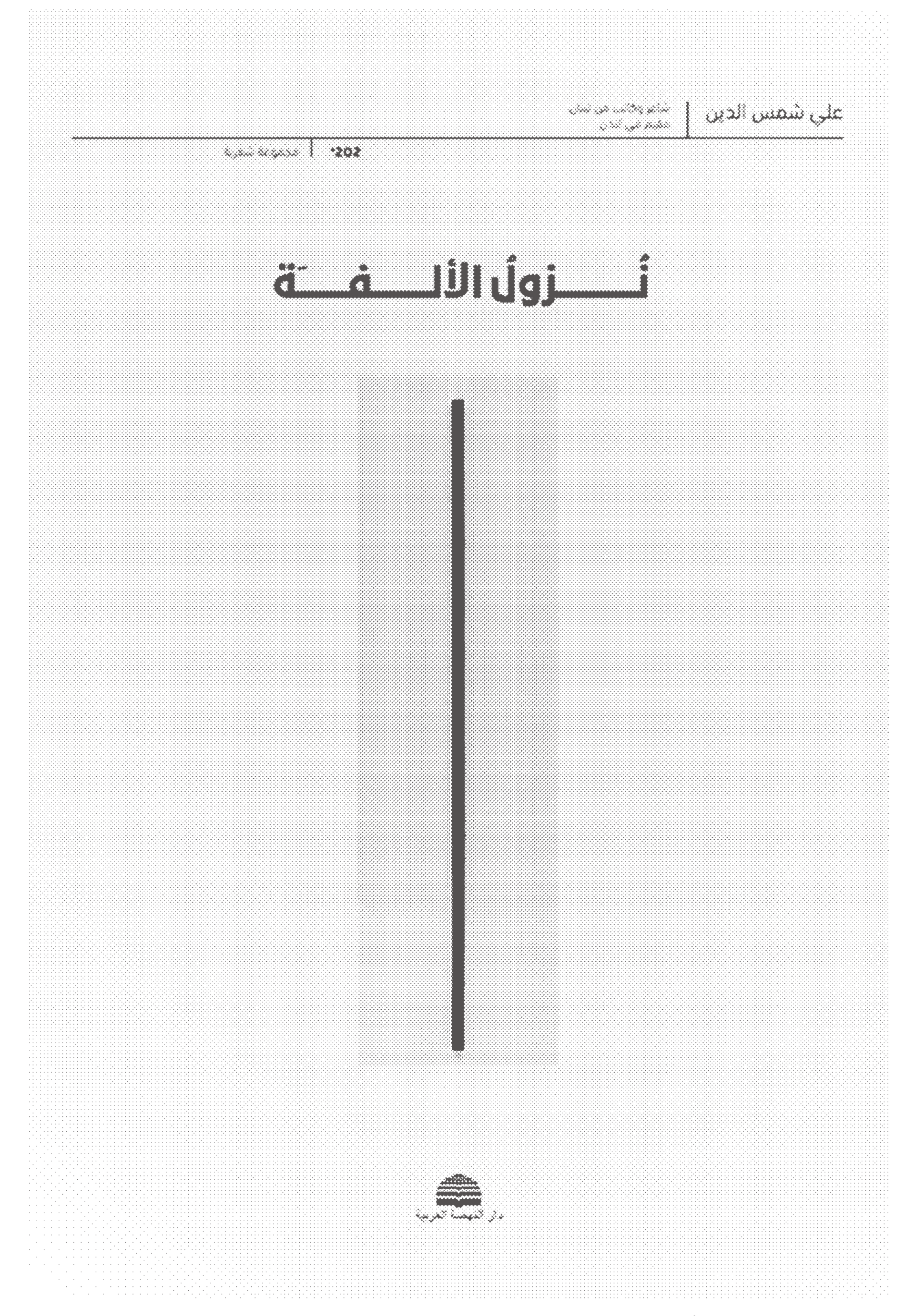
أما الشعر فأرى أن علينا أن نبحث بالضبط عن إمكانيته، تقول في مواضع مختلفة إن على الشعر أن يقول استحالات كثيرة (استحالة البلد، استحالة اللغة أمام فظاعات الجرائم، استحالة المستقبل)، وإن (شطرًا من) كتابك يبحث عن لغة تقولها للنازلين في قبورٍ مرتجلة، لكن أليست هذه أيضًا أسطرة للشعر بافتراض أنّ بإمكانه أن يتحدث إلى النازلين الأموات؟ في (شطر من كتابي) قلت إنّي أقل من أن أحمل قصصهم، لكني لم أفترض أصلًا إمكانية الحديث إليهم أو ضرورة البحث عن لغة لذلك، لأن اللغة في رأيي قد تنطق عن الأموات لكن ليس إليهم، قد تختزن خبراتهم وحيواتهم وقصصهم، لكني لا أؤسطر موتهم، فكل موت «ضربٌ من القتل» وتاريخ المنطقة والعالم مليء بفظائع هائلة لا تقلّ عن «السارين» ولم يتوقف البشر بعدها لا عن الأكل ولا التكاثر ولا الضحك ولا الكتابة. على الكتابة بعد الجرائم أن تحمل آثارها، لا أن تنهار وهو ما أرى انه نتيجة حتمية بعد إعلان الاستحالات أي أن تصبح الكتابة نفسها مستحيلة. على الكتابة بعد الجرائم أن تتقصّى أثر الجرم في الصمت وفي البياض وفي لحظات المتع وفي زمن الوئام وفي مخيلة التاريخ وفي حمولة الكلمات. هذا التقصي لا يستنفد الكتابة في كل هذه المجالات، لكنه يوضح كيف أن استمرار العيش، وهو محتوم، يكون عندها بالضرورة مضمّخًا بدماء وملطخًا بعنف، لكنه يستمر، وكذلك الشعر.

باستثناء الموتى، لم يتوقف أحد عن التنفس ومحاولة الحداد بحثًا عن العودة إلى التنعّم غير الهانئ. على الشعر، بالنسبة لي، مسؤولية في هذا بالضبط، أي في مواكبة من لم يتوقفوا عن التنفس نحو مساحة من عيش متجدد وممزق، وفي هذا يمكن للشعر أن يستعير من الحنين ومن التاريخ كما يمكن له أن يستعير من الوصف ومن الحاضر، ومن الأمل والمستقبل، ومن مخزون اللغات والتجارب ومن حروق الجسد ولذّات حواسّه، ما يمكن له أن يولّفه في نشيد ساخط وحانٍ معًا.

وإلّا فما تكون الكتابة بعد أن نعلن استحالة كل شيء، بما في ذلك استحالة الحداد واللغة والمستقبل غير وقوفٍ متكررٍ في ألمٍ مستعادٍ حتى الخَدَر؟

ع. ش: طبعًا هذا الموت الذي أتكلم عنه ليس جديدًا على البشرية، ولكن بعد كل موت من هذا النوع تتغير اللغة، تعتمل لتجد طريقًا يربطها بالمعاني الإنسانية والكونية ولتجد منطقًا جديدًا لتعريف هذه القيم. وهذا الاتصال وإعادة التعريف هو ما نبحث فيه. نزول الألفة ليس أسطرة للحظات الموت بل عكسها تمامًا، محاولة للقول إنه لا يمكننا أن نتوقف كثيرًا عنده لأنه موت عابر رغم فجاعته وهوله، ولهذا كنت أدعوهم للنزول بسرعة محاولًا استبيان كيف يحوِّل الموت هذا الذين قضوا وإلى ماذا يحوّلهم دون أن أستطيع التقاط هذا التحول، وجدتهم يعودون إلى العضوي ووجدت أن لغتي تقيم في استحالة صنع معنى وصدى لهذا الموت ولهذا أقول إن أسطرتهم فشلت.

أنا أتكلم عن الشعر بكل ما يحمل، والسؤال هنا عن ماذا نقول في الشعر وكيف نقوله. هل ما زال باستطاعتنا التغنّي بالجمال على النحو الذي ألفناه سابقًا؟ فالموت



شمس الدين، علي، **نزول الألفة**، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٢٢، ٢٧ صفحة.



قتلًا أو طبيعيًا يبدو موتًا عاديًا، والأبنية الأثرية باتت عبئًا إيكولوجيًا وماديًا ومحيطها يدفع كلفة عالية لاحتضانها، والأنهر في المدينة ملوثة، والطبيعة بكاملها تلفظ حيواتنا بازدراء وبصلف، والمدن الكبرى هي عبارة عن أكوم من البنى التحتية الهادرة، والحمام ينقل الأمراض، والأحصنة هي أدوات رياضة باذخة أو مطايا إستاتيكية والموسيقى باتت صنو العزلات في اليومي والمعيش.

علي شمس الدين: وجدت أن لغتي تقيم في استحالة صنع معنى وصدى لهذا الموت ولهذا أقول إن أسطرة الذين قضوا فشلت

في كل هذا ينتابني شعور أن التسلّح بقيم الحب والجمال المجرّدة لا يولد شعرًا يصمد ويقول، ولا أعتقد أن الاعتداد باستمرار قدرتنا على الغناء والحب هو المحرك هنا، هذا يشبه «لسه الأغاني ممكنة» ولا يفضي إلى قول مغاير في ما نحن عليه.

وبهذا أجدني أقول إنه لا يكفي أن نعيد التذكير ببديهية الحب، علينا إعادة تعريف الحب لنقيم الاتصال معه، لا يمكننا فقط التغني ببرهات الجسد المتعطر والمسترخي في السرير بانتظار المتع، المتع صعبة وتحقّقها معقد ومضن، نريد الشعر أن يتكلم عن طريقة الوصول وليس فقط عن التقاط المشهدية وأسطرة اللحظة. صناعة انطباع عن سيرنا في الشوارع وسماع الموسيقى والإحالات المتولدة من مرورنا أمام صروح تاريخية لا تكفيني وأنا أكتب الشعر. أشعر أن المشقّة هي بوابة للدخول إلى مكونات هذه اللحظة وديناميتها وأعبائها. فعندما نتغنى بصرح نصبه أحدهم في التاريخ نحن نقف كسياح أمامه اقتنصنا الفرص للإحساس بالوقت الفائض لأنّ أيامنا العادية هي أيام عمل وكدّ وغربة.

ليست الإشارة إلى الاستحالة دعوة لترك الشعر بل دعوة للبحث في اقتصاد هذه اللحظة، ألا ترى أن تداعيات هذه اللحظة على أجسادنا وأوقاتنا وهوياتنا وظلها المتعِب هي باب لإعادة التقاط الأحاسيس من خلالها؟

أيّ تغيير منشود لأيّ شعر؟

ف. ع: تتركني كلماتك مترددًا. كل من كتب شعرًا ادّعى أنه يأتي بجديدٍ ما في التقاط الأحاسيس أو في ابتكار اللغة. ولستُ أنا استثناءً في هذا. لكن ما دمنا قد أوضحنا أن الاستحالة ليست استحالة الكتابة، بل هي استحالة تكرار ما سبق، فعلينا ربما أن نغوص أكثر في القضية، أي تغيير منشود لأي شعر؟ الاعتراض وحده لا يكفي، رغم أنه الأكثر قدرة على إثارة الاعجاب والترحاب.

في رأيي، إن نجاح قصيدتك البديعة، أي قدرتها على إثارة المشاعر على اختلافاتها في قارئها، إنما هو دلالة على نجاحك في أسطرة العضوي. ليس من مجال في تقديري للفرار من ذلك: الكتابة الشعرية عدسة مكبّرة لما تلتقطه، وما تختزنه في كلماتٍ قليلة، وهذا بلا شك يحيل موضوعها إلى أسطورة: أسطورة الحب عند العذريين، أسطورة البطولة عند المتنبّي، أسطورة فلسطين عند [محمود] درويش، أسطورة العراق عند [بدر شاكر] السيّاب، أساطير لبنانية كثيرة (الجنوب، اليوميّ، سعيد عقل)، وصولًا إلى أسطرة الألم العراقي الحديث (كاظم خنجر). ربما كان اهتمامنا أنت وأنا بموضوع المقتلة السورية مثيرًا للتساؤل عن سبب غياب شعر سوري! وربما ليست الأسطرة بالسوء الذي ندّعيه.

لا مفرّ من الأثر المكبّر للشعر، ولا أحسب أن بمستطاع أفراد أن يعيدوا ابتكار وظيفة الشعر، وظيفته تتحدد اجتماعيًا وتاريخيًا وما آل إليه في عصرنا هو الأفق الذي نراه. فإذ أوافقك على أننا لا يمكن أن نركن إلى تعريفات موروثة للحب والموت والطبيعة والتاريخ والحداثة، غير أنني أشعر بأن البرنامج الذي تقترحه على الشعر غير متطابق مع قدراته ومجاله. على الشعر أن يظل فسحة لصناعة جمالية، وهذا أراه في قصيدتك نفسها، إعلاء العضوي، مخاطبة النازل إلى قبره، تقصّي أثر المقتلة في اللغة، كل هذه صناعات جمالية، جديدة لكنها تظل فسحة للوقوف خارج العادي واليوميّ والكدّ والسعي، لصناعة لحظة خارج الزمن، أو لحظة هي نفسها زمنها. لكن «نريد الشعر أن يتكلم عن طريقة الوصول» فهذا في رأيي خارج على منطق الشعر، التكثيفي، الذي يلتقط في قصيدة ما يحتاج إلى مجلدات من الكلام، ما يسائل اللغة عن طريقة الكلام نفسها ولا يتخذها مطيّة إستاتيكية.

في مثل هذا الشعر وهذا الزمن، لا مفرّ أيضاً من البحث ليس فقط عن تعريفات جديدة، بل أيضًا عن الأثر الذي نعيش في ظله، أثر الماضي وليس فقط الحاضر. التعريفات السابقة لا تنتهي ولا تختفي بل تستمر في إلقاء ألوانها على عيشنا وأجسادنا وأحلامنا. الشعر أيضًا تقصي كل ذلك في الحاضر وفي المخيلة. برأيي إن افتراض قطيعة ناجزة

مستحيل، لغويًا (لحمولة اللغة المستمرة) وجسديًا (لتربية الجسد المترسخة) وخيالاً (لتأثير الماضي والمعروف والمُشتهى والمُكبّر مسبقاً عليه). أخيرًا، في حسباني وبعد الانحسار القديم لشعر الخطابات، فإن الشعر أيضًا من أشغال القسوة والعزلات كالموسيقى، أي أن عليه أن ينحت في جبل العيش مغارات صغيرة، خلايا مفرّغة، كي يستطيع الشاعر والقارئ أن يتنفسا فيها، حرفيًا أن يلتقطا أنفاسهما. لهذه المغارات ربما أسماء كثيرة: الحب، الجمال، البهت، الطرب، الصداقة، الحداد... حفاوة كل قصيدة بإحداها هي إعادة نحت لها.

فادي العبد الله: الكتابة الشعرية عدسة مكبّرة لما تلتقطه، وما تختزنه في كلماتٍ قليلة، وهذا بلا شك يحيل موضوعها إلى أسطورة

في المحصلة، يبدو لي أن الشعر كالعيش طبقات كثيرة وعليه أن يعكس، في كثرته (ولهذا أحب فكرة الديوان فوق فكرة القصيدة أو مجموعاتها) هذه الطبقات: تقصّي آثار العنف في الصمت وفي الصوت، تقصي آثار التاريخ في الحاضر وفي الخيال، تقصي آثار الأفكار في الأجساد والمشاعر، الدفاع عن خُبرات اللغة وعن خبرات المرء (وما افترضته أنت في مطلع النقاش أنه من طبيعة البشر، أي البحث عن الوئام والمودّة والألفة) وعما لا يرغب في أن يراه ناقصًا عند رحيله، نحت الكلام المقبل (لا الصراخ الأبكم) والإيقاع المقبل للتنفس. ولم لا للجمال! . في عالم ينهار ولا ينقصه الروائيون ومنظّرو الاجتماع والساسة وتجّار الهتافات والأديان محترفو الصراخ والتكرار. ولستُ أحسب أننا بعيدان في المنظور، لكن ما أدراني؟

الأسطرة والشعر

ع. ش: أثرت الكثير من النقاط الهامة هنا وفيها، ما أوافقك عليه وما لي فيها رأي مغاير.

كتابة الشعر هي محاولة قول شيء يخرج من ذاتية ما، وبهذا هو محاولة لتناول العالم أو لحظة منه بطريقة مغايرة. وهو تبعًا لهذا اعتراض دائم لتأسيس إمكانية قول مغاير، وفي المغايرة هذه يُعيد الشعر إنتاج أنساقه واختلافاتها. والأسطرة، وقد توقفنا عندها طويلًا، ليست كل الشعر إنما هي إحدى خصائصه، واعتراضي على إعلاء الأسطرة في الشعر يضمر رفضًا مني لاستعمالها كبناء كليّ دائم وكملجأ للشاعر في صناعة الجمال في قصيدته (انا أؤسطر إذًا أنا أكتب الشعر، إذًا أنا أصنع الجمال). وهذا الرفض يأتي من رؤيتي لفداحة الراهن الممتدّ ولانتفاء قدرة الأسطرة على إنتاج التقاط واقعي للمعيش، ما يبقيها إستاتيكية، غناء، وخارج الواقع، متحفية وبعيدة عن وطأة اليومي الذي يدفعنا كل يوم لنفسره في فداحة التحولات التي تعيشها حواسنا وأجسادنا.

وهذا بالظبط ما أعترض عليه، إذ أحسب أن الشعر الذي يتوسل الأسطرة كمنطلق كلّي يتحول إلى فن أكاديمي متكلف بعيد عن اللحظة. فأسطرة العضوي كما تحب أن تصف «نزول الألفة» هي أسطرة سلبية. أو بمعنى آخر، هي محاولة بحث عن أثر وشكل ومعنى لتكبيره. ولكنها محاولة فشلت، فصار النص على تماس مع الوصول إلى العدم في اللغة وهو شعور مربك، إذا ما كنت تستيقظ كل يوم لتذهب إلى عملك وتتسلح بالأمل لكي يحظى من تحبهم بمستقبل جيّد. ولهذا كانت النصوص الأولى في الكتاب بعد عشر سنوات من نصوص الألفة تقف عند هذا التحول لتتحسس النسيان، إذ بدا لي أن النسيان هو ما يغلفنا بعيدًا عن التعريف الأكاديمي للشعر ولأهدافه وأدواره.

وافتراقي عن نظرتك هذه مردّه شعوري أن هذا التعريف يقيم في كنف تمثيل ثابت لقيم تتغير، ولزمن جديد ليس له أي تعريف ناجز. وبرأيي، على الشعر أن يُنصت للتغيير ويقول ما يرى بدلًا من أن يتنبأ. هذا بالرغم من أن الأسطرة هي إحدى خصائصه، وهذا بزعمي، باب من أبواب الاستحالة.

ليس ما تقدم تبخيسًا مني بالشعر بوصفه أداة اعتراض وبوح، بل إشارة إلى التغيير الحاصل لمستوى الأحاسيس وارتباطها بالقيم الكونية، أي إلى تغيير المساحة الفاصلة بين الكوني وكيفية الوصول إليه. وهذا ما أعنيه بـ«باقتصاد اللحظة». فتناول الشعر كعمل نقيّ ومستقلّ تبعًا لمنطق ثقافي داخلي خاص به، هو ما أراه مناقضًا لمنطق الشعر وتطوره. في الخراب لا شيء يبقى من معان فقدت رفعتها، ومن أشكال وأطر تهدمت. وعليه، فإن أي عمل «جميل» برأيي ملزم بأن يتناسق مع اللحظة - أن تكون في مركب نوح لن يمكنك التغني بجمالية الطوفان بل يمكنك أن تتكلم عن الرعب من الغرق أو اليأس أو الصلاة.

وبالتالي فإن الإبقاء على اسم القيمة في تناولنا لها لا يعرفها في جديدها، إن كان انقطاعًا أم تحولًا، أم استمرارية بشكل آخر، ولا يولّد أي اكتشاف للحظة، بل يصنع النوستالجيا



بما هي تدوير استخدام المواضيع بشكل تداولي بناءً على تصور مسبق ومثبت. أظن أن علينا أن نسائل موضوعاتنا ونعاين ما طرأ عليها أولًا، وهذا ما أعنيه بطريق الوصول. ما هو الحب في هذا الزمن؟ وما هو الجسم؟ ما هو الوقت، وما هو الموت؟ ما كل هذا الذي نريد للشعر أن يلتقطه وكيف وأين نلتقطه؟ وهذه أسئلة ترافقنا نحن البشر منذ زمن، غير أن تصدّي الشعر لها، وما يصير الشعر معها وما يقوله من خلال ذلك يختلف باختلاف الأزمنة، وبالتالي تعريفها يصبح مختلفًا. (شعراء الجاهلية، أبو نواس، الحمداني، المتنبي) وبالتالي فإن الشعر لا يغيره ولا يحدده المجتمع، بل من يكتبه. وفي هذا أقول إن كتابة الشعر في الراهن ليست منطلقًا من تعريفه بالدرجة الأولى كما تقول كوسيلة فنية، بل أكثر كأداة قول ومحادثات وتواصل، أي في وضعيته كنقطة عمليات منطقية تعتمل في حقل مصطلحات ثقافية طارئة، تلغي الحدود التي تفصل بين النقدي والخلاّق. وبهذا فإن طبيعة الشعر تتغير، وتتغير تبعًا لتغيرها عملية النقد وماهيته. وعليه تصبح الثقافة التي يتصل فيها هذا الشعر طورًا أو يشكل مندرجاتها طورًا آخر، هي عبارة عن حزم من التحديدات لتناقضات الواقع واستحالاته.

علي شمس الدين: الانهيار في بنائنا الثقافي وانكشاف موروثنا على خوائه لم يعد يستطيع أن يؤسس للحظة متينة تحمل الأسطرة

ومن هذه التناقضات أريد العودة إلى لحظة الراهن والانطلاق منها في كتابة الشعر. هذه اللحظة التقنية بامتياز في جديدها، أي في اعتمالها في عنف يقيم بين حدي ليس الآن، واستحالة حدوث ما نريد. هذه اللحظة هي لحظة أجسامنا في الحب وفي الجنس والمتع والصفاء والخوف من المجهول، وما يترتب علينا من معاينة أنفسنا في هذا اللاتحقق، حيث يحدث الكثير ونجد أنفسنا مكبّلين بلحظة انقضاء، دون أن نعي ما حدث، أي أنها تأسرنا في ما قبلها وما بعدها وتضعنا في منزلة النسيان الذي يعتمل بين لحظة تأجيل الفعل والصحو بعد الحدث.

وهنا أودّ القول إن شعر الحداثة نزف كثيرًا من نقطة انطلاقه إلى المعاصرة المتمددة، حيث أصبح يعتمل في لا توازن كبير بين نقطتي التوتر اللتين يقيم فيهما عادة، أي بين الشاعر وموضوعه وبين الشاعر وقارئه. فالعلاقة بين الشاعر والقراء ذوت كثيرًا، ووجد الشاعر نفسه ينشغل بمادته في قلق مبالغ، مع ركون مطبق إلى ثلاثية الأسطرة والميثولوجيا والنبوءة، أي إلى جعل النص نصًا تبشيريًا مدّعيًا تعريفاتٍ جديدة للقيم، وسط طوفان يأخذه ويأخذ اللغة إلى مجاهل جديدة، ويدعم نصه بصور انطباعية خارج الواقع، ولكن لقرّاء غير موجودين، أو لنقل لقراء أخذتهم التقانة إلى مكان آخر.

ومن هنا أود ملاقاتك في ملاحظتك عن مقترحات الشعر السوري وعلاقته بالمقتلة، إذ أظن أن تساؤلك مهم ومصيب، ولكني أظن أن حدوث المقتلة في لحظة الراهن التقنية هذه بدد إمكانية أسطرة الموت هذا. فكما أشرت سابقًا، أظن أن الانهيار في بنائنا الثقافي وانكشاف موروثنا على خوائه لم يعد يستطيع أن يؤسس للحظة متينة تحمل الأسطرة وترفعها لتقاوم امتحان الزمن-الطوفان، وبهذا يجد الأحياء السوريون أنفسهم يقيمون في النسيان وفي الجانب المعتم من اللحظة التي لا يخرج منها صوت. وبالتالي فإن خلوّ الشعر السوري من أسطرة المقتلة هو نتيجة واقعية لطبيعة اللحظة التي نعيشها، أي أنها لحظة استحالة أن تقول في المقتلة نسقًا مستلًا من الشعر الذي عرفناه في محنتنا العربية على مدى الثمانين سنة الماضية، أي من لغتك بمحاولاتها في الاختبارات التاريخية السابقة. السوريون لا يستطيعون أن يؤسطروا سورية كما فعل سعيد عقل بلبنانه ودرويش بفلسطينه، ولا أن يؤسطروا التجربة كما فعل سعدي يوسف، ولا أن يؤسطروا التاريخ واللغة كما فعل أدونيس، ولا أن يهربوا من الدم إلى أسطرة الجسد كما فعل أنسي الحاج. ويبدو أن هذا الشلل عميق إذ يبدو أنهم لم يستطيعوا إعمال بريختية الماغوط والانتقال بها إلى ما بعد المقتلة. أي أنهم وجدوا أنفسهم بلا سورية. المقتلة كانت نقطة مكاشفة ومصارحة، نبّهتهم إلى أنهم أقاموا لعقود في اللاشيء والآن يقيمون في اللامعنى. ومن هذا الباب أجد نفسي سوريًا هنا، أي إني أتشارك معهم في العجز هذا، والإقامة معهم في مسار التحول مما كنت تظنه يومًا وطنًا وهوية، إلى الانسلاخ الكلي دون إمكانية أسطرته أو إعلائه، ولانتفائه عنك في حاضرك ومستقبلك. ومن هنا كان سؤالي لك سابقًا ما الذي نحمله معنا وما الذي ندفنه؟

ومن هنا يبدو لي التقاط اللحظة بواقعية هو ما يمكنني فعله، دون اللجوء إلى تعاريف كونية للقيم، أو للقول إني أصنع الجمال لأن الرمزي والمتخيل «مرتجّان» بفعل الانهيار في مستويات تعريفنا لأنفسنا وماضينا وانهيار موروثنا وثقافتنا.

هذا بالإضافة إلى إقامتنا في لحظة تقانة سحبتنا من العالم الذي كنا نعرفه، أو كما يستنتج صديقنا بلال خبيز من «العالم وهو يهجرنا». وبذلك لا أرى في الشعر متنًا يمكنني البناء عليه إلا عبر الواقعي ومحاولة قراءته باستكشاف لا بنبوءة، وهذا أيضًا ممر شائك، لأن هذا الواقع هو أيضًا مؤسطر وملغّز بفعل التقانة. وبالتالي يصبح الشعر في موضع ثقيل، أنؤسطر المؤسطر أم نقول ما نشاهده كمراقبين يتساءلون عن المعنى عوضا عن تعريف القيم؟

وفي كل هذا أجد أني أتكلم وأشير لما كتبته في «نزول الألفة» وفي كتابات لم أنشرها بعد. وهو ما ينبّهني إلى أنني أحيل هنا إلى نصوص لم تُقرأ بعد، وهي في مرحلة التحضير للنشر. ربما مع هذه النصوص الجديدة تصبح الصورة أوضح في كتابة الشعر انطلاقًا من الواقع لفهمه.

ثلاثية الأسطرة والميثولوجيا والنبوءة

ف.ع: ألحظ عددًا من المفارقات المثيرة للاهتمام في مداخلتك الأخيرة هذه، إذ يبدو لي أنك تربطني بتعريف أكاديمي للشعر لا أجد نفسي فيه لأنه يقيم «في كنفٍ ثابتٍ» على حد قولك، بل أجدني في ما كتبته في حوارنا هذا أقرب إليك في التساؤلات عما هو الحب والجسم والوقت والموت، وهو بحكم وجودي في الزمن تساؤل عن ماهيتها المتعيّنة في زمني ومن خلال تجربتي في البحث عما يسع الشعر قوله أو لا يسعه قوله (بحسب عنوان إحدى قصائدي) أو «ما كل هذا الذي نريد للشعر أن يلتقطه» بحسب قولك.

فادي العبد الله: الأسطرة عندي لا تتطلب جهدًا شعريًا خاصًا، عدا جهد تفادي الوقوع في المثيولوجيا والنبوءة

المفارقة الثانية أنك إذ تهاجم مُحقًا ثلاثية الأسطرة والميثولوجيا والنبوءة، أي «جعل النص نصًا تبشيريًا مدّعيًا تعريفاتٍ جديدة للقيم» لا تبدو لي مستعدًا للتخلي عن القيم، إذا اعتبرت أن إطلاق أسماء جديدة على القديم يستحق خطابًا نقديًا بهذا العمق، أو إذا كنت تعتبر أن تقديم تعريفات جديدة ليس في الحقيقة ابتكارًا لقيم جديدة. حين نعيد تعريف «الجمال» أو «الموت» فإننا نقدم، تحت الاسم نفسه، مسمّيات جديدة حتمًا، لكنها مسميات من خلال امتداد الاسم (أي من خلال اللغة التي لا نملك حديثًا ولا كتابة إلا بها) تدخل في حوار جدّي وعمليات فهم وإساءة فهم متعمدة وغير متعمدة مع الإرث الذي نودّ خلخلته والخروج منه إلى لحظة متناسقة مع زمننا.

المفارقة الثالثة ربما تنبع من أننا، أنت وأنا، نستعمل كلمة الأسطرة بمعانٍ مختلفة. بالنسبة لي، كل «تكبير» (بحسب المفردة التي استعملتها) لأي تفصيل هو أسطرة، أي هو رفع هذا التفصيل إلى مرتبة ما يستحق النظر إليه بمفرده. سواء كان درويش يتحدث عن الزيتون أو كان زياد الرحباني يتحدث عن الليمون أو كان سعيد عقل يتخيل صخرته الشاهقة. الأسطرة هي بهذا المعنى مختلفة جذريًا عن الميثولوجيا التي هي، على العكس، إدراج كل تفصيل في سردية كونية تسعى إلى ضمان فهمٍ له ولجذوره من خلال البنية الشاملة للسردية الكونية وهي بالتالي تغييب لهذا «التكبير». أما النبوءة الشعرية، بالنسبة لي، فمحض هذر يحاول إلقاء الهوامات الشخصية على الآخرين وكأنها استشراف التاريخ الآتي. بالمعنى الذي أقصده فإن الأسطرة منافية للنبوءة وللميثولوجيا، لكنها لا تنفصل عن عمل الشعر واللغة، إذ مادة الشعر هي المفردات، أي ما يفرد، وما يتم الإمساك به من معانٍ بواسطتها. لهذا لطالما (بعد سنوات المراهقة حتمًا) نفرتُ من الإنشاد الشعري، المطولات الغنائية التي تدّعي النبوءة أو التي ترسم ميثولوجيا، فمثل هذه المطولات هي التي تغطي دوماً سجون المعتقلات الشمولية وتغطي على صمت الحداد المطلوب بأهازيج تفرض معنى مسبقاً بدل أن ينبع المعنى من الصمت والتحلّق حول الجثة، بعبارة صديقنا وليد صادق. الأسطرة عندي لا تتطلب جهدًا شعريًا خاصًا، عدا جهد تفادي الوقوع في المثيولوجيا والنبوءة، هي تأثير حتمي للمفعول المكبّر للمفردات. لذا فاعتراضًا على اتهامك الضمني بتبني موقفٍ يقول «أنا أؤسطر إذًا أنا أكتب الشعر، إذًا أنا أصنع الجمال»، ربما أقول «أنا اكتب الشعر إذًا أنا أؤسطر، إذًا أنا أصنع ماهيةً للجمال، للجسم، للموت، للحب، متسائلًا عما يختزنه الصمت والبياض منهم».

أعتقد أن النقطة التي وصلنا إليها أخيرًا ترتبط بوظيفة الشعر نفسه، إذ حين ترفض أن يكون وسيلة فنية، أي حين تنفي تاريخ الشعر عن راهنيته، لست أدري ما الذي يبرر آنذاك كتابته كمحض انعكاس لـ«لحظة» الواقع، أو «التقاط الواقع» كما تقول إذ نعلم منذ زمن بعيد أن القصدية هي التي تشكّل وتحدد إمكانية التقاط الواقع نفسه، أي أن «الواقع في ذاته» غير موجود من دون تعاملي



معه (بالتالي من دون التجربة والتاريخ واللغة) كذلك نعلم من [جيل] دولوز أن الواقع والافتراضي لا ينفصمان. لذا، ومع موافقتي لك على مشكلة انفصال الشاعر عن قرائه وهي مشكلة تتعلق بالمساحة المتاحة للفنون في حياة الناس أصلًا وبمشاكل الوسط الثقافي والنقد واستعمالات اللغة...الخ، إلا أنني لا أستطيع القول بأن هدف الشعر هو أن يكون «كأداة قول ومحادثات وتواصل». الناس لا ينتظرون الشعراء كي يتواصلوا، ولا يتحادثون بالشعر إلا في وصفه اختزالًا لحكمة أو بالضبط «أسطرة» لتجربة.

فادي العبد الله: إن وظيفة الشعر، بعد أن تخلينا عن تجارب كاذبة في تفجير اللغة وعن تجارب التأتأة والايقاعات الفارغة، متعددة الأطر

في رأيي إن وظيفة الشعر، بعد أن تخلينا عن تجارب كاذبة في تفجير اللغة وعن تجارب التأتأة والايقاعات الفارغة (التي انتقلت إلى الراب ربما)، متعددة الأطر: محاولة الإمساك بواقع متغيّر عبر اللغة المثقلة بتاريخها أي تسليط حياة الشاعر على الكلمات لمحاولة انتزاع معنى جديد منها، محاولة الدفاع عن اللغة نفسها. أي عما اختزنته من إمساك بوقائع سابقة تبرّر إمكانية الاستمرار في استخدامها لئلا تموت في لامبالاة عارمة، محاولة الخروج من الحياة بـ«عالمٍ لا يكون أفتقر» حين نغادره على ما عنونتُ احدى قصائدي أيضًا، ومحاولة اقتراح ما يمكن للفرد فيه (سواء الشاعر أو القارئ) أن يرى فيه مبرّرًا للحياة يتجاوز البقاء الغريزيّ. هذا الاقتراح ربما أسمّيه الجمال في وصف الجمال هو المعبر الأساسي، منذ سقراط، بين عالم الوقائع وعالم المجرّدات (سواء سمّيتها قيمًا أو أفكارًا) أو قد أسمّيه «الروعة» وهي على ما تعرف تجمع البديع الرائع بالمهول المروّع.

إذا عدنا إلى مثال سفينة نوح الذي ذكرته، لن يتغزل أحد، صادقًا، بجمالية الطوفان، لكن أي كتابة عن الرعب من الغرق أو اليأس، أي صلاة، لن تنفصل عن تاريخ فني علّم الناس كيف يكتبون وبأي نغمٍ يرددون صلاتهم، وإذا تخيلنا منشدًا حسن الصوت عليها، فربما تكون صلاته عندئذ مسموعةً ويكون لنا في روعة الغناء ملاذ أخير في مواجهة طوفان لا قدرة لنا على الوقوف في وجهه، مثلما يحلم كثيرون بموسيقى معشوقة ووجوه حبيبة ترافقهم في لحظاتهم الأخيرة.

التقاط الواقع

ع. ش: أود أن أختم أولًا بشكرك على اقتراح النقاش وعلى دفعنا للخوض في الحديث عن الشعر في زمن مازال هناك من الشعراء من يقيم في مقارنة بين العمودي والموزون والنثر. أحسب أنني في ما كتبته هنا أحاول القول إن الشعر الذي أعرفه والذي في مكان ما يختزن تجارب ثقافتنا وتاريخها كما قلت أنت لم يعد بالنسبة لي قادرًا، إذا ما أردت كتابة على أنساقه التي نعرفها، أن يصلني بما أريد قوله عن الراهن والمستقبل.

لدي إحساس عارم أن قدرة هذا الشعر واللغة التي تصنعه على الاستعادة والمؤالفة صارت ضعيفة، وأنا من هنا أبحث فيه عن مساحة قول في التغرّب والمفاجأة تلتقط هذا «الواقع» كمحاولة لتحيينه وللنظر إلى المستقبل. وهنا مفارقة أيضًا في هذا، إذ كما قلت أنت إن الشعر عادة ما ينظر إلى الراهن والماضي ويحاول أن يبني جيب تنفس لنا، إذ أوافقك على هذا غير إني أيضًا أشعر بأنّ تحيين اللحظة والقول في المستقبل هو ما ينقصه الشعر، ولكن أيضًا دون نبوة. وقد تبدو هذه مفارقة أخرى، إني أبحث هنا عن سبل كتابة الشعر في راهن يتمدد ويتغير بسرعة كبيرة، إذ تبدو أنها لحظة لا تلتئم. وفي هذا ما قد يبدو استحالة ويقيم في المفارقات التي ذكرت بعضًا منها. ومن هنا يخرج اعتراضي على الأسطرة والميثولوجيا والنبوة في الشعر. إذ إني اتفق معك في رؤيتك عن الميثولوجيا والنبوة غير أني مازلت أبحث في الأسطرة الشعرية، إذ أرى في ردك لها إلى تكبير للإضاءة بحاجة إلى نقاش أوسع أو ربما كتابة شعر يأخذ هذا التكبير إلى مكان آخر.

أوافقك في أن التكبير هو سمة الشعر غير أنني ما زلت أبحث عما أُكَبِر وعما أتجاوز هنا. وفي هذا أرى أن اليومي الضاغط هو في حد ذاته مكبر ومرمّز وبهذا الاستواء المضاعف للمعنى أظن أن كتابة الشعر يمكنها أن تكون أداة مخَففة للمحادثة والتواصل في هذا التعقيد، أداة يمكنها أن تقيم في الذي نعجز أن نقوله في اللحظة التي تفارقنا في عنفها وسرعتها، في نقطة انقضائها وتحولها، دون أن نتنعم بها، ولكننا عندما نقول هذا لا نكون أنبياء بل ربما مجرد مقتفي أثر. وسؤالي أو بحثي هنا ربما يضارع إمكانية أن نجد في الراهن «كما هو» أداة للتواصل والبوح تكون خارج اقتصاد التكبير الذي يبدو لك (ولي) في أصل الشعر.

محمد عفيفي مطر

الشاعر الذي هرب من السياسة فلحقَته إلى السجن

صابر رشدي

كاتب وقاصّ. صدرت له «شخص حزين يستطيع الضحك» (٢٠١٤)، «الرجل القادم من الجنّة» (٢٠١٦)، «شوكولاتة نيتشه» (٢٠٢٠)

«كنتُ مشبوحًا وسلك الكهرباء على يدي، وكان برقٌ من وحوش الطير ينهش ظاهر الكفين، تنبش ثم تلقى. لا دمي يكفي ولا يكفي طحين العظم، فانظر هل ترى!! لا شيء يبقى من بلادك غير جِير العظم، هل وطنٌ سوى هذي المسافة بين لحمك في الجحيم وسلك الكهرباء!ناديتُ- بين تخلّع الرسغين والجمر المؤرِث في الأصابع- أيها الموتى، بحقّ قرابة الأشباح ودرويشٍ من الأموات يركض في سهوب الموت فانتظروا».

منذ عقدين تقريبًا، كنتُ هناك، في مقهى «زهرة البستان»، يجلس جواري شخص يواظب على الحضور إلى المكان يوميًا، يلعب النرد، ويشتبك مع الحضور من الكتّاب والمثقفين في حوارات ساخنة وقضايا شائكة. في هذا التوقيت، كانت المعلومات الحقيقية وراء كلّ خبر تجدها هنا، ما يدور في كواليس السياسة والصحافة وأروقة المؤسسات الكبرى، الأصداء تتناثر من دون تعثّر. كانت عناوين الصحف الحكومية المصرية لا تعكس الحقيقة دائمًا، فهي تخاطب قارئنا وحيدًا، الرئيس فقط، ويهمّها إرضاؤه. أمّا صحف المعارضة فتجنح إلى التهويل أحيانًا، لتلفت الأنظار إلى كارثة كبرى أو قضية فسادٍ لا تُغتفر. لم يكن هذا الشخص كاتبًا، لكنه كان مثقفًا، واسع المعرفة، لديه هوسٌ بالسياسة بشكل مفرط، يتجاذب أطراف الحديث بحماسة واضحة، متحاملاً على النظام بشكلٍ راديكالي يثير القلق عليه.

غضَب «العمّ»

في هذا اليوم تحديدًا، لمحتُ الشاعر الكبير محمد عفيفي مطر قادمًا، ثم وجدته يجلس إلى طاولة على الرصيف المقابل على غير عادته، وينظر إليّ بوجهٍ متكدّر، وجهامةٍ تخالف طبيعته. ثم وجدته يناديني، فنهضت من مكاني واتجهت إليه.

- اجلس هنا جواري!

قالها محتدًّا، وأضاف:

- ما الذي يجعلك تجلس إلى جوار هذا الرجل؟
- لم أفهم شيئًا. قلتُ متحيرًا:
- ما الأمر؟ هل أساء إليك؟

قال محتدًّا، محتفظًا بنبرة الغضب السابقة: هذا مُخبر، كاتب تقارير. هو من أبلغ عنّي وتسبب باعتقالي.

لم أرَ «عمّ عفيفي» على هذه الصورة من قبل، فهو صاحب صوت خفيض، وأداء هادئ، غير منفعل، في معظم أحاديثه وحواراته. ربما كانت التجربة الأليمة والدامية، وحجم الإهانة والتعذيب اللذين تعرّض لهما أثناء اعتقاله، قد جعلاه أقلّ تسامحًا، أو ميلاً إلى النسيان مع الأشياء التي تخصّه. صار أكثر ارتيابًا من ذي قبل، صَموتًا، لا يميل إلى الاستفاضة في موضوعات معيّنة. لقد أشار إلى أكثر من شخص، ووضعهم في دائرة الخصوم، متهمًا إياهم بالوشاية به، حتى وصل به الأمر إلى اتهام أحدهم بأنه كان يشرف على تعذيبه في مقرّ أمن الدولة بـ«لاظوغلي»، وأنه استمع إلى صوته وهو معصوب العينين، أثناء استجوابه من قبل المحققين.

لقد كان اعتقال مطر حدثًا شهيرًا، جاء بعد إعلان غضبه على صمت النظام عن التدمير الأميركي المروّع لـ«ملجأ العامرية» في بغداد، أثناء حرب الخليج الثانية، والذي راح ضحيته أكثر من أربعمئة من أطفال ونساء العراق، وتحوّل المكان إلى مقبرة جماعية، إثر قصفه بوحشية مفرطة، بعدما ظنّوا أنهم في مأمن من الغارات المخيفة. على أيّ حال، لم يترك المثقفون المصريون والعرب، حينها، الشاعرَ وحده، تم الضغط بالبيانات والمقالات وأشكال التضامن القوية، حتى تمّ الإفراج عنه.

على الجانب الآخر، هناك مخبرون بالفعل، يندسّون وسط تجمّعات المثقفين، يكتبون التقارير ويقومون



بالوشاية، ويبالغون كثيرًا في تقاريرهم لاستثارة السلطة. هؤلاء يخرّبون تمامًا العلاقة بين الكاتب الضحية والنظام، فتُغلَقُ دونه الأبواب وهو لا يدري، لا قرارَ مكتوبًا، فقط، توجيهات شفوية: لا جوائز، لا مِنح، لا مناصب ثقافية، لا سفريات، لا شيء، مهما كان حجم موهبته. أحيانًا، نتيجةً لهذا الضغط اللامرئي، يقع البعض بين أنياب الاكتئاب والإحباط والاختفاء التدريجي، مفضّلين اللجوء إلى الصمت. وهناك من يفقد عقله، ولا يلجأ إلى التفكير النقدي، تاركًا الاستعارةَ والرمز، ميّالاً إلى التعبير الصريح المباشر، مستغرقًا في مغامرة جنونية، يغذّيها حسّ عدمي، انتقامي، غير مكترث بالعواقب، في صراع مرير مشحون بالتناقضات، قائمٍ على التعبير عن الأنا المتمرّدة، بأيّ وسيلة، بصرف النظر عن خطورة هذه الأفعال.

محمد عفيفي مطر، الذي حاول الابتعاد بقصيدته عن السياسة، وجد نفسه غارقًا فيها حتى أذنيه، مكرهًا، وعلى غير إرادته. دخل في تجربة أليمة، سطَرَها في واحدٍ من أكثر أعماله شهرة «احتفاليات المومياء المتوحشة»، راصدًا دقائقَ محنة اعتقاله، ناظمًا باللغة الفيّاضة الدينامية آلامه وانهياره، من دون أن يخرج عن فنّ الشعر. أنشأ دفتر يومياتٍ للتعذيب والقهر. كان يثأر بالكلمات حتى تحتفظ بها سجلات الذاكرة العربية، على نحوٍ يجعل القارئ شاهدًا معه، ومعذّبًا بالفعل، لا يستطيع إنهاء الديوان من دون أن يشعر بالتحطم.

«كان جلّادٌ بكعب حذائه يهوي عليّ فطقطقت ضلعٌ ولعلعت الرصاصةُ فارتمى وارتميت أنا وليس لي من وطن سوى هذا الرماد» (لاظوغلي، ثالث أذان الفجر، الموافق ١٩٩١/٣/٤)

على هذا النحو، كان يؤرّخ لضربات الجلّادين، فاضحًا الجانب المظلم للديكتاتورية، ومعبّرًا عن اللحظات القاتمة قبل هذه المحنة بفترة زمنية.

كنت أشاكسه:

- -لا توجد هناك قضايا كبرى في أشعارك.

يصمت قليلاً. ليردّ بعدها بإيجاز، حاسمًا موقفه:

- قضيتي هي كتابة الشعر الجيد، ألا يكفي؟

كنت أتصور وأنا أجادله أنه سيلقّنني درسًا في الالتزام السارتريّ والتلميحات الثورية، المبثوثة داخل بنية نصوصه، متهمًا إياي بأني لم أستطِع التقاط هذه الإشارات الخفيّة. كان يحتمل مشاغباتي، المفعمة بالتقدير والمحبة. كنت أقول له:

- قصيدتك «معقربة» ولكنها تستهويني.

وكان يردّ بابتسامة صامتة، فهو في الواقع يتعمّد أحيانًا الغموض الاستاطيقي، واستخدام شحنات فلسفية خالصة،



لقطة من الفيلم التسجيلي «رباعية الفرح - محمد عفيفي مطر» للمخرج أحمد القلش.



وإنْ حاول أن يجعلها تتوارى خلف نقطة بعيدة، حتى لا تطفو على سطح القصيدة، فهو لا يعتمد على الإلهام كثيرًا في عمله، إنه صنيعة ذاته، مطيعًا لأفكاره التي تدفعه إلى الكتابة، وفق أسلوب كاتدرائي، بالغ الفخامة والتعقيد، يحتاج إلى صبر ودقة وقدرة على الإحساس بالجمال الكوني في اللغة والوجود. ما جعل محاولات تقليده بالغة الصعوبة، أنّه يعتمد تكتيكات فنّية لا يستطيعها غيرُه، مهما بلغ حدّ الهوس به. لذلك باءت بالفشل كلُّ محاولات استنساخه أو تقليده.

حياتي مغسولـــــــــــة بعرقي، ولقمتي من عصــــــــارة كدحي، لم أغلق بابًا في وجـــــه أحد ولم أكــن عونًا على كذب أو ظلم أو فســـــــاد

إنه يحدّد مطلبه مبكرًا:

«عشقتُ الشعر من أيامي الأولى/ وغاية مقصدي: لو صرتُ بين السادة الشعراء...»

إنه يتطلع إلى هذا العالم الساحر، مفعمًا بالفخر، وبنبرة انبهارٍ بفرسانه، يريد أن يحرسهم، يذود عنهم ما يعيق تقدّمهم، حتى يتفرّغوا إلى قصائدهم، إلى كؤوسهم، خمرهم العتيقة التي تلهم قرائحهم بهذا الجمال.

على الرغم من المكانة الرفيعة التي حازها عفيفي مطر، وموهبتِه القائمة على عالم ثريّ من الثقافات المختلفة، إلا أنه كان إنسانًا متواضعًا، خلوقًا، لا يمارس نرجسيةً مقيتة، أو تطاوسًا فجًّا، مثل البعض ممّن هم أقلّ منه تأثيرًا. كان يحتفظ بروح فلّاح مصري، يعشق الأرض ويحمل الفأس طوال الوقت. في جلساتنا، كان لا يتناول غير الشاي الأسود الثقيل، والسجائر المحلية الرخيصة. في سنواته الأخيرة، كان يتحدث مَمرورًا وحزينًا عن عدم حصوله على جائزة الدولة التقديرية، في الوقت الذي حصل عليها كثيرون أقلّ منه، بل هناك من لا يستحقونها على الإطلاق، ولتكريمهم أسبابٌ لا تنتمي بكلّ تأكيد إلى الجدارة الثقافية. كان يشعر بغصّةٍ في القلب ووجعٍ حقيقي، شاعرًا بأن الرحلة قاربت على النهاية، ومرعوبًا من أن يُكتب في نعيه أنّ المرحوم حصل على «جائزة الدولة التشجيعية» فقط، لأنّ هذا شبيه بالإهانة لا التقدير، خاصةً بعد هذا الإنجاز الشعري الكبير.

لكنّ هذه المرارة تلاشت بعدما حصل على الجائزة تحت ضغط الحَرَج وعدم المعقولية، من أن تمر الأعوام ولا يظهر اسمه بين الفائزين، فهو الوحيد من جيله الذي دفع ثمن كراهية نظام مبارك، متحدثًا في جلساته عن فساده وديكتاتوريته، دافعًا ثمن عدم انتظامه في سلك مدّاحيه.

الأمر الثاني بدا كطعنة مسمومة في الظهر، مسرحية تراجيدية، أبطالها مجموعة من قطّاع طرق، وكان هو الضحية؛ اختطاف جائزة مؤتمر الشعر منه في واحد من أسوأ مشاهد الثقافة العربية، وأكثرها غرابةً ومدعاةً إلى الاستياء، فعلها شاعرٌ متقاعدٌ نسيَ الشعر وتجاهلته القصيدةُ منذ عقود، واحدٌ من هؤلاء الذين أخذوا كل شيء، مقابل عطاء ضئيل وموهبة نضبت بعد وقت قصير من بدايات كانت مبشرة. يقول مطر بعد هذه الفضيحة المدوّية «من يضمن لي العيش أربع سنوات أخرى حتى أحصل على هذه الجائزة التبادلية؟ عامٌ للشعر وعامٌ للرواية. فائزٌ مصري وفائزٌ عربي. بالتبادل أيضًا في كل فرع». لا أعتقد أن الرجل برأ من هذه الطعنة الغادرة حتى وفاتـــــه.

عفيفي مطر، دارسُ الفلسفة، وصاحبُ أنضج التجارب في الحداثة الشعرية، كان لا يدّعي بطولات مطلقة، أو يحاول الإيهام بنبوغ مبكر، لا يزيّف الوقائع من أجل إضفاء إحساسٍ بالثراء والدّعة. من يقرأ سيرته الذاتية الرائعة «أوائل زيارات الدهشة» سيلحظ بسهولة بساطته الآسرة وهو يتحدث عن المحطات الصغيرة الفاصلة، التي كان لها الأثر البالغ في تكوينه، الذكريات العصية على النسيان، ملخّصًا مشوار حياته في عددٍ من المراحل المفصلية، حتى لو كانت هناك نقاط قاتمة مثيرة للألم.

إنه ابن الإرادة الإنسانية، التي ترادف الحرية في اكتمالها، وتنفي الجبر المطلق، فهو قد عرف كيف يغالب نفسه لا الحظ، منشغلاً بتغيير نفسه لا تغيير العالم، يفعل ما يقدر عليه، بما يتّفق مع طبيعته وثقافته العميقة. كان يؤمن- مع كثيرين- بأنّ ذهاب الاستعمار لم تخلفه أنوارُ الحرية، وأنّ الوطن العربي قد وقع في قبضة مجموعة من الحكام الطغاة المستبدين الذين جلبوا الدمار لشعوبهم. باختصار، هو واحد من الذين أعادوا إلى لغة الشعر فصاحتها، أمام تيّار ينحو بها إلى الركاكة والتهافت، بما هو شاعر حذر ومحصّن ضد الثقافة السطحية. يقول محمد عفيفي مطر في جملة ختامية:

«حياتي مغسولة بعرقي، ولقمتي من عصارة كدحي، وكريم استحقاقي، لم أغلق بابًا في وجه أحد، ولم أختطف شيئًا من يد أحد، ولم أكن عونًا على كذب أو ظلم أو فساد. اللهم فاشهد».

هي بيروت من جديد

إتيل عدنان

(١٩٢٥-٢٠٢١)
روائية وشاعرة ورسامة ومؤلفة مسرحية من سورية ولبنان. من أعمالها المترجمة إلى العربية: «الستّ ماري روز»، «سفر الرؤيا العربي»، «عن مدن ونساء. رسائل إلى فواز»، «قصائد الزيزفون»، «باريس عندما تكون عارية»، «في قلب قلب مدينة أخرى»

هي بيروت من جديد
بيروت على الراديو
والسلفادور على التلفزة
هي صبرا وشاتيلا في الذاكرة
و«أوصولاتان»* في القلب
هي بيروت من جديد
عندما اعتقدنا أن بيروت
قد خلدت للراحة
لكن بيروت لن تنام
حتى تنام السلفادور
وسان فرانسيسكو لن تتناول الطعام
حتى تشبع إريتريا
ولن تموت السلفادور
هي بيروت من جديد
في ماناغوا، في آنتيغا
وفي مدن الصفيح في مارسيليا
وهي حيثما يزعق الراديو
وأعني أينما كان
في هذا العصر الإلكتروني
يتعذب رجل الكهف في أحشاء السلفادور
لكنْ ثمة أنفاق تقود إلى مقر القيادة العامة للأمل.
يوجد أمل في السلفادور
لأنه يوجد شعب،
يوجد أمل في السلفادور
لأن الكرامة لها اسم
هنا،
لأن الشر عظيم وداهم
هنا،
حتى صار القساوسة اليسوعيون
ثوارًا لأول مرة في التاريخ.

هي بيروت من جديد
في ذلك اليوم وهذا اليوم وكل يوم،
لأن الشعب الكادح يعمل كل يوم
ولأن الموز والمانغا
يخوان كل يوم،
لأن الشمس تشرق بعناية
كل يوم
تحت القذائف،
يولد الأمل في كل يوم
في شرايين
السلفادور النازفة
ويولد مسيح مخلّص**
في مكان ما هناك،
ويرتقي هيكل آلهة الهنود الحمر،
مخلّص سوف نؤمن بقيامته
فقط عندما جميع شعوب الأرض
وكل النباتات
وكل الحيوانات
وكل الأكوان
تحقق قيامتها
والقيامة كرامة
أعني
الكرامة حرية
القيامة للفقراء خبز وبيت
القيامة سلام للجميع
إلى الأبد
إلى الأبد

* أوصولاتان: بركان في السلفادور
** السلفادور بالإسبانية تعني المنقذ أو المخلّص



هي بيروت من جديد
لأن دور الأيتام تنمو بأسرع من نموّ
المدارس
في السلفادور،
والشمس تغيب حيث لا تطاولها أيدي
الشعب.
وما من أفق غير أفق الإرهاب.

هي بيروت من جديد
لأن البحر انتصب واقفًا
وأطلق ابتهالات لا متناهية
هي بيروت من جديد
لأن الشعراء يموتون
ولا يستسلمون
لأنهم يتحدثون عن الأمل
ولا يتقلّدون كلماتهم
مثل قلادات من اللؤلؤ،
لأن الشعراء يرفضون أن يموتوا،
يحملون أملهم على ظهورهم
ويتنقلون من بابٍ إلى باب
مثلما النحل من زهرةٍ إلى زهرة
ليوزّعوا رسائل التحدي
على قلوب الناس.

وهي بيروت من جديد
ماء في الأفق
مقابر مكتظة أكثر من فنادق
طائرات تحمل من الأخبار أبشعَها
ومواكب لا تنتهي من الحزن

وهي بيروت من جديد
لأنّ الناس يتراكضون
لتبقى بطونهم وعقولهم
منتظمة في الطابور
يحملون شرفهم،
متاعهم الوحيد،
ويعدّون موتاهم
مثلما تعدّ القروش
في مدن السلطان.

وهي بيروت من جديد
لأن الناس يتمتمون صلواتهم
على أمل أن تصل إلى مسامع مريم
العذراء
والناس يعلمون أنهم واقعون في الفخ
ويتذكرون غطاء طاولة السفرة
ووجبة الطعام هناك في البيت،
قبل أن ينتهوا إلى المشرحة.

وهي بيروت من جديد
آباءٌ يقتلون أبناءهم
وأبناءٌ يدفنون آباءهم
قبل أن يشوّه الذباب ملامحهم.

وهي بيروت من جديد
عندما كانت المصارف وحدها الحيّ الباقي
المال يتكاثر
كلّ ثانية
بمعدل تكاثر عدد الجرحى

وهي بيروت من جديد
تفتح سماؤها صدرها الوسيع كلّ ثانية
لتستقبل الأبطال المجهولين
الطالعين من شوارع السلفادور

(١٩٩٠)



نهوند

حوار مع الموسيقي إيلي معلوف
في عشق البزق و«تعريب البيانو»

إيلي معلوف

مؤلف موسيقي وعازف بيانو وبزق وآلات أخرى، لبنان- فرنسا. هاجر إلى فرنسا عام ١٩٨٩. له أسطوانة واحدة من إنتاجه هي «عبر الحياة» (٢٠٠٧)، بالإضافة إلى عشرات الأعمال والأسطوانات مع عدة موسيقيين وفنانين من مختلف أنحاء العالم

حوار زينب سرور

من زحلة إلى العالم

لم تكن الانطلاقة الموسيقية يسيرة. خلال الثمانينيات، بدأ الدراسة الموسيقية بمفرده وبمجهوده الشخصي. واجه العديد من العوائق على رأسها عدم وجود معهد أو مدرسة للموسيقى خلال تلك الفترة في مدينة زحلة، مسقط رأسه. حتى الأشخاص المستقلّون الذين كانوا يقدّمون بعض دروس البيانو لم يكونوا أساتذةً محترفين.

تمثّل ثاني المشكلات في عدم امتلاك معلوف بيانو حينها، ما صعّب جدًّا عمليةَ متابعة الدروس. لكنّ حماسَه وتصميمَه وشغفه لعزف الآلة جعلت المستحيل ممكنًا. ولم يحصل على أول بيانو حتّى بلغ السادسة عشرة من العمر بعد أن كان بدأ العزف في عمر التاسعة، وكان قد بدأ حينها تعلّم الموسيقى في مدرسة Ecole de musique et des arts techniques في منطقة جونيه، إلا أنه لم يتمكن من إنهاء العام الدراسي بسبب تأزّم الحرب، فترك البلاد إلى فرنسا عام ١٩٨٩.

ليست الصورة سوداويةً بالكامل، فغياب التعليم الأكاديمي الموسيقي في صغره وعدم وجود من يعينه على قراءة العلامات الموسيقية بشكل جدّي، جعلاه يتّكل إلى حدٍّ كبير على حاسة السمع وتطوير أذنه الموسيقية، كما أنه اكتشف مع الوقت أنّ تلك العوائق فتحت أمامه الخيال الموسيقي.

الانتقالُ من بلد شرقي إلى آخرَ غربي وتمازجُ المشارب الموسيقية لديه، أبعداه عن التساؤل الدائم عن معنى «الهوية» والموسيقى التي ترافقها. الهوية قابلة للاختيار والتكوين، إذ نأخذ ما عشناه خلال طفولتنا في المكان الذي تربينا فيه، ونكوّن مع الزمن هويتنا حسب أذواقنا واختياراتنا. وهويتنا الشرقية نحملها بداخلنا على الدوام، ومع مرور الوقت تطفو على السطح تلقائيًّا. عندما انتقل إلى فرنسا في عمر السابعة عشرة، لم يُعِر الموسيقى الشرقية كثيرًا من الاهتمام، وصبَّ أكثرَ تركيزه على الموسيقى الغربية (لأن الهدف أن يصبح pianist)، فدرس الموسيقى الكلاسيكية ثم الجاز. لكن مع الوقت، بدأت تطفو «الهوية الأم»، إذا صحّت التسمية، على السطح، وبدأ يعي أنّه يمكن فهم هذه الهوية بشكل أفضل في أوروبا بسبب وجود الكثير من الموسيقيين الشرقيين الجيّدين فيها، مع أنه لم يدرس الموسيقى الشرقية مع أحد في فرنسا. وقد ساهمت الأسطوانات الشرقية التي كان يستعيرها من مكتبات فرنسا الموسيقية في تكوين وإبراز هويّته. ولم تنحصر تلك الأسطوانات في العالم العربي، بل شملت كامل الشرق الأوسط والأدنى والأقصى، فتعرّف منها إلى موسيقى آسيا الوسطى وإيران وتركيا ومختلف الدول العربية وموسيقى القوقاز وغيرها.

كلاسيك وجاز وارتجال

على الرغم من شغفه بالموسيقى الكلاسيكية ومن كونها جزءًا من حياته اليومية، لم يختر متابعتها في مسار عمله الموسيقي، واختار التركيز على موسيقى الجاز ومؤلفاته الشخصية. تحتاج الموسيقى الكلاسيكية إلى دراسة تبدأ في سنّ صغيرة، الأمر الذي لم يكن متاحًا له. لكن السبب الأساس للتوجه نحو الجاز وأنواع أخرى من الموسيقى والابتعاد عن الكلاسيكي كان حاجته إلى إخراج موسيقاه وأفكاره النابضة.

تزامن الانتقال إلى فرنسا نهاية الثمانينيات مع وجود عددٍ من الموسيقيين الكلاسيكيين الكبار الذين كانوا على قيد الحياة. خلال السنوات اللاحقة، بدا هناك تغير على مستوى تلك الموسيقى، كان ذاك الجيل من الموسيقيين قد احتكّ مع المؤلفين الكبار أو تلامذتهم، كما كان للموسيقيّ الكلاسيكي شخصية وهوية مميزة يتمكّن المستمعُ اليقظ من معرفة هوية الموسيقي عبر عزفه من دون معرفة مسبقة بهوية العازف. أما اليوم فتبدّلت الأحوال وأصبحت هناك قلّة من العازفين الكلاسيكيين الذين يمكن التعرف إليهم من خلال بضع جمل موسيقية.

لكنّ الموسيقى الكلاسيكية ليست «جامدة»، فالموسيقى، أيًّا كان نوعها، أمرٌ حيّ، وما يُثبت ذلك أنّ كلّ عازف يمكنه تقديم عملٍ موسيقيّ مكتوب منذ ٤٠٠ عام بطريقة تختلف عن الآخر. بالطبع، لا يمكن تغيير النص في الموسيقى الكلاسيكية، لكنّ فكرة الارتجال فيها تبدّلت مع الزمن. لقد كان الارتجال جزءًا من عمل الموسيقيين الكلاسيكيين الكبار الذين كانوا يعزفون على أكثر من آلة وكان الارتجال جزءًا من حياتهم اليومية. خلال حقبة موزارت مثلًا، كان يتم الارتجال في بعض المقطوعات، خاصةً في كونشيرتو البيانو، إذ كانت تُرتجل الـCadence في آخر الحركة الأولى بالكونشيرتو. أما اليوم فأصبح من النادر إيجاد موسيقي كلاسيكي يرتجل، وصارت هناك معاهد تحدّدت فيها كلُّ هذه الأمور.

إن القدرة العالية على الارتجال وحريةَ التعبير في الجاز من أكثر العوامل التي دفعت معلوف إلى اختيار تلك الموسيقى على نحوٍ احترافي، ففي الجاز يمكن تغيير التوزيع بشكل مطلق، بينما في الموسيقى الكلاسيكية لا يمكن التغيير بالنص. أما اختياره الجاز فكان لقدرته على إبراز الكثير من الشخصية الذاتية بالإضافة إلى علم تمازج الأصوات (الهارموني) كما جذبه «الجاز مودال»، الذي يتبع نوعًا من المقامات، مشيرًا إلى أن الفرصة سنحت له للدرس مع برنار موري (Bernard Maury)، أحد أهم أساتذة الهارموني المودرن في فرنسا ومؤسس أكاديمية Bill Evans في باريس.

الارتجال مسألة «طبيعية» لديه لأنه بدأ العزف على البيانو بشكل منفرد، فكان يستمع إلى مقطوعاتٍ ويرتجل منها، والارتجال يكون أيضًا من دون الاستناد إلى مادةٍ ينطلق منها. وقد عززت ثقافتُه الشرقية، وما تحويه موسيقاها من تقاسيم وارتجالات، قدرته على الارتجال في الجاز.

في الحديث عن الارتجال، يفنّت وهمًا شائعًا لدى الناس بأنّه مطلق، فهو يتشكّل من حزمة الخبرة الكاملة التي يكوّنها الموسيقيّ عبر السنين. هناك نوعان من الارتجال؛ الأول لا يحدّه قالب لكنّ تحقّقه يشترط أن يكون العازف وحيدًا، ولكن ما أن يصبح هناك عازفان ضمن المعزوفة ننتقل إلى النوع الثاني الذي يتطلّب نوعًا من القانون، إذ لا يمكن لعازفَين الارتجال بشكل عشوائي، فالارتجالُ، وإنْ كانت الحريةُ من سماته، تحكمه قوانين. وكلّما كان الموسيقي أكثر اطّلاعًا على تلك القوانين وأكثر احترامًا لها، «جوهَرَ» عمله الموسيقيّ أكثر.

أما الارتجال على المسرح، بين آليّة ضبطه وإطلاق العنان له، فعادةً ما يُعزف فيه اللحنُ الأساسي، المؤلَّف، ومنه يَنطلق الارتجالُ لتُختَتم المعزوفة بالعودة إلى اللحن الأساسي. وفي الجاز هناك نظامان للارتجال: نظام يأتي على شكل هيكل مكتوب يتبعه العازف، لكن الارتجال يكون فيه بشكل دائري مع طاقةٍ وعزفٍ مختلفَين في كلّ دورة، وفق الهيكل نفسه. ويمكن للارتجال أيضًا أن يكون وفق «الجاز مودال»، الموسيقى التي تتّكل على مقام، فتُعزف الموسيقى على المقام نفسه لفترة طويلة أو يتمّ الانتقال من مقامٍ إلى آخر ولكن ليس وفق هيكل هارموني، أو وفق هيكل هارموني أوسع.

أما نجاح الارتجال بين آلاتٍ من أجناسٍ وثقافات مختلفة فيرجع إلى الموسيقيّ نفسه، فإذا كان عازف الدرامز يشارك عملاً مع عازف آلة شرقية ويحملان الثقافةَ نفسها، نجد الكثير من الانسجام. ونجاح الارتجال بين آلتين من أفقين مختلفين، كالبيانو والبزق مثلًا، يتطلّب من عازف البيانو أن يكون على معرفةٍ بالآلة الأخرى كي يكون هناك انسجام، فالبزق آلة تقليدية، وعادةً لا يملك عازفو الآلات التقليدية اطّلاعًا كافيًا على آلات من ثقافات أخرى، فقد تجد عازفًا ماهرًا على آلة تقليدية، لكنه عندما يخرج عن الأسلوب الذي يألَف تراه تائهًا عن الحوار مع آلات من ثقافات مختلفة، علمًا بأن الجيل الجديد على اطلاع أوسع على الموسيقى العالمية. أما البيانو فيتميّز بعالميّته وإمكانية عزف أيّ نوعٍ من أنواع الموسيقى عليه، وهو موجود في كلّ البلدان، على عكس الآلات التقليدية ذات الانتشار المحدود.

البزق

لدى معلوف أيضًا شغفٌ في الموسيقى الشرقية. وقد تمّ اللقاء مع البزق في عمر الخامسة والعشرين. لكنّ هذا الشغف تطوّر لديه منذ الصغر، إذ كان يسهر مع الأهل والأقارب والأصدقاء في كروم زحلة خلال الصيف، يعزفون الموسيقى الشرقية. مع الوقت، تطوّرت اللقاءات، فصار الأصدقاء في زحلة يعزفون على آلاتٍ وترية، ومنهم المرحوم ربيع حداد، صانع الأعواد والعازف البديع في زحلة. وحوالي العام ٢٠١٥، جمع معلوف في كروم زحلة أكثر من أربعين موسيقيًّا من كلّ مناطق لبنان.

وهو يلاعب البزق بطريقة مميزة غير تقليدية. عن ذلك يقول إنه يجبّ في الآلات التقليدية أن تتقدم وتتطور على الدوام وألّا ينحصر العزفُ عليها بشكله البدائي، مع الحرص في الوقت نفسه على الحفاظ عليه من دون أن يمنع التطوير. وقد ساعده كونه عازف بيانو في سماع نغمات مختلفة تخرج عن النطاق التقليدي في عزفه على البزق. تكمن صعوبة البيانو في أنّ تقنيته معقّدة للغاية كي ينجح العازف في إخراج الصوت الذي يرغب منه. لكن ما يثير الاهتمام لدى عازف البيانو عندما يعزف على آلة وترية أنه يضع إصبعه مباشرةً على الوتر، فلا يضطرّ للمرور بكلّ تلك التقنية المعقّدة. ومن الأمور اللافتة للاهتمام أيضًا في التعامل مع الآلتين، أنّ البزق آلة قابلة للحركة، يمكن حملها

والتنقل بها، بينما البيانو آلة لا يمكن تحريكها بسهولة، لا تأتي إلى العازف، بل عليه التوجه إليها.

لنبرة البزق أيضًا أهمية خاصة لديه. ولا ينحصر فهمُه للآلة في إتقان عزفها، بل يتعدّاه إلى صناعتها. ولديه ولعٌ في صناعة الآلات والخشب منذ بدء اهتمامه بالبزق، وقد عمل مع العديد من صانعي تلك الآلة وغيّر أفكار العديد منهم حول صنعتها. يوضح معلوف أن إهمال صناعة البزق يؤدّي إلى خروج نبرة معدنية مزعجة من الوتر لم نكن نسمعها لدى عازفي البزق القدامى مثل محيي الدين بعيون وأمير البزق محمد عبد الكريم، ومطر محمد. ويبدي انزعاجه من تقنية «الرشّ» طوال الوقت لدى الكثير من عازفي البزق الحاليين. ويشير إلى أن البزق ليس آلة تركية كما يظنّ كثيرون، بل آلة عربية مستوحاة من الآلات التي وُجدت خلال الحقبة العثمانية في منطقتنا، والتي نفسها أتت من آسيا الوسطى، مشيرًا إلى أنّ كلّ منطقة آسيا الوسطى تحوي أعوادًا ذات زند طويل. وقد استُعمل البزق خلال الفترة العثمانية ضد العثمانيين أنفسهم ضمن أغان مثل «والعصملّي بده يفلّ وتطلع براسه الفلّة»، كما ذكر عاصي رحباني في فيلم «سفر برلك».

البزق ليس آلة تركية كما يظنّ كثيرون، بل آلة عربية مستوحاة من الآلات التي وُجدت خلال الحقبة العثمانية في منطقتنا

«بيانو-كونترباص»

حتى اليوم، لم يصدر معلوف باسمه سوى أسطوانة واحدة ومن إنتاجه الشخصي بعنوان «عبر الحياة» عام ٢٠٠٧، إلى جانب أكثر من ١٥ أسطوانة سجّلها مع آخرين. يحيل عدم إصدار أسطوانة ثانية إلى كلفتها المرتفعة وصعوبة بيعها اليوم. ومع ذلك، هو مؤلفٌ نهِم. وقد تألّفت الفرقة التي عزفت الأسطوانة من بيانو وكونترباص وجاز درامز، بالإضافة إلى إيقاع شرقي وساكسوفون سوبرانو، وكان عازفُ الساكسوفون يعزف أيضًا على الناي والفلوت.

منذ فترة، يصبّ اهتمامه على ديو يقتصر على البيانو والكونترباص. وعلى الرغم من أنّ بعض المعزوفات على مسرحه جمعت بين الآلتين، لم يسبق له أن خصّص حفلةً كاملةً لهما فقط. يصف العلاقة بين الآلتين بـ«الحِلْف الذي فيه نوعٌ من الحميميّة والذي يحتاج إلى تركيز سمعي». خلال الصيف الماضي، عزَف مع عازف الكونترباص مارك بولانجييه وكان هناك انسجام كبير بين الاثنين، وذلك ضمن فرقة Hamra - Ginza Quartet المؤلفة من أربعة موسيقيين، قدّمت مؤلفاتٍ لمعلوف وللعازف الياباني الأصل هيديهيكو كانْ، وضمّت الفرقة أيضًا عازف الفيبرافون فلوريان بلكور. وقد شاءت الصدف أن تولّى بولانجييه مركز أستاذ كونترباص في المعهد الذي يدرّس فيه معلوف، فصار الاثنان يتمرّنان معًا كل أسبوع، وأصبح هناك برنامج جاهز لعرضه على المسرح.

وعن المشاريع الأخيرة، قام معلوف بجولة موسيقية امتدّت على مدى شهر تشرين الثاني/ نوفمبر في فرنسا شملت عشرين حفلة. تمّت الجولة التي جمعت بين الموسيقى والمسرح ضمن فعاليات مهرجان Festisol في منطقة Bourgogne-Franche-Comté وموضوعها الهجرة والاختلافات بين الناس. عزف معلوف على البيانو والإيقاع والبزق وتولّى التوزيع، وشاركه ماتياس شبل، الأرجنتيني من أصول لبنانية، الذي يغنّي بسبع لغات منها العربية التي لا يجيدها ولغة خاصة بسكان الغابات، ومارك فورشان الذي يعزف على الساكسوفون والكلارينيت والفلوت. كما ألّف الموسيقى التصويرية لفيلم «عَ مفرق طريق» للمخرجة لارا سابا.

البيانو الجامع

وكما هو الحال مع ديو «الكونترباص- البيانو»، يحبّ معلوف مزج البيانو مع آلات من آفاق موسيقية أخرى، ومنها آلةُ الكمانتشة الكلاسيكية التركية هي واحدة من الآلات الأثيرة لديه. يوضح وجود عدة أنواع وأشكال من هذه الآلة التي تختلف باختلاف البلد ويبدي إعجابه بآلة الكمانتشة الإيرانية. تعاون معلوف مع ندا آتيش، المغني وعازف الساز التركي، وكانت الكمانتشة حاضرة في المشروع. وهو يعدّ مشروع عمل مشترك مع الموسيقي التركي ديريا توركان، أحد أفضل عازفي الكمانتشة.

منذ عدة سنوات، خطرت على بال معلوف فكرة عفوية عن إصدار أسطوانة تجمع عدة بلدان؛ من بلاد القوقاز وآسيا الوسطى وإيران وتركيا وغيرها، وأن يكون البيانو صلة الوصل بينها. حاول من خلال الفكرة جمع هذه الثقافات الموسيقية لتلك الشعوب المتناحر بعضها مع البعض الآخر. وتمحورت الفكرة حول سفره مع فريق صغير إلى كل بلد من تلك البلدان حيث يتمّ تسجيل ريبورتاج وأغنية خاصة بالبلد مع مغنٍّ منها. ولأنّه يملك ثقافة واسعة عن موسيقى تلك البلاد، ولأنه يعرف مغنّين من تلك المناطق ولمن عليه توجيه المشروع، لم يتوقع وجود مشكلة على مستوى التنفيذ، لكنه اصطدم بعوائق عدة على مستوى الإنتاج. يعقّب بأنه ربما كان عليه عرض المشروع على منظمة دولية، كالأونيسكو، بسبب صبغته العالمية، موضحًا في الوقت نفسه أنه لا يعرف كيف يرسل «ملفّات»

لطلب المساعدة في الإنتاج الموسيقي، في وقتٍ أصبح مطلوبًا من الموسيقي تخصيص أغلب وقته لنسج العلاقات وطلب المساعدات، والقليل من ذاك الوقت للموسيقى، ويقول «ما زلت أرفض هذا الموضوع. أحاول ألّا أتلوّث كليًّا في هذا العصر».

«هاربسي- شرقي»

ولمعلوف شغفٌ خاصّ بموسيقى عصر الباروك. يهوى من آلات ذاك العصر الهاربسيكورد والڤيول والثيوربو، عود الباروك المستوحى من العود العربي. وله رأي في أثر المنطقة الجغرافية على الأعمال الموسيقية، فلو أنّ الموسيقي الفنلندي جان سيبيليوس مثلًا كان من سكان ريو دي جانيرو لكتَب أعمالًا موسيقية تختلف عن تلك التي نعرفها، وكذلك الأمر لو أنّ الموسيقي البرازيلي أنطونيو كارلوس جوبيم وُلد في هلسنكي لمَنحنا موسيقى مختلفة عن تلك التي نألفها في أعماله.

يوضح أنّ في زخرفة موسيقى عصر الباروك ما يشبه كثيرًا زخرفة الموسيقى الشرقية. وفي آلة الهاربسيكورد نفسِها، التي كانت رائجة خلال تلك الحقبة، ما يشبه السنطور الفارسي ونبرة آلة القانون. والهاربسيكورد آلة موسيقية هامّة تشبه في الشكل آلة البيانو وتُعتبر إحدى مراحل تطوّره، كانت شائعة الاستخدام خلال عهدَي النهضة والباروك، وكان باخ من أبرز عازفيها. ويلاحظ أنّ باخ لم يحبّ البيانوهات في نسختها الأولى، التي كان يطوّرها بارتولوميو كريستوفوري، متوقعًا ألّا يكون هناك مستقبل لتلك الآلة. قام معلوف بتجربة مثيرة للاهتمام على الهاربسيكورد في وقت قياسي وتحت الضغط على المسرح، إذ عدّل أوتاره خلال العرض لتتناسب مع المقامات الشرقية وتمنّى لو تسنّى له حينها أن يعزف موشّحًا على تلك الآلة.

ومعلوف مقتنع بأنّ البيانو، «حفيد الهاربسيكورد»، مرتبط بالسنطور الفارسي للتقارب في تركيبتهما. وقد عدّل مرةً أوتار بيانو يملكه كي تتناسب مع المقامات الشرقية. وقد سبق للموسيقي والعازف اللبناني عبد الله شاهين (١٨٩٤-١٩٧٥) أن عدّل أوتار البيانو لتتناسب مع المقامات الشرقية. يَذكر معلوف أنّ البيانو الذي عمل عليه شاهين ما زال موجودًا لكنه لم يكن عمليًّا، وقد عرضته حفيدةُ شاهين، زينة أبي راشد، خلال إحدى المناسبات. ولدى معلوف أيضًا فكرة حول نموذج أوّلي لـ«بيانو شرقي»، موضحًا أن هناك بعض الأشخاص الذين عملوا على الموضوع منهم الإنكليزي جفري سميث الذي تمكّن من صناعة بيانو يُدعى «البيانو السائل» (piano fluid) يُمكن عزف أرباع الأصوات والميكرو تون عليه.

وعلى الرغم من غنى ميزة تجربة تعديل أوتار الهاربسيكورد، لا يرى معلوف أنّها ستحظى بالاهتمام إلا إذا تبنّاها أحدُ الموسيقيين أو المعاهد الموسيقية. ما يشجع هو تزايد الاهتمام بالموسيقى الشرقية في الغرب، ففي فرنسا معاهد تعطي دروسًا في تلك الموسيقى، ومعلوف نفسه يعمل على تخصيص صفّ للموسيقى الشرقية في المعهد الذي يدرّس فيه. وللمرة الأولى في تاريخ الكونسرفتوار الفرنسي، سيُدرج المعهد آلة البزق ضمن آلاته بمبادرة من معلوف.

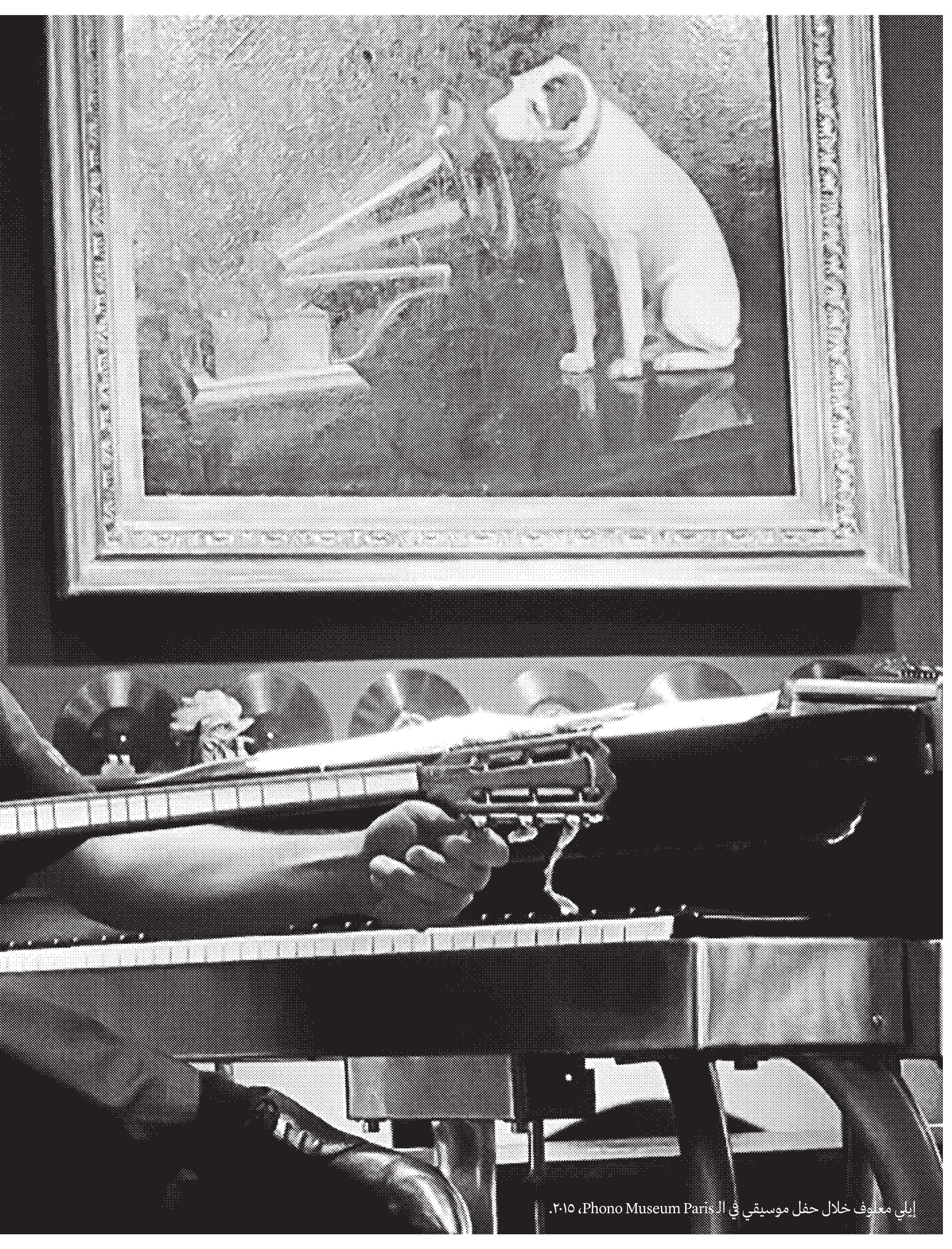
بوغوص جلاليان: عبقريّ مغمور

بوغوص جلاليان موسيقي له مكانة خاصّة عند معلوف؛ «إذا كان هناك من شيء يُدعى بيانو لبنانيّ، فبوغوص هو مَن أسسه». وجلاليان كان عازف البيانو الذي رافق الأخوين رحباني وفيروز في أكثر التسجيلات التي نعرفها. يرجع معلوف إلى طفولته ليتحدث عن أثر جلاليان في تكوين وعيه الموسيقي، وتحديدًا في ما يتعلق بالبيانو في الأغنية اللبنانية. كان ينجذب بشدة إلى ما يُعزف على البيانو، خصوصًا في أغاني الأخوين رحباني مع أن البيانو لم يكن أساسيًّا أو ظاهرًا فيها بشكل كبير، مثل أغنية «يا ربوع بلادي». لقد استعمل الأخوان رحباني البيانو في الكثير من أغانيهم من خلال ارتباطها بنبض المعزوفة، الذي يولّد الحركة فيها، مثل البيانو والكونترباص والإيقاعات، وإلى هذا النبض تُضاف الوتريات وآلاتُ النفخ والتوزيعُ وغيرها.

أسس جلاليان أسلوب عزف خاصًّا به. كان كمن ينسج على آلة الحياكة عبر تفاصيل خلقت سحرًا في الأغنية الرحبانية، لولاها لفقدت الأغنية شيئًا من ألقِها وصدرت بحلّة مختلفة، ولكنها في الوقت نفسه تفاصيل لا يستطيع المستمع العادي التقاطها.

كان جلاليان من عازفي البيانو القلائل الذين رافقوا فيروز ويملكون فعلًا لمسة عازف البيانو، ليس بمجرّد شخص يعزف البيانو، بل معلّم حقيقي في العزف على البيانو، والفرق شاسعٌ بينهما، على مستوى اللمسة والصوت والمادة التي تصدر من الآلة. كما أنّ جلاليان مؤلّف موسيقي كبير له بصمته الخاصة في أعمال الأخوين رحباني. وجلاليان أخيرًا ليس آخرًا هو أستاذ زياد رحباني الذي أسّسه في انطلاقته الموسيقية. ويعتبر معلوف أنّ أفضل فترة عزف فيها زياد على البيانو كانت خلال دراسته وتمرينه مع جلاليان، كما في أغنية «ليالي الشمال الحزينة» بمسرحية «المحطة».

وعن زياد و«البيانو اللبناني» يذكر معلوف أنه منذ حوالي ٢٣ عامًا، كان يستمع مع زياد في الاستديو إلى ألبوم سجّله مع أصدقاء في فرنسا، فأعطاه زياد ملاحظة أثّرت فيه إذ قال: «إنتَ من القلّة بهالبلد اللّي فهموا شو هوّ البيانو بالجوّ اللبناني وكفّى فيه وأخذه على غير مطرح». أما اليوم، فيرى أنّ الأمر



إيلي معلوف خلال حفل موسيقي في الـPhono Museum Paris، ٢٠١٥.



اختلف، هناك جيل جديد يعزف بشكل جميل ومتقن لكنّ «البصمة اللبنانية»، إذا صحّت التسمية، اختفت بعض الشيء.

وكان أول وآخر لقاء بين معلوف وجلاليان عندما لبّى الأخير دعوة معلوف الشابّ إلى أول حفلٍ له في الجامعة الأميركية في بيروت. أبدى جلاليان حينها إعجابه بمعلوف وأخبره أنّ لديه «أداء جميلًا مع آلة البيانو»، مسديًا له بعض النصائح المفيدة. وقد توفّي جلاليان عام ٢٠١١.

«أزمة الموسيقى في لبنان»

ينتقل معلوف إلى المؤلفين الكلاسيكيين اللبنانيين، فيؤكد ضرورة إحياء أعمال هؤلاء والتركيز على تسجيل أعمالهم، ليس فقط الكلاسيكيين بل كلّ الموسيقيين الذين يقدمون أعمالًا ذات معنى، فمهما كانت الحفلة ناجحة فإنها تختفي في لحظتها، وما يبقى منها هو أحاسيس الناس وذاكرتهم، بينما الأسطوانة تبقى للتاريخ. ولإدراكه صعوبة تحقق ذلك، يتمنى أن تهتمّ وزارة الثقافة بتسجيل أعمال رواد الموسيقى اللبنانية وأن تكرِّس ميزانية له. ويربط هذا الوقع بأزمة الإنتاج، موضحًا أنّ الإنتاج اليوم للموسيقيين، خاصةً للمؤلفين، شبه معدوم. ويشير إلى أنّ زينة صالح كبّالي من «مركز التراث الموسيقي اللبناني» في مدرسة «الجمهور»، ألّفت كتبًا عن المؤلفين الكلاسيكيين اللبنانيين، وهي تعمل حاليًا على تأليف قاموس للموسيقى اللبنانية، كما يحاول المركز أرشفة أعمالهم. والمؤسف أنّ أغلب المؤلفين الكلاسيكيين اللبنانيين قد هاجر من لبنان بسبب الظروف الراهنة، ويبدي معلوف إعجابه بقائد الأوركسترا اللبناني لبنان بعلبكي الذي ما زال صامدًا في لبنان برغم الظروف.

يشير إلى وجود جمعيات تساعد الموسيقيين، لكن الصعوبة أنه ينبغي على الموسيقي تقديم طلب للحصول على المساعدة، والموسيقيون عادةً ما يكونون مهملين من هذه الناحية، خصوصًا مع وجود هامش للرفض من قِبل الجمعية. وهو يدعو إلى أن تطّلع تلك الجمعيات نفسها على أعمال الموسيقيين والمؤلفين والعازفين وأن تبادر هي إلى دعم من يستحق، كأن تدعم تسجيل أسطوانة للمؤلف.

يأسف أنه خلال ٣٢ عامًا من غيابه عن بلده، لم يدعَ مرةً واحدة إلى أي مشروع أو مهرجان أو حفل موسيقي في لبنان، باستثناء دعوة يتيمة من مهرجانات بعلبك. كما يأسف لأنه لم يتلقَّ دعوةً إلى لبنان من قِبل معاهد أكاديمية لتدريس صفوف «الماسترز» في الموسيقى أو لتقديم المساعدة الموسيقية، التي حُرم هو نفسُه منها، إلى الطلاب اللبنانيين، بينما هو يدرّس صفوف الماسترز في جميع أنحاء العالم.

وعن تعليم الموسيقى في لبنان يَعقد مقارنةً بين الأمس واليوم، فحين انتقل إلى فرنسا لم يكن في مدينته زحلة مدرسة مخصصة للموسيقى، بل كانت الموسيقى تدرَّس قليلًا في المدارس العادية، مع غياب أستاذ متخصص. ولمعرفة ما كان يحصل على المستوى الموسيقي خارج لبنان، كان يطّلع على المجلات الموسيقية في «المركز الثقافي الفرنسي»، لكن تلك المجلات كانت تصل متأخرةً، فتبدو قديمة بعض الشيء. تغيّر الوضع اليوم، فبإمكان من يسكن في قرية بعيدة حضور دروس موسيقية وصفوف ماسترز ومشاهدة فيديوهات عبر الإنترنت. وبرغم تسهيلات العصر الحالي، ليست الصورة ورديّةً بالكامل، فالإنترنت وحده لا يكفي لتعلّم الموسيقى بشكل جيد. فكلّ شخص موهوب تعلّم الموسيقى في لبنان ويرغب بمتابعتها يضطر إلى السفر. يذكر معلوف أنّ الصين تساعد على بناء كونسرفتوار في لبنان، مؤكدًا أن المبنى وحده لا يكفي. فيطالب من جديد بدعوة الموسيقيين اللبنانيين في الخارج، والذين اكتسبوا خبرة طويلة، لتعليم أولاد بلدهم. حتى انه يتساءل: «ما الذي يمنع فيروز مثلًا، في ما لو كانت غير منعزلة، من تلبية دعوة لإعطاء للتعليم في صف ماسترز عن الأداء في الموسيقى؟ ما الذي يمنع أن تسمع مواهب الغناء المهمة وأن تعطي ملاحظاتها»؟، موضحًا أن هناك الكثير ممّن يحبّون فيروز بشكل جنونيّ لكنهم لم يتعلّموا منها شيئًا من الحس الذوقي وطرق وأساليب الغناء.

وينتقد أيضًا معهد الموسيقى في زحلة. صحيح أنه يوجد معهد للموسيقى هناك لكن هذا لا يكفي فلماذا لا توجد أوركسترا في المدينة: «أين التلامذة الذين يتخرّجون من المعهد الموسيقي»؟

يذكر معلوف أيضًا أنه قبل سفره إلى باريس كانت توجد عدة فرق موسيقية جيدة في المدينة، وكانت هناك موسيقى شرقية جميلة وموسيقى روك وبوب والقليل من الجاز، كما كان هناك موسيقيون يعزفون في المسرحيات، ويعيدون تقديم مسرحيات الرحابنة. اليوم، لم يعُد كلّ هذا موجودًا. هناك بعض المبادرات الفردية لإنشاء مدرسة موسيقية أو حركة موسيقية، لكن لا يوجد عدد كافٍ من الموسيقيين مع أن المدينة تملك الكثير من المواهب. ومن هؤلاء يذكر معلوف صديقًا له في طفولته يُدعى داني شمعون، يسكن اليوم في أستراليا، وهو عازف بيانو مميز، لكنّ أحدًا لا يعرفه في لبنان أو يدعوه إلى إقامة حفلة في زحلة. وعن «حلمه الكبير» للمدينة يقول: أن يصبح هناك مسرح وطنيّ فيها، وأن يكون هناك برنامج سنوي يُدعى إليه فنانون من زحلة، ربما أصبحوا عالميين، وأن تقام فيه معارض فن ورسم وتعرض مسرحيات وحفلات موسيقية.

محيي الدين بعيون
صوت بيروت الذي نجهل

فرح قدّور

موسيقيّة وعازفة بزق، لبنان. حاصلة على شهادة ماجستير في العلوم الموسيقية من «الجامعة الأنطونية». تعمل بشكل أساسي في ميدان الموسيقى المشرقية الكلاسيكية والشعبية. عضو في العديد من المجموعات والفرق الموسيقية

من دكّانٍ لبيع التبغ في محلة برج أبي حيدر ببيروت إلى بلادٍ بعيدة واسعة طربت لصوته ولريشة طنبوره.

لا توجد وثيقة تؤكّد تاريخ أو حتى سنة ولادة محيي الدين بعيون. تحليلاتٌ ارتكزت على أقوال شفهيّة موثوقة ترجّح أنه ولد عام ١٨٨٥، فيما تذكر المصادر المكتوبة أنه وُلد عام ١٨٦٨، لكنّ المؤكد أنه توفّي عام ١٩٣٤.

أمّا دكان التبغ، فهو في الحقيقة مدرسة موسيقى كان صاحبها - بائعُ التبغ - عازفًا على العود واسمه حبيب الدندشلي، وكان محيي الدين بعيون واحدًا ممّن قصدوا هذه المدرسة وتخرّجوا منها إلى جانب زكّور حجّال الذي كان أستاذًا للبزق في «المجمع الموسيقي الشرقي». وتتلمذ محيي الدين بعيون أيضًا في مرحلة مبكّرة على يد عازف القانون المصري أحمد البدوي الذي زار بلاد الشام في ثمانينيّات القرن التاسع عشر. إلى جانب مدرسة حبيب الدندشلي، تعلّم بعيون في مدرسة المقاصد، التي كانت حديثة العهد حينها، أصولَ الفقه والتلاوة والأدب، وهو ما تجلّى عليه بشكل واضح من خلال نطقه وغنائه، وصولاً إلى عزفه على آلة البزق أو الطنبور.

بدأ بعيون أول تسجيلاته مع شركة «غراموفون» عام ١٩١٢، وهي شركة تسجيل أسطوانات إنكليزيّة، وانقطع عن التسجيل طيلة فترة الحرب العالمية الأولى، ثم عاد إليه عام ١٩٢١ مع شركة «بيضافون»، وهي شركة تسجيل أسطوانات لبنانيّة، احتكرت التسجيل له طيلة حياته الفنية. مع «بيضافون» سجّل بعيون خلال عدة دورات تسجيل في بيروت، والقاهرة، وفي مدن عدة من المغرب العربي في السنوات ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٢٥ و١٩٢٧. ويروى أنّه أثناء حملة التسجيل مع شركة بيضافون في المغرب عام ١٩٢٥، أصيب بمرضٍ في حنجرته منعه من الغناء، لذلك نجد أن الأسطوانات الصادرة بعد هذا التاريخ، جميعها آليّة فقط.

في تسجيلاته، قدّم بعيون قوالب متنوّعة عزفًا وغناءً، منها الموّال البغدادي والموّال السبعاوي، القصيدة، الموشّح، السماعي، الدور، الدولاب، التقسيم المرسَل والتقسيم الموقّع. أما قوالبه التي اشتهر بها كثيرًا فكانت الموّال غناءً والتقسيم المرسَل عزفًا.

«الطنبوري»

«الطنبوريّ محيي الدين بعيون»، هذا ما نسمعه في بداية كلّ تسجيل، وهذا ما نقرأه على غلاف كلّ أسطوانة، باستثناء الأسطوانة التي صدرت عام ١٩٢٤ وكُتب عليها بزق بدل طنبور. والطنبور اسمٌ واسعٌ لعائلة الآلات الوتريّة ذات العنق الطويلة التي تتجذّر في ثقافات وحضارات متنوّعة جدًّا، وقد ذكرها الفارابي في كتابه «الموسيقيّ الكبير» إذ قال «نتبع ما قلنا في العود أن نقول الآلات التي تجانسه، وأقرب ما يجانسه من الآلات هي الآلة التي تُعرف بالطنبور، إذ كانت أيضًا، يُستخرج منها الصوت بقسمة الأوتار». ويذكر محمود أحمد الحفني في كتابه «علم الآلات الموسيقية» أنّ قدماء المصريين قد عرفوا هذه الآلة منذ حوالي ١٦٠٠ ق.م. من نقوش الأسرة الثامنة عشرة.

من آلات هذه العائلة على سبيل المثال، الساز (Saz) وهو الآلة التقليدية لدى الأكراد والأتراك، ويُطلق على الآلة نفسها اسم بغلمة (Baglama) عندما تكون أصغر حجمًا من الساز. من عائلة الطنبور أيضًا آلة التار (Tar)، ويتألف صندوقها الخشبي من قطعتين متّصلتين من الخشب تغطّيهما قطعة من الجلد وهي منتشرة بشكل أساسي في إيران وموجودة أيضًا في أذربيجان وأرمينيا وغيرها من البلدان المجاورة. من الآلات الفارسيّة ذات العنق الطويلة نجد السّيتار (Setar)، ومعنى الاسم باللغة الفارسية هو ثلاثة أوتار، حجمها صغير بالنسبة لعائلة الطنابير وهذا ما يميّز رنينَها، إذ إنه يصيب ديوانًا أعلى من غيرها من الآلات المشابهة. من عائلة الأعواد ذات العنق الطويلة، نجد آلة السيتار (Sitar) في الهند وآلة البوزوكي (Bouzouki) في اليونان وهي مرتبطة كثيرًا بموسيقى الزوربا الشعبية اليونانية، ونجد أيضًا الجمبش والبانجو وهما آلتان متماثلتان إلى حدّ كبير، تتميّزان بقصعة تكون

على شكل طبل صغير مصنوعة من الحديد، والوجه يكون جلدًا حيوانيًا أو مصنّعًا. يُقال إنّ البانجو أتت من أفريقيا، في حين أن الجمبش آلة منتشرة جدًّا في تركيا وفي شمال شرق سورية.

بُزُق محيي الدين بعيون

أمّا آلة البزق، والمعروفة أيضًا بالطنبور البغدادي، فموطنها هو بلاد الشام وكانت موجودة بكثرة أيضًا في العراق، لكن في العراق ذهبوا أكثر باتّجاه آلة الساز وذلك بسبب وجود الثقافة الكرديّة والتركمانيّة هناك.

بالتفصيل، تتألّف آلة البزق من:

- قصعة: وهي الصندوق الصوتي الذي يُصنع عادةً من أخشاب صلبة، وتتكوّن «القصعة» من أضلاعٍ رقيقة يتراوح عددها بين ثلاثة عشر وسبعة عشر ضلعًا.
- وجه: تغطّي «القصعة» قطعة من الخشب الرقيق تسمّى «الوجه» وتحمل من الداخل عوارِضَ خشبيّة بأبعاد معيّنة، هي المسؤولة عن طبيعة الصوت الصادر من القصعة برنّاته المختلفة الغليظة والرفيعة.
- الشمسيّة أو القمريّة: تُحفر على «الوجه» فتحةٌ مستديرةٌ تسمّى «الشمسيّة» أو «القمريّة»، غايتها تقويةُ رنين الصندوق الصوتي.
- العنق أو الزند: وهي من أكثر الجزئيات التي تعطي للبزق ولغيره من عائلته طابعًا وهويّة. تُصنع العنق أيضًا من أخشاب صلبة، وهي موضع العفق على الأوتار وتُربط عليه الدساتين.
- الدساتين: مفردها دستان، وهي الربطات التي تحدد أماكن النغمات بحسب اللهجة المقاميّة لكل منطقة، وكانت تُصنع قديمًا من أمعاء الحيوانات، أمّا اليوم، فباتت الدساتين تُصنع من مادة البلاستيك.
- البنجق: عند مؤخّرة العنق، يتمّ وضع قطعة خشبيّة شبه مستطيلة اسمها «البنجق»، وهي التي تحتوي على «المفاتيح» التي تُربط وتُلفّ عليها الأوتار المعدنيّة.

أخيرًا، تضاف قطعتان صغيرتان إلى البزق هما «الأنف» الذي يتمّ وضعه بين العنق والبنجق، يحتوي على خطوط محفورة تُثبّت فيها الأوتار، أمّا القطعة الثانية فهي «الفرس» التي توضع على «الوجه» وتُثبّت عليها الأوتار بنفس الطريقة لكن من الناحية الأخرى.

عادةً، تُشدّ على البزق أربعة أوتار على طريقة وترين مزدوجين، دوزانهما من الأدنى إلى الأعلى: دو (راست) وَصولْ (يكاه). في أوائل القرن العشرين بدأ بعض العازفين بإضافة وتر ثالث لتكبير المساحة الصوتيّة، وهو وتر غليظ عادةً يُشدّ على درجة دو (قرار راست).

في بلاد الشام، ارتبطت آلة البزق بالتراث الشعبي، لا سيّما البدوي أو الغجري، أكثر من ارتباطها بالموسيقى الفصحى العربية التي عاشت عصرَها الذهبي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولمعت فيها أسماء عديدة مثل عبده الحامولي، يوسف المنيلاوي، سامي الشوّا، سلامة حجازي، منيرة المهديّة، أبو خليل القبّاني، أسماء الكمسريّة وكثيرين غيرهم. لمحيي الدين بعيون دور أساسيٌ في طرح آلة البزق كواحدة من آلات التخت إلى جانب العود والكمنجة والقانون والناي والرقّ، مؤدّيًا بها قوالب هذه الموسيقى، وناطقًا لنغماتِ مقاماتها بشكل مطابق للنظام المقاميّ الذي كانت تسير هذه الموسيقى على نهجه. الفارق هنا، أنّ بعيون نفّذ التطبيق المقامي على آلة مُدَستنة، أي ثابتة النغمات، لا حريّة للعازف بأن يحرّك النغمة الواحدة بنسبة معيّنة لكي يلمس لهجة موسيقيّة يقصدها. مثال على ذلك، يستطيع عازف آلة العود أو آلة الكمنجة أن يعزف نغمة السيكاه (مي نصف بيمول) بشكل منخفض أو مرتفع قليلاً عن درجتها الأصليّة، وهذا أمرٌ معلومٌ في الموسيقي المقاميّة بحيث تختلف النغمة الواحدة بدرجة بسيطة من مقام إلى آخر، أمّا عازف البزق فمحكوم نوعًا ما بالدساتين الموجودة على آلته، إلّا في حال قرّر تحريكها أو زيادة دساتين إضافيّة إليها، وهذا ما قام به بعيون على الأرجح. في دراسة صوتيّة لأربعة من تقاسيمه قمتُ بها عبر استخدام برنامج لقياس الصوت بالهيرتز (Hertz)، تبيّن أن لبزق بعيون نغمات ثابتة لا توجد لها دساتين في النظام العادي للبزق، وكان الاستنتاج أنّ بعيون أضاف هذه الدساتين كي يلمس لهجة مقاميّة معيّنة. على سبيل المثال، عند عزفه لبيّاتي الدوكاه (ري)، يستخدم بعيون نغمة النيم عجم (سي بيمول منخفضة) بدل نغمة العجم (سي بيمول).

إلى جانب جملته اللحنيّة، يلمع عند محيي الدين بعيون الجانب الإيقاعي الداخلي، تحديدًا، في تقاسيمه المرسلة. على سبيل المثال، عند سماعنا لتقسيم مرسل لبعيون يحتوي على لحظات صمت، نستطيع الشعور بالنبض الداخلي الذي ما زال يجري برغم الصمت. هو ليس لحنًا ولا ضربًا إيقاعيًّا، هو شيء يشبه النفس أو النبض المتواصل. ثمّ يأتي بعيون ليسقِط جملته المرتجلة، مهما كانت مدّتها، على شكل تفاعيل عروضيّة نستطيع لفظها مع الجملة إن سمعناها لمرّة واحدة فقط، كما نستطيع التمييز بين تفعيلة عروضيّة وأخرى مستَخدمة. الوسيلة لإبراز هذه التفاعيل هي ضربة أو نقرة الريشة التي تحدّد ما إذا كانت النغمة قصيرة أو طويلة، وبالتالي اللفظ أو المقطع التفعيلي قصير أو طويل. أحيانًا، يمكننا استخلاص بحر من بحور الشعر الخليليّة من جملة بعيون، مثل البحر الطويل أو البحر الوافر اللّذين وردا في تقاسيم مرسلة له. وفي أحيان أخرى، لا بحور معيّنة تظهر، وإنّما مجرّد مجموعة من التفاعيل المرتّبة بشكل عشوائي.


محيي الدين بعيون.

نظريّة التفاعيل هذه موجودة وهي قيد الدرس منذ زمن سابقٍ على العديد من الموسيقيين ومنظّري الموسيقى، وهي تنطبق على أغلبيّة عازفي عصر النهضة، لارتباط موسيقاهم بشكل مباشر جدًّا بموسيقى المشايخ، أي باللّغة العربيّة بشكل واضح. أمّا بالنسبة لبعيون، وبناءً على تحليل شخصيّ، فيمكننا الربط بين وجود هذا الحسّ العروضي في جملته وبين تعلّمه في مدرسة «المقاصد» ذائعة الصيت بتعليمها المتين لأصول اللغة العربيّة، وهذا ما انعكس أيضًا على أسلوب غنائه للقصائد والمواويل البغداديّة والموشّحات.

محزنٌ أن نبني تحليلات عن شخصية بهذه الأهمية من خلال بعض الأقوال الشفهية والقليل من الوثائق المكتوبة. محزن أنّنا نعرف أنّ بعيون هو ابن المصيطبة، لكننا لا نعرف منزله. محزن كيف نبني تحليلات بناءً على نقرة ريشته وصوت بزقه لكنّنا لم نرَ أيًّا من آلاته. محزن أنّ معظم أبناء جيلي من الموسيقيين لم يسمعوا باسمه قطّ.

من خلال ما قرأت وما سمعت، أرى في محيي الدين بعيون، أو بالأحرى في القليل الذي وصلنا عنه، كتلة من أصالة وجمال وثبات، تشبه دكّان التبغ الذي بدأ مسيرته تلميذًا فيه، وتشبه مدرسة «المقاصد» وبيروت في تلك المرحلة، أصيلة وفصيحة، وتشبه صوته وصوت آلته، حادّ، واثق، يقول قوله ببساطة وعمق شديدَين.

أرى فيه أيضًا معلّمًا عابرًا للزمن. بالمناسبة، لا نعلم من هم تلامذة بعيون، سوى عازف البزق السوري محمد عبد الكريم، الذي ذكر بعض المصادر أنّه تتلمذ على يد بعيون، وأن الأخير هو من اكتشف موهبته وأطلقه بشكل أو بآخر. لكنّني شخصيًّا عندما أُسأل عن هويّة أستاذي على آلة البزق، أقول، وبكلّ ثقة، إنّه محيي الدين بعيون.

من المستحيل أن ألمح له أي مقطع مصوّر، لأراقب حركة أصابعه أو حركة ريشته. لكن حقيقةً، لم أشعر حتّى الآن بالحاجة إلى ذلك. أجل، صوت بعيون واضح وصريح إلى هذا الحدّ. أستطيع رؤيته وتحليله من خلال صوت ريشته. الحمدُ دائمًا للتسجيلات التي يسّرت لنا وجود معلّم على بُعد عشرات السنين.

المصادر:

- **الطنبوري محيي الدين بعيون بلبل بيروت**، مؤسسة البحث والتوثيق في الموسيقى العربيّة، ٢٠١٩.
- لوائح بيضافون من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٣.
- الفارابي، أبو نصر، **كتاب الموسيقي الكبير**.
- الحفني، محمود أحمد، **علم الآلات الموسيقية**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٨٧.

وديع صبرا
رائد جريء في الموسيقى اللبنانية

مارك هنري مانغي

(١٩٠٩ فرنسا - ١٩٩٤ لبنان) عالم موسيقي، صحافي وكاتب. عاش وعمل في لبنان. درّس في «الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة» وفي جامعة «الكسليك». وعمل مستشارًا للموسيقى لدى «مهرجانات بعلبك الدولية».

كتب هذا النص العام ١٩٧٣.

ترجمة فيفيان عقيقي

«لا يوازي قناعتي الشديدة بدونيّة وسائلنا الموسيقية، إلّا قناعتي بأنّ فنّنا الشرقي سيكون علم الموسيقى للمستقبل».
(وديع صبرا - في محاضرة ألقيت بتاريخ ١٩٢٢/٦/٣٠ في مسرح «كريستال»).

لا تشبه شخصية وديع صبرا الموسيقية أي شخصية أخرى. إنه ابن الشرق، الذي أُرسِل إلى فرنسا في سنٍّ مبكرة (بفضل بصيرة السيد سانت رينيه تيلانديه، قنصل فرنسا آنذاك)، ودرس الموسيقى الأوروبية في باريس، لكن من دون أن يفقد الصلات ببلده الأم، الذي عاد إليه مرارًا*.

بالنسبة لعقل أقلّ اتزانًا، لن تؤدّي الدراسة المزدوجة سوى إلى الضياع والارتباك خصوصًا أنّ مفهوم الجمال الموسيقي يختلف كلّيًا بين الغربيين والشرقيين. لكنّ ذكاء صبرا سمح له بأن يصبح، بطريقةٍ ما، متعدّد اللغات موسيقيًا، لدرجة أنّه يروِّج بحماسةٍ للموسيقى الفرنسية عندما يزور وطنه الأم، فيما يصبح المبادِر إلى تطوير أسلوب الموسيقى العربية المثير عندما يكون في باريس. وفي الوقت نفسه، لا يحول ذلك دون تحوّله إلى عازف الأورغ الأبرع لإحدى كنائسنا البروتستانتية الرئيسية.

المشروع المعلَّق

«يجب أن نرى في وديع صبرا فنانًا ذا قيمةٍ عالية. يتحدّث ويكتب بلهجتين موسيقيتين مختلفتين كلّيًا، وبالسهولة نفسها، مع إدراك سحرهما وجمالهما بالتساوي. وهذه حقيقة فريدة في تاريخ الفن».

ألبير لافيناك، عميد الأساتذة في كونسرفتوار باريس: «جريدة المسارح والحفلات الكبرى في باريس» (Gazette des Théâtres et des grands concerts de Paris) - (١٩٠٨/١٢/٥).

من المزعج ألّا يُعطى هذا التصريح حقّه لا سيّما أنّه صادر عن أحد أبرز مفكّري الموسيقى العالمية ومؤرّخبها. لذلك، إذا ظهر اسم وديع صبرا اليوم في موسوعة لاروس، فهو من دون أدنى شكٍّ علامةٌ على الاحترام والتقدير الغربيين اللذين اكتسبتهما هذه الشخصية اللبنانية البارزة، ومؤسّس الكونسرفتوار الوطني للموسيقى، والذي توفي منذ ٢١ عامًا (١٨٧٦-١١ نيسان/ أبريل ١٩٥٢) ونسيه الرأي العام والوطني من حينها، على الرغم من أنّه يدين له بالكثير! لكن، لمَ المفاجأة؟ أليس هذا مصير العظماء في كلّ مكان تقريبًا، الذين لا يتمّ تذكّرهم، كما يُقال، إلّا بعد مرور ربع قرن من تجهيلهم؟

يجب الاعتراف بأنّ القدر لم يسمح له بتنفيذ المشروع الأقرب إلى قلبه بسبب شيخوخته - باستثناء تأسيس الكونسرفتوار اللبناني - والذي كان سيجعل بيروت ولبنان المكان المختار لإطلاق مواجهة موسيقية عالمية من حيث «موازين الصوت» و«السلّم الموسيقي» في خمسينيات القرن الماضي. كان المشروع عبارةً عن «مؤتمر موسيقي عالمي» خُطِّط له للمرّة الأولى في عام ١٩٤٦، أي بعد عام من الحرب العالمية الثانية. لكنّه لم يُعقد بسبب ظروف مؤسفة على الرغم من الجهود التي بذلتها لجنة المبادرة التي ضمّت عبد الله بَيهم، وأحمد الداعوق، والأب دوبونفيل، وبايارد دودج، وبارت دو سانفور، وغاستون ليدوك، والأمير مجيد حيدر، وميشال شيحا، وشارل قرم، وشارل حلو، ورامز سركيس، وسعيد عقل، وسكرتير اللجنة التحضيرية جورج ملحمة.

كانت أعمال وديع صبرا موضع تقدير، وهذا ما تُعبّر عنه السطور الآتية: «بعد ثلاثين عامًا من البحث، قادت هذه الأعمال زميلَنا إلى اكتشاف وحدة قياس الفواصل الموسيقية الحقيقية التي يُفتقر إليها حتى الآن»، ووفقًا

* تنويه: الشكر واجب لفادي جنبرت (باريتون وباحث موسيقي) لدعمه هذا العمل.



وديع صبرا حوالي ١٩١٠.

للسيد برودان بروفو في ١٩٤٠ «سيكون لها تأثير كبير على مصائر الموسيقى».

منذ عام ١٩٢٣، عند تقديم محاضرة لوديع صبرا في مسرح Salle Pleyel حول «القيمة التجديدية للموسيقى الشرقية»، ألم يَكتب جول بونديـــــه في «دليل الحفلات» (Guide du Concert) الباريسي أنّ «قوانين التنـــــاغم الأساسية تتعزّز إذا ثبُت أنها أساس كل الموسيقى الشرقية». وهذا بالضبط ما كان ينوي وديع صبرا، ابن لبنان اللامع، أن يبرهنه نظريًّا وعمليًّا للأجيال المقبلة.

النشيد العثماني و«البيانو الشرقي»

ولد في ٢٣ شباط/ فبراير ١٨٧٦ في عين الجديدة، وهي بلدة صغيرة في منطقة بحمدون. كان محظوظًا وتمكّن من إكمال دراسته الابتدائية في المدرسة التي يديرها والده، ثم تابع دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت. وكما أشار أنطوان سفر، في مقال في Matin Littéraire بتاريخ ١٩٥٣/٤/٩، تلقّى الشاب صبرا دروسه الموسيقية الأولى من الآنسة غريس أمين شكور وتيودورا كساب، وكذلك من البارون فون روبلين.

اســـــــتُدعي صبرا إلى اسطنبول لتلحين النشــــــيد العثماني الذي فاز بمسابقتـــــه، وعُزِفَت موسيقاه من قبل أوركسترا وجوقة ضمّت مئات الموسيقيين

في ذلك الوقت، منحه القنصل سانت رينيه تيلانديه منحةً دراسيةً للدخول إلى كونسرفتوار باريس في عام ١٨٩٢ عن عمر يناهز ١٦ عامًا، حيث سيعلّمه على مدى سبع سنوات كلٌّ من ألبير لافيناك، وألكسندر غيلمان، وبول فيدال، ولونوفو، وبورغو- دوكودريه، وجيروديه. كان بالكاد يعرف بضع كلماتٍ بالفرنسية عندما وصل إلى باريس، وهو ما لاحظه لافيناك بعد فترة وجيزة متسائلًا عن قدرته على متابعة دروسه، والتي برغم ذلك استفاد منها إلى أقصى حدود. في عام ١٩٠٠ كان صبرا قد تعلّم ما يكفي لينال توصيةً قضت بتعيينه عازف أورغ في إحدى أشهر كنائس باريس: كنيسة الروح القدس حيث عزف لمدة عشر سنوات أخرى. مع ذلك، في بداية العام ١٩٠٨، استُدعي إلى إسطنبول لتلحين النشيد العثماني الذي فاز بمسابقته، وعُزِفَت موسيقاه من قبل أوركسترا وجوقة ضمّت مئات الموسيقيين وأمام حشد من عشرات آلاف المستمعين. قد يكون هذا النجاح الإقليمي وراء حنينه إلى الوطن.

بعد عامين، ترك صبرا منصبه كعازف أورغ باريسي وعاد إلى بيروت تحدوه رغبة في تأسيس «مدرسة للموسيقى». لم يكن أمام الباب العالي سوى تشجيع مؤلّف نشيده الوطني على هذه الخطوة. وفي عام ١٩١٠، صدر قرار تأسيس «دار الموسيقى»، وهي أول مدرسة للموسيقى الغربية والشرقية، ليس في لبنان فقط، ولكن في الشرق الأوسط كلّه. ثمّ أغلقت الدار لسنوات عدّة بسبب الأحداث السياسية التي أعقبت حرب العام ١٩١٤. وفي هذه الأثناء، انتهز صبرا الفرصة لإنشاء كونسرفتوار في إسطنبول ثمّ عاد مرّة أخرى إلى باريس بعد الهدنة، وهذه المرّة وصل إلى Pleyel - شركة بلييل للادوات الموسيقية - حيث قدّم إلى عالم الصوت اللامع غوستاف ليون نتائج بحوثه التقنية حول السلّم الموسيقي الشرقي.

عام ١٩٢٠، وبفضل الانتداب الفرنسي، تمكّنت «مدرسة الموسيقى» من إعادة فتح أبوابها، وعاد صبرا إلى بيروت مع مشروعٍ واضحٍ يقضي باختراع آلة بيانو قادرة على إصدار التقسيمات الصوتية للأنغام الشرقية، أو ما يُعرف بـ«البيانو الشرقي» بعد الحرب العالمية الثانية، أتيحت لي فرصة التعبير عن تقديري لهذا الاختراع بمزاياه التصميمية وقدراته التنفيذية بحضور صبرا نفسه. كان هذا الاكتشاف مصدر إلهامٍ لاحق لبحث مُماثل أجراه عبد الله شاهين لتأسيس علامته التجارية من البيانوهات المبنية وفق الفواصل الموسيقية الخاصّة بالموسيقى العربية. (...) مُشبعًا بأفكاره التنبوئية ومتيقّنًا من تحقيقها، انطلق صبرا في جولة محاضرات عبر فرنسا ومصر للقيام بسلسلة من التجارب التي أثارت بعض ردود الفعل الإيجابية في فرنسا، وقد سبق ذكرها، فيما أسّس لـ«المؤتمر الأول للموسيقى العربية» الذي عُقد عام ١٩٣٢ في القاهرة، ودُرِست خلاله الأعمال الرائعة للبارون رودولف ديرلونجيه، الذي بادر، مع صبرا، بإطلاق سلسلة من الأبحاث المتخصّصة حول هذه المسألة المهمّة. خلال هذه الفترة زُجّ بصبرا لأسابيع في سجنٍ عثماني إثر خطأ مؤسفٍ ارتكبته الشرطة التركية لجهلها بهوية مؤلّف نشيدها الوطني! بعد خروجه من سجن «سيواس» وسط ضجّة عارمة، طلبت السلطات العثمانية من صبرا المضي في تأسيس كونسرفتوار في إسطنبول. في السياسة، لا مفاجآت.

بين الشرق والغرب

عند عودته من سلسلة المؤتمرات التجريبية، أعادت Pleyel فتح ورشات وديع صبرا الصوتية في باريس، لا بل جهّزت

له استوديو خاصًا، ووعدت أيضًا بتخصيص بيانو كلّ عام لتعويض التكاليف الأولى لإنشاء «دار الموسيقى»، الذي أصبح «المدرسة الوطنية للموسيقى» في عام ١٩٢٥ بموجب قرارات صادرة في ٩/١٢ و٣١/١٠/١٩٢٥ مذيّلة بتوقيع ليون كايلا (راجع «الموسيقى في لبنان» - مارك هنري مانغوي - بيروت - منشورات دار النهار). بعد أن أصبح إداريًّا وملحّنًا وتقنيًّا في أساسيات الموسيقى، أمضى صبرا أيامه مُتكئًا على طاولة العمل على حساب إنجاز الأعمال الإدارية. هناك ولدت مؤلفاته الموسيقية الجريئة من بين أصابعه الماهرة: للعثور على الرابط الدقيق على جميع المستويات بين المفهومين الشرقي والغربي للموسيقى في القرن العشرين، وقد كان هناك رابط فعلي وقريب طوال فترة العصور الوسطى، إذ دُرِّست الموسيقى العربية في باريس، شارع سانت جاك، في منتصف القرن الثالث عشر خلال عهد الملك سانت لويس.

دُرِّست الموسيقى العربيـــــــــة في باريس مــــــــنتصف القرن الثـــــــالث عشر خلال عهد الملك ســــــانت لويس

بنتيجة التنافس على مسابقة تلحين النشيد اللبناني، فاز صبرا على ٢٨ متسابقًا آخرين عام ١٩٢٧، وكانت كلماتُ النشيد، كما يعلم الجميع، لرشيد نخلة. في العام نفسه، قدّم «الملكان» (Les Deux Rois) في التياترو الكبير ببيروت، وكانت أول أوبرا باللغة العربية، أعقبها تقديم أول أوبرا باللغة التركيـــــة بعنوان «رعاة كنعان» (Les Bergers de Canaan). وبعدها بعامين قدّم أوبريت «المهاجر» (L'Émigré) بالفرنسية، وهو موضوع لبناني بامتياز خلال تلك الفترة! كذلك استمرّ بعرض عمل غونو الجميل «ميراي» في التياترو الكبير من بطولة أرليت الخوري.

١٩٢٩. في هذا العام، صدر مرسوم قضى بتحويل المدرسة الوطنية للموسيقى، التي تضمّ ٢٠٠ طالب و١٠ أساتذة، إلى «المعهد الوطني للموسيقى». سيواجه وديع صبرا، المُبتكر البارع وتقني الفواصل الموسيقية والملحّن، مشاكلَ إداريةً في مناسبات مختلفة - لا سيما تلك المتعلّقة بمقرّ الكونسرفتوار - التي لن يجد فهمًا كافيًا لها، للأسف، بين المستشارين الثقافيين في ذلك الوقت. وقد كتب غبريال بونور، أحد المستشارين في اليوم التالي لوفاة صبرا - بعد أن أزعجه لفترة طويلة: «عاش وديع صبرا في الموسيقى في حالة من الزهد الروحاني والشعور المرهف بالحياة الداخلية للفن».

هل يجب أن يختفي المرء حتى ينال التقدير؟

بعد الاستقلال، باتت المشكلات أبسط، جزئيًّا على الأقل. وجد مدير (مؤسّس) الكونسرفتوار الوطني منذ نحو عشر سنوات، الأساس لـ«سلّم موسيقي عالمي» حاول كثيرون اكتشافه من قبله. وبعد فترةٍ كتب مقالًا مهمًّا عن السلّم الموسيقي الصغير نُشِر في مجلّة باريسية متخصّصة بعلم الصوتيات. عام ١٩٤٠، قدّم عرضًا جديدًا لنظام مثالي لتقسيم البُعد الصغير للأوكتاف أو الفواصل الإثني عشر لنغمات القرار، وأطلق في الوقت نفسه مشروعًا تجريبيًّا جديدًا: «الموسيقى العربية أساس الفن الغربي». كان لهذه الأعمال تأثير لا فكرة لدينا عنه اليوم. ولكننا نجد، في ذلك العام نفسه، هذه السطور المهمّة التي كتبها مؤلف «الموسيقى المُجدّدة» برودون بروفو: «تمامًا كما تدمّر نظرية الكمّ في الطاقة مفهومَ الاستمرارية، سيضع السلّمُ الموسيقي العالمي الذي ابتكرته حدًّا لفكرة استمرارية الترددات الموسيقية التي يلتقطها دماغنا. وحدتُك القياسية هي من أنواع الكمّ لإدراك طبقة الصوت».

عندما التقيتُ الأستاذ وديع صبرا صدفةً في أروقة واستوديوهات «راديو الشرق» خلال الساعات الأخيرة من الحرب، ذهلتُ بشرود هذا الموسيقار، الذي شغَلته الصعوبات لحينها، ومنعته من تحقيق حلمه في إيصال اكتشافه إلى جميع فنيّ الموسيقى في خلال المؤتمر الذي لم يُعقد مطلقًا للأسف. بعد ذلك، بدأ العمر يثقل كاهله ويظهر على كتفيه المنحنيتين تحت وجهه النحيف وعظام خدوده الغائرة.

عام ١٩٥٠، كادت الذبحة القلبية الأولى أن تقتله. لكن بفضل اهتمام زوجته ومحبّتها ومساعدتها في الأمور الإدارية اليومية، تمكّن صبرا من الصمود لفترةٍ من الوقت. وفي مساء ١١ نيسان/ أبريل ١٩٥٢، توفي العالِم والرائد الجريء في الموسيقى اللبنانية الشرقية التي تخلّصت من تعقيداتها بأرباع النغمات ووصلت طواعيةً إلى الأذن الغربية. تخلّت هذه الموهبة اللبنانية اللامعة عن المشهد الدنيوي وانتقلت إلى الأعلى لاستكشاف سلّم موسيقي ملائكي جديد.

ترك صبرا أكثر من مئة لحنٍ من جميع الأنواع - الترتيبات الشرقية للبيانو والكانتاتا والمقطوعات الكلاسيكية والأوبرا التي سبق ذكرها، وكذلك النشيد الوطني - لكنّه لم يثق، للأسف، بأحد، ولم يكشف عن سرّ هذه «الوحدة العالمية» الذي كان سيسمح، من دون أدنى شك، لمعاصرينا من الشرق والغرب بالالتقاء على أرضيّة مُتناغمة بالفعل.

الاشخاص

شاول	ملك اسرائيل	السيد اسكندر تركيه
داود	اختارهُ الرب ليخلف شاول	سليم تركيه
صموئيل	نبيٌ	شارل مسابكي
ابنير	رئيس جيش شاول	اميل مسابكي
ناداب	ضابط في جيش شاول	انطوان تابت
العرافة		موسى دي فريج

يوناتان	بن شاول	الانسة ماري ارقش
ماطات	مضحك الملك	خليل خديج
دوئيج	ادوميٌ	ج. غوش
يواب	رفقاء داود	يوسف مبارك
ابيشاي		امين شهاب
احد الارواح		الانسة نلي قربان

جنود شعب خدم

في الفصل الاول مبارزة سيف وترس للسيد ميشال غصوب

PERSONNAGES

SAUL	Roi d'Israël	Mr A. TURQUIEH
DAVID	Successeur de Saül	MM. S. Turquieh
SAMUEL	Prophète	M. Ch. Massabki
ABNER	Généralissime des Armées de saül	E. Massabki
NADAB	Officier dans l'armée de saül	Ant. Tabet
LA PYTHONISSE		M. de Freigel

JONATHAS	Fils de Saül	Mlle MARIE ARCACHE
MATTHAT	Bouffon du Roi	MM. K. Khadige
DOEG	un Iduméen	G. Ghoche
JOAB	Compagnons de David	J. Moubarak
ABISAI		A. Chehab.
un ESPRIT		Mlle N. Corban

Soldats, peuple, serviteurs.

au 1er acte tournoi d'Epée par M. Michel Gossoub

Le Piano Pleyel sera tenu par l'Auteur

نشرة فنية لأوبرا «الملكان» (Les Deux Rois)، أول أوبرا عربية.

THÉATRE EMPIRE

—« LE LUNDI 16 AVRIL à 9 h. PRÉCISES »—

SOUS LE PATRONAGE DU

COMITÉ NATIONAL LIBANAIS

DE

COOPÉRATION INTELLECTUELLE

LES DEUX ROIS

1ERE OPÉRA EN LANGUE ARABE

Paroles de l'Abbé MAROUN GHOSN

Musique de

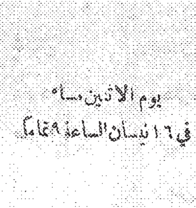
WADIA SABRA

PRIX DES PLACES :

Loge	1re	600 P. S.
»	2me	500 «
Fauteuil		100 «

Les billets sont en vente chez Carpassity, Hachette, Godressi, David Corm, Sarrafian, et à la librairie du Foyer.





برعاية اللجنة الوطنية اللبنانية

للتعاون الفكري

تمثل

مغناة الملكين

وهي اول اوبرا وطنية

وضع الأب مارون غصن

تأليف

وديع صبرا

ثمن اوراق الدخول :

لوج درجة اولى	٦٠٠	غرش سوري
« « ثانية	٥٠٠	«
الكرسي	١٠٠	«

تباع الاوراق في محلات كربستي ، هاشت ، غدرامي ، داود القرم ، صرافيان وفي

الأب أنطون يمّين
الياس خوري
إبراهيم الهضيبي
إبراهيم حلاوي
إبراهيم سعيد
ابراهيم شرارة
إتيل عدنان
إحسان عبدي بور
أحمد أبو ارتيمة
أحمد الصياد
أحمد بعلبكي
أحمد بيضون
أحمد رباح
أحمد شمس الدّين
أحمد عُلبي
احمد غصيّن
أحمد ناجي
آدم هنية
أدهم حافظ
أدهم سليم
إدواردو غاليانو
أرانغ كيشاوارزيان
إرفاند أبراهاميان
إرمغارد إملهاينز
إرنست خوري
آرونداتي روي
أروى عبده عثمان
أريج تيسير زرّوق
إريك رولو
أزادي كيان
أسامة سليم
أسامة غنم
أسامة محمد
أسماء السكوتي
أسماء الغول
آصِف بَيَات
إصلاح جاد
أكرم الريّس
إكسبلو ناني كوفي
آلاء الشهابي
ألكسندرا كولونتاي
ألى التنير
أمير بهاري
أمير مخّول
أنطونيو غرامشي
أوليفييه روا
إيجه تملكوران
إيرمغالد أملهاينز
ايرين غندزير
إيلي معلوف
إيليا سليمان
إيلينا ناصيف
إيمانويل فالرستين
إيناس الصيرفي
باسل صالح
باسيليوس زينو
بدور حسن
برّاق ريما
برنار أومبريشت
بسمة عبد العزيز
بشار العيسى
بشارة دوماني
بشرى المقطري
بشير أبو منّة
بكر صدقي
بلال فضل
بهجت أحمد سرّاج
بَهمَن فُرْسي
بتول أشقر
بيار خوري
بيار هنري نقّاش
بيان الخبراء الاقتصاديين
بيسان طَي
بيني موريس
توفيق حداد
توماس ويستون
تيري إيغلتُن
تيسير خلَف
تينا ستريكو
ثائر ديب
ثائر غندور
جاد ثابت
جاد غصن
جاكلين عطوي
جان لامير
جانينا سانتر
جمال جبران
جمانة فرحات
جنى طرابلسي
جنى نصر الله
جهاد اليازجي
جورج غلاسزي
جورج قرم
جورج مونبيوت
جوزف سماحة
جوزيف ضاهر
جوزيف طرّاب
جوزيف كونفاڤرو
جون برجر
جون ريد
جوناثان سويفت
جويل بطرس
جويل م. أبي راشد
جيسكا خزريك
جيسّيكا وايت
جيم كارترايت
حسام عيتاني
حسام هلالي
حسان الزين
حسين آيت أحمد
حسين بعلبكي
حمّود حمّود
حمّور زيادة
حميد دباشي
حنا بطاطو
خالد خليفة
خالد صاغيّة
خالد فهمي
خديجة شريف
خليل نخلة
دانة عوض
دانيال زامورا
دايفيد هارفي
الدكتور جورج حاتم
دورين خوري
ديانا عبّاني
ديما شريف
ديمة كريّم
ديمة ياسين
دينا الخواجة
رامي صبّاغ
رائد وحش
رائف زريق
رجا نجيم
رحيل دندش
رحيم الحلّي
رشا السلطي
رشا العزب
رشا صلاح
رضوان مومنة
رمزي حيدر
رنا زيد
رنا عيسى
رندا مداح
رواد شاكر
روجيه عساف
روزا لوكسمبورغ
روزي بشير
روعة عثمان
رؤوف مسعد
روي ديب
رياض بيدس
رياض قبيسي
رياض نجيب الريّس
ريما المسمار
ريما ماجد
زكي الرفاعي
زهير الجزائري
زهير هوّاري
زياد أبو الريش
زياد الدلّال
زين العابدين فؤاد
زينب أبو المجد
زينب سرور
زينة معاصري
سارا كين
سارة جمال
سارة حجازي
سارة محيو
سالار عبده
سامر فرنجية
سپوجماي زرياب
سحر خريباني
سحر مندور
سلاف زكريا
سلافوي جيجك
سلمى سالم
سليم البيك
سليم تماري
سليمان تقي الدين
سماح بشرى يوسف
سمر كنفاني
سمر محمد سلمان
سمير أمين
سمير قصير
سنا يازجي
سنان أنطون
سنثيا كريشاتي
سهيل الزين
سوزان جورج
سونيلا موباي
سيباستيان مارشال
سيد علي إسماعيل
سيلفانا اللّقيس
سيمة سامي فرح

شربل نحاس
شرف الدين ماجدولين
شفيع العبد
شفيق المعلوف
شكري بلعيد
صابر رشدي
صابرين كاظم
صبحي حديدي
صبر درويش
صفوان المصري
صلاح العمروسي
صونيا ميشار الاتاسي
ضياء الدين محمد
طارق أبي سمرا
طارق العبد الله
طارق علي حامد
الطاهر لبيب
طريف الخالدي
طلال حيدر
طوما پيكتّي
عادل نصّار
عاطف علبي
عباس بيضون
عبد الأمير الركابي
عبد الحليم كركلا
عبد الرحمن النعيمي
عبد الرحمن منيف
عبد الفتاح كيليطو
عبد الفتاح نعّوم
عبد الله البيّاري عمارة
عبد الله حبيب
عبد اللّه عبد اللّه
عبد النبي العكري
عبدالإله بلقزيز
عبيدو باشا
عبير سقسوق
عدنية شبلي
عزّة مصطفى
عزيز العظمة
عزيز تبسي
عصام الخفاجي
عصام نصار
علاء حليحل
علي أحمد الديري
علي الرجّال
علي درويش
علي زراقط
عليا مسلّم
عماد الدين رائف

عمّار جمال
عمر اميرالاي
عمر ضاحي
عمرو عادلي
عون جابر
عيسى مخلوف
غالية سعداوي
غريغواد حداد
غسان الحاج
غسان عيسى
غوران ثيربورن
غيث حمّود
فاتن الحاج
فادي العبد الله
فارع المسلمي
فاطمة رضا
فاطمة رمضان
فالتر بنيامين
فايز الصيّاغ
فتحية سعودي
فداء سبيتي
فرح قبيسي
فرح قدّور
فريدريك جايمسون
فلاديمير إيليتش لينين
فؤاد خليل
فؤاد محمد فؤاد
فيجاي براشاد
فيصل درّاج
قاسم حداد
قسطنطين كفافي
قصي ياسين
كارل ماركس
كافيه إحساني
كامل مهدي
كريستا سالاماندرا
كريمة خليل
لالي ميلدور
لوسي غَرِبِت
ليانا قصير
ليزا ودين
ليلى داخلي
لينة الروّاس
لينة دلاشة
لينة عطفة
مارك بيري
مارك رافنهيل
مارك هنري مانغي
مارون بغدادي

مازن السيد
ماهر أبو شقرا
ماهر جرّار
مايكل كلير
مايكل لووي
مجدي الجزولي
محسن بو عزيزي
محمد الحجيري
محمد الخضيري
محمد السعيدي
محمد الشحَري
محمد العجاتي
محمد العطار
محمد جاد
محمد حمد
محمد خير
محمد دحنون
محمد زبيب
محمد صالح عُمري
محمد فرّان
محمد قانصو
محمد كريّم
محمد ملص
محمود طالقاني
محمود محمد طه
مراد أوزيلدريم
مراد عيّاش
مرزوق النصف
مروان بحيري
مروان قصاب باشي
مريم حمود
مزنة المصري
مشاعل الهاجري
مصطفى اللباد
مضاوي الرشيد
مظفر البقاعي
ملحم شاوول
ملكة رخّال
منى أباظة
منى خنيصر
منير فخر الدين
مهى إغبارية
موريس غودلييه
موسى البديري
ميساء شجاع الدين
ميسون سكرية
ميسون صالح
ميشال عبيد
ميشيل كيلو

نادين بكداش
نانسي فريزر
نايت جورج
نائلة منصور
نجاة إدريس إسماعيل
نجاتي صدقي
نجلا جريصاتي خوري
نجلاء مكاوي
نجيب محفوظ
ندى متّى
نديم جرجورة
نزار مروّة
نهاد الشيخ خليل
نهلة الشهّال
نوام تشومسكي
نوبار هوفسبيان
نور أبو عرفة
نوراي ميرت
نيروز ساتيك
هادي زكّاك
هالة البزري
هايدة مغيثي
هاينر مولر
هدى الشقراني
هشام صفي الدين
هند الأرياني
هيّاف ياسين
هيفاء أحمد الجندي
وائل جمال
وجدي الأهدل
وداد حلواني
وداد طه
وَدود حمد
وسام سعادة
وضاح شرارة
وليد صادق
وئام مختار
يارا دبس
يارا سقف الحيط
ياسر علوي
ياسر منيف
ياسمين أحمد
ياسمين مبيّض
ياسين الحاج صالح
ياسين سويحة
يانيس فاروفاكيس
يعقوب الشدراوي
يوسف المرّ
يوسف حميد معوّض

توزيع المجلة

الأردن مكتبة منشورات المتوسط، عمّان
العراق دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، بغداد
مصر دار المرايا للإنتاج الثقافي، القاهرة
السودان سودان فيلم فاكتوري، الخرطوم
رتينه بوك كافيه، الخرطوم
مكتبة دار مدارك للنشر، الخرطوم
المغرب مركز محمد سعيد آيت ايدير، الدار البيضاء
تونس سوتوبريس، تونس
بلجيكا Librairie Lagrange Points، بروكسيل
ألمانيا مكتبة خان الجنوب، برلين
لبنان الاوائل لتوزيع الصحف والمطبوعات، بيروت

بيروت:

- مكتبات: مكتبات أنطوان (الأشرفية، الحمرا، فردان، الأسواق، سن الفيل، ABC) ABC Virgin (الأشرفية، الدورة)، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة أنترناشيونال (جفينور)، مكتبة صنوبر بيروت (شارع مونو)، النديم (الظريف)، مكتبة الحلبي (قصقص)
- أكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)

المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين)، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة أنطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية)، فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)

الاشتراكات (بما فيها أجور البريد)

إلى الصديقات والأصدقاء المشتركين،
بسبب ظروف لبنان الاستثنائية المعروفة من حيث انهيار سعر العملة وما نجم عنه من أكلاف باهظة في كل القطاعات، قررت مجلة «بدايات» زيادة أسعار الأعداد والاشتراكات ابتداء من العدد ٣٤ على النحو الآتي:
سعر العدد: لبنان ٥٠ ألف ليرة لبنانية
بدل الاشتراك: لبنان٣٠٠،٠٠٠ ليرة لبنانية
الاشتراكات في سائر العالم ١٥٠ دولارًا أميركيًا.

نظرًا للظروف الاستثنائية المذكورة أعلاه، تتلقى الاشتراكات والتبرعات باسم الأستاذ عماد زكي بواسطة Western Union أو OMT أو أية شركة تحويل أموال تتراسل مع لبنان.
شكرًا لتفهمكم.

Bidayat SARL
صندوق بريد 5748/13
شوران — بيروت — لبنان
للاشتراك: info@bidayatmag.com
رقم هاتف المجلة: 30 66 85 3 (961) +
www.bidayatmag.com — @bidayatmag

الحقوق

ص ١. شبيبة الكشافة يلوّحون بالأعلام في الجزائر العاصمة، ١٩٦٢/٠٦/٣٠. Keystone-France/Gamma-Keystone via Getty Images.
ص ٦. مجزرة صبرا وشاتيلا. من كتاب «لبنان ١٩٨٢ يوميات الغزو الإسرائيلي وثائق وصور»، المركز العربي للمعلومات.
ص ١٢-١٣. Dpa Picture-Alliance.
ص ١٦-١٧. Gustavo Minas/Getty Images.
ص ٢٥. thenationalnews.com.
ص ٢٦- ٢٧. via grandlb.com.
ص ٤٤-٤٥. Ben Curtis/AP.
ص ٥٨ -٥٩. John Calvin Coovert. C/ Library of Congress .
ص ٦٨-٦٩. via HistoryWorks.
ص ٧٤-٧٥. via PublicSource.
ص ٨٨-٨٩. فادي الديراني/Flickr.
ص ٩٧. Tom Pennington/Getty Images.
ص ١٠٧. صورة من كتاب «لبنان ١٩٨٢ يوميات الغزو الإسرائيلي وثائق وصور»، المركز العربي للمعلومات.
ص ١١١. صورة من كتاب «حرب لبنان حصار بيروت حرب الجبل كي لا يعيد التاريخ نفسه»، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٥.
ص ١١٥. مجموعة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، via palarchive.org.
ص ١١٦-١١٧. رسم لنوال عبّود طرابلسي.
ص ١٢٠-١٢١. Keystone-France via Getty Images.
ص ١٢٤-١٢٥. من «معرض العالم من خلال الكاميرا»، فريدريك دونداس تود، ١٨٩٣.
ص ١٣٠-١٣١. من معرض لمحات في العالم مجموعة مختارة من جواهر المدينة البيضاء وميدواي بليزانس، ١٨٩٣.
ص ١٣٤-١٣٥. The Cosmopolitan Vol XV، ١٩٨٣/٠٩.
ص ١٣٩. Henri Cartier-Bresson/Magnum.
ص ١٤٦-١٤٧. via eltibas.wordpress.com.
ص ١٥٠-١٥١. حمد محمد السعيدان، الموسوعة الكويتية المختصرة - الجزء الأول، الكويت: وكالة المطبوعات للنشر، ١٩٨١، ص. ٤٤٧-٤٤٨.
ص ١٥٨-١٦٣. رسومات غسان حلواني.
ص ١٨٦-١٨٧. من تصوير Pierre Lafargue.
ص ١٩١. مجلة المسرح، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٥.
ص ١٩٣. مجموعة مركز التراث الموسيقي اللبناني. صفحة وديع صبرا/facebook.
ص ١٩٦- ١٩٧. الصورة مقدمة من المؤلف.


بدايات
ماركس في القرن الثالث
مئوية الثورة الروسية
البدايات ١٩١٧-١٩٢٧
١٩٦٧-١٩٨٢-٢٠١٧
من الحروب الوطنية إلى الحروب الأهلية
مئوية لبنان
١٩٢٠ ٢٠٢٠
بدايات محطات علاقات
بيروت الألم والأمل
حراك انتفاضة ثورة: توثيق وتقييم
كورونا: الصحة ليست سلعة
لبنان ينتفض
عامية ١٧ تشرين
مجتمع الاستهلاك
MUSLIM CHIC
مجتمع الاستهلاك
فلسطين: هبة المستقبل
WORLD BANK
DAVOS
FREE TRADE
تختتم سنتها العاشرة
سيطرة الطبقة التجارية
حرب أوكرانيا | لينين والسياسة الثورية | نظرية الحزب
تشرين العراق | انتصار تشيلي | سيرة إدوارد سعيد
فرانز فانون | دفاتر خالد خليفة | قاموس النيوليبرالية

